IBRAHIM AL-KONI

سيرة سيرة
AUTOBIOGRAPHY

Twitter: @alqareh
17.5.2017

إبراهيم الكوني

عُدُوسُ السُرَى

رُوحُ أممٍ في نَزيفِ ذاكِرَة

الجزءُ الرّابع

سيرة
AUTOBIOGRAPHY

إبراهيم الكوني

عدوس السرى

روح أمم في نزيف ذاكرة

الجزء الرابع

Twitter: @alqareah

عُدُوسُ السُرَى

رُوحُ أُمٍّ فِي نَزْفِ ذَاكِرَة

Twitter: @alqareah

عدوس السرى (روح أمم في نزيف ذاكرة) (**4**) / سيرة ذاتيّة
إبراهيم الكوني / مؤلف من ليبيا
الطبعة الأولى ، **2016**
حقوق الطبع محفوظة

المؤسّسة العربيّة للدراسات والنشر
المركز الرئيسي :
المصيطبة – شارع ميشال أبي شهلا – متفرع من جسر سليم سلام
مفرق الجامعة اللبنانية الدولية LIU– بناية النجوم – مقابل أبراج بيروت
ص. ب :5460/11 ، الرمز البريدي: 1107-2190 ،
تلفاكس : 00961 1 707891 - 00961 1 707892
بيروت – لبنان

التوزيع في الأردن :
دار الفارس للنشر والتوزيع
عمّان ، ص. ب : 9157 ، هاتف : 5605432 ، هاتفاكس : 5685501
e-mail : info@airpbooks.com
موقع الدار الألكترونيّ: www.airpbooks.com
تصميم الغلاف والإشراف الفنّي : رشاد برس

خطوط الغلاف : زهير أبو شايب / عمّان
الصفّ الضوئي : رشاد برس
التنفيذ الطباعيّ : رشاد برس / بيروت ، لبنان

All rights reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system or transmitted in any form or by any means without prior permission in writing of the publisher.

جميع الحقوق محفوظة . لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أيّ جزء منه ، أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات ، أونقله بأيّ شكل من الأشكال ، دون إذن مسبق من الناشر.
ISBN 978-614-419-654-0(ردمك)

Twitter: @alqareah

عرفتُ من أمّ دفرٍ شيمةً عجباً		دلّتْ على اللؤمِ وهي العنفُ بالخدمِ
ومَنْ يُهنها تصُنهُ عن مكارهها		بعض الصيانة فارفضها بلا ندمِ
وما لنفسي خلاصٌ من نوائبها		ولا لغيري إلاّ الكونُ في العدمِ

المعرّي

Twitter: @alqareah

Twitter: @alqareah

القسم الأوّل

المكتبة

«ودخلتُ إلى الكتابِ؛ فقال لي مولاي: هو تذكرةُ الغائب! أفَغائبٌ أنا حتّى تستذكرني بذكري الكتاب؟»

النّفّري
(موقفُ المجالسة)

Twitter: @alqareah

Twitter: @alqareah

1

في 1991 اكتملت في فضاء الإمبراطورية فصول المخاض الطويل، والموجع والدامي، ليتمخّض الحلم الأبدي (التغيير) الجدير بأن نطلق عليه إسم «الطبيعة الثانية»، ليلد بحكم العادة الأزليّة جنيناً مشوّهاً، لتكون الثقافة الضحيّة الأولى في القائمة المعتمدة بحرف التغيير، فتهيمن الروح التجارية (الموءودة منذ 1917) في واقع العلاقات الإنسانية من جديد، ليشهد جيلنا ميلاد شهادة الوفاة في حقّ الزمن الرومانسي، المجبول بروح الشعر، الذي راهنّا عليه طويلاً، دون أن نتخيّل بالطبع أن رياح الحلم بالتغيير سوف تحمل لنا في أعطافها هوية أخرى ظننّاها غنيمة من نصيب بدايات القرن وهي هويّة «الجيل الضائع». ففي حاضرة الفنون (موسكو) تبلبل كل حال، وزعزع الزلزال كل مجال، سيّما كل ما له صلة بعالم بدأ يغترب عن الحياة اليومية (وهو عالم الروح)، فتشتّت شمل المحافل الثقافيّة، لتخيّم الكآبة على الواقع المميت الخالي لا من روح الشعر وحسب، ولكن من الروح الإنسانية في علاقة الإنسان بأخيه الإنسان أيضاً. وكان على العدوس أمام واقعٍ كهذا، أن ينشر القلوع، ويستجيب لنداء الخروج. فالخيبة ليست في انهيار نظام سياسي، ولكن في فناء ما رآه الأشقياء مثالاً، أي الفحوى التي نصّب النظام نفسه ضماناً لها

وهي تحقيق **العدل الإجتماعي**، أو بعبارة أخرى، **العدل السماوي**، المنصوص عنه في سيرة الفردوس المفقود. فالخروج، في ناموس كل عدوس، هو الحرية. وممارسة هذه الحرية عمل لا يقلّ شأناً عن أداء الواجب. وانهيار الصرح الذي كان للبعض بعبعاً بقدر ما كان للبعض الآخر معبوداً كان في عرف العدوس هبةً ربوبيّة، لأن غياب النظام السياسي إنّما يعني غياب أيديولوجيا خرافيّة راهن عليها البلهاء الذين لا يملكون إلاّ أن يعبدوا الأوهام عندما يعجزهم أن يثقوا في أنفسهم، لأنّهم أتفه من أن يكتشفوا الإله الذي يسكنهم، فيهرعون ليتشبّثوا بتلابيب الحرف الذي يميت، بدل أن يلتفتوا إلى الروح التي تحيي كما تعلّمنا وصيّة القدّيس. ولكن للتغيير طبيعة خبيثة يجهلها من لم يعشها: إنه يسلبنا مزايا الأنظمة الزائلة، فلا يكتفي بأن يترك خلفه المساويء وحدها، ولكنّه يضيف إلى هذه المساويء، مساويء الأنظمة الجديدة التي تخلفه في سدّة الحكم، دون أن يأتي بمحاسنها، لأنّنا غالباً ما نكتشف، بعد فوات الأوان، أن للأنظمة الشمولية التي ننكرها مزايا حقيقية! إنه جنس من عقاب توقعه بنا الغيوب، ربّما بسبب تدخّلنا في شئونها، بلجوئنا للقوّة في تحقيق التغيير. هذا التغيير الذي تراه وقفاً عليها، تحدثه بمشيئتها هي، لا بمشيئتنا نحن. وهو ما يعني أن التغيير الذي نمارسه في واقع الوجود هو فعلياً تدخّل منكر في **شأن غيبي**. ولذلك هو تجديفٌ في حقّ الربوبيّة! ذلك لأننا مخوّلون بتغيير ما بأنفسنا، لا ما بالعالم. وكم من مرّة جرّبنا أن نغيّر ما بالعالم فأخفقنا، في حين لم نجرّب أن نغيّر ما بأنفسنا مرّة إلاّ واكتشفنا كيف يتغيّر تلقائياً ما بالعالم؟

2

الصدمة التي أعقبت الزلزلة برهنت كم هي لغز وجودي تلك الجرثومة النائمة في وجدان إنسان المجتمع الإشتراكي منذ عشرات الأعوام، والتي نسمّيها **الروح النفعيّة**، فإذا بها تستيقظ فجأة، ممّا يقطع بطبيعتها الجينيّة، أكثر من حقيقتها كمحنة أخلاقيّة، كما توهّم البعض؛ كأنّ النفع معبودٌ خفيّ، أو دَيْنٌ استوجب الوفاء بالعهد. وها هي المعايير في قياس العلاقات الدنيوية تنقلب رأساً على عقب بين ليلةٍ وضحاها، ليشتكي الناس طغيان النفع، وليتباكوا على عفوية الأمس القريب. ليس هذا وحسب، ولكن العدوى ما لبثت أن انتقلت إلى كيان الدولة التي لم تخجل في أن تسحب البساط من تحت أقدام المؤسسات الثقافية ذات التقاليد العريقة، فتلغي بجرّة قلم الدعم عن دور نشر ظلّت منارات رائدة في صناعة الكتاب، ثمّ المكتبات العامّة، ثمّ المسارح، إلى آخر القائمة. ذاك كان بمثابة القربان الذي قدّمته روح كاريكاتورية مثل يلتسين ليشيّد بها النواة لحلم النظام البديل: النظام الذي سوّقه على أنّه رأسمالي، برغم أنه كان نظاماً بدائياً لا صلة له بالرأسمالية استمرّ منذ ذلك التاريخ إلى يوم الناس

Twitter: @alqareah

هذا، ناسياً أن الرأسمالية ليست مجرّد عقيدة يكفي أن نعتنقها كي تتحقّق، ولكنّها تاريخٌ طويل، مرير، مرّ بأطوارٍ موجعة، وخاض تجربة عسيرة، قبل أن يستقيم في الترسيمة التي نراه عليها اليوم. وكان من الطبيعي أن يؤدّي هوس هذه الشخصيّة الكاريكاتورية إلى وضع حجر الأساس لنموذج كاريكاتوري لمعبودته الرسملة في واقع حضاري عريق لا يحتمل النزعة التجريبية التي ستظلّ لهذا طفوليّة ومبتذلة حتّى لو جاءت مشفوعة بالنوايا الطيّبة. فالنموذج اليلتسيني للرأسمالية لا يبدأ من الصفر، أي من النقطة التي سحقت فيها ثورة أكتوبر النظام القيصري، ولكنه يبدأ من نقطة ما قبل الصفر، أي من المبتدأ البدئي، هذا إن لم يكن البدائي. وهو ما أهّله لأن يكون موضوعاً جديراً بالسخرية. فالرأسمالية ليست مجرّد نظام إقتصادي عارٍ من القيمة (من القيمة الأخلاقية تحديداً)، ولكنها كأي نشاط إنساني سيرورة محكومة بقوانين، محكومة بالتقليد. وهو ما يعطيها الحقّ في أن تتباهى بالإنتماء إلى سلالة، إلى **أصالة**. ولهذا فإنّ محاولة من سمّوا بـ «الروس الجدد» القفز إلى الذروة رأساً للفوز بالطور الأخير من الحلم لم يكن استخفافاً بقوانين التجربة الرأسمالية وحسب، ولكنه أيضاً عبثٌ أخلاقي أصاب في الإنسان الروسي القيم المكتسبة من التجربة الإشتراكية دون أن يمهّد السبيل لإحلال القيم المأمولة محلّها. وكان من الطبيعي أن تنجب العجلة المرضيّة في تحقيق الرأسمالية تلك النماذج الشاذّة التي أفرزتها تجارب الخصخصة اللامسئولة التي حقّ لنا أن نسمّيها **مسوخاً** عانى منها

Twitter: @alqareah

الإنسان الروسي طويلاً كي يتبرّأ من شرورها، ويعيد الإعتبار لهويّته الثقافية المغتربة بفعل الأيديولوجيا، دون أن تفلح هذه الأيديولوجيا في قطع دابرها من وجدانٍ استجار بالطبيعة طوال التجربة الشمولية كي يحصّن أصالته وكنوزه الروحية من بطش قوى لا تملك إلاّ أن تحترف المغامرة عندما يعجزها أن تكتشف نفسها.

3

تزامنت فوضى القيامة مع انتقام الوقت الضائع. تزامنت أيضاً مع برزخ الحرج ببلوغ سنّ الأربعين حيث يعترض سبيلنا كل شيء ليصرخ فينا بـ «كفى!»، فلا يبقى سوى الفرار من الدوّامة والحلول في الكتاب. إنه الكتاب الذي عانى صنوف الإضطهاد طوال مسيرة باطل الأباطيل. ففي أعوام الطيش كنّا نمنّي أنفسنا بأن نحقّق شيئاً دون أن نفعل شيئاً. كنّا نعيش حياة روحيّة مؤجّلة ظنّاً منّا أننا سوف نحيا إلى الأبد. كنّا نردّد لأنفسنا: «الآن أوان الحياة. أمّا ما ينام في بطون الكتب فسوف ينتظر!». كنّا نقتني الكتب بنهمٍ، بدل أن نقرأ الكتب بنهم! كنّا نقتنيها بوجلٍ دينيّ عَبَّرَ عن يقينٍ خفيّ بأنّ يوماً سوف يأتي تتاح لنا.فيه فرصة قراءتها فنروي الظمأ إلى فحواها. لم نكلّف أنفسنا عناء تحديد أفق لميعادنا معها، لميعادنا المقدّس معها؛ ربّما بسبب القناعة الجنونيّة بأنّنا نحيا خالدين أبداً. وربّما تلبيةً لهاجس مريب ظلّ يلهمنا بحكمة ما نفعل: الحكمة الكينونية المجهولة التي تفترض أسبقية أن نحيا، على أحقيّة أن نعْلَم! إلهام يترجم تفوّق إرادة الحياة على إرادة المعرفة: المعرفة التي نحدس أنها قرين ألم بقدر ما كانت في كل الديانات قرين خطيئة! ففي

Twitter: @alqareah

سنوات التحصيل العلمي هيمنت في دنيانا الروح العدميّة: الإستهتار بالمنهج. الخوض في فوضوية أملاها حرف الحياة الطلابية. الإستسلام للضلال البوهيمي. السباحة حسب مشيئة التيّار السائد، مقابل الإستخفاف بالواجب. الإستغناء عن المتون المرجعية واستبدالها بالنصوص النظرية كوسيط أبله في نقل قيم لا تحتمل الوساطة. الإكتفاء بمعاندة نصوص مجهضة كـ رشوة لشراء تبكيت الضمير. ولكن الإستهانة بالوقت لا تلبث أن تواجهنا بكشف الحساب. لأن الحقيقة التي نتجاهلها لابدّ أن تجرجرنا إلى ساحة القصاص. ولهذا السبب ليس لمن استهتر بأداء الواجب أن يستنكر انتقام الوقت. وما سوف أسمّيه منذ الآن تفرّغاً ليس سوى احتيال على الحقيقة، لأنه في الواقع دفع لمكوس مستحقّة أهدرتها في زمني الضائع!

فنزيف الروح هو الثمن الذي ندفعه مقابل ترويض الأحلام المستحيلة....

4

كل الآيات، في زمن اغتراب الواقع السياسي والإقتصادي والثقافي والأخلاقي، تدفع إلى الخروج دفعاً. في هذه الحزمة وُجد إغترابٌ آخر أوجع في ناموس إنسانٍ إستجار بالطبيعة فراراً من شرور الخلْق. إنه الإغتراب البيئي. ففي تلك المرحلة بلغت الإستهانة بالبيئة الذروة، وهيمن التلوّث على نحوٍ كتم الأنفاس في رئة حاضرة عالمية عظمى مثل موسكو لتصارع هذه الحاضرة أنفاس النزع الأخير لا استعاريّاً وحسب، ولكن حرفياً أيضاً. فالهواء، منذ اليوم، هو ما افتقده العدوس، ليدرك في غياب الهواء معنى أن تزول من الدنيا الدولة؛ لأن من تنفّس أنقى الأهوية، وكانت له الصحراء الكبرى مسقط رأس، وحده يعي حقيقة الأهوية، فلا يصير لأجناس الهواء هاوياً أو عاشقاً أو مريداً، ولكنه يسرح في فراديس الشمال طلباً للنقاوة بمسلك الأبله، لأن معدن الهواء، لأن أصالة الهواء، لا تعود تكتفي بتحديد العلاقة مع هوية الهواء بوصفه هواءً، كما يراه أهل الباطل، ولكنّها تتألّه لترى في هذا اللغز معبوداً!

فقصاص التنكّر لأهوية المَهد لم يتأخّر في حياة العدوس. ففي عام 1972 (أي بعد سنتين فقط من الحلول في وطن الأغراب) قال

Twitter: @alqareah

جهاز التنفّس كلمته. وليس مصادفةً أن يعبّر الحسّ الشفّاف عن حساسيّته (إزاء الواقع الهوائي الجديد) بالحساسية!

حدث هذا في فصل الربيع من ذلك العام. ظننت الأمر نزلة برد عابرة. زكام بفعل تقلّب مزاج هذا الفصل في طبيعة شمالٍ نزعته التطرّف. ولكن نزلة البرد العابرة لم تعبر، ونوبات السعال وضيق التنفّس لم تتراجع، فلم أجد مفرّاً من اللجوء إلى تلك الفئة من سحرة الأزمنة الحديثة (التي نسمّيها في معجمنا أطبّاءً) برغم موقفي المعادي لسلالتهم. فبماذا أفاد الأدعياء؟ لقد ملأوا جعبتي بعقاقيرهم المميتة ليسمّموا بدني بتلك المستحضرات الكيماوية اللعينة زمناً، بلا جدوى! وهو ما تكرّر في العام التالي، وفي مواسم الأعوام التالية، لأكتشف بفضل عون العقلاء، لا الأطباء، بأن الداء ليس سوى حساسية لروحٍ تنفّست أهوية هي مثال في النقاء، ثم وجدتْ نفسها تتنفّس أهوية ملوّثة بعوادم نزيف الأرض الذي نسمّيه نفطاً.

وكان بوسع الطبيعة الغريبة أن تتسامح مع ضيفها فيما لو جعل منها محطّة عبور، لا وطن مقام مستديم؛ وكان على العدوس أن يقرأ الرسالة كما يجب أن تُقرأ: فالدّاء هو انتقام الطبيعة جزاء الخيانة. ثأر الوطن بيد البيئة الأولى. كان ذاك ثمناً باهضاً، لأن الحساسية لم تكن سوى النواة لسيرة داء لابدّ أن يتحوّل مع الأيام إلى ربو: الربو في شريعة الأهوية هو القصاص جزاء استهتار: الإستهتار بحقيقة المكان واستبداله بالمكان، لأن الأمكنة ليست أمكنة، ولكن للأمكنة هويّة الكائن الحيّ!

وها هي سحب التلوّث الحالكة تسرح في فضاء موسكو لتبصم

Twitter: @alqareah

السهول المغمورة بأكفان الثلج الناصع بطبقة سوداء من عوادم تمادت أخيراً بسبب غياب الرقابة والمبالغة في استخدام الوقود الأرذل. فيكفي أن تتراخى القبضة لسببٍ مّا حتّى يكشف الجنس البشري عن سجيّته الأصليّة، فيحتكم إلى الإنحلال ويستمريء الفوضى. وما أسرع أن تسود هذه النزعة في دولة كانت بالأمس فقط دولة وأيّ دولة، كان فيها الإنضباط نموذجاً وأي نموذج!

فانحلال الدول هو انفراط لعقد عهد أعظم شأناً من انفراط العقد الإجتماعي. أعظم شأناً بما لا يقاس، لأنه انفراط لعقد العهد مع الربّ في الواقع. والدليل أن التفسّخ الذي ينتج عن هذه البليّة لا يكتفي بأن يمسّ بعداً قدسياً كالأمان بين الإنسان وأخيه الإنسان، ولكن التنصّل من العهد يصيب عنصراً حيوياً آخر هو الماء، ثمّ لا يلبث الشرّ أن ينال الغذاء، ينال الكيف في الغذاء! ولكن الإنحطاط لا يبلغ دركه الأسفل إلاّ ساعة تمتدّ اليد إلى أكثر عناصر الوجود ميتافيزيقية كما هو الحال مع إفساد الهواء. هنا فقط يهيمن الإنحطاط الأخلاقي. هنا يقول الإنحطاط الأخلاقي كلمته الأخيرة. يقول درسه الأخير، لأن الإستهانة بالهواء هو إهانة موجّهة لجلالة الروح. فالماء إذا كان كيان الجسد، فإن الهواء هو نَفَس الروح. هو روح الروح! ومن عايش تجربة انهيار الإمبراطورية السوفييتية لحظة بلحظة، واستنشق برئتيه غيوم الدخان الفاسد وحده يملك الحقّ الأخلاقي (بل والقانوني) في أن يرثي الضمير البشري في الأزمنة التي يتنكّر فيها للعهد، لأنّ الرباط الذي نسمّيه دولة أفضل من غياب الرباط (الذي هو غياب الدولة)، والقبول بالسلام مهما كان رديئاً أفضل من

الإحتكام إلى السلاح، أفضل من إشعال حرب حتى لو كانت حرباً نراها بمفهومنا العدواني رابحة. ففي الأيام التي كنت فيها أختنق بسبب فساد الأهوية لا أجد مفرّاً من الفرار إلى معقلي القديم على شطآن نهر الفولغا. الفرار إلى قرية «زافيدوفو»، لأن الحلم أمسى الفوز بنفحة هواء. هبة نقية، خفية، لم تعد مجرّد نسيم، ولكن الحلم استنزل في حقّها فحوى أخرى، غيبيّة يقيناً، لتغدو في تلك الأيام ملاذاً وجودياً نفيساً، سيّما بالنسبة لإنسانٍ كان حتى ذلك الوقت قد قطع شوطاً بعيداً في إبطال مفعول الإرادة، ولم يعد يرجو من دنياه شيئاً، ليكتشف أخيراً أن الهواء لقية، والفوز بنَفَسٍ نقيّ هو في الواقع تلك السعادة التي طاردها طويلاً زمن الباطل، وما لم يخطر له على بال أن تتخفّى هذه العنقاء في كنف هذه الأعجوبة التي لا كيان لها في الوجود، ولا حضور لها في مرمى البصر، في حين تأبى إلاّ أن تبرهن أنها هي وحدها الوجود: هي الوجود الحقيقي، المقنع، لا الوجود الآخر، المهدّد دوماً بسيوف العدم. هنا لا تعود نفحة الهواء مجرّد إحساس بحضور في الوجود، ولكنها تصير حضوراً في فردوس. ينقلب الهواء فردوساً كان مفقوداً، لأن الفقد هو ما يجعل من الهواء فردوساً، كما كان الفقد هو ما وهب الفردوس مفهوم الفردوس. فلا وجود للقيمة في المتناول، فكيف بالقيمة إذا كانت ذات هوية ألوهية؟ الفقد مقياس القيمة. مقياس كل قيمة، سيّما الألوهية، ولو لم يكن الأمر كذلك لما كانت الألوهة ذاتها فقداً!

الإنحطاط البيئي، إذاً، إنحطاطٌ أخلاقي!

Twitter: @alqareah

5

في العام ونصف العام الذي سبق الخروج الثاني من أرجوحة المعارف (موسكو) راقني أن أستبدل الحرم الذي اعتدت أن أناجي في محرابه المعبود. فقبل اختلاس التميمة السحرية من صرح برج بابل الأزمنة الحديثة كانت مؤسسة «أوبيديكا» لخدمات الأجانب قد افتتحت متنفّساً آخر جنوب العاصمة في مسافة من الطريق المؤدّي إلى «كالوجا». بهذه الواحة استجرت مرّتين في ذلك الزمن الذي استطاع فيه الصيام أن يبدّد كيان الجسد حتى صدّقت أن الإنسان يستطيع أن يتحوّل روحاً تدبُّ على قدمين دون أن يخسر نفسه! كان ارتياد المطعم في حياتي هو القصاص. وبقدر ما كانت الطعوم قصاصاً، كان الدرب الطويل، المشرف على بحيرة اصطناعية، المحفوف من الجانبين بأجناس الأشجار، هو العزاء.

كنت أتمشّى في هذا الدرب لأختلي بمعبودي الهواء. كان ذاك طقس صلاة صباحيّة، وأخرى مسائية. صلاة لأنها خلوة بالهواء، ولأنها أيضاً حرّية. حرية لا لأنها طلاقٌ في العلاقة مع العالم وحسب، ولكن لأنها حرية من صنفٍ آخر، حرفيّ هذه المرّة. حرية العداء لحاجات الجسد. هذه الحاجات، كما اكتشفت، هي ما

Twitter: @alqareah

يجرجرنا ككباش الفداء إلى ساحة الباطل لنصير عبيداً بين أيدي سفلة هذا العالم! في ذلك الزمان أدركت كم هو جميلٌ أن نموت جوعاً! كم هو يسيرٌ أن يموت الإنسان بعيداً، ووحيداً. فالإضراب عن تلك السموم التي نسمّيها طعوماً هو خروجٌ سهل، وفوق ذلك سعيد. ذلك أن الجسد الذي يستعبدنا ويوهمنا بضرورته يموت في هذه الحال رويداً وعلى مراحل. أي أنه وقتئذٍ ينسلّ من الحياة باليسر الذي تنسلّ به الشعرة من العجين، فينسحب غير آبهٍ، وغير آسف، ليرتمي في أحضان الحرية: حرية نهائية. حرية قطعية لا يأتيها الباطل. حرية اللاحسّ، وحرية اللاعودة!

كنت أكتفي من الوجبة (المدفوعة الأجر مسبقاً) بتناول عصير فاكهة أو شاي أعشاب، ثمّ أرحل. أهرع لملاقاة المعبود في الدرب الممتع، المشيّد منذ العهد القيصري، الملفوف بسيقان أشجار البتولا التي صيّرتها قصائد الشعراء الروس أسطورةً ومثالاً مجسّداً للجمال، فتتنفّس أمّي الطبيعة في وجهي بلسمها الشافي فيبكي القلب دماً، وتسكب العين دمعاً، حسرةً على سنوات الطيش التي غرّبتني عن حرم الأمّ، وعن فردوس سليلها الهواء!

Twitter: @alqareah

6

إغتراب الإمبراطورية السوفييتية تزامن مع نزول نازلة أخرى بحقّ الوطن الأمّ صارت في حياة الأبرياء كابوساً إستمرّ سبعة أعوام من عناءٍ كان بالوسع أن يُحتمل لو لم يكن مستنزلاً بحرف قرارٍ من محفل الأمم. هذا المحفل الذي وُجد ليكون عوناً للشعوب ودرعاً حقيقياً لأنبل قيمة في الوجود وهي الحرية، فإذا به يخذل رسالته الإنسانية ليستصدر القرار القاضي بإيداع شعبٍ بريء خلف قضبان سجنٍ خرافيّ أخذاً له بجريرة نظام سياسيّ كان قد سبق هذا المحفل في إيذاء هذا الشعب الشقيّ، لأنّ السجن الجديد لم يكن سوى إضافة لسجنٍ سابق كان هذا النظام قد إستودع فيه شعبه لا مرّة، ولكن مرّتين ليكون سجن محفل الأمم هو السجن الثالث في حساب العدد! فتحريم مبدأ الإختلاف وسنّ الشرائع التي تنفي وجود الرأي الآخر هو سجن يقيناً وأيّ سجن! فأن نخنق في الإنسان رأياً يعني أن نخنق حضوراً، يعني أن نخنق في الإنسان وجوده!

أمّا استصدار القوانين التي تقيّد حركة تنقّل الإنسان فهو سجنٌ ثانٍ برغم أنّه يبدو أهون حالاً فيما إذا قورن بالسجن الروحي، أو فلنقل سجن الوجود المنصوص عنه في حبس الرأي. وها هو محفل الأمم يعتمد نكبة طائرة «بان أمريكان» ذريعةً لاستنزال القصاص لا بالطرف

Twitter: @alqareah

المشتبه بارتكابه جرم إسقاط هذه المطيّة (وهو النظام السياسي القائم)، ولكن يستنزل القصاص بحقّ ملايين الأبرياء المغلوبين أصلاً على أمرهم في سابقة كانت تاريخية لا في العلاقات بين الأمم وحسب، ولكن في تاريخ القانون الدولي أيضاً. وهو سلاح ظالم مالبث هذه الأنظمة أن استخدمته ضدّ شعبٍ شقيّ آخر إبتلته الأقدار بنظام مماثل وهو العراق. وكان بوسع هذا الجور أن يستمرّ ليصير تقليداً لو لم تهرع سويسرا لنجدة الأمم فتلقّن هذا المحفل درساً أخلاقياً سينال امتنان الأجيال اللاحقة حتماً. ففي الأزمة التي نشبت بين هذا البلد وبين النظام في ليبيا في 2008 إنتصاراً لقوانينها التي تحرّم إساءة معاملة خدم الأكابر على أراضيها، لجأ النظام إلى الإبتزاز باعتقاله لمواطنين سويسريين إثنين بدعوى مخالفتهما المزعومة للوائح الإقامة. فبماذا ردّت سويسرا لتحرير مواطنيها؟ لم تقم السلطات في سويسرا باستنزال العقاب الجماعي ضدّ جموع الشعب الليبي على طريقة محفل الأمم، لأنّ ناموسها الأخلاقي يحرّم هذا الإجراء حتّى لو سمحت به القوانين الوضعية أو الأعراف الدولية. لم تمنع سويسرا مواطني دولة ناصبتها العداء بدون وجه حقّ من الدخول إلى أراضيها عقاباً لهم على جرم لم يرتكبوه، لأن ذلك سيعني إنهماماً بالنتيجة وتجاهلاً للعلّة. كان لهذا البلد شرف تعليق الجرس في رقبة القطّة يوم استهدفت في عقوباتها الطرف المعنيّ (وهو رأس النظام) وعائلته وحاشيته ورجال دولته. وعلّ المدهش في تلك التجربة أن ينحاز المجتمع الدولي (بما في ذلك محفل الأمم والإتحاد الأوروبي) إلى الجاني ليعاقب سويسرا التي كانت في الأزمة ضحيّةً مدلّلاً بذلك على لا أخلاقيّة هذا المجتمع وكفره بالقيم التي

لا يملّ أن يتغنّى بها، ولكنه لا يستحي أن يتخلّى عنها في حال إستشعر المساس بمنافعه الدنيوية. ليس هذا وحسب، ولكن هذا المجتمع الدولي (المتمثّل في محفل الأمم) لم يخجل بعد حين قرّر أن يستعير هذا الموقف السويسري ذاته ليستخدمه في معاقبة الجناة تالياً، ناسياً موقفه المخزي من تجربة سويسرا كضحية!

فالحصار الأممي لم يكن مجرّد قصاص سياسي بحقّ نظام، ولكنه انتهى إلى حملة عدائية شاملة ضدّ شعبٍ أعزل وشقيّ استخدم فيها محفل الأمم كل الأسلحة بدايةً بحرمان الأفراد من حقّ طبيعي ضمنه ميثاق هذه المنظمة نفسها وهو حرية التنقل، ونهايةً بالحرمان من السلع الغذائية المستوردة، وحتى من الدواء أيضاً، بل ومن إمكان العلاج في مستشفيات الدول بالخارج. تلك كانت عملية كتم أنفاس حقيقية كشفت عن مدى حمق العقلية التي تتوهّم أن بوسع صنوف التنكيل بالضحية أن يؤدّي إلى إسقاط النظام الشمولي الذي لم يفلح سادة هذا العالم في إسقاطه من خارج. وهو حمقٌ لعب فيه غياب الجدل دور البطولة. غياب الجدل المترجم في وجود قطبين إثنين كان خلافهما بمثابة الضمان لوجود الحدّ الأدنى للعدالة. هذه العدالة التي كان من الطبيعي أن تغترب بزوال أحد هذين القطبين لتخلو الساحة للقطب الآخر الذي انتحل صوت القطب الزائل ليخلي في الساحة الدولية مشيئة القطب الأقوى دون أن يجرؤ أحد على اتهامه بممارسة الطغيان!

فهل هذا كل شيء في شأن الكابوس الذي أُريد له أن يكون «حصان طروادة» في جوف النظام؟

Twitter: @alqareah

الواقع كشف أن الحصار المفروض على الليبيين بإرادة أمريكا لم يكن سياسياً أو اقتصادياً وحسب، ولكنه كان حصاراً ثقافياً أيضاً. وهو ما لم تجرؤ كاهنة الديمقراطية، وزعيمة الحرية، في العالم أن تصرّح به علناً. ولكن الزمن الذي نافس أمريكا في القوّة، كما هزم أقوى الإمبراطوريات من قبل، برهن على سلطانه هنا أيضاً، لأنّ حجّته أن يميط اللثام عن كل شيء. ففي عام 1993 قامت إحدى المؤسسات الأمركية بترجمة رواية «نزيف الحجر» في نيّة لنشرها بعد الإتفاق معي كمؤلّف، ولكن حماس القائمين على المشروع بدأ يخبو مع هيمنة الحصار لتسكن هذه الرواية أدراج دار النشر ثمانية أعوام كاملة (أي حتى بعد زوال كابوس الحصار) لأفاجأ بصدور الطبعة الأولى عام 2001 بعد أحداث سبتمبر مباشرةً، وثبوت براءة ليبيا من القيام بهذا العمل الإجرامي الفظيع، ممّا دعاني لأن أتساءل عمّا إذا حوَى قرار الحصار بنوداً سرّية إضافية تحثّ على قمع الإبداع الإنساني أيضاً وتربطه بالهويّة العرقية؟

أيعقل أن تلتصق تهمة سياسية كممارسة الإرهاب بالنصّ الأدبي انطلاقاً من هويّة مؤلّف النصّ المنصوص عنها في وثيقة السفر؟

قد يظنّ البعض أنّي أسيء الظنّ بالعقلية الأمريكية، ولكن ما سأورده تالياً يقدّم دليلاً أقوى على الموقف الأمريكي من الإبداع. وهو ما سيعني أن روح «المكارثية» التي سادت في مطلع الخمسينيات مازالت حيّة في وجدان القائمين على أمر الثقافة الأمريكية. هذه الثقافة التي لا تترك مناسبة دون أن تدّعي عداوتها للأدلجة!

ففي عام 1999 أشرف عددٌ من المستعربين الأوروبيين والأمريكيين على مشروع لترجمة شذراتنا عن الطبيعة، المختارة من مختلف المؤلّفات ذات السجية المزمومة، لتصدر في مطلع 2001 بالفرنسية في باريس، وبالألمانية في سويسرا، وكان من المقرّر أن تصدر في أمريكا في الآن نفسه. وهو ما لم يحدث لذرائع غامضة كما أفاد المترجم. ولكن جلالة الزمن أبَى إلاّ أن يميط اللثام عن هذا الغموض أيضاً برغم تأخّره ما يزيد عن الإثنى عشر عاماً كاملة! فما أن اشتعل فتيل الثورة في ليبيا في مطلع 2011 حتى هرعت دار النشر لإصدار الكتاب، ممّا يعني أن لعنة الهوية كانت هي سبب الحجب طوال هذا الأمد!

والواقع أن هذه النزعة في العلاقة مع ليبيا لم تقتصر على أمريكا وحدها، ولكنها ظاهرة لها حضورها في أوروبا أيضاً، بل وفي البلدان العربية. فالحكم على الإنسان الليبي مسبق ونهائي. فمادامت دولته تمارس الإرهاب فليس هذا الإنسان المسكين وحده من يمارس الإرهاب، ولكن رموزه الثقافية أيضاً.

فالإبداع في شريعة هذه العقلية الآثمة يغدو رسالة إرهابية يجب حجبها والعمل بكل السبل على منعها من التداول! تحدث هذه المفارقة في عالم اغترب عن حقيقة الأشياء بسبب الهوس بوسائل الإعلام اللئيمة. وبدل أن يكون النصّ حكماً في شأن أمّة مّا (سيّما في زمن المحنة) نجد توجّهاً يحرص على تغريب هذا الإبداع دون أن **يعرف** فحواه. فلا وقت لأحد في عالمنا كي يقرأ ليقين الكلّ بأن ما يقال في وسائل الإعلام البلهاء يُغْني! وهكذا يتحوّل العداء

المستخفي ضدّ إبداع هذه الأمّة، المغلوبة على أمرها، **مؤامرة حقيقية** تتنوّع فصولها لتبني صَرح مسلّمة رايتها الإدانة وجوهرها الكراهة. إنه واقع التراجيديا عندما يطرح المبدع نفسه قرباناً بوحي من ضميره الحيّ، في سبيل إعلاء شأن وطنٍ مجبولٍ بالإغتراب، لتصير في رقبته هويّة هذا الوطن لعنةً، بل وتهمةً تلاحقه أينما حلّ!

ولكن روح العدم تأبى إلاّ أن تقلب هذه التراجيديا عملاً عبثيّاً ساعة يتنكّر هذا الوطن (متمثّلاً في أبنائه) لمبدعٍ مجلّلٍ بالصليب فيلفّق هؤلاء في حقّه سوء النيّة مكافأةً له على تضحياته!

كم من مرّة نزف قلبي دماً وأنا أقرأ كيف يستخسر مبدعون عرب كبار شخصي في بلدٍ مثل ليبيا! كأنّ هذا الوطن البائس مصاب بداء العقم ليعجز عن أن ينجب مبدعاً جديراً به كبقية الأوطان! ونزفتُ مراراً أيضاً وأنا أقرأ ردود أفعال أعمالي عند ترجمتها إلى اللغات الأجنبية لتكتب عنها أقلام مرجعية في كبريات الصحف العالمية بروح الدهشة، لأن المفاجأة في رأيهم أن تأتي نصوص كهذه من إنسانٍ ينتمي إلى بلدٍ مثل ليبيا! ثمّ نزفتُ أكثر وأكثر طوال هذه السنوات وأنا أقرأ ما تدوّنه أقلام أبناء طينتي ضدّ شخصي (لا نصّي) ممّا يفضح معدنهم هم لأنهم لم يكونوا ليجرؤوا على قول ما يقولون لو قرأوا نصّي، ناسين، أو متناسين أنّي أنا النصّ، ولست يوماً بالشخص، وما فعلته بالنصّ هو مرافعة لتبرئتهم من التهم الشنيعة التي ألحقها النظام السياسي بالوطن، لتكون هذه المتون، التي لم يقرأوها، بمثابة ردّ الإعتبار لهم، ولوطنهم، ولأبنائهم، من بعدهم!

Twitter: @alqareah

7

في تلك الأعوام لم يعد الكتاب في حياة العدوس كتاباً، ولكنه استنزل منزلةً حقّ لنا أن نسمّيها هويّةً!

وهو ما لم يكن ليتحقّق بدون قرابين. والوقت بالطبع يأتي في رأس قائمة هذه القرابين. هذا الوقت الذي يحتلّ حجر الزاوية في نشاط الجنس البشري، ليغدو الأسلوب في استثماره مقياساً لقيمة هذا الإنسان بالمقارنة مع قيمة أخيه الإنسان. والسّخاء في إنفاق الوقت على حضرة الكتاب هو ما لم يخذل يوماً. فالكلّ يحلم في هذه الدنيا باليوم الذي سيجد فيه الوقت لكي يخلو إلى نفسه ليختلي بالمحبوب الذي نصّبه الحلم في حياته معبوداً وهو: الكتاب! ولكن القلّة (بل قلّة القلّة) هي التي تفلح في التنصّل من حطام الدنيا، وترتدّ عن سباق الباطل اللامحدود، لتجد في مرحلة مّا الشجاعة في أن تتخلّى لتركن إلى حرم الكتاب.

وهي تجربة لا تملك الحقّ في تسمية هذه التضحية استثماراً للوقت الضائع في كلّ الأحوال، لأنها صفقة لا تتحقّق مصادفةً أو بالمجّان، ولكنّها تستدعي طقساً أعظم شأناً، لأنها في الواقع ليست سوى جنس من إعادة ولادة، أو بالأصحّ، جنس من بعث! ففي

Twitter: @alqareah

محراب الكتاب تكتمل فصول الزهد بالضرورة، لتطمئن النفس إلى نفسها (وهو ما يعني منذ الآن بلغة الكتاب الإطمئنان إلى ربّها) ليهيمن السلام، ويتفتّح مجهول الروح استعداداً لتلقّي الوصيّة، لهفةً لنيل تلك السعادة التي لا وجود لها خارج الخلوة، خارج الحكمة، خارج الحقيقة التي تسكن بطون الكتاب. ولذلك صارت تجربة التفرّغ للكتاب ممارسة أكثر من زهدية، لأنها في النهاية تستعير هوية دينية بما أنها **تجربة حرّية!**

تأمّلوا معي مشهد إنسان يستجير بدفّتي كتاب! ألا تترجم التمتمة في شفتيه تراتيل صلاة؟ ألا تفضح فيه السيماء تسليماً، بل غياباً، كان قريناً دوماً لقداسة؟ ألا يهاجر فيه بُعْد الإنسان ليحلّ في انهمامه غموض الرؤيا ونبل المجهول؟ ألاَ يلقّننا هذا المرسوم الدرس المبهم المبثوث في هيأة بطلٍ لم يعد في هذا الطقس ينتمي إلى ربوع عالمنا الفاني هذا؟

فسيرة العلاقة مع الكتاب ليست بلا تاريخ في حياة العدوس، لأنها مجبولة بظلال واقع استثنائي من وجهة نظر كتابٍ شرعه الإحتفاء بالأثر، والصحراء عدوّ الأثر؟ الصحراء محو للأثر. الصحراء قطع صارم لدابر الأثر، ربّما لأنها كهويّة ليست شيئاً آخر سوى الأثر. أثر طبيعة إغتربت عن نفسها ولم يبقَ منها سوى الرمز الدّال على أثر. أثر لطبيعة تنكّرت لنفسها وآثرت أن تستجير بالعدم، إستجارت بالحرية، مخلّفةً وراءها ظلاًّ، مخلّفةً وراءها ظلّ الطبيعة الفانية بكلّ حمولتها الحيوانية والنباتية، وبكلّ مؤهّلاتها الوجودية

والثقافية، ليتحوّل الفراغ الناتج عن هذه الدياسبورا ضرباً من إستعارة، يتحوّل **روحاً** لواقع زال من تخوم المكان ليجسّد بهذه المفارقة الأعجوبة التي اعتدنا أن نسمّيها في لغتنا **حرّية**. ولهذا نستطيع أن نفكّ طلسم اللّبْس فنقول أن هذه الصحراء هي **روح مجسّدة** حتّى لا نروّج الخطأ الشائع الذي يراها فراغاً خاوياً من فحوى. هذه الفحوى التي يؤمن كل من عرف الصحراء بحضورها. كل ما هنالك أنها فحوى **محتجبة**. فحوى **غيبيّة** تحديداً، وهو ما يهب الصحراء عمقاً، أو بالأصحّ، **فتنةً**، أسرت كل من ارتادها يوماً! فتنة هي ترجمة شعرية لكتاب الصحراء المغيّب. ترجمة لكتابٍ يبدو صحفاً بيضاء، ولكن صحبان التجلّي وحدهم يفلحون في قراءة الرسالة المدوّنة بالمداد السرّي فيُبعث بعضهم للخليقة أنبياء، في حين تفضّل فئة أخرى السكوت عن لقيتها، والفرار بها عبر الصحراء؛ لأن عدد الأنبياء الذين جهلناهم في مسيرة الجنس البشري يفوق بما لا يقاس عدد الأنبياء الذين علمناهم. فهناك في دنيانا أنبياء البعث، وهناك أنبياء الصمت! والدليل تهديه لنا سير أنبياء البعث الذين حاولوا أيضاً أن يتنصّلوا من هويّة البعث: يفرّ يونس من نينوى فزعاً من نبوّة هي وزر جسيم فيركب البحر، ولكن بطن الحوت كان له فخاً بمشيئة الربّ. وها هو موسى يملي على ربّه شروطاً مقابل قبول النبوّة بأن يجعل له أخاه هارون وزيراً. وها هو النبيّ محمد يفرّ من وجه الملاك جبريل ليستجير بأحضان زوجه خديجة مردّداً: «دثّريني! دثّريني!»، أي: «أخفيني! أخفيني!»، هرباً من رسالة هي

وزر مهول، وصليب محقّق، علاوة على حقيقتها كدَيْن مستوجب ليس على حاملها أن يطمع يوماً في أن يفوز بالحلم الأبدي الذي نسمّيه في معجمنا الدنيوي: **سعادةً!**

لذا فإن جلّ السلالات التي تحيا العزلة في الصحاري هي أطياف مسكونة بنبوّة مّا، وأفضل ما تفعله بهذه النبوّة هو أن تخفيها إذا شاءت ألاّ تخون ناموسها فتفقد بذلك لا سكينتها وحسب، ولكن هويّتها أيضاً!

وعلّ التنكّر للصحراء ما هو في حقيقته الباطنية سوى تنكّر، أو فرار من هذه الطبيعة النبويّة، أو الرسالية. والهرب من رحابها المسكونة بالروح هو هربٌ من المواجهة مع أقسى ما في الوجود وهو الحرية. هذه الحرية التي كانت دائماً القرين الحميم والشرعي لأنفس ما في الوجود وهو الحقيقة. وهو ما يعني أننا بالخروج من الصحراء إنّما نضحّي بهذا الثنائي الجسيم الذي نتركه وراءنا برغم أننا لا نمنّي أنفسنا في الرحلة إلاّ بطلب هذا الثنائي، لأننا نكتشف بعد فوات الأوان أن لا وجود لشيء في العالم باستثناء باطل الأباطيل، فلا نملك لتعزية أنفسنا في اغترابنا إلاّ أن نستجير بحضرة الكتاب، توقاً لوصايا الصحف الأولى التي أضعناها، لأننا لم نجتهد بما يكفي كي نقرأ الرموز المبهمة، المكتوبة بالحبر السرّي، والمخفيّة وراء البياض!

فهل ننصّب كتاب المناهج في السيرة حَكَماً لنرتضيه نموذجاً؟

من الطبيعي ألاّ نعترف بالمنهج المدرسي نقطة انطلاق في العلاقة

Twitter: @alqareah

مع الكتاب، لسببٍ بسيطٍ وهو أن الكتاب المدرسي كتاب ممنهج، كتاب مركون إلى حرف الروتين الميّت، ولا يتطلّع إلى أفق المعرفة الذي يلد الأفق اللا محدود، أفق الحرية الذي يجعلنا نعيد النظر في كل شيء ورثناه عن أسلافنا إلى الحدّ الذي نستطيع فيه أن نعرف أنفسنا لنحقّق في حياتنا ميلاداً ثانياً ننال به وجوداً ثانيا!

والتحدّي في حال إنسان مثل العدوس هو كيفية الحصول على هذا الجنس من الكتب في واقع الصحراء التي لا تعترف في شريعتها بوجود الكتاب المكتوب بحرف السواد، أو بالحبر الحرفي، البديل للحبر السرّي المعتمد في صحفها المخفيّة. ولا أعرف كيف وقع في يدي كتاب هو رواية لـ غراهام غرين بعنوان «قلب الموضوع» في 1961 أثناء زيارة للأب في أوباري إبّان العطلة الدراسيّة الصيفية في وقتٍ كنت مازلت أسير تلك الواحة المنسيّة الواقعة في أقصى جنوب غرب ليبيا المسمّاة بـ «آدري» بعد الخروج الموجع من حرم فردوسي الضائع صحراء «تينغرت».

بعد تلك التجربة أدركتني الحمّى لأبدأ قراءة كل ما يقع في يدي. ولا أدري كيف ولا أين اعترضتني قصص أرسين لوبين لألتهمها أيضاً إلى أن أنتهى بي المطاف في حاضرة واحات الجنوب «سبها» لأرتاد مكتبة «بجاد» لأقتني روايات نجيب محفوظ ودوستويفسكي، وهمنغواي، لتكون هذه اللقى بمثابة النواة التي قادتني إلى عالم الكتاب قبل أن أهتدي إلى مكتبات العاصمة في الشمال لأبرم مع جناب الكتاب عهداً ظلّ يتوطّد مع الأيام، ولكنه لم يدرك المثال إلاّ

في مرحلة التخلّي، حيث غدا هذا الحميم هو الحقّ، وكلّ ما سواه باطيل أباطيل وقبض ريح!

ومن حقّ الكتاب أن أعبّر له اليوم عن امتناني لا لقاء الأنس أو المتعة أو العرفان الذي خصّني به طوال سفري الأليم والطويل في صحراء هذا العالم، ولكن لقاء العافية أيضاً: عافية وحده المسخّر لتحقيقها بسبب هويّتها الروحية، علماً بأنّي سأبخل عليه بما يستحقّ فيما إذا قلت أن العافية الروحية هي هبته الوحيدة، لأنّ عافية الروح ما هي سوى المقدّمة لعافية البدن أيضاً.

Twitter: @alqareah

8

كم يذكّرني الكتاب بحضوره خارج المكتبة، بتلك الشجرة الوحيدة الضائعة في متاهة الصحراء الكبرى المجبولة بفتنة تحسّرتُ كثيراً في ذلك اليوم لأنّي لم أكن شاعراً فأعبّر عن إغترابها بقصيدة! فتنة غامضة، ثريّة، تستعير نصيباً ليس هيّناً من سيماء الواحد الأحد! الكتاب أيضاً، في غياب المكتبة، يبدو وحيداً على نحوٍ موجع، لأنه أيضاً يستعير نصيباً ليس هيّناً من سيماء الواحد الأحد. الكتاب، خارج المكتبة، ناسكٌ تائه أضاع السبيل إلى الصومعة، أو هو القدّيس الذي أنكرته البيعة. فالكتاب، بغياب المكتبة، مهاجر، دون أن يعني هذا أنه فردٌ بمنطق العدد، كما لن يعني التوحّد في عرف الواحد الأحد تفرّعاً من أصل، لأن التفرّع ليس التفرّغ، والنواة علّة وجود الأصل. الكتاب الوحيد طريدٌ حقّاً، وهو لهذا السبب فريد. والفرادة هوية مستعارة فيه من الأحديّة، ولذا هو محاطٌ بالوَجَل يقتنيه حتّى الأمّي الجاهل بفحواه ويحمله في متاعه أينما حلّ، لأننا إذا كنّا أعداء ما نجهل كما يقال، فإننا أيضاً عبّاد ما نجهل. والوجل إذا كان في سيرة الإنسان علامة تقوى، فهو في واقع الكتاب ترجمان قداسة. ثمّ يصير بسبب هذه القداسة تميمةً تجير من الشرور. من هنا كانت الكتب المقدّسة دستور **مسلّمات**، في حين صارت المكتبات خزنة

المعرفة. تربّع الكتاب الوحيد على عرش الروح لينتهي به المطاف، (في حال فاز برصيدٍ كافٍ من وجَلٍ هو في عرف اليوم إعتراف) إلى احتكار السلطة؛ السلطة الدينية تحديداً التي تتحوّل تدريجياً إلى سلطة دنيوية هذا في وقتٍ قنعتْ فيه المكتبة بلعب دور الخازن على **التنوير**: هذا التنوير الذي كثيراً ما انتهى به المطاف إلى التشكيك في حقيقة **المسلّمة**.

وهو موقف لا يقف عند تخوم التشكيك، ولكنه لا يلبث أن يتحوّل تجديفاً في حقّ **التوحيد**: التوحيد بوصفه السليل الشرعي لأحديّة مستنزلة في الحرف: الحرف المستجير بحصانة التقوى والمرتدي لمسوح القداسة، فلا تعود الفحوى حَكَم القيمة، ولكن حضور الحرف في الصحيفة هو السلطان المطلق في تحديد القيمة على نحوٍ ينفي دور الخزنة، ويعتقل الخازن في الأغلال بتهمة التزوير عملاً بوصيّة السادن الذي هاله ثراء المكتبة التاريخية القديمة فصرخ في أعوانه قبل أن يأمر بحرقها: «ما هذا؟ ما الحاجة إلى كلّ هذه الكتب؟ ألا يجيرنا كتابنا الواحد من فتنة كل هذه الكتب؟».

فهل إقتنع العدوس بحجّة وليّ الأمر القديم فاكتفى بالركون إلى حرم الكتاب الجليل الوحيد الذي أراد له الفريسيّون الجدد أن يجبّ لا ما سبق وحسب، ولكن ما لحق أيضاً؟

كلاّ بالطبع! الكتاب الواحد تعويذة حملها في قلبه، ولكنه تشبّث بعروة الخزنة الحرام أيضاً، وفاءً لتلك الطبيعة الغامضة التي دفعت سلفه الأول لأن يشقّ عصا الطاعة على التحريم، فيذهب لالتقام الفاكهة من شجرة السرّ: سرّ الخير، وسرّ الشرّ!

9

ولكن كيف لعدوسٍ دينه العَدْو أن يعقد حلف الصلح بين كتاب تتقاذفه رياح الحرية، وبين مكتبة مشدودة إلى الأرض بألف جذرٍ وألف جدار؟

التجربة الطويلة مع الشقّين كشفت أن كتاب الأحديّة أخفّ وزناً، ولكنه أنفس قيمةً بسبب الحرية بالذّات. ويُسْر الحِمْل، في مسيرة إنسانٍ عابرٍ أبداً، إمتيازٌ كان لابدّ أن يؤدّي إلى تحويل المتن المدسوس في بطن الكتاب إلى وديعة. وديعةٍ مبتسرة إلى حدودها القصوى، وهو ما يجعلها كثافة تختزل صفوة فوق ـ أرضيّة. هذه الكثافة، وهذا الإختزال، وهذه الصفوة، هو ما يهبها تلك القدسيّة التي نسمّيها تعويذةً. تعويذة تجير من الشرور، ولكنها في المقابل لا تعطي معرفةً، أو بعبارة أخرى، لا تلقّن حكمةً. هنا لابدّ أن يواجه العدوس الذي احترف العبور، فصارت له الهجرة قدراً، خياراً أليماً يملي موقفاً سوف تترتّب عنه تبعات ذات طابع وجوديّ: الكتاب، أم المكتبة؟ الفرار، أم الدِّيْر؟ الحريّة، أم التنوير؟ الفطرة، أم الحكمة؟

لا أنسى كيف اعترضتْ سبيلي المكتبة ما أن نزلتُ أرباع أم الواحات (سبها) فوجدت نفسي حبيس المكتبة. ولكن هل استطاعت

Twitter: @alqareah

هذه المكتبة، بكل فتنتها أن تسحرني إلى الحدّ الذي استطاعت فيه أن تكون في حياة العدوس البديل عن الرحيل؟

كلاّ بالطبع. لقد إقتنيت طوال المكوث في ربوع أمّ الواحات مكتبةً لا أنكر أنها كانت في دنيا إغترابي أنيساً نبيلاً، ولكن هيهات أن تفلح في قمع الحنين إلى الإقلاع، والإنطلاق لمواصلة ما انقطع، بالإستجابة لنداء البُعْد المفقود، والخروج في طلب البُعْد المفقود!

لقد طرحتُ حميمتي تلك قرباناً للهوَس بالعبور، للهوس بالحرية المميتة، لأهجر أحضانها باكياً في أحد أيام الخريف من عام 1969 لأنتقل إلى شمالٍ تكون فيه الحاضرة التي تتوسّد شطآن بحر ليبيا محطّتي الجديدة التي ما لبثتْ أن أملَتْ على المُريد الشقيّ شروط المقام في رحابها. أملت شروط الدِّيْر الذي يفترض حضور المكتبة. هنا استحضرتُ مكتبةً أخرى لأحقّق حضوراً في رحم المكتبة. لأحقّق حضوراً في حرم الحكمة. هذه الحكمة التي أمست عطشي وهاجس وجودي طوال الرحلة. ولكن المقام لم يدم طويلاً، لأن الدسيسة المجهولة التي استودعتها الصحراء طبيعةً تسري في الدمّ سرعان ما أعلنت عن نفسها من جديد، ليجد العدوس نفسه وقد نشر القلوع ليعبر هذه المرّة لأبعد أرض. ففي وطن أحفاد السكتيين لم يجد العدوس مفرّاً من الإستجارة بالمكتبة أيضاً طمعاً في اقتناص معشوقته الحكمة.

إستجار بالمكتبات العامّة في البدء، قبل أن يكتشف تالياً غياب الروح من بطون المكتبات العامّة، فارتاد المكتبات التجارية أملاً في

أن يبتني معبده القديم، معبده الحميم الذي صار في سبيله الأبدي بمثابة الواحة لالتقاط الأنفاس.

خاض معركة شرسة ليتسلّح بسيوف الحكمة، وعندما انصاع لمشيئة لسان القوم، واستقامت له العتبة الأولى في سلّم المهمّة التي أتى من أجلها، ألقى بثقله في أعماق اليمّ طلباً لمجاهل مجهولٍ حسبه بفطرته حكمةً، تماماً كما غاص جلجامش في قيعان اليمّ سعياً وراء عشبة ظنّها برهان خلود، وكما ارتاد أوليس اليمّ طلباً لبلوغ وطنٍ رآه حلماً، بل فردوساً، ولم يدرك إلاّ أخيراً أنّه لم يكن فردوساً إلاّ لأنه يابسة. أمّا شيخ همنغواي فعاد من رحلة اليمّ بهيكل السمكة بدل الغنيمة. فاليمّ كان معبود الشعراء منذ الأزل لأنه صحراء الوجود التي تجود بالماء الذي لا يروي من ظمأ، والطريدة فيها هي المعنى في ملحمة الوجود الضائع!

وها هو العدوس يسبح في محيطٍ زاخرٍ بالمكتبات دون أن يدرك الطلب، دون أن يظفر بالطريدة التي لم تكن في حقيقتها مجرّد كتب تخفي في ثناياها حكمةً، ولكنها في الواقع هي **المعنى**. هي معنى وجودنا الضائع. وعلّ من حسن الحظّ ألاّ تكون هذه الغنيمة التراجيدية في متناولنا عند المنطلق. أعني عند منطلق السفر، لأن المهلة تجيرنا من العبث الذي سيقطع الحبل قبل حلول الأجل. وها أنا أكتشف بعد كلّ هذه السنين، وكل الدّم المستنزف بفعل العراك مع الجنون في أمواج اليمّ، أنّني لم أكن مَنْ ظننتُ أنّني كنت. لم أكن في الواقع سوى بطل في رواية لم أكتبها برغم كل محاولاتي الروائية، بطلٌ أخفقتُ حتّى الآن في استنطاق فحواه برغم نزيفي

وكفاحي. بطلٌ لا يختلف عن جلجامش في بحثه عن نبتة الخلود، ولا يختلف عن أوليس في بحثه عن وطنٍ يسكنه متوهّماً أنه وطنٌ يسكن يابسةً، بطلٌ لا يختلف عن العجوز سانتياغو في كفاحه ضدّ عدوان سمك القرش ودفاعه عن طريدته التي لم يكن لها أن تنجو من العدم المبثوث في أنياب القرش.

بطلٌ هو العدوس الذي لم يجد ما يفعله بنفسه في واقع العدمِ هذا إلاّ أن يعدو، ويعدو، ويعدو،. يعدو فراراً من المعنى هذه المرّة، لا طلباً لوجودٍ خالٍ من المعنى. فالعدوس بهويّة العابر إنّما يَنفَض عن نفسه أسئلة الوجع الكبرى كما ينفض ذرّات الغبار وينطلق ليحيا. يحيا برغم أنه يحمل كفنه في أعطافه فلا يبدو راحلاً يرفل في الهالة القدسيّة إلاّ لهذا السبب. أقول يحيا، لأنه الوحيد من يخطو في الحرية. لأن في الحرية حَسْب يفقد السؤال سلطة السؤال، لأن الحضور في الحرية هو في الواقع حضور في الأبدية التي لا تعترف بجدل المعنى واللامعنى، لأن في رحابها فقط يتوقّف عراك الأضداد، وتزول الحدود بين النقائض.

10

في موسكو إعترضتني مفارقة. ففي موسكو الملقّبة بالعاصمة العالمية في إنتاج الكتاب إكتشفت غياب الكتاب. لم يغب من مكتبات حاضنة الكتاب كل كتاب، ولكن غاب من مكتباتها الكتاب الجدير باسم جليلٍ كالكتاب. في سوق الكتاب خيّم شبح الأيديولوجيا الذي يفزع مرآه عادةً كلّ كتابٍ حقيقي، فيفرّ ليترك الساحة لنوعٍ آخر من الكتب الميّتة المكتوبة بنَفَس الشبح الأيديولوجي. والمفارقة الثانية أن يحدث هذا في واقعٍ تعدّ أوساطه الأكثر نهماً في قراءة الكتب على مستوى العالم. قراءة الكتاب الحقيقي بالذّات، لا الكتاب الأيديولوجي. فما تفسير هذه الأحجية؟

فأن نشهد للأمبراطورية السوفييتية بالدولة الأكثر عنايةً بالكتاب، الكتاب الكلاسيكي تحديداً، والأكثر حرصاً على نشره بملايين النسخ، لن يعني يسر الحصول على هذا الكتاب. فكلّ الأعمال الأدبية الكلاسيكيّة تكون محجوزةً مسبقاً من قبل مريدي الكتاب. وهو ما أوجد سوقاً سوداء تباع فيها الكتب بأضعاف سعرها الحقيقي يبلغ مستويات فلكيّة أحيانا. فالسعر يتناسب طردياً مع عدد النسخ الصادرة، كما يتناسب طردياً أيضاً مع الصّيت، أو رصيد الفحوى

المحدّد بمدى كلاسيكيّة القيمة، لينقلب هذا المقياس مؤشّراً يفرض ناموسه في السوق، ليؤكّد حقيقة تعترف للإنسان هناك بالموهبة في اختيار ما يقرأ. موهبة يفتقدها واقع أمم أخرى كثيراً ما تصير ضحيّة وسائل الإعلام التي تأخذ على عاتقها مهمّة تلقين الأمّة ما يجب أن يُقرأ. وأحسب أن هذه الموهبة لابدّ أن تلعب دوراً بطولياً في تكوين شخصية الإنسان لا الثقافية وحسب، ولكن الشخصية الوجودية أيضاً. فالروس في عهدنا وحدهم كانوا لا يقرأون الصحف في قطارات الأنفاق، كما هو الحال في عواصم العالم الأخرى، ولكنّهم يقرأون الكتب. يقرأون الكتب الحقيقيّة، لا كتب التسلية أو الكتب الأتفه فحوى حتّى من الصحف!

فالكتاب الحقيقي، في عرف تلك الأيام صنفان لا صنفٌ واحد: صنفٌ كلاسيكي تقليدي، وصنف كلاسيكي حداثي (إن حقّ لنا إستعمال الصفة الأخيرة التي لم ترُقني يوماً). الطلب على النوع الأخير أعلى بما لا يقاس بالمقارنة مع النوع الأول. وطبيعي أن يكون سعره أضعاف سعر الكتاب الكلاسيكي ذي النزعة التقليدية. سعرٌ يبلغ أحياناً المائة ضعف فما فوق، ممّا يجعل إقتناءه عملاً مضنياً لا يقلّ شأناً عن إقتناء أندر التحف. بل كان هذا النوع بالنسبة لنا أعظم شأناً من أنفس التحف. هذا النوع من الكتب يرتفع في رؤيانا إلى مستوى الكتب المقدّسة لأن الحصول عليه يتغذّى من الحلم. وطبيعي أن نحيطه كلّما وقع في أيدينا بمراسم كتلك التي يعامل بها أهل التقوى المصحف الشريف الذي لا يمسّه إلاّ المطهّرون: المطهّرون لا جسداً وحسب، ولكن روحاً أيضاً.

وهي مراسم إذا كانت طقساً دينيّاً في تصفّح هذا النوع من الكتب، فماذا يمكن أن نسمّي الحلم بالحصول على كتب كهذه سيّما بالنسبة لأناسٍ لا تسمح مواردهم المالية بهذا الترف كما هو الحال مع أمثالنا؟

كانت سوق الكتاب السوداء تقع جنوب موسكو. وكان زميلي «كوردا» الذي يرتادها يحدّثني عن صداماتهم مع رجال الشرطة الذين يهاجمون موقعاً كان يمكن أن يكون في دولة أخرى قدس أقداس، ولكن قوانين الدولة السوفييتية تحرّم مبدأ السوق السوداء بالقدر نفسه الذي تمنع به المتاجرة بالعملة في السوق السوداء. ولم أكن أسمح لنفسي بمخالفة قوانين الأمم التي نزلت ديارها عملاً بالعهد الذي قطعته على نفسي منذ البدء في أن أتصرّف في كل الأوطان كضيف يقضي الواجب أن يحترم أعراف المضيف مهما كانت صارمة، أو ظالمة، أو حتى مثيرة للسخرية. وهو مبدأ ليس لي أن أتباهى به لأنه ليس حرصاً على شأن الأغيار بقدر ما كان تقيّةً من ردود فعل هؤلاء الأغيار. فصيانة الذّات تبدأ من حرصنا على عدم الإساءة لما يراه الآخر صواباً. وليس لمن إبتلته الطبيعة بحساسية مفرطة أن يسلّم زمام الأمر للأهواء لأن ذلك سيعرّضه عاجلاً أو آجلاً إن لم يكن للخطر، فعلى الأقل للمساءلة. فالغرباء مدانون مسبقاً وبلا جرم، فكيف الحال إذا وُجد الجرم؟ هذا المبدأ الذي إعتنقتُه منذ إغترابٍ بدأ منذ نصف قرن لم يحصّنّي من شرور الجنس البشري تماماً، ولكنه أفلح على نحوٍ مّا في إبطال مفعول الكيد إلى الحدّ الأدنى. ولم يكن لي في الوقت نفسه أن أنسى أنّي لم أحلّ في ربوع هذا العالم المدسوس في

Twitter: @alqareah

ناووس الجليد إلاّ لأقتني كتاب الحقيقة، لا كتاب الزور. ولذا قرّرت أن أعقد صفقة مع زميلي «كوردا» أضحّي بموجبها بحطام الدنيا مقابل الفوز بالكنز الحقيقي: **الحكمة!**

ولكن المشكلة أن حطام الدنيا يتحوّل أيضاً كنزاً في حالين: عندما يكون ضماناً لقوت يغني من جوع، أو سلاحاً يحرّر من عبوديّة.

أذكر الآن كيف هرعت لنجدتي الأقدار (التي لم تخذلني يوما) لتجد حلاً للأحجية، وتذلّل لي سبيل الصفقة. ففي تلك المرحلة كانت أكثر الكتب قيمةً هي الكتب المحظورة، أو شبه المحظورة التي تصدر في طبعات معدودة تظلّ حكراً على علماء المعاهد العلمية التابعة لأكاديمية العلوم، وعلى مكتبات سادة الإتحاد.

فالكتب المحظورة هي كتب جيل الأدباء الروس المعادين لثورة أكتوبر، أو الذين صنّفتهم الأجهزة الرقابية الستالينية كأعداء، أمثال الشاعرة آخماتوفا، أو قرينتها ماريا تسفيتايفا، أو مندلشتام، أو سولوغوب، أو بونين، أو الفلاسفة أمثال فلاديمير سولوفيوف، أو برديايف.. إلخ.

هذه الطائفة يمكن أن تحوي بعض أعمال شعراء سوفييت معترف بأشعارهم الوجدانية ومتداولة على نحوٍ محدود، في حين تخضع بعض أعمالهم لحظرٍ صارم كما هو الحال مع «دكتور زيفاغو» لبوريس باسترناك، أو أشعار إيغور سفريانين، وغيرهم. كما تشمل هذه القائمة أيضاً رموز الأدب الأوروبي للقرن العشرين سيّما روّاد

Twitter: @alqareah

الأدب الوجودي مثل سارتر، أو كامو، أوالأدب الصوفي مثل هيرمان هيسيه، أو الكابوسي مثل كافكا، أو العبثي أمثال يونسكو أو بيكيت، أو تيّار الوعي أمثال بروست وجويس... إلخ.

ففي إحدى زياراتي إلى لندن في النصف الأول من السبعينيات زرت حرم الكتاب في متاجر «فويلز» لأوّل مرّة لأكتشف في القسم الروسي وجود طبعات مختلفة باللغة الروسية للأسماء المحظورة سوفييتيّاً منشورة من قبل دور نشر تتولّى رموز المعارضة الروسية التي كانت قد اتخذت باريس حصناً لها منذ عشرينيّات القرن الماضي. قمت باقتناء الأعمال المختارة لأهمّ الأسماء وجلبتها معي إلى تخوم الستار الحديدي برغم علمي المسبق بخطورة الأمر. فاستيراد الكتب المحظورة ممنوعٌ بحرف القانون، ولكن السلطات ترى في عملٍ كهذا خطيئة أهون فتكتفي عادةً بمصادرتها. وقد حالفني الحظّ في جلبها مرّتين دون أن يتّخذ رجال الجمارك إجراءً سلبياً بشأنها برغم تصفّحهم للكتب واطّلاعهم على فحواها. وهي تجربة كشفت لي عن وجود روح مرونة في تنفيذ القوانين، عكس ما تروّج الآلة الدعائية في الغرب. فالكتاب المستهدف بالحظر هو الكتاب المعادي للنظام السوفييتي في الواقع. عداءٌ لا يمكن البرهنة عليه في نصٍّ أدبي حتى لو حمل النصّ إسم مؤلّفٍ مشهورٍ بعداوته للأيديولوجيا السوفييتية. وهو عمل يمكن أن يتمّ في دوائر الخبراء، لا في حظيرة رجل جمارك معنيٍّ بالحرف في بُعْده الصريح، لا في بعد المجاز. ذلك أن رسالة الأجهزة الرقابية السوفييتية هي المحافظة على **النظام** السوفييتي، لا **الأيديولوجية** السوفييتية. فالفرق كان شاسعاً دائماً بين

معاداة الإتحاد السوفييتي كنظام سياسي، وبين معاداة الشيوعية، برغم اعتناق النظام لهذه الأيديولوجيا الشيوعية. روح التسامح هذه أسهمت في التساهل لا مع إجتياز النماذج الأدبية المحظورة أيديولوجياً لحدود الستار الحديدي وحسب، ولكن لهذه الروح يرجع فضل نشر أعمال أسماء غير مرغوبة في نسخ محدودة. وها هو الزميل «كوردا» يقترح المبادلة ما أن وقع بصره على الأعمال الأدبية المستوردة من أوروبا في طبعات أنيقة ومغرية ممّا يجعلها تحفةً فنيّةً نفيسة حتى في صيغتها كمجلّدات فاخرة، فكيف إذا أُضيف إلى هذا قيمتها الأدبية ككتب كلاسيكية، وفوق كل هذا ممنوعة من التداول؟

إعتمد الرجل مقايضة عادلة للطرفين، حسب رأيه، عندما عرض تزويدي بثلاثة كتب من مؤلفات كلاسيكية مقابل كتاب من الطينة الروسية المحظورة. أمّا مؤلّفات أدباء أوروبا من الصنف الطليعي فالرأس مقابل الرأس، وهي الصيغة السائدة في سوق الكتاب بجنوب العاصمة كما أفاد.

بهذه الطريقة أفلحتُ في وضع حجر الزاوية لكيان المكتبة في رحاب الواقع الجديد. ولم يمرّ إلاّ أمد قليل حتّى شهدت موسكو إفتتاح متجر من سلسلة «بريوسكا» (المتخصصة في إستيراد البضائع الأجنبية وبيعها للأجانب مقابل العملة الصعبة التي كانت بالفعل صعبةً في تلك الأيام) خاص هذه المرّة بالكتب الحقيقية، لا الكتب السائدة التي تثقل كاهل الأرفف في المكتبات التجارية.

صار لي هذا المتجر مزاراً شبه يومي زوّدني برصيدٍ لا يقدّر بثمن

أمسى لي زاد الأعوام التالية، حيث غادرتُ موسكو في صيف 1977 لأحتال في تمرير رسول الحكمة هذا إلى داخل وطنٍ كان آنذاك قد إكتمل كقمقم معزول عن العالم بستور يهون إلى جانبها الستار الحديدي السوفييتي، ممّا اضطرّني للإستعانة بتلك المفرزة الحربية التي قادها أخي فنايت لإنتزاع الضيف الذي استودعته روحي من عصابة الأجهزة الأمنيّة المرابطة بالمطار على النحو الذي سردناه في الجزء الثاني من هذا البيان.

11

ولكن ناموس العَدْو ما لبث أن اختلس منّي هذه المكتبة أيضاً، تماماً كما اختلسها منّي في أمّ الواحات، وكما اختلسها في حاضرة الوطن، لأن مَن لا يريد أن يعترف بوجود المكان لا يعترف بوجوده المكان، ومن لا يعترف بوجوده المكان لا يعترف له العالم بوجود.

ولهذا السبب كان المهاجر لغزاً منذ الأزل. ولهذا صار العدوس ضيفاً في شرع المكان، بل هو الطّيف الذي يروقه أحياناً أن يتبدّى تبدّي الأشباح، ولكنه لا يلبث أن يتلاشى تلاشي الأشباح، متنكّراً لناموس الجلد تنكّره لناموس المكان. وما لا وجود له في المكان لا وجود له في الزمان، وما لا وجود له في الزمان بُعْدٌ مفقود بمنطق الوجود. ولذا فالعدوس سيرورة بلا هويّة، سيرة غيبيّة مهما حاول أن يعزّي نفسه بامتلاك هويّة. لأن هذه الهوية في شرع العالم هي ما لا يعوّل عليه لسببٍ بسيط وهو أنها هويّة لا دنيويّة. وحتّى لو حملها العدوس في جيبه ليبرهن على حضوره قيد الوجود على طريقة الكلّ بيد أنها تخذله في أول فرصة، لأنها ممهورة بحبرٍ سرّي لا يلبث أن ينقشع ليجد نفسه سجين القوانين الوضعية بتهمة التزوير. ذلك أن هوية العدوس التي يجب أن يعترف بها لنفسه منذ ارتضى إحتراف

Twitter: @alqareah

العَدْو هي **الهوية السحرية**. فما هي سليقة هذه الهوية الموصوفة بهذا الإسم الغامض؟

إنها هوية الحضور في البرزخ الفاصل بين عالمين: عالمٌ نسمّيه وجوداً، وعالمٌ آخر نسمّيه غيوباً. وطبيعي ألاّ يعترف بُعْد الغيوب بحمل وزر حتّى لو كان حكمةً مدسوسةً في بطونٍ مشدودةٍ بجذورٍ في المكان، وذات أوزانٍ تثقل كاهل المكان. وعلّ أنسب ما يفعله العدوس في وضعٍ كهذا هو أن يستثمر تجربة معلّمه الرهيب ميفستوفلس فيحتال على الأمر إحتيالاً. يحتال في إختلاس روح الكنز. يغتنم روح الكتب وينجو بجلده قبل فوات الأوان. ينتهب اللؤلؤة من جوف القوقعة ويفرّ باللقية إلى البُعْد الوحيد الآمن الواقع في الجانب الآخر من البرزخ. ولكن تلك بطولة تفترض مواهباً سحرية. تفترض إستغلال كنز آخر هو الوقت الذي لم يدرك العدوس حقيقته حتى الآن بسبب إستسلامه لتيّار الدوّامة الخبيثة التي ترى في الحياة مشروعاً مؤجّلاً إلى الأبد، لأنها توهمنا بأننا نحيا إلى الأبد. تأخّر العدوس في ممارسة الطقس القدسي، الطقس السحري، الذي سيسحب بموجبه البساط من تحت أقدام الوزر، ليتنسّم الروح المخفيّة في بطون الأجرام المهيبة، لأنه مازال يمارس الأوهام، مازال في قبضة الـVita activa، ولم يحلّ بعد في حرم الـVita contemplativa المنتظرة. لأن تجربة بولندا المُميتة كانت تقرع الأبواب. إنها المحنة التي ترجمتها شخصية وجودية بامتياز، وفطرية بامتياز أيضاً هي الشقيق «آله الكوني»، في سؤالٍ تبدّى عفوياً، ولكنه تراجيدي بقدر ما هو عفويّ، يوم رآني أتأهّب للسفر لألقي بنفسي

Twitter: @alqareah

في أحضان الـ Vita activa، فأتحسّر على فراق المكتبة التي لم تسمح لي ظروف ذلك الزمن الصعب بحملها معي، فلاحظ الشقيق أحزاني، فرأى أن يعزّيني بالسؤال دون أن يتوقّع أن يزيد السؤال من مأساتي: (مايضيرك أن تهجرها إذا كنت قد قرأتها؟!). بلى! لن يضيرني أن أهجر القوقعة فيما لو نلت فحوى القوقعة. لن يضيرني أن أرمي بالقشرة فيما لو وجدت الوقت الكافي للإستيلاء على روح القمقم. ولكن المصيبة أني لم أفعل لأنّي استسلمت للتيّار، وآمنت بدين الكلّ لا بدين الحقّ. كان سؤال الشقيق بمثابة طعنة نبّهتني إلى حقيقة تجاهلتها برغم تبكيت الضمير. فما قرأته في السؤال هو كلمة الأبدية التي كثيراً ما تتعمّد الأقدار أن تجريها على السنة أناسٍ عابرين، أو غير معنيّين بشأنها، ممّا يهبها روح النبوّة، ومفعول الحُجّة الألوهيّة.

تطلّعت إلى الشقيق في ذلك اليوم بخجل، ولم أُجب. دفنتُ خيبتي في معاندة الكتب التي استودعتها الصناديق تمهيداً لشحنها إلى بيت صديق الغربة القديم محمد التاجوري لأتركها في عهدة حرمه النبيلة تاتيانا ليقيني بأن بيتها هو المكان الوحيد الذي لن يستشعر فيه سدَنَة الحكمة وحشةً أو اغتراباً، لأن هذه المرأة التي عرفتها منذ 1970 عندما اقترن بها هذا الصديق الرائع، كانت أكثر زوجات أصدقائي ثقافةً وعشقاً لحضرة الكتاب. وقد ظننت أنّي أسدي معروفاً لهذه السيّدة الفاضلة في اغترابها عن واقعها الثقافي الموسكوفي الثريّ، لأن الوديعة النفيسة التي سأضعها أمانةً بين يديها هي لقية شرّفتُها بها هي دون غيرها لعلمي باستحالة الحصول على كتاب

بلغتها الروسية في ليبيا أوّلاً، واستحالة حصولها على هذا الجنس من الكتب حتى في موسكو ثانيا. ولكن الحكمة المبثوثة في بطون الكتب لم تغفر لي خيانتي لها فقرّرت أن تثأر منّي على لسان هذه السيّدة التي خذلتْها هذه العضلة لأوّل مرّة عندما قالت نصف مازحة تعليقاً على حضور موكب الحكمة في بيتها: (هل قرّرت أن تجعل بيتنا مخزناً أثناء غيابك؟).

لم أفلح في أن أنسى لهذه السيّدة زلّة لسانها، لأنها أسعدت صديقي وأكبرتُها لهذا السبب. وكي أنصفها يجب أن أضيف فأقول أنها الخطيئة الوحيدة التي اقترفتها في حقّي طوال سنوات. لقد جرحتني تاتيانا دون أن تدري، وكان الواجب يقضي بأن أبحث لها عن مبرّر يهوّن نزيفي. وأوّل ما خطر ببالي هو واقعنا الثقافي البائس المعادي للكتاب. فهل يُعقل أن يؤثّر هذا الواقع في إنسانة كانت بالأمس فقط الأكثر هَوَسَاً بالكتاب من بين كلّ النساء؟ وهل الجهل وباء بحيث يكون مفعول العدوى بهذه السرعة، وهذه الفعالية التي يزيّف فيها روح إنسان مستنير ليعيده إلى عصور الظلمات بمواهب مارد سليمان؟

لقد ظننتُ أنّي إخترت بيتها من بين كل البيوت لأستودعه قلبي، واخترته أيضاً من بين كل البيوت لأبعث فيه الروح، لأن بيتاً بلا كتب هو جسد بلا روح كما يعلّم شيشرون منذ ألفي ومائة عام. وها نحن نعامل محفل الكتب كحوائج تستدعي التخزين، لا ممارسة الصلوات في محرابها الحرام. وها هي سليلة الحضارة، ومريدة

الثقافة، ترى في هذا الرسول متاعاً، وتعامله كضيفٍ ثقيل! أليس هذا برهاناً أخيراً على انحطاط عالمنا واغتراب الروح عن عالمنا؟

لم أرَ في هذا الموقف إهانةً لشخصي، ولكنّي قرأت فيه إهانةً لمولاتنا الحكمة التي إذا كانت بنت بيتها يوما، في رحاب كتاب الأحدية، فهي اليوم بلا بيت. هي اليوم البنت اليتيمة. أين نحن اليوم من ذلك التاريخ السابق على التاريخ الذي كان فيه المريدون يبيعون كل ما يملكون، فيركبوا البحر ليغتربوا في أرض الله طلباً لهذه المعبودة، فلا يستحون أن يتوسّلوا سقراط، أو تلميذه أفلاطون، أو إمام الحكماء السبعة قبلهم صولون، لكي يقبلهم مستمعين في محفل المريدين؟

لقد تذكّرت وصيّة الكتاب المقدّس التي تحذّرنا من رمي جواهرنا في مزابل الخنازير، وآلمني جدّاً أن تتنكّر هذه السيّدة لطبيعتها إلى حدٍّ لم تعد تميّز فيه بين متاع الدنيا وبين رسل الخلاص في العملية التي وصفتها بالتخزين. آلمني أن يكون بيت صديقي التاجوري جسداً بلا روح. هذا الألم هو الذي ألزمني أن أبتلع الإهانة وأقلع عن فكرة إسترداد الوديعة وإيداعها بيت شقيقي الأكبر فنايت. لم أفعل يومها لكي لا أجرح هذا الإنسان النبيل، ولكني لم أتردّد في أن أفعل بعد أول زيارة لي إلى طرابلس في 1979 عند وفاة الأبّ. إستعدت وديعتي لأستنزلها المكان الذي لن تغترب فيه أبداً، علّها تغفر لي!

12

لتحليل الموقفين السالفين (موقف الشقيق وموقف حَرَم الصديق) من جناب الكتاب أرى مناسباً التنبيه إلى نتيجة يستحيل معها التوفيق بينهما. فالقول بوجوب إستيعاب فحوى الكتاب كضمان للتحرّر من وِزر الكتاب، فيما إذا استخدمنا تعبيراً حرفياً، هو نزعة تنمّ عن وعيٍ فطري، بل وتكشف عن حسٍّ صوفيّ، في العلاقة مع الناموس المحشور في بطون الكتب. إنها روح الهَوَس بالحرية في حدودها القصوى التي استعارها الشقيق «آله الكوني» من مدرسة الأب الذي كان يستثقل حتّى الثياب في أسفاره بعد أن إخترع تقنية مكّنته من الإستغناء عن الزاد وعن كل متاع يمكن أن يشكّل عقبة في طريقه الذي بدأ منذ اليوم الذي فكّت الأقدار قيده الغيبيّ لينطلق في مسيرٍ لم يتوقّف إلاّ في اليوم الذي سكن فيه بيته الأبدي، كأنّه كان يخاف إذا توقّف أن يستيقظ فيه العجز عن السَّيْر، فسار، وسار، ليموت في مسيره راحلاً على النحو المبيّن في الجزء الثالث من هذا البيان.

فالمبدأ هو: التخلّص من كلّ ما من شأنه أن يعرقل السباق المقدّس. التخلّص من كل عقبة يمكن أن تعترض الطواف النبيل الذي يشذّب الجسد ويحيله كلّه إلى روح هائمة في فضاء صحراء

Twitter: @alqareah

اللابداية واللانهاية إلى النقطة التي يتوارى فيها المخلوق (الذي تحوّل طيفاً يسرح في الحرية) خلف الأفق ليتماهى مع البُعْد المُغري الذي يتستّر عليه الأفق، لأن في هذا البُعْد فقط يستطيع الإنسان الذي نزل يوماً ضيفاً على هذا العالم أن يسطّر كتابه هو بَعْد أن يكون قد عَبَرَ كل الكتب، وكل الأعباء التي تنتجها المسافات وتجود بها الأبعاد، لأنه منذ الآن هو سلطان بحضوره في البُعْد المفقود، بعد أن تحرّر من حضوره المؤلم في بُعْد الوجود.

فنموذج كهذا هو الخليق بأن يختطف الكتاب إختطافاً ليستوعبه إستيعاباً. يتشرّبه تشرّباً كجرعة البلسم ليسري في دمه سرياناً؛ لأن الكتاب بالفعل تجربة إستسرار. القاريء في السيرة مريد، والكتاب في الصفقة شيخ طريقة. فهما لا يترافقان إن لم يَجُبّ هذا الطرف ذاك الطرف، لا يتحاممان إن لم يحقّقا أقوى صنوف التماهي، وإلاّ صار أحدهما وزراً يثقل كاهل الآخر. وشتّان بين هذه الرؤية الصوفية وبين الرؤية النفعية التي طالعتنا بها حرم الصديق عندما رأت في محفل الكتب جرماً بوزنٍ ثقيل بدل أن ترى في البيت جرماً الكتب فيه روحه بفضل الفحوى التي تحيي مقابل الجرم الذي يميت.

فالكتاب يكفّ عن أن يكون قيمةً، ويعامل كمتاع، أو كجزءٍ مكمّل للأثاث، في تلك البيوت التي تعامل الكتب كزينة، كديكور، لأن الوقت لا يسمح لأهل البيت بقراءة الكتب. في هذا الوضع تغترب حقيقة المكتبة. تموت فيها الرسالة ويغدو الرسول في متونها ضحيّةً. وهي عقليّة لم تكن حكراً على بلداننا العربية، ولكنّي وجدت

قريناً لها حتى في حاضنة الكتاب موسكو حيث تقوم عائلات (سيّما تلك التي تتمتّع بمراكز قيادية في الدولة أو الحزب) على حجز الكتب من دور النشر قبل أن تصدر لتستقرّ على الأرفف أعواماً دون أن يلمسها أحد. في حين تتعامل أُسَر أخرى مع الكتاب كذخيرة يمكن إستثمارها مادّياً عند الحاجة على النحو الذي شهدناه في موسكو عند إنحلال الدولة فأغرق الناس المكتبات بأندر الكتب ليستجيروا بها من غول الجوع.

واليوم عندما أستنطق الذاكرة لأستعيد مواقف تلك الأيام أستطيع أن أقول يقيناً بصواب وصيّة الشقيق لأن فحواها هي الرسالة التي تسكنني أيضاً بما هي مستقطعة من خزانة الأرومة التي قرأتُ شفرتها في مسلك الأب، لتحثّ على الإحتكام إلى تجربة «ديك الجنّ» فأتجرّع حبر المكتبة الجسيمة دفعة واحدة كما تجرّع هذا الثائر رماد محبوبته ممزوجاً بالرّاح كي تسري فيه سريان الأبد. تلك ستكون تجربة دموية لأنها تجربة حرية. وتجربة الحرية دوماً تجربة دموية. لقد أنجدني الشقيق ببرهان مستورد من سيرة الأب، ولكنه نسي أنّ شخصي شقّ عصا الطاعة على ميراث الأب، لأن البحث عن الله في المدى يختلف عن البحث عن الله في الكتب. الكتب التي لا تعترف بالفرار، ولكنّها تعتمد ناموساً معاكساً تماماً وهو **القرار**.

الكتب مدرسة تشترط الحضور في المكان، وسوف يبدو مضحكاً ذلك العدوس الذي يرتحل حاملاً غابة الأشجار على مطايا قافلة! والحل الوحيد في البحث عن حيلة لاستئصال الحكمة التي تسكن

شرائح الأشجار كما يستأصل النحل الرحيق من بتلات الأزهار، لأن هذه الحيلة وحدها تحقّق الحرية. هذا فيما إذا آمنّا حقّاً كما آمن العدوس بقدرة الحكمة على تحقيق الحرية. وهو إيمان سوف يشكّك في صوابه فرسان هجرة سيجادلون قائلين أن الظمأ إلى المعرفة داءٌ مبين أيضاً، والهجرة وحدها بلسم الخلاص لأنها القرين الحميم للحرية المعتمد في ناموس الأجيال، وبالتالي، للموت بسلام.

ويبدو أن خيبة الأمل في معاندة الصحف هو ما دعا بـ فيرجيل أن يأمر بحرق «الإنياذة» لو لم يفتدِها منه الإمبراطور أغسطس، وهي الخيبة ذاتها التي دعت أبو حيّان التوحيدي لحرق كتبه، وهو ما فعله غوغول في الجزء الثاني من ملحمة «النفوس الميّتة».

ليس الخيبة في الأمل هي السبب الوحيد، ولكن **التقيّة** أيضاً، أي المحاولة اليائسة في الدفاع عن النفس ضدّ الجنون. فعقد صداقة مع الكتاب تجربة مميتة، والأخيار يستشعرون خطراً غيبياً عندما يعاملون الكتاب كقوّة معادية، لأنها إذا كانت لقية (أو كنز) فهي في كل الأعراف الأهلية كيانٌ مسكون. والكتاب إذا كان مسكوناً بالحكمة فتلك هي اللعنة الرديفة للخطيئة، فكأنّنا بتشبّثنا بالكتب إنّما نتشبّث بتلابيب العلّة التي كانت السبب في إخراجنا من الفردوس، أملاً في أن تعيدنا إلى رحاب الفردوس!

Twitter: @alqareah

13

ننعت الصداقة مع الكتاب بـ التجربة المميتة، لأنها **علاقة**، والعلاقة حصيلة كل متاع سواء أكان ناطقاً أو صامتاً كما يقول أبو منصور الثعالبي ليبرهن بهذه الحقيقة على هويّته كإمامٍ في **فقه الوجود**، لا مجرّد إمام في فقه اللغة.

فالعابر يستطيع أن يتساهل مع الكتاب في بُعْد الأحديّة، لا لأنه خِفّ يهون وزنه كمتاع وحسب، ولكن لأنه **قيمة دينية** تلعب دور التميمة التي تجير من نوائب الدهر، هذا في حين يبطل المفعول في حال طغى الكتاب وفاضت به السبل ليتحوّل إلى كتب، ليستعير مفهوماً معرفياً في خزنة الحكمة التي هي المكتبة. فهنا لا مفرّ من نشوء العلاقة المفروضة بحرف المتاع. وهو ما أفزع حرم الصديق في تلك التجربة الحرجة التي جرحت عدوساً رأى في كل الكتب روح الكتاب الواحد، فظنّ أنه يزفّ إلى البيت الخاوي من الفحوى روحاً تحيي، لا أعباء أخشاب تثقل كاهل الأرفف. ولو لم يكن الأمر كذلك لما أعاد السيرة حرفياً في العلاقة مع المكتبة ما أن إستقرّ به المقام في وارسو. هناك اكتشفت وجود خمسة مراكز تجارية متخصّصة في بيع الكتاب الروسي الذي عُدمتُ وجوده في موسكو

Twitter: @alqareah

نفسها. وهو أمرٌ يبدو مفارقةً بالنسبة لمن جهل الروح الإمبراطورية في السياسة السوفييتية حيث تقضي الخطط الثقافية باعتماد الكتاب سفيراً فوق العادة لا في المراكز الثقافية عبر العالم وحسب، ولكن باعتماد الكتاب السوفييتي رسولاً روحياً في الأسواق التجارية أيضاً، سيّما في بلدان المنظومة الإشتراكية التي تعتمد اللغة الروسية لغة ثانية في المناهج إلى جانب اللغة الوطنية.

وتتعمّد السلطات إعتماد الكتاب الثقافي في تأدية هذه الرسالة، لا الكتاب الأيديولوجي كما يتوهّم البعض، إيماناً من دهاة السياسة السوفييتية بأهميّة الحضور الثقافي في العالم، وتفوّقه في المفعول على الحضور الدعائي الفجّ المحمول على جناح الأيديولوجيا. وكان من الطبيعي أن تحصل دول المنظومة الحليفة على نصيب الأسد من الحصّة المخصّصة لتوزيع هذه الثروة خارجياً. وهو ما صار بالنسبة لعابر ليل هذا العالم (كما هو الحال مع العدوس) ذخيرة حقيقية بسبب إغترابه على مستوى اللغة أيضاً هذه المرّة إلى جانب إغترابه في بُعْد الوجود. فاللغة الروسية التي كانت قد احتلّت المرتبة الثالثة أو حتى الرابعة في بداية العهد بأوطان الصقالبة بعد اللغة الأمّ، ثمّ العربية، ثم الإنجليزية، فإن الواقع الإغترابي ينصّبها لغة أولى فجأة. أمّا إذا آمنّا بأنّ اللغة الأمّ لا تكون لغة أمومة حقّاً بدون الإستعمال اليومي المستمرّ، فإنّ غياب حملة الهوية الأمّ من واقع التجربة اليومية في حياة العدوس، ثمّ غياب اللغة المكتسبة (العربية) لا من خارطة الواقع وحسب، ولكن من خارطة الكتاب أيضاً، ثمّ شلل

Twitter: @alqareah

اللغة المكتسبة (الإنجليزية) من واقع اللسان، ومن واقع الكتاب أيضاً، فإن من الطبيعي أن تحتلّ الروسية مكان الصدارة في الحضور اللغوي لتلعب اللغة البولندية دوراً ثانوياً، أي على المستوى العملي، لا العلمي.

واليقين أن غياب الكتاب العربي من خارطة العالم طوال هذه السنوات عمّق الفراغ في حياة الإنسان الذي أحبّ هذه اللغة وبدأ يكتشف ثراءها وجمالها من خلال علاقة مازالت آنذاك في طور التكوين، ولكن الإغتراب الطويل عنها مالبث أن نال منها فغدا تِيْه العدوس مركّباً وتراجيديّاً على مستوى اللغات أيضاً إلى جانب الهويّات. من هنا صارت المكتبات، في دنيا العدوس، ملاذاً لقهر الإغتراب سيّما في ذلك الزمن الذي كانت فيه الـ Vita activa عنوان المرحلة، وشبح باطل الأباطيل يهيمن على الواقع الخاوي من المعنى ليدفع المريد إلى التخلّي، والإرتماء في أحضان الـ Vita contemplativa التي لم أتردّد في أن أسمّيها الميلاد الثاني الذي كانت له تجربة بولندا بمثابة المخاض.

Twitter: @alqareah

14

إذا سمحنا لأنفسنا بأن نسمّي الفرار الأبدي إغترابا، فماذا نسمّي أن نفكّر بلغة، ونكتب بلغة، ونقرأ بلغة ثالثة، ونستعمل في الواقع اليومي لغة رابعة، ثمّ نستخدم لغة موازية (هي الخامسة في حساب العدد) أملتها ظروف الأسفار؟ أيكفي أن نسمّي هذا إغتراباً، أم أنه أغترابٌ من جنسٍ خاصّ؟ هيمنت اللغة الأمّ (الليبيّة القديمة) متزامنة مع حزمة اللغات المكتسبة (كالعربية والروسية والبولونية والإنجليزية) في آنٍ واحد أيام دوّامة وارسو، قبل أن تتدخّل الألمانية لتقول كلمتها بعد تلك التجربة بأعوام قليلة، وقبل أن تهرع الإسبانية إلى المحفل منذ سنوات قليلة. فكم وجودٌ على المريد أن يحيا إذا سلّمنا بوحدة الوجود مع اللغة كما علّمنا الأوائل؟

فالهوس بالألسن، كما يبدو، هو في الواقع ظمأٌ إلى الوجود. ظمأٌ إلى الوجود **المريب**. ظمأٌ إلى وجودٍ نحن منه في شكّ. ظمأٌ إلى وجودٍ لم يقنعنا يوماً بوجوده، فلا نملك إلاّ أن نطارده لنتحقّق من حقيقة وجوده. وفي أيّ بُعْدٍ يمكننا أن نناله إن لم ننله في اللغات التي هي برهان حضوره؟ فاللغة الواحدة لا تكفي للبرهنة على وجود الوجود. لا تكفي للبرهنة على وجودنا قيد الوجود، فلا نملك إلاّ أن

Twitter: @alqareah

نستزيد ونحن نتغنّى بأنشودة الشاعر القديم: «ما أدرانا بأن حياتنا هي موتٌ، وما الموت سوى حياة؟». ليس الشاعر وحده من يشكّكنا في حقيقة وجودنا، ولكن النبوّة أيضاً تدلّل أن وجودنا باطل أباطيل وتعدنا بالوجود الفعلي في الموت. ولكن البليّة هي عجزنا في أن نعلم يقيناً في ما يتخفّى وراء الموت لأن أحداً لم يعد من تلك الرحلة إلى هنا ليخبرنا عن حقيقة ما ينتظرنا هناك. لهذا لا يبقى أمامنا في سبيل الفوز بالإمتلاء إلاّ أن نفتّش في خبايا اللغات عن ضالّتنا مادامت اللغات هي البرهان الوحيد على حضورنا في أحضان اللغز الذي نسمّيه وجودا. ولهذا يقال أن العيي الذي لا يُحسن الخطاب إنسانٌ شقيّ لأنه لا يحسن الوجود. وهو ما يعني أننا أثرياء وجوداً بقدر ما نتقن من ألسن. فأن نتعلّم لغة جديدة يعني أن نعيد بعث أنفسنا لنحقّق في اللسان الجديد وجوداً جديدا. إنها تلك التجربة الميتافيزيقية المميتة التي يجرؤ فيها المخلوق الفاني على كسر الروح مستعيراً دور المبدأ الخالد فيعيد صياغة الكينونة على نحوٍ سيبدو في منطقنا التقليدي إعجازاً. والأكثر فتنةً، في ظنّي، هو بطولة أن نتمكّن ولو للحدّ الأدنى من اللغات المنسيّة التي نسمّيها بـ الميّتة، كاليونانية القديمة، أو اللاتينية، أو المصرية الأقدم، أو السومرية، أو اللغة الرائدة التي سمحت لنفسي أن أطلق عليها إسم «أمّ اللغات» كما بيّنت في الأجزاء السبعة الصادرة حتى الآن من «بيان في لغة اللاهوت».

ذاك كان التحدّي الأعظم، لأن هذه اللغات المغيّبة لا تعمل فقط على تفكيك شفرات الألسن المتداولة، ولكنّها تكوّن العمق الروحي

Twitter: @alqareah

لهذه اللغات المهيمنة من خلال الأرومة البكر في تقويم المفهوم في مرحلة دأبت فيها الطفولة البشرية على حفر الدلالة المجرّدة آيةً في صلد الواقع الحسّي.

فاللغات، كالديانات، لا تموت أبداً كما نتوهّم، لأنها تتواصل في شرايين اللغات الجديدة تماماً كما تتستّر الديانات المقموعة في بطون الديانات السائدة. وأعترف أن ظاهرة إغتراب اللغات (ولا أقول موت اللغات) أمرٌ إستهواني بقدر ما حيّرني، وأحسب أنها كارثة حقيقية في حياة جنسنا البشري لا تختلف عن الكوارث الطبيعية الكبرى التي أفنت الأمم وأزالت من خارطة الوجود عوالم أسطورية كـ أطلانطيدا، أو تيرا، أو واو الكبرى، أو قرينتها الصغرى. فزوال اللسان من الوجود هو زوالٌ لحامل اللسان من الوجود. أي أنه الكلمة الأخيرة في الحكم القاضي بالإغتراب سوف يبدو تراجيديّاً بالمقارنة مع الحكم الأوّل القاضي ببلبلة الأمم من خلال تعدّد الألسن كما يرد في أسفار العهد القديم. فأن يتبلبل البشر في الخطاب يعني أن يتبلبلوا في النوايا أيضاً. والنوايا كما تقول الوصية لم تكن حسنة، بل مكيدة في حقّ الألوهة. أي أنها خطيئة إذا قرأناها من وجهة نظر دينية. من هنا تنزّل القصاص المترجم في تشتيت شمل اللغات ليتشتّت بذلك شمل الأمم. وأحسب أن قصاص تشتيت الألسن سوف يهون فيما إذا قورن بالمكيدة التالية المدبّرة في حقّ الذاكرة، والمتمثّلة في إختراع الكتابة.

فإنسان الذاكرة كان هوية روحية. إنسان الذاكرة كان إنسان الطبيعة. إنسان الذاكرة كان إنسان الفردوس. واختراع الكتابة كان

انتهاكاً لحرم الروح، وافتضاضاً وحشيّاً لبكارة الفطرة. ونحن لا نستطيع أن نتخيّل حجم القارعة ما لم نتأمّل هويّة الذاكرة كعنوان لملحمة الوجود. فبغياب الذاكرة يغيب الوجود، ويغيب اللسان أيضاً بغياب الوجود. وها هي قوى الخفاء تختلس من إنسان الذاكرة فردوسه هذا بدعوى حمايته من تنّين النسيان الذي لم يكن ليوجد أصلاً لولا وجود التقنية الملقّبة بإسم الكتابة. فالذاكرة بالسجيّة الأولى كانت سلطاناً لم يعترف بوجود التنّين. والدليل في عبقرية هذا الإنسان الذي حوّل الذاكرة إلى خزنة أجيال تحتفظ بكنوز الملاحم، وإرث الوصايا، وناموس الأعراف، وثروات من الأحاجي والأشعار والأمثال والحكم وسيَر ما مضى ونبوآت ما سوف يأتي، كل ذلك عن ظهر قلب. أقبل دهاة السوء ليسنّوا له بدعةً وقف إنسان الفطرة أمام سحرها مأخوذاً، وَجِلاً، يرتجف هَولاً ليقينه بأنه لن يخطو في هذا الشَرَك دون أن يخون ذاكرته ويلغي بهذا الإثم وجوده! لأن الشِّرْك بالذاكرة ما هو في الواقع سوى التجديف في حقّ الفطرة، في حقّ الألوهة. وكان من الطبيعي أن نجد هذا الإنسان ينظر لمن أوتوا موهبة الكتابة بالفزع ذاته الذي نظر به هذا الإنسان إلى معشر الحدّادين وهم يعاندون المعدن الخبيث. فزعٌ مجبولٌ بإكبار. إكبارٌ من باب **التقيّة**.

فكما صَفَّحَ له كهنة السوء الحديد ليزيّنوا له إستخدامه في القتل، كذلك صَلْدَحَ له كهنة الكتابة ألواح الصّلد كي يختطّ عليها الرمز السحري الذي سيسرق روحه. فدين إنسان الفطرة هو البراءة، ودين

إنسان الكتابة: الكَيْد. ففي عالم المفاهيم فيه مقلوبةٌ لا يجب أن نرى في الإنسان الأمّي (كما يروقنا أن ننعته ظلما) إنساناً سلبيّاً، إنساناً شقيّاً، ولكن إنسان الكتابة هو الشقيّ، لأنه هو اللئيم بوصفه الرأس المدبّر لجريمة إختلاس الروح. يكفي أن نحلّل كلمة «أمّي» التي نعيّر بها إنسان الفطرة كي نعلم كم نحن بحقّه ظلّامون. فالصفة ليست مستعارة من الأمومة وحسب، ولكنها مستوردة من كلمة «أمّ» الدالّة في اللغتين الليبية القديمة وكذلك في المصرية القديمة على: الطبيعة، إلى جانب معناها ك «ماء» في حال قلبنا فيها حروف العلة، باعتبار الماء أيضاً هو الطبيعة الأولى التي لفّقت مبدأ الحياة، إلى جانب دلالتها الثالثة كـ «باب» أو الرابعة كـ «فم»، باعتبار الفم هو باب الجسد، كما الباب في شرع الطبيعة فم سوف يستردُّ في جوفه كل ما لفظ يوماً. والمفارقة أن تستشعر أمّة الأمّيين (أو مَنْ يروقنا أن نسميهم كذلك) الحياء من أنفسهم ما أن يقفوا في حضرة صاحب الحروف. حياءٌ مشفوع بعجز موجع بدل أن يتباهوا بحضورهم في فردوسهم المنيع. وهو وضعٌ خلقه المفهوم المقلوب ليغرّب ملّة الأبرياء عن حقيقتها القدسيّة، فلم يملكوا إلا أن يفرّوا إلى أشرس صحراء علّها تخفيهم عن الأنظار، وتجيرهم من تلك الشرور التي رأوها دوماً تحوم حول محافل أهل الحرف المميت. وكم كان القدّيس ملهَماً عندما قال وصيته الفذة: «الحرف يميت، ولكن الروح وحدها تحيي!». كم كنت أتوجّع في تلك السنوات التي خرجت فيها من فردوس الفطرة لأعاند الحرف فإذا بأشياخ القبيلة يكبرونني لقاء

هذه الخطيئة ليستجيروا بي في تحرير رسائلهم إلى السلطات أو إلى بقيّة زعماء القبائل للتشاور في كل ما له صلة بالشأن العام في تلك الأعوام العصيبة التي أعقبت الإستقلال. كان يسعدني أن أكون لحضراتهم نافعاً، بقدر ما كان يحزنني أن أرى الشقاء في عيونهم، لأن دين الحرية الذي اعتنقوه إرثاً نبيلاً عن أسلافهم لم يمكّنهم من إرتياد ساحة كهنة الكتابة ليؤتوا نصيبهم من علم السرّ. كنت أشفق على هؤلاء الأبطال لأن التجربة برهنت كم هم حكماء، فأحسدهم على غنيمتهم لعلمي الخفيّ بأنّهم في الواقع هم العلماء، وما نحن إلى جانبهم سوى بلهاء، هم العظماء وما نحن إلى جوارهم سوى أشقياء، لأن الفطرة أقوى سلطاناً من المعارف المزعومة، والحرية التي يمارسونها هي البطولة، وهي الحياة، وما الحرف الذي نعانده ونتباهى به سوى الإثم الذي كان العلّة في وجود الموت!

15

مصطلح «الأمّية» إذاً هو تزويرٌ للمفهوم. فعندما يُقال «محو الأميّة» في الثقافات التحريرية فإنّما المقصود هو «محو الذاكرة»، أي قطع العلاقة مع ملكوت الفطرة التي تمثّلها الأمّ. الأمّ كرديف شرعي للطبيعة. والتشبّث بتلابيبها كان دوماً الضمان الوحيد للأصالة، ولليقين، وللإيمان بوجود الربّ. بل الإنتماء لحظيرة الأمّ كان الضمان للبقاء على قيد الحياة كما تبرهن السلالات الأمومية (مثل العبرانيّين أو أهل الصحراء الكبرى) في وقتٍ بادت فيه أمم أخرى خانت العهد فاستجارت بالأبوّة. ولكن المكيدة التاريخية ضدّ إنسان الذاكرة لم تتوقّف عند هذا الحدّ، وها نحن نراها تلجأ للتمويه مرّة أخرى عندما تستخدم كلمة «تحرير» لتزيين فعلتها وتسويق بدعتها الجديدة ضدّ الروح، فتقدّم لنا الدليل القائل بأن الكلمات الحقيقية إنّما تسكن نقائضها عملاً بالوصيّة الطاوية. وهو البند الثاني في المؤامرة الوجودية القرينة في الواقع للطرد من الفردوس المنصوص عنه في الوصايا التوحيدية. فهل الكتابة تحريرٌ حقّاً، أم أنها شَرَكٌ للزجّ في حبوس العبودية؟ الكتابة، من وجهة نظر حرفية، تبدو تحريراً للفكرة من ملكوت المخيّلة. ومن الطريف أن تعتمد

Twitter: @alqareah

الإنجليزية في كلمة draft (مسوّدة) دلالة مرادفة لـ التحرير إذا ترجمنا مدلولها من اللغة البدئية. ولكن هذه خدعة لن تنطلي إلاّ على عقليّة حرفية إن لم نقل سطحيّة. فكلمات كثيرة لم توجد إلاّ لتُخفي نقيضها، تماماً كما لم توجد اللغة لتعبّر عن الأفكار، ولكن لتخفي الأفكار كما عبّر تاليران. فالحقيقة في حال تجسيد الحرف (سواء أكان على صلدٍ، أم على جلدٍ، أم على لوحٍ، أم على قرطاس) هو في الواقع تحريرٌ للنسيان كي يسطو على الذاكرة. وهو ما سينجم عنه إلغاء وجود صاحب الذاكرة. ففي الزمن الذي هيمنت فيه الذاكرة كان الميثاق **كلمة**. الكلمة المنطوقة بعضلة اللسان، المجبولة بأنفاس الإله، لم تكن ككلّ كلمة. ولكنّها كلمة البدء. كلمة الله التي ترد في إنجيل يوحنّا بصيغة المذكّر لهويّتها الإلهيّة بالذّات. هويّتها الموصوفة في أوّل إصحاح بـ«الكلمة الله». ولو لم تكن كذلك لما صارت، أو (صار) تالياً، جسداً يسعى بين الأنام. وهو ما يعني أن الكلمة تستطيع أن تكون جسداً، ولكنّ الجسد (الحرف) لا يستطيع أن يكون كلمةً. ولهذا كان العهد بين إنسانٍ وإنسان وقتئذٍ عهداً ألوهيّاً. ولهذا كان الميثاق المبرم بمراسم الثقة ميثاقاً أخلاقياً نافذ المفعول. ولكن التحرير (الذي هو إيمانٌ بالحرف الذي يميت) حوّل بالتدوين العلاقة إلى **صكّ**. والصكّ هو الشكّ. وجود الشكّ هو ما حوّل ميثاق الحقّ إلى وثيقة مبرمة في صكّ. هنا غاب العهد بسبب غياب اليقين. بسبب غياب الله في الصفقة المبرمة بالحرف بدل اليقين. بهذه الصفقة إغترب وجود صاحب الذاكرة في حين حقّق إنسان الباطل لنفسه

حضوراً لم يكن يوماً مهيّأً له ولا أهلاً له! خسر إنسان البراءة الرهان ببدعة إسمها **العقد**، واستعار إنسان الخبث كلّ صلاحيّاته الوجودية. منذ هذا التاريخ حدثت أبشع عمليّة غشّ في حقّ الحقيقة لتبدأ مسيرة الزور التي تتواصل فصولها إلى يومنا هذا، لأن بموجب تلك الصفقة حدثت كل المناكر بدايةً بانتحال العبيد لهويّات السادة، ومروراً بالإستيلاء على الوصايا القدسيّة ونسبها بهتاناً لمن لم يملك يوماً لا مؤهّلاتها الوجودية ولا إستحقاقاتها الأخلاقيّة، ونهايةً باختلاس الأوطان وما ملكت أيدي أصحاب الأوطان!

16

عن العهد بعضلة اللسان تُروَى الأساطير.

لم يكن عهداً موثّقاً بالحرف المكتوب ذلك العهد الذي ورثناه درساً في الوصيّة اليونانية حيث حكم وليّ الأمر على أحد رعاياه بالموت، ولكن خلاًّ افتداه إلى حين يعود من رحلةٍ إلى مسقط الرأس لقضاء حوائج يفكّ بها الإرتباط مع الدنيا. في طريق العودة إعترضه السَّيل، فلم يدرك النطع حيث انتصب الجلاّد وهو يهمّ بجزّ رأس الخلّ إلاّ في آخر ومضةٍ لترتفع عضلته بالنداء الذائع الصيت الذي صار في ألسنة الأجيال تميمةً في مديح العهد، فما كان من وليّ الأمر إلاّ أن أصدر العفو على الخلّين إجلالاً لسلطان الكلمة عندما تصير فِدْيَةً، عندما تصير جسداً يفتدي روحاً!

في التراث العربي أيضاً نطالع السِّيَر التي تتفوّق فيها سلطة العهد الروحي على سلطة ثقافة الصكوك. وامرؤ القيس لم يبرم صكّاً في العهد مع السموأل عندما استودعه الودائع؛ وبرغم ذلك لم يتردّد السموأل في أن يضحّي بابنه في سبيل إنقاذ الودائع.

في هذا المقام لا نملك إلاّ أن نتساءل: كيف لنا أن نثق بوثائق

Twitter: @alqareah

الصكوك إذا كان الموقف من الصكوك هو ما أبدع في تاريخ الجنس البشري تلك الثورة التي تبوّأت تالياً عرش نبوّة جديدة؟

تلك هي البروتستانتية التي تخفي رسالتها الدينيّة في فحوى إسمها، لأن نبيّها الشجاع أَبَى إلاّ أن يرفض مبدأ الدّنَس المبثوث في تلك الصكوك التي يمكن أن تستقرّ في أقبية الكنائس، أو ترقد في إرشيف الفاتيكان، ولكن هيهات أن تعرف الطريق إلى الله؛ لأن الغفران عهدٌ مترجمٌ في حرف السيرة الأخلاقيّة، وليس له أن ينال إعترافاً ما ظلّ علامةً موسومةً في القرطاس. والدليل؟

الدليل ورثناه مرسوماً في مسلك أسلافنا العظماء. ففي اليوم الذي قرأ فيه الأب تلك الرسالة المهيبة التي خصّت بها العناية الإلهية الأخيار الذين اصطفتهم لنفسها من دون الناس جميعاً وهي الشعور بدنوّ الأجل، انطلق في أرض الله الواسعة التي احتملته عمراً ليطلب منها الصفح، وليرجو الغفران مِن كل مَنْ عرف فيها. لم ينسَ في ذلك الطواف المقدّس أن يحلّ في ديار زعماء القبائل الذين ربطته بهم عهود موثّقة بسلطان الكلم يوماً، تماماً كما طاف الأمكنة التي كانت لدنياه أرجوحةً ليروي الحنين إلى زمنه الضائع، وليؤدّي الواجب بقول كلمة الوداع، بقول كلمته الأخيرة، قبل الحضور في فردوس اللاعودة: فردوس الحرية!

لقد حدّثني الأشقّاء أثناء غيابي في رحاب غربتي الأبدية كيف قطع الأب الصحاري والواحات والمدن ليشيّع كل ما أحبّ قبل أن يشيّع الكُلّ نعشه. رحلة بدأت من إحدى واحات الجنوب لتشمل كل

Twitter: @alqareah

الواحات فلا تتوقّف في الحاضرة النائمة على شطآن بحر ليبيا في الشمال، ولكنها تتواصل لتقتحم مدن جبل نفوسة كلّه ليحلّ في كل مرّة ضيفاً (بل طيفاً، لأن أولئك الذين يحملون الموت في أعطافهم وحدهم جديرون بلقب طيف بدل ضيف) على خلّانٍ قدامَى ليستعيد في رحابهم ذكريات العمر المفقود، وليبثّهم شجونه، لأن مَن يحدّق في عين الأبديّة وحده يتململ بالشجون.

ولكن المسيرة لم تنتهِ في غدامس حيث تخوم الوطن الذي شهد سرّاء الأيام، ونوائب الأعوام، ولكن لحظة الوداع الأخير وحدها تحيل الضرّاء لقيةً نفيسةً، والسرّاء حلماً رومانسياً. وها هو الأب يعود أدراجه ليعبر الصحراء الوطنية منتهزاً فرصة وفاة أحد زعماء الصحراء النوميديّة، فيواصل رحلته بغرض تقديم العزاء قبل أن ينقطع به الحبل في منتصف الطريق كما بيّنّا في الجزء الثالث من هذا البيان.

تكبّد الأب الأسفار برغم عبء الثمانين الذي حمله على منكبيه، ليفي الدَّين الأخير نحو جلالة عهدٍ كان في البدء **كلمة!**

17

الكلمة التي تسكن الحرف تموت؛ ولهذا يقال أن الحرف مميت. أمّا الكلمة التي تسكن الذاكرة فلا تكتفي بأن تحيا، ولكنها أيضاً تُحيي. ولهذا يقال أن الروح تحيي. تحيي لأن الذاكرة وحدها مستودع الروح، بدليل أنها لا تخجل أن تتولّى عنّا مهمّة العمل كسفير لنا فوق العادة لدى الأزمنة الضائعة فتستحضرها لنا لنعيشها من جديد. يحدث هذا بسبب الهويّة. يحدث هذا لأن الذاكرة حرّية. هذا في حين يختلف الأمر مع المكتوب. مع الحرف المجسّد الذي لم يكن لينال اعترافنا أصلاً لولا وجود النسيان. يتلو إنسان الذاكرة صلواته في خلوات البرّية ترتيلاً نسمّيه أحياناً نشيداً أو غناءً مبرهناً بهذا على وجوده الدَّيِّن الذي حرّره من بُعْده الحيواني وأجلّه ليتبوّأ منزلةً حلّت بموجبها فيه روح الله. حدث هذا في وقتٍ سبق الفتنة التي أتت بمريد الحرف ليشيّد أنصاباً بثّها وسواس الأوثان بدعوى الخوف من النسيان، دون أن يدري أنه بهذا التجديف وَطّدَ أركان النسيان، ودقّ آخر مسمار في نعش الذاكرة.

ومن فضل العناية الإلهية على أمثالي أن أمهلتنا حتى أدركنا عهد إنسان الذاكرة قبل أن يلفظ فيه هذا الفردوس الزائل أنفاس النزع

Twitter: @alqareah

الأخير على النحو الذي نراه عليه في عالمنا اليوم. ففي 1987 كنت مازلت أمارس مراسم الحجّ إلى محراب صحرائي الكبرى برفقة أحد أشقّائي عندما مررنا في طريقنا إلى الجنوب بتلك القرية المقطوعة المرميّة في أحضان المدى الألوهي اللانهائيّ التي ليست بواحة، ولا بقرية، ولا بنجع، فلا أدري ما الإسم الأنسب للتعبير عن هويّتها المكتسبة، لأنها في حاضر الزمان لن تكون سوى محطّة، في حين كانت في غابر الأزمان مركزاً تاريخياً منذ ما قبل التاريخ لم يبق منه اليوم سوى الطلول فحسب. ويبدو أن تبلبل الهويّة هو ما جعل أهل القوافل في الماضي يخلعون عليها لقب «القريات» تيمّناً بتعدّد الصفات، أو بالأصحّ، غياب الصفات.

فهي تقع في قلب صحراء الحمادة، فلا تنتمي لا لصحاري الجنوب، ولا لصحاري الشمال، وأقرب نقطة للموقع تبعد مئات الكيلومترات من جهات الدنيا الأربع. ولكن الأوائل الذين مازلنا نجهل سرّهم، كما نجهل وَلعهم بالعزلة، أبَوا إلاّ أن يتّخذوها وطناً منذ ألوف السنين. وهو ما تدلّ عليه آثارهم المتمثّلة في الكهوف المحفورة في صدور المرتفعات التي تطوّق المكان والتي كانت لهم بيوتاً في أزمان ما قبل التاريخ. أمّا الرومان فشيّدوا فوق قمّة هذه المرتفعات كياناً مهيباً مازال قائماً إلى اليوم يبدو كنقطة مراقبة تشرف على السهل الفسيح المستوي إستواءً موجعاً في امتداده الأبدي، كأنّه يأبى إلاّ أن يقيم الدليل على وجود الضياع في صيغته المجسّدة.

المرتفع الجبلي مطوّق من جهة الشمال بفجّ كان يوماً نهراً

Twitter: @alqareah

يجري، ولكنه الآن مجرّد وادٍ جفّت فيه المياه برغم أنه لا يلبث أن يجلب السيول في مواسم الأمطار ليذكّر أهل المكان بماضيه السخيّ. سخاءٌ كان حتماً علّة وجود الأطلال يوماً، وشحّه هو ما تسبّب يقيناً في فناء الأمم الغابرة. وهو حال معدم لم يختلف في الواقع عن الحال الذي وجدنا عليه هذا المكان في أحد أعوام 1982 عند افتتاح الطريق المعبّد المؤدّي إلى الجنوب بدلاً من الطريق القديم الذي يمرّ عبر منطقة الجفرة مخترقاً صحراء الهروج البركانية.

ولكن في رحلة 1987 اختلف قليلاً، لأن بيوتاً قزمية بدأت تتسلّق المرتفع المكابر من جهة الغرب، وعلى جانبي الطريق انتصبت محطّة وقود، وارتفعت أبنية منها بنيان لبيع مستلزمات السيارات، ومبنى آخر لمطعم متواضع، ولكن التواضع لم يحل دون أن يكون جنّة المسافرين في رقعة العدم تلك. على أبواب هذه الجنّة كان في انتظاري رسول الذاكرة في ذلك اليوم المشهود من عام 1987. واليقين أن الموقف لم يكن ليمسّ في شخصي تلك الأوتار التي ألهمتني هذه المعزوفة لو حدث في زمن الـ Vita activa على سبيل المثال، ولكن ما وهب الموقف هذه الحميمية التي تضطرّني أن أتناوله اليوم هو المرحلة التي قطعتها لا في طريق الـ Vita contemplativa وحسب، ولكن في طريق العدم، حيث يهيمن اللامعنى، ويجول باطل الأباطيل. ففي هذا البُعْد تبلغ الحساسية حدودها القصوى ونستبطن الأشياء لا كما تتبدّى، أو كما تُعرض لنا، ولكن كما رآها القدّيس بولس في وصيّته الخالدة التي فتنتني آنذاك والقائلة: «نحن غير

ناظرين إلى الأشياء التي تُرَى، ولكن إلى الأشياء التي لا تُرَى؛ لأن الأشياء التي تُرَى وقتيّة، أمّا الأشياء التي لا ترى فأبديّة». كان ذلك زمن نفي البصر مقابل بعث البصيرة التي كانت حتى ذلك الوقت نائمةً. إنه حلقة أخرى من السلسلة العسيرة الملقّبة في المتون السالفة بـ«الميلاد الثاني». فبعين الميلاد الثاني تلقّيت رسالة ذلك الرجل الذي لا يحضرني اليوم إسمه الأول، ولكن إسم عائلته هو «البكّوش» الذي علمت منه تالياً أنه من قبيلة الزنتان التي نزحت بعض عشائرها إلى فيافي الجوار طلباً للكلأ، في حين استقرّت بعض العوائل في هذه البقعة الناشئة مع أفراد من قبائل أخرى كالقنطرار والمشاشية وغيرهم.

كنت في تلك المرحلة أبحث عن منفى أخلو فيه لنفسي فلا أرى أحداً، ولا يراني أحد، بعد أن فاض بي الكيل وأصابني العالم ومدن العالم بالغثيان، فاستيقظ حلمي الرومانسي القديم بأن أستعيد فردوسي المفقود الذي لم يكن يوماً سوى صحرائي المفقودة. حلمٌ صار لي في تلك المرحلة هاجساً حتّى أني لم أجد حرجاً في أن أوجّه سؤالي لأوّل معترض سبيل (كما هو الحال مع السيّد البكّوش) عن إمكان أن أجد مأوىً للبيع في هذه الأركان لأنّي أنوي المقام. وهو سؤالٌ مثيرٌ للشكوك لا لأنه فقط من غريبٍ موجّهٍ لغريب، ولكن بسبب المرحلة السياسية التي خيّمت على الوطن آنذاك ليبلغ كابوس القمع الذروة فتحصي الأجهزة الأمنية على المواطنين الأنفاس، فكيف بتنقّل الأشخاص؟

Twitter: @alqareah

فمن يصَدّق في واقعٍ كهذا أن يتحلّى بحسن النيّة ذلك الإنسان الذي أقبل من الشمال باحِثاً في هذه البقعة عن سكن إن لم يخفِ نيّة مبيّتة والتي لن تكون في تلك الأيام غير الفرار من بطش النظام؟

لا أنسى اليوم كيف صبر ذلك الإنسان على أسئلتي اللجوجة، وعندما فاض به الكيل لم يجد مفرّاً من أن يترجم شكوكه بصريح العبارة: «أتكون هارباً أيها الرجل؟».

لقد كان الهروب في تلك الفترة يحمل مدلولاً واحداً هو: الهروب السياسي، أي الفرار لقاء إرتكاب جُرم سياسي، لأنه الجرم الوحيد الذي لا يغتفر ليس في حقّ من ارتكب الجرم وحده، ولكن لا يغتفر في حقّ من آوى صاحب الجرم أيضاً. ولا أدري ما الذي قرأه الرجل في سيمائي في تلك المواجهة، ولكن ما لا أنساه هو السرعة التي ألحق بها الرجل عبارته تلك بعبارة أخرى: «إذا جئت هارباً فأنت منذ الآن في برّ الأمان!».

قالها بعفوية إنسان الحرية فزعزعتني العبارة عميقاً جداً، لأنها استدعت في مجاهل نفسي القيم التي ظننت أنّي فقدتها في أهل وطني إلى الأبد. إنه إنسان الذاكرة عندما يتجلّى فتقول البراءة على لسانه الأشعار المنسية. إنه إنسان الطبيعة البكر الذي لا يتردّد في أن يضحّي بنفسه في سبيل أن يجير غريباً كان في كل الثقافات رسولاً قدسياً.

لقد تندّرنا كلّما مررنا بالسيّد البكّوش (الذي اتضح أنه صاحب المطعم تالياً) في رحلاتي مع أشقّائي في أعوامٍ أُخَرْ، ولكن ما بذَرتْهُ

Twitter: @alqareah

هذه الحادثة في نفسي كان قوياً وثريّاً وبعيداً وإلاّ لما صار غنيمة الذاكرة لأنزف تفاصيلها اليوم.. فالواقع أن الرجل لم يخطيء في شأن هويّتي الخفيّة، لا الدنيوية، لأنني كنت هارباً بالفعل. كنت هارباً هروباً يهون إلى جواره الهروب من شبح الأجهزة الأمنية. كنت هارباً من العالم بعد أن خيّب هذا العالم ظنّي. كنت هارباً من نفسي لأن الدنيا التي عوّلتُ عليها خذلتني، وليس لي أن ألوم أحداً إلاّ نفسي! كنت هارباً من ميلادٍ أسأتُ إستخدامه فوأدْتُ أحلامي، وحملتُ فراري في يأسي دون أن أطمع في بعثي. وكلّ ما فعلتْهُ عبقرية الفطرة أن قرأتْ الرسالة المطلسمة التي تتستّر بعيداً في قلبي.

فطوبى لفرسان ذاكرةٍ يُنجدوننا وقت المحنة من بطش الحرف.

ولكن مأساتنا أن الحرف أمسى لنا ملاذاً أخيراً في من اغترابنا عن الذاكرة. فنحن طريدو فردوس ما ظللنا نفتّش عن حكمةٍ هي رهينة حرفٍ مدسوسٍ في جوف كتاب. كتاب بصفة المتاع. والمتاع وزرٌ بهويّة العلاقة. والعلاقة شئنا أم أبينا هي في العرف قنانة!

Twitter: @alqareah

18

التحصيل البديل (المكتبي) إستمرّ طوال مرحلة بولندا، ليتواصل في مرحلة موسكو الثانية، أي منذ بداية 1987 حتى بداية 1993 مستعيناً هذه المرّة بالإنقلاب الزلزالي الذي ضرب أركان الإمبراطورية، لأن التغيير هو دوماً ذلك الإثم الذي نقترفه في حقّ الواقع، فلا نلبث أن ندفع ثمنه غالياً. وها هو العوَز يدفع الناس إلى التخلّي عن مكتباتهم ليدفعوا بها إلى الأسواق بأبخس الأثمان كي يجيروا أنفسهم من الشبح الذي لم يخطر لهم يوماً على بال وهو: الجوع!

فالسرّ ليس في الموقف من التغيير، ولكن في الموقف من طُرق التغيير. فما قام يوماً بنزيف الروح الطويل مجبولاً بنزيف الزمن الطويل، لن يحتمل لا العجالة، ولا الصَّبْيَنَة، عند نزع الفتيل.

ولا أحد يشكّ في حسن نوايا إنسان مثل غورباتشوف يوم أطلق العنان لجواد الـ«بريسترويكا»، ولكن العجالة التي اعتمدها سرعان ما تحوّلتْ إلى كعب أخيلوس في سيرورة الإصلاح. فالرغبة المحمومة في التخلّص الفوري من نظام إشتراكي أضحى في حياة الناس كابوساً أفقد أولي الأمر الصواب، فاقترفوا الخطيئة تلو الخطيئة في زمن

Twitter: @alqareah

قياسي، وفي واقعٍ إمبراطوري ثريّ بالأمم والثروات يهيمن على نصف الكرة الأرضية تقريباً. وإلاّ ماذا نسمّي شطب عشرة آلاف قائد عسكري من الجيش بجرّة قلم، أو تسريح مليون جندي في ليلة لتتويج مسيرة السِّلْم العالمي؟!

فما انتظره الناس في ذلك الزمن العصيب هو إطلاق أيديهم ليتولّوا بأنفسهم أمر أنفسهم. أي إستصدار القوانين التي تُطيح باحتكار الدولة لنُظُم النشاط الإقتصادي، وتحرير البنية التحتية من ناموس الإستعباد. ولكن حمّى الرغبة في التنصّل من الكابوس أبَتْ إلاّ أن تستسلم لروح الصّبْيَنَة فتقفز رأساً إلى القمّة مرتكبةً بذلك مخالفة صريحة لا تغتفر في حقّ ناموس الكهانة الذي كان دوماً شعرة شمشون في سيرة الأنظمة الشموليّة، دون أن تدري أنها إنّما تضحّي بالصورة مقابل عدم المساس بالأصل. أغرقت الدنيا بالقرارات القاضية بإصلاح البنية الفوقية (التي كانت دوماً مجرّد إنعكاس للبنية التحتيّة كما يملي حرف الأيديولوجيا المعتمدة) في حين تجاهلت بيت الدَّاء النائم في قيعان الواقع الإقتصادي المسلسل بالأغلال، فجاء كلّ شيء مفتعلاً ومزيّفاً. فقدت الإمبراطوريّة الرأس، ولكنها ظلّت مشلولة الجسد المصفّد بالأغلال الخرافيّة. ليس هذا وحسب، ولكن المهزلة مالبثت أن بلغت الذروة على يدي خليفة غورباتشوف (يلتسين) الذي ظنّ أنه يُصلح ما أفسده سلفه عندما قرّر أن يدفن الإشتراكية بجرّة قلم أيضاً فقدّم لأعوانه مصانع الدولة التي تقدّر بتريليونات الروبلات بمقابل رمزي لتصير تلك العصابة تالياً أغنى أغنياء العالم بدون مؤهّلات علميّة أو كفاءات فعليّة أو مزايا أخلاقيّة!

إنها تلك التجربة الطائشة التي لم يقل فيها التاريخ كلمته بعد، والتي تجنّبها كهنة الصين تالياً بوحيٍ من الحكمة الطاوية المعادية لروح المغامرة لتدلّل بذلك على الفرق بين العقليّتين الشرقيّة والغربيّة.

ففي واقع الطيش هذا لن يُستهجن أن يبيع الحكيم كتبه، وأن تتاجر المرأة بجسدها، وأن يعمل جنرال الجيش حارساً ليليّاً في مؤسسة أجنبيّة، وأن يعمل عالم الفيزياء النوويّة سائقاً لسيّارة أجرة، بل ولن نستهجن أن تخطّط فئة مغامِرة للإستحواذ على قنبلة ذرّية لبيعها في السوق السوداء!

19

ما دمنا بصدد تثبيت أقدام مكتبة العدوس، وليس سيرة العدوس، فواجبنا أن نشير إلى مسير هذا المتاع في الرحلة التي قطعها من وارسو حتى موسكو.. متاعٌ لابدّ أن يستقيم في قافلة حقيقيّة كي يكتسب هويّة المتاع. والمتاع كما نعلم هو العقبة الأسوأ في سبيل أي مخلوق قرّر أن يحترف الرحيل منتحلاً سجيّة العدوس. فتخيّلوا معي عدوساً يخرق الأرض عَدْوَاً، حاملاً في عَدْوِه قافلةً حقيقيّة! أعني أن العدوس لا يسير في ركاب قافلة، ولكنّه، في حال المكتبة، يمتلك قافلةً! قافلة محمّلة بمتاعٍ هو المكتبة. مكتبةٌ لابدّ أن تتحوّل حِمْلاً ثقيلاً، مثلها مثل أي متاع، فيما إذا استعارت هويّة مميتة كالملكيّة. وهي لابدّ أن تتحوّل ملكيّةً إذا أخفق صاحبها في أن يبتلعها دفعةً واحدة كما يُبتلع العُقار طلباً للترياق! وهو ما لا يجيزه ناموس الحكمة الرابضة في بطن المكتبة. هذا المأزق يطرح أمام مريد الحكمة خياراً صعباً: الملكيّة، أم الحريّة؟

فالمكتبة لم تُخلَق لكي ترتحل، ومريد الحكمة (العدوس) لم يُخلَق لكي يُرتهَن. لم يُخلَق كي يرتكن. ولا خلاص من المأزق إلاّ بوجود صيغة يتنازل بموجبها المريد عن جزءٍ من حريّته لينال

Twitter: @alqareah

بالمقابل نصيباً من عطايا المتاع المخبّأ في جوف المكتبة. إنه نوعٌ من الصفقة المبرمة بحرف «العقد الإجتماعي». وهي صفقة لم تكن لتتم بدون صراع. صراعٌ تزامن، في مرحلة موسكو الثانية، مع صراعٍ من جنسٍ آخر. صراعٌ مع المرض. صراعٌ مع أمراض لا مع مرضٍ واحد. مرضُ الجسد، ومرضُ الروح، ومرضُ فقدان اللغة مع الجنس البشري ممّا خلّف قرَفاً لا من الدنيا وحسب، ولكن قرفاً من البقاء قيد الوجود أيضاً. ولهذا السبب إخترت أن أحيا وحيداً، في أبعد ركنٍ في العالم، لأعاند أمراضي وأنتظر الموت بسلام. ويجب أن أعترف الآن بأن حضور المكتبة في جواري كان العزاء الوحيد في مرحلة إنتظار الموت آنذاك. المرحلة التي بلغ فيها التنكيل بالجسد الذروة فكنتُ سعيداً عندما أقف أمام المرآة لأرى كيف قطع هذا الجسد شوطاً جديداً في مسيرة الفناء. كنت أخاطب شبح الجسد في المرآة قائلاً: «قريباً سوف تختفي! قريباً ستهنأ بالاً عندما تختفي!». كان يروقني أن أرى نفسي وقد تحوّلتُ خيالاً. كان ذلك يعيد لي الثقة في نفسي لأنني امتلكت الشجاعة فاستطعتُ أن أتنصّل من الجسد. كنتُ سعيداً لأنّي استطعتُ أن أتعايش مع البعبع الذي يخافه الكلّ. أتعايش مع الموت. كنتُ سعيداً لأنّي وجدتُ لغةً مشتركة مع الموت في كلّ خطوة تقرّبني من الموت. كان ذاك ضربٌ من ردّ اعتبار أمام إرادة ضلّلتني فلم أجد سبيلاً لإصلاح الأمر سوى كسر شوكة الإرادة. أدركت كم هو لذيذٌ ألاّ نريد، لأن غياب الإرادة في

Twitter: @alqareah

الواقع إستحضارٌ لكلّ شيء. فألاّ نريد يعني أن نملك كلّ شيء. نملك كل شيء لأنّنا لا نعود بحاجة لامتلاك أيّ شيء!

ولكنّي لاحظتُ في تلك التجربة وجود شيئين لا غنى لي عنهما حتى في لحظات الإحتضار تلك: الحكمة، ثم الطبيعة. لم أسائل نفسي عن عدم جدوى الحكمة بحضور الموت، كما لم أسائلها بشأن الطبيعة إذا كان الموت هو عودة قطعيّة إلى أحضان الطبيعة. ولكن التّوْق إلى هاتين الجنيّتين كان ظمأً غيبيّاً عميقاً ومجهولاً.

بلى! في تلك الأيام التي أضربت فيها عن الطعام كانت المكتبة هي طعامي، أمّا الطبيعة فكانت في زمن النزع الأخير ملاذي!

وما لم يخطر لي على بال آنذاك هو أن كل ما حدث لم يكن سوى إستجابة من جلالة القدر لأحلامي الجنونيّة. فالتجربة هي أمنيتي الخفيّة التي انطلقت بها يوماً من أم الواحات (سبها) نحو الشمال. وأذكر أنّي نشرت نصّاً قصصيّاً في جريدة «الثورة» عالجت فيه أمر التجربة، وأحسب أن عنوانه كان «الغريب». ولكن ما خذلني هو الظنّ الساذج بوجود تجربة حقيقيّة بدون ثمن. وجود تجربة حقيقية بدون ألم. ويجب أن أكون سعيداً الآن إذْ أجد نفسي مسجّى على فراش الموت الذي لم يكن في الواقع سوى فراش التجربة. فالقدر كان رحيماً بي لأنه لم يفعل إلاّ أن حقّق لي أمنيتي. وكان بي رحيماً مرّتين لا مرّة واحدة، لأنه لم ينتشلني من هاويتي إلاّ بعد أن أمهلني كي أحدّق في حدقة الأبديّة جيّداً!

هذا يعني أننا يجب أن نحترس في دغدغة أحلامنا ونتذكّر جيّداً

Twitter: @alqareah

أن الحلم ما هو سوى واقع ينتظرنا في زمنٍ مّا في مكانٍ مّا فلا نلوم سوى أنفسنا عندما يختلنا لنكتشف أنه تحقّق! وبرغم ذلك فإن قسوة التجربة تبقى المقياس الوحيد الذي يحدّد **القيمة** فيها!

ومن دواعي سروري أن تجربتي في مواجهة الموت حدّدت حضوري في العالم الآخر بنسبة لا تقلّ عن تسعين بالمائة! ذلك لأنني لا أملك ما يمكن أن أبرهن به على حضوري في دنيا الأنام هذه سوى العلاقة بالغابة، وبتلك الأكداس من القراطيس المستأصلة من أشجار الغابة!

20

في العودة الثانية إلى موسكو تكامل محفل الحكمة واستقام كيان المكتبة كما لم يحدث في كلّ المحطّات السالفة. ذلك أن اقتناء الكتب يشترط التفرّغ، تماماً كما تحتاج قراءة الكتب إلى تفرّغ. فما لا نهبه أنفسنا وأنفاسنا ووقتنا هيهات أن يستقيم لنا. فاقتناء الكتب كان في حياتي أيضاً طقساً حميماً. فاليوم المخصّص لارتياد حرم المكتبات التجارية هو بمثابة عيد أكافيء به نفسي كلّما اشتدّت وطأة العزلة، أو تمادى جنون الكآبة، أو تذبذب مزاج العلّة الجسديّة، فأسمح لنفسي بحريّة صغيرة. فالخروج من صومعة «أوبروتشيف» القائمة في نهاية شارع لينين، هو يوم سعود حتّى لو لم ينتهِ به المطاف في حرم المكتبات في شارع كالينين، أو غوركي، أو أربات. إنه خروجٌ من الصحراء التي صنعتها لنفسي لأحتمي بها من باطل الأباطيل الذي لم أكن لأناصبه العداء لو لم أعشه في زمني الماضي سيّما عندما تشبّث بتلابيبي وكشف لي عن وجهه الحقيقي القبيح في تجربة بولندا. فالخروج من القوقعة ضروري أحياناً لا تنكّراً لعدمٍ صار لي فردوساً، ولكن لمشاهدة البهتان عن بُعْد كحافز لتجديد العهد. سفرٌ أقطع فيه المسافة الأولى مشياً قبل أن أدرك محطّة

Twitter: @alqareah

الحافلات. في السبيل إلى هناك أتعمّد تجاهل المارّة، وأجاهد في تصيّد رموز الطبيعة: الطير، الأشجار، الحشائش، لأروي الظمأ إلى عالمٍ كان في حياة الباطل مفقوداً، فأسقي الروح الإكسير الوحيد الشافي.

في الحافلة أترصّد الأبنية باحثاً فيها عن جمال المعمار فأتحسّر لغياب الروح في العمران الأحدث عهداً، في حين تستيقظ معبودة الفنّ لتطبع الأبنية ببصمتها السحريّة كلّما اقتربت الحافلة من أحياء موسكو القديمة التي تعلو فيها هامات الأبنية الموروثة عن الأزمنة القيصرية. ولكن موعد إستبدال المطيّة لا يُبيح الإستمرار في تأمّل الجمال فأنسحب من الحافلة لأستقلّ قطار الأنفاق. هنا أيضاً أُشيح بوجهي لأستنطق مجهولي، لأن مجادلة ما يسكننا هو المتعة الوحيدة التي تنافس متعة تأمّل الجمال. لم تعد الوجوه تستهويني منذ زمن. لم تعد الحسان تغويني منذ زمن، لأن الفضول الذي كان يغذّي هوسنا بحُسن حسان الصقالبة الذي لا يُقاوَم في الماضي البعيد إنطفأ مع انطفاء سلطان الجسد، والنصيب الذي تبقّى منه لم يعد معنيّاً بما استظهر، ولكن بما استتر. ولم أُدرك إلاّ وقتها كم هو فضلٌ جليل أن نشهد في حياتنا مصرع الفضول!

فأن ندفن في أنفسنا الفضول يعني أن نشهد وفاة الفضول في علاقة الأغيار بنا. فما لاحظته في تلك الأعوام ليس إختفاء العداء التقليدي المسبَق في سيماء الآخرين وحسب، ولكن الخوف الذي تنطق به عيون الفضوليّين في مواجهتنا. فسيماء الموت هو ما لا

Twitter: @alqareah

يُخفى كما يبدو. فعندما نُؤتى شجاعة ممارسة الموت بكلّ تقنياتها القاتلة، فإنّنا في الواقع نحترف الحيلة الوحيدة التي تستطيع أن تقينا شرّ الناس. وهو ما يعني أن الحصن الوحيد المجير من الشرور هو أن نموت، فإن لم نفلح فعلى الأقل أن نُبقي العلاقة مع الموت بالحضور في البرزخ المشرف على الموت!

فما لم أتوقّعه يوماً هو أن أكون مخيفاً. ولكن الأقدار أمهلتني حتّى رأيت الكلّ يرمقني بخوف. لا يرمقني بالخوف الغرباء وحدهم، ولكن أقرب الأقرباء أيضاً. كنتُ أهرع إلى المرآة فلا أرى سوى شبح هشّ بلا حول ولا قوّة. شبح بلا مؤهّلات على الإطلاق. شبح بلا سلطان. بلا سلاح. بلا أموال. بلا حكمة. بلا وقار. فما الذي يرهب؟

لقد نسيتُ آنذاك أن التنصّل من كل هذه المؤهّلات هو الرّهيب حقّاً. لقد نسيت أن خيار الحريّة، سيّما في بُعْد الحدود القصوى، هو أقوى شهادة على القوّة وعلى الإرهاب. فأن يؤتى الإنسان القدرة على التحوّل شبحاً مجسّداً فذاك هو التحدّي بدليل أن الكلّ لا يخشى شيئاً كما يخشى لقاء الأشباح!

تعلّمت تالياً أن أقنع نفسي بهويّة الشبح. أقنع نفسي بشخصيّتي الجديدة، بل راقتني لا لأنها صارت لي رقيّة سحريّة أجارتني في علاقتي بالأغيار فقط، ولكن لأنها كثيراً ما أعانتني في تيسير فتح تلك الأبواب التي كانت موصدة في وجهي طوال تجربتي الدنيوية (على النحو الذي بيّنته في الأجزاء السابقة من هذا البيان). وها هو الشبح ينقلب حجابي الآن. ينقلب لي حارساً في وقتٍ كنت في أشدّ الحاجة لوجود هذا الحارس.

فهشاشة الجسد عرّت الروح. وأن تتعرّى الروح يعني أن تبلغ الحساسية الوجودية ذروتها. حساسية لم تكن في حاجة لأن تتعرّى في الواقع لأن مأساتها إنّما كانت تكمن في عريّها بالذّات. أمّا الآن فهي بلا تقيّة، بلا قناع، بلا درع، يكفي أن تتلقّى طعنة من عين حقودٍ حتّى يفزّ منها النزيف. نزيف الروح الذي لا يقارَن بنزيف الجسد. تنزف بسخاء بطعنةِ مقلة، فكيف إذا تلقّت إهانة؟ إهانة من ذلك الجنس المجانيّ الذي يروق الأغيار أن يُلقوا به في وجوهنا لا لشيء إلاّ لكي يبرهنوا لنا على حضورهم في مواجهتنا؟!

أستبدل القاطرات مراراً قبل أن أمثل في حضرة «بيت الكتب» القائم في شارع كالينين. هناك أطوف الطوابق كلّها، وأفتّش الأقسام كلّها، سيّما الفلسفة، أو آداب العالم القديم، أو الديانات، أو الروايات، أو علم النفس، أو كلّ ما متّ بصلة للمعارف الحقيقيّة، لا للأيقونات الأيديولوجيّة!

والبحث في هذه الكنوز في حدّ ذاته مغامرة حميمة تفوق في متعتها مغامرة الصيد.

كانت البائعات قد اطمئننّ لشخصي لطول تردّدي على المكان فسمحن لي باجتياز السياج الذي يعزل المريدين عن المحفل لأمثل في جوف البستان المقدّس. هناك تنتاب الجسد الهشّ الحمّى، لأن السباق خلف الطريدة قد بدأ، ومطاردة العناوين الموسومة بماء الذهب رقصة وجديّة توقظ ذلك العظم الذي ظننتُه رميماً. توقظ الفضول الدفين. فمريد الحكمة لا يفتّش في أرفف الكتب عن أيّ

كتاب على طريقة هواة المتعة، ولكنّه يعرف جيّداً ما يريد. إنه يتصيّد طريدةً محدّدةً لا الطريدة الطائشة. إنه في الطقس عصبٌ مزمومٌ لأنه يؤدّي واجباً يعادل إكتشاف قارّة مفقودة. فهو يتصرّف حسب خطّة مسبقة تلقّاها وصيّةً من أحد أنبياء الحكمة. وعلى عاتقه وحده تقع مسئولية الحصول على هذه الوصيّة بأيّ ثمن. فالأمر هنا يستدعي وجودَ شيخ طريقةٍ أيضاً. وشيخ الطريقة لن يكون سوى حكيم سابق قام بترشيح الكنز في إشارةٍ قد تكون شاردة، أو تكون واردة، ولكنها في كلا الحالين وصيّة. وكم تكون خيبة الأمل عظيمة في حال إستحال وجود الطريدة. خيبة أمل لا تضاهيها سوى خيبة الأمل في ضياع قارّة أسطوريّة مثل أطلانطيدا. أمّا إذا أفادت البائعة بأنه نصٌّ مفقود لا من المكتبات وحسب، ولكن من العالم، كما هو الحال مع خطبة سينيكا ساعة إنتحاره، أو مسرحيّة يوروبيدس التي تتحدّث عن الحياة بوصفها موتاً وعن الموت بوصفه حياةً، فإنّ خيبة الأمل لابدّ أن تنقلب مصاباً أليماً لن يقارَن إلاّ بفقدان الأمل في العثور على آثار القارّة الأسطوريّة المفقودة!

21

ولكن كتاب الحكمة الضائع لم يكن الكتاب الوحيد الضائع في دنيا العدوس، والقارّة الأسطوريّة المفقودة لم تكن القارّة الوحيدة المفقودة. ففي تلك المرحلة فقط إكتشفت وجود كتاب آخر موازٍ كان في حياتي بُعْداً مفقوداً بقدر ما كان بُعْداً حميماً. كتابٌ ظللتُ أتوق إليه طوال سنوات الضَّلال، واغترابي عنه ولّد في نفسي إحساساً غامضاً كأنّه إثمٌ مجهول حتى أنّي لم أتحقّق من هويّته إلاّ بعد رفع الأقلام وطيّ آخر صفحة في صحف الـ vita activa، وابتداء مراسم التعميد في حرم الـ vita contemplativa. وها هو الإلهام يتنزّل، والمرثيّة التي تلجلجت بها الروح طوال الزمن الضائع لم تكن سوى بكاء على طلول بيئة هي في عرف سليلها فردوسٌ مفقود حتّى لو تبدّت للأغيار نقيضاً لمفهوم الفردوس. بيئة هي طبيعة قبل أن تستعير هذه الطبيعة هويّة الصحراء. لأن المفارقة أن تكون الصحراء لمريدٍ مّا جنّةً وهي البعبع الذي يتنكّر للجنان، وينصّب نفسه الجلّاد المعادي لسليقة الفردوس كبستان تجري من تحته الأنهار. فالطبيعة إذا كانت إستعارةً من الطبع، والطبع إستعارةٌ من الطبّ (كما بيّنّا في بياننا في لغة اللاهوت) فإن الحنين هنا يبرهن على رسالة الطبيعة كبلسم روح، وكترياقٍ لآلام نفسٍ تتوجّع ظمأً لينبوع الأرومة الجذريّة. وهو

وطنٌ، في حال العدوس، ضالّ، لأن السهول المفروشة بكثبان الثلوج لا تشفي غليل إنسان لا يخفى عليه زيف الشبه بينها وبين الكثبان الرمليّة، والسماء الملبّدة دوماً بالغيوم لن تقارَن بسماء الصحراء العارية المتوّجة نهاراً بشموسها، والمرصّعة ليلاً بعناقيد نجومها. سخاء النجوم الذي يغري بمعاندة كتاب الفلك سواء بتهجّي حروفه، أو بمناجاة حكمته، لأن محاولة إستنطاق فحواه وحدها مؤهّلٌ كافٍ للفوز بمواهب الكهانة. كهانة كانت الطبيعة لها وطناً منذ البدء، بقدر ما كانت الحكمة للنبوّة مرجعاً في المراحل التالية التي انسلخ فيها الإنسان عن فردوس الطبيعة الأمّ ليستبدل السِّرج في الرحلة إلى الله متّخذاً من التحديق في سيماء الأبدية دينا. ولهذا السبب كان هوسي بالطبيعة في تلك الأعوام بمثابة عودة الإبن الضالّ. كانت عودة من ينشد الغفران. كانت عودة من يريد أن يكفّر عن خطيئة فلا يقنع بمجرّد التوبة مثله مثل كل الخطاة. فالإغتراب عن الطبيعة كان في حياة العدوس جرحاً آخر. كان نزيفاً آخر حتّى أنّي لم أشكّ في مسئوليّة هذه القطيعة عن كل ما أصابني من علل. ولهذا السبب كانت عودة مطلقة تماماً كما كان اعتناق الحكمة عملاً مطلقاً. كانت إيماناً. كانت عهداً أنقطعُ بموجبه إلى ملكوتها، تماماً كالعهد الذي روّضتُ نفسي كي أنقطع له باحتراف ديوان الحكمة: الكتاب! عهدٌ تزامن مع عهد لأنّي جرّبتُ أن لا شيء يشفي غليلي بعد كل ممارسة لطقس التحديق في الأبديّة (كما أسمّي غيبوبة الإبداع) سوى الصلاة في حرم الحكمة، أو الخلوة في رحاب الغابة!

Twitter: @alqareah

22

برغم كل الكفاح المدفوع في سبيل الفوز باللّقية، إلاّ أنّي لم أسعد بالمكتبة طويلاً. فإذا كانت القيامة التي حلّت بالإمبراطورية قد قذفت من جوفها كل ما اكتنزته عبر العقود لتعرض هذا المخزون للبيع، فإن الوقت لم يمهلني كي أستمتع بالنصيب الذي نلته من القسمة المسطّرة بقلم القدر. ففي الوقت الذي انقضّ فيه ضعاف النفوس على الضحيّة لانتزاع ما يمكن إنتزاعه من تلك الغنيمة القرينة دوماً لزوابع الثورات، إستجرتُ بالظلّ لأنال ما تيسّر من تلك الوديعة التي لا تهمّ أحداً في مثل هذه الأعاصير، كما هو الحال مع الحكمة. ولكن حضور الحكمة تزامن مع هيمنة الكارثة البيئيّة، أي غياب الشقّ الثاني في المعادلة الوجوديّة كأنّ الأقدار تأبى إلاّ أن تذكّرنا باستحالة وجود النعيم الكامل. لم يتضرّر بفعل هذه الكارثة معبودي الهواء وحده، ولكن الخلل ما لبث أن أصاب حميمه الماء أيضاً، ثمّ الغذاء. فالتسيّب الناجم عن غياب قبضة الدولة الحديدية، سمّم كلّ شيء في الحياة اليومية، فلم يبقَ مكانٌ لصاحب علّة في هذا الواقع، ولا خلاص سوى نشر القلوع!

قبل الفرار كان قرار المواجهة على غرار ذلك الإستجواب العسير الذي خضته مع القرين الذي يسكنني والذي أفرز يوماً القطيعة مع

الدنيا عندما أدركتْ المحنة ذروتها في تجربة بولندا. قرارٌ يصبّ في النتيجة ذاتها ولم يكن ليختلف هذه المرّة سوى في التفاصيل، سيّما بعد اجتياز عتبة الأربعين، حيث يغرّد بلبل الحنين إلى الوطن بلحون الإغواء. ولكن الوطن الأصلي مفقودٌ عمليّاً، لأن إغتراب الصحراء عن الصحراء الذي بدأ بالتفجير الإجرامي النووي الفرنسي في 1957 وضع حجر الأساس لدياسبورا الأمّة الصحراويّة بعد أن أهلك نصف السكان بالأمراض المشبوهة الناجمة عن هذا الفعل الذي تسامح معه عالمنا اللاأخلاقي ولا يزال يتجاهل حقيقته. وهكذا لم يبقَ للعدوس إلاّ أن يذهب ليتشبّث بتخوم وطنه الضائع بالإقامة في إحدى الواحات المشرفة على المدى الحميم وهو يختنق بمشاهدة الطلول! هذا أوّل فصل في دراما الهجرة المنتظرة أفرزته المواجهة العسيرة. وهو ما برهن على عمق إغتراب العدوس، لأن التّيه منذ اليوم هو قدرٌ أبديّ، ولا مفرّ من إستدعاء الوطن الفقيد ليسكن القلب إلى الأبد بدل توهّم الحضور في الصحراء بالإطلالة على الصحراء من نوافذ الواحات كما فعلتْ فئة كثيرة.

في المواجهة برز الوضع الصحّي كعقبة أخرى. فالتنكيل بالجسد أنقذ حضور العدوس في هذا الجسد، ولكنه أوشك على نفي الجسد من قمقم الجسد. والتدخّل الجراحي المؤجّل بوصيّة البروفيسور هالتر في بيرن لم يعد وارداً فقط، ولكنّه أضحى مَخرجاً ملحّاً. بل يبدو عملاً شبه مستحيل لأنه يمرّ عبر بوّابة الخارجيّة، برغم الحقّ المكفول بحرف القانون. هذا الحقّ الذي تعترف به هذه الجنّية لموظّفيها، ولكنها لا تستحي أن تنكره على أولئك الذين لم يشربوا

من مياهها المسمومة! وهو ما يعني وجوب خوض حرب جديدة مع التنين الكريه لن يحتملها الجسد الذي كان آنذاك هيكلاً عظمياً يفزع لمنظره كل من التقاني. إنه التحدّي الذي هلّلت له الروح العنيدة التي لم تعرف في وجودها سوى التحدّي، ولم تنتزع يوماً أبسط حقّ من حقوقها بدون حرب حقيقيّة!

المواجهة تمخّضت عن قرارٍ شجاع وهو: الإقلاع. ولكن وجهة الإقلاع ظلّت رهينة النتيجة التي ستسفر عنها الحرب مع زبانية الكراهة: إلى بيرن لتلقّي العلاج في حال تُوّجَتْ الغزوة بالغلبة، أو إلى طرابلس في حال الإخفاق. ولمّا كان المستقبل غنيمة المجهول، فإن الحكمة أبتْ إلاّ أن تتّخذ القرار المناسب في شأن وجهة ذخيرتها. فالملاذ الآمن للمكتبة في كل الأحوال هو الوطن، حاضرة الوطن تحديداً. ففي انتظار ما ستسفر عنه الغزوة إلى طرابلس قرّرتُ شحن الكتب إلى الوطن لأستودعها بيت شقيقي آله الكوني.

لا أنسى اليوم الحداد الذي ساد القلعة القائمة على شارع لينين (التي احتضنتني ستّة أعوام كاملة عقب العودة الثانية) ساعة أقبل فيها عمّال شركة «إنتردين» ليدخلوا إلى هذا العشّ (الذي حوّله حضور أئمّة الحكمة محراباً للصلوات) حاملين صناديق خشبيّة صُنعت خصيصاً لاحتواء الكنوز التي لم أفُز بقطعة منها بدون كفاح مرير. وها هي تستعد للهجوع في الحاوية التي ستقلّها عبر القارّات، لتفارقني فراقاً لم يخطر ببالي أن يكون مطلقاً، لأن ظروفي الدنيوية البغيضة لم تتح لي فرصة إستعادتها حتّى اليوم! وهو فراقٌ لم أكن لأحتمله لولا هاجس الحرية. هذا المرض الذي لم أجد له ترياقاً،

وكان سبباً في إصابتي بنكبات كثيرة، ولكنّه الأفيون الذي لا يرحم كلّ من أدْمنه. وهو ما أجبرني على استحضار موقف الشقيق من ملحمة المكتبة. الموقف الذي يشدّد على القيمة في المكتبة، مقارنةً مع الموقف الذي يتغنّى ببُعْد الملكيّة في المكتبة. هذه القيمة التي لا وجود لها في المكتبة، لا وجود لها في الحمولة كوزر، ولكن في روح المكتبة، في فحوى المكتبة. ولكن المشكلة أن هذه الفحوى لا تستقيم خارج البُعْدَين الوجوديّين الخالدين (المكان والزمان) كشرطين لاحتواء الفحوى. فكلنا نهفو في دنيانا لأن نبتلع مكتبة، ولكن من منّا يجد الوقت لتحقيق هذه البطولة؟ أقول بطولة لأن إستيعاب مكتبة يستدعي التضحية بما لا سبيل للتضحية به، لأنه ترجمةٌ لوجود وهو الزمان والمكان. فلكي نقرأ يلزمنا أن نستقرّ في مكان. وهو عملٌ لا يكفي بالطبع لأن لزاماً علينا أن نهدر وقتاً نفيساً في سبيل إنجاز هذه المهمّة. وهو ما يعني أن ندفع الثمن جسيماً، لأن الحرية هي الثمن المدفوع هنا.

لقد تطيّرتُ من مرأى الصناديق الخشبية الكئيبة في ذلك اليوم من 1992، فأطلقت عليها إسم «التوابيت». ولم أتخيّل أن تنقلب تلك الرؤيا نبوءةً، لأن التجربة التالية إسْتَبْقَتْ الصناديق رهينة الحاوية إلى هذا اليوم عملاً بناموس الفأل، لأجد نفسي في السنوات التي قضيتها في ضواحي بيرن أسافر إلى موسكو وكييف ولفوف في حملات خاطفة لاقتناص ما أمكن اقتناصه من طرائدي الضائعة علّها تعوّض ولو نصيباً من الذخيرة المؤلّفة من خمسة آلاف مجلّد التي تسكن جوف التوابيت!

Twitter: @alqareah

القسم الثاني

حَمْلة المُحارِب الأعزَل

«علينا أن نعمل كلّ ما بالوسع كي يكون الجزء الأخير من الرحلة أفضل من الجزء الأوّل، مادمنا في السبيل، حتّى إذا أدركنا نهاية المطاف هلّلنا فرحاً».

(أبيقور)

Twitter: @alqareah

1

لم أكن موهوماً إلى الحدّ الذي أجهل فيه حقيقة ما أنا مقبلٌ عليه يوم غادرت موسكو في طريقي إلى الوطن لارتياد «عشّ الوقواق» الذي لن يقلّ نحساً، أو خطورةً، عن الحلول في «وكر الأفاعي» كما راقني أن أسمّي الكيان المشئوم المدعو في لغة الليبيّين بـ«الخارجيّة» حيث تتربّص الدنيا متنكّرةً في أجرام تلك الأشباح التي يقول الإمام البصري أن دورها أن تميت المقبلين عليها، فلا تكتفي بهذا ولكنّها لا تعفي من قصاصها حتّى المُدْبِرين عنها فترجمهم في هروبهم لتنالهم على الأقل بجراح!

ولكن الوصول إلى الوطن لم يعد أمراً هيّناً كما كان في الأعوام التي سبقت 1991. فليبيا منذ ذلك التاريخ تنكّبت قدر طروادة المأساوي لتصير قمقماً حقيقيّاً مطوّقاً بإحكام تنفيذاً للحكم الصادر بحقّها من محفل الأمم، تماماً كما تحوّلت طروادة كياناً معزولاً عن الدنيا بمشيئة محفل الأمم القديمة بقيادة آج اممنون؛ ولا مفرّ أمام العدوس سوى أن يحتال على السجّان ليتسلّل إلى أرض الوطن تسلّلاً هذه المرّة: إمّا عبر جزيرة مالطا بحراً، أو عبر تونس برّاً، سيّما من خلال مطار جربة: تلك الجزيرة التي كانت بوّابة ليبيا لا

Twitter: @alqareah

بسبب القرب الجغرافي وحسب، ولكن لهويّتها الليبيّة في الماضي عندما كانت جزءاً من هذا الوطن الكبير الشقيّ الذي لم تُستقطع منه في الغرب جربة وحدها، ولكن أيضاً صفاقس (سيفاو باللغة الليبية القديمة، ثمّ سيفاكس باللاتينية)، تماماً كما استقطعت منه سيوة في الشرق، وكانم وأغديس في الجنوب، وجانت وإليزي وكل مناطق آزجر الممتدّة حتّى تامنغست مروراً بـ إيجليه (المعرّبة تحت إسم عين صالح اليوم) في الجنوب الغربي المتاخم لمملكة نوميديا الكبرى.

حللتُ في مالطا لأستقلّ البحر في اليوم التالي، لأجد في انتظاري نبأ رحيل عبد الله القويري المفاجيء. أقول المفاجيء لأن الموت هو ما لا نعترف به في ديارنا ضيفاً حتّى لو شقّ طريقه إلينا بوساطة مبعوث كالمرض، فكيف إذا داهمنا بدون وسيط أو تمهيد؟

الواقع أنّي لم أكن لأجهل معاناة عبد الله القويري لا السياسية، ولا الدنيوية، ولا الصحيّة وحسب؛ بل لم أكن شخصيّاً لأجهل محنته الروحية أيضاً. وأحسب أنه عاش اغتراباً مركّباً منذ عودته في خمسينيات القرن الماضي من مصر التي نشأ في رحابها غريباً ليجد نفسه يحيا اغتراباً أقسى في رحاب الوطن. وقد عرفته فكرياً من خلال المتون التي دأب على نشرها في جريدة «الحرية» قبل أن أتعرّف إليه شخصيّاً في 1966 أو 1967. ولازالت تحضرني مجادلاته النقدية مع المغربي عبد الكريم غلّاب عند صدور روايته «دَفَنَّا الماضي» على صفحات تلك الصحيفة، إلى جانب عمله الفكري التنويري الهامّ «معنى الكيان» حول الشخصيّة الليبية الصادر تالياً كمانيفستو في

كتاب. وقد استوقفتني مرثيّته لفقيد الشعر الطليعي في ليبيا علي الرقيعي عام 1966 التي عنوَنَها بـ «كان يبحث عنكم» والمنشورة بالصحيفة ذاتها. فإذا كان «معنى الكيان» بمثابة مانفيستو عن رؤية الرجل لموضوع كان قيد النقاش آنذاك وهو الهويّة الوطنيّة، فإن مرثية الرقيعي كانت بمثابة مانفيستو عن ضياع المبدع في واقع هذه الهوية المبلبلة. وهو قاسم مشترك من شأنه أن يوحّد بين ذات الكاتب وموضوعه على نحوٍ لن نغالي إذا قلنا أن القويري في ذلك النصّ إنّما عَبَّر عن صليبه مترجماً بحرف محنته الروحيّة عن مرثيّة هي في الواقع مرثيّته هو أيضاً، لا مرثيّة الرقيعي وحده. ومن شاهد عبد الله القويري في حياته اليوميّة، وتأمّل نزعته الديوجينيّة في الحياة، وحده يملك الحقّ في أن يستصدر في حقّه حكماً قاطعاً. فليس معتاداً في شرع تلك الأيّام أن يحيا الرجل أعزباً وقد اجتاز عتبة الأربعين وربّما عتبة الخمسين، سيّما في مجتمع رعوي حديث العهد بالعمران. تماماً كما لم يكن مقبولاً أن يتنصّل المرء من الدَّيْن الإجتماعي فيتوحّد توحّد النسّاك، ويقطع الصلة بالكلّ فلا يعترف بوجود ذوي قربى أو أخلّة أو حتّى الجيران. لقد كنّا نراه يخطو في شارع الإستقلال، أو 24 ديسمبر وحيداً دوماً، غائباً عن كل ما حوله، فلا يملك كل مَن عرفه إلاّ أن يعترف له بهويّة القدّيس! فحياة عبد الله القويري في تلك المرحلة كانت فلسفة وجوديّة بما هي ثورة ضدّ العلاقة. فالتخلّي عن العلاقة هو الحرف الأوّل في أبجديّة الحريّة. كنّا نلتقيه في شوارع الحاضرة عند تأدية طقوس الجولات اليوميّة المسائية التقليديّة فيكتفي

بالردّ على تحيّاتنا، ونادراً ما يتوقّف ليبادلنا حديثاً مقتضباً كأنه يخشى على عزلته من حضورنا. كأنّه يخشى أن نختلس حرّيته في غفلةٍ منه، كأنّه في عجلةٍ من أمره لأنه سوف يفقد معبودته هذه إن لم يسرع للإلتحاق بها فلا تجدي في مثل هذه المواقف حتّى رفقتنا لقريبه في الدمّ وقرينه في القلم يوسف القويري. وهو شخصيّة متوحّدة أيضاً وعزلاء، ولكنّها ليست بتطرّف عبد الله القويري. كنّا نجالسه في مقهى «أورورا» فيأبى إلاّ أن يلقّننا درساً في **الصمت**، ليقينه بأن من يتكلّم لا يعلم، ومن يعلم وحده لا يتكلّم عملاً بالوصيّة الطاويّة. وربّما يتشبّث بتلابيب الصمت لأنه يعمل، ومن يعمل أيضاً لا يتكلّم، ومن يتكلّم لا يعمل، تماماً كما هو الحال في حقّ الجدل بين العلم والكلم. وما غيبته بجوارنا سوى الحوار مع المبدأ الذي لا يجب أن نحاور سواه: النفس!

وبرغم كلّ شيء بيد أنه لم يشعرنا يوماً ببعده عنّا أو جفائه لنا، بل العكس تماماً. كان روحيّاً يجاورنا، يحاورنا، يرعانا ويوجّه قواربنا لأنه يدري كم هي تجربة هشّة أن يعبر المريد يمّ هذا العالم بدون مرشدٍ أو دليل. فبقربه حسب نستشعر الحميميّة، نستشعر الأمان الضروري لكل تلميذ في حضرة شيخ الطريقة.

توجد في دنيانا تلك القلّة التي تنبع مواقفها السياسيّة من حساسيّتها الوجوديّة، أي قياس الشأن السياسي في بُعْد المعنى. هي الفئة التي لا تعوّل على السياسة كخلاص، أو بعبارة أخرى، لا تراهن على وجود السياسة كمنقذ، لأن الترياق الحقيقي هو ما يحقّق

Twitter: @alqareah

العزاء في الوطن من الهمّ الكينونيّ. وأحسب أن عبد الله القويري إنّما كان ينتمي إلى هذا الجنس. ولذا لم يصدّق أن تأتي حركة 69 بتغيير لا على مستوى البنية الإجتماعية ولا على مستوى البنية الثقافية، فما كان منه إلاّ أن استجار في العلاقة معها بروح تلك السخرية التي هوّنت عليه سواءً في دخول المعتقل (في دفعة 1973)، أو في الخروج منه ليتبوّأ منصب وزير في الحكومة الإتحادية بالقاهرة مع نهايات العام ذاته. وكانت تدهشني ثقته بي في ذلك الوقت المبكّر الذي لم أكتب فيه شيئاً جديراً بثقته. وكنت سعيداً ألاّ أخيّب ظنّ هذا الكاهن الذي لم يفته أن يعبّر في مناسبات كثيرة عن يقينه بكوني النموذج «للجيل الواعد» حسب تعبيره. ففي 1972 أشاد بـ«الصلاة خارج نطاق الأوقات الخمسة» يوم نُشرت في «الأسبوع الثقافي» على حلقتين، مبدياً بعض الملاحظات التقنية ذات الصلة بعبارة تبدّت له مخلّة بالسياق، لأنه رأى أنها تشوّش على الدراما في النص، ولكن ما يشفع لي هو إبرازي هوية البيئة الثقافية لموضوع النص.

ظللت ألتقي الرجل في زياراتي التالية لأفاجأ به في إحدى المرّات وقد تنازل عن وزنه بما لم يقلّ عن النصف. وهي ضرورة أملَتْها ظروف القلب كما علمت فيما بعد. وهي تلك الفترة التي تزامنت مع تخلّيه عن التخلّي بالإقتران بسيّدة فلسطينيّة في المرحلة التي تحوّل فيها الواقع الثقافي خلاءً مميتاً، فصار طبيعيّاً أن تكتسب المرأة هويّة الملاذ الأخير. فهل كان هذا الخيار خيانةً للحرية التي اعتنقها الرجل ديناً لعشرات السنين؟

Twitter: @alqareah

الواقع أن المرأة لا تلعب دور الضرّة في العلاقة مع الحرية إلاّ في المعتقدات الصوفيّة، في حين تبدو في الأعراف الدنيوية قريناً للحرية بقدر ما استعارت إسمها من القِران بالرجل. وتجربة ميرسو في «الغريب» أكبر برهان، بدليلٍ بسيط وهو أن السجين لا يُحرم من شيء إلاّ من المرأة عندما يودَع السجن! فترياق العلاقة أحياناً هو في الإرتماء في أحضان العلاقة، لأنّنا لا نحقّق التوحّد في الواقع ما لم نحتمِ بزحام الجموع!

أذكر يوم زارني في «الفندق الكبير» عند قيامي بإحدى الغزوات إلى الوطن لإبطال مفعول الألغام الكيديّة، ليثني على إنجاز «الخسوف» باجزائها الأربعة، مشتكياً في الوقت نفسه من ضيق الوقت الذي لم يتح له فرصة قراءتها. وعندما ذكّرته بإجازة التفرّغ الأدبي كنعمة منّت بها عليه العناية الألوهيّة من دون الكثيرين، ابتسم قبل أن يمازحني بدعابة قائلاً: «ولكن قراءة عملك هذا يحتاج إلى إجازة تفرّغ من إجازة التفرّغ!». عبارة قرأت فيها محنتي القديمة مع جلالة الوقت الذي شلّني عن أداء الواجب، وحوّلني رهينة حياة مؤجّلة لم أكن لأتحرّر من أسرها لو لم أخضع لتلك التجربة التي أحيتني بعد أن لفظتُ النفَس الدنيوي لأولد من جديد مستعيناً بإبداعٍ هو حقّاً ترياق فناء!

حدث هذا مع مطلع 1990، ولم أكن أدري بالطبع أنه لقاء الوداع مع هذا الرجل الفذّ المحمّل بالأحزان، الكاتم لحزم اغترابه الوجودي والثقافي والروحي، والنموذج الأخلاقي لجيلنا اليافع، كأنه

Twitter: @alqareah

يقول لنا بسيرته النبيلة ما لم يقله لنا بمشروعه الأدبي. وكم أحزنني أن أقرأ نبأ رحيله عن عالمنا مصادفةً في إحدى الصحف المحليّة كأنّه يأبى إلاّ أن ينسحب بشرع الإغتراب، لا بشرع المجتمع، إمتثالاً لوصايا الشريعة التي عاش بها بيننا دون أن نعرفه، دون أن نواسيه، دون أن نفعل شيئاً لإيقاف نزيفه.

غادر عبد الله القويري عالمنا في زمنٍ كان فيه الكابوس لا محكماً فقط، ولكن مركّباً أيضاً (كابوس حصار دولي يشلّ حركتنا ويبخل علينا حتى بالحقّ الأبسط الوارد في ميثاق محفل الأمم وهو التنقّل، وكابوس النظام الذي كتم أصواتنا بحجب صحف الرأي) ممّا حال دون تمكّننا من أداء أبسط واجب في حقّ رموزنا الوطنيّة وهو كلمة رثاء ننفّس بها عن همّنا لقناعتنا بأنّنا إنّما نرثي أنفسنا عندما نرثي هؤلاء.

2

في تلك الزيارة دُعيت مع مَنْ دُعي من الأدباء لحضور ندوة مجهولة الهويّة بوحيٍ من السيد أبي منيار، الغاية منها (كما خمّنتُ) التخفيف من وطأة الكابوس النفسي الناجم عن الحصار المهيمن على الوطن منذ عام من ذلك التاريخ، بل ومحاولة استرضاء رموز الحقل الثقافي الذين عانوا من صنوف التغييب طوال العقدين السابقين على تلك المرحلة، حيث وجد الزعيم المهووس بالأضواء نفسه منفيّاً بعد أن تخلّى عنه كلّ من عوّل عليه بدايةً بزعماء الدول، ونهايةً بالمنظّمات العالمية التي أغدق عليها الأموال على حساب حاجات مواطنيه، مروراً بلجان الداخل الشعبيّ منها والثوري.

وعفويّة المبدعين دوماً شرَكٌ في العلاقة مع أولي الأمر، سيّما إذا تعلّق الأمر بالنوايا. إنّهم يحسنون الظنّ فلا يصدّقون أن الساسة يتخابثون فلا يتنازلون أبداً عن مَا لهُم، في حين لا يستحون من أن يستولوا على ما لله أيضاً إلى جانب إغتصابهم لِمَالَهُم. نحن نصدّق الساسة، ولكن الساسة لا يصدّقوننا. ولهذا تنطلي علينا حيلهم بسهولة!

إنطلت الحيلة على ملّتنا المسكينة في تلك المرّة أيضاً ظنّاً منّا أنّنا

Twitter: @alqareah

نتلقّى في اللقاء الجديد إعتذاراً، لأن ما كنّا في حاجة إليه في الواقع ليس الإعتذار، ولكن ردّ الإعتبار. ولذا كسب النظام هذه الجولة أيضاً، في حين لم نجنِ من الرهان سوى خيبة أمل جديدة كأنّ السياسة لم تُخلق إلاّ لتستثمر حسن نوايا أدباء هم في عرف الساسة دوماً بلهاء. فالواقع أن النظام كان آنذاك في ورطة الغريق الذي لن يضيره أن يستنجد بقشّة، ومعشر الدراويش دوماً أهون قشّة!

إلتأمنا في البداية في قاعة الشعب الواقعة بمدخل حيّ الأندلس بعد إخضاعنا لإجراءات التفتيش الأمنيّة الكريهة الشبيهة بإجراءات المطارات. تنفّسنا الصعداء ظنّاً منّا أنّنا اجتزنا عتبة الخلاص. ولكن هيهات! فالإنتظار كان أقسى من الإجراء الأمني البغيض الذي نقف فيه بين أيدي مخلوقات تعاملنا كمتّهمين، فتستبيح فينا الروح قبل أن تستبيح فينا الخصوصيّة. ولا أعرف لماذا أستشعر الخجل من نفسي ومن العالم في مثل هذه المواقف بدل أن أستشعر الزهوّ المفترض، لأن الإنسان سلطة هوجاء ما ظلّ محفوفاً بهالة الإرهاب، فإذا أميط عنه اللثام بطل المفعول وانحطّ فيه الشأن. فالتفتيش عملٌ معادٍ للحريّة، ولذا فهو في شرع مريد السُّرَى مهينٌ. إنه الإجراء الذي لم يصبح تقليداً في العالم إلاّ مع مطلع السبعينيات عندما تمادى المستضعفون في الدفاع عن أنفسهم، فلم يجدوا وسيلة للإبتزاز سوى إختطاف الطائرات. وكان لزاماً على أمثال العدوس أن يتنازلوا عن جزءٍ آخر من حريّتهم (عملاً بوصايا إمام العقد الإجتماعي) من باب الحرص على الحياة المشتركة، دون أن ندرك أن قبولنا بالتنازل

Twitter: @alqareah

عن الجزء تلو الجزء في كل مرّة هو بمثابة التنازلَ عن الحرية كاملةً. ولمّا كانت هذه العنقاء هي وسواسٌ أبديّ في دين أيّ عدوس فإنّي كافحتُ ما أمكنني كي أحتفظ بهذا الجزء الأخير دون أن أتنازل بالمقابل عن العبور. كنت أتّخذ البراري والبحور مطايا، ولا أستقلّ الطائرات إلاّ في حال أعيتني الحيلة. فالأسفار بواسطة القطارات أو الحافلات أو السفن عملٌ لا يحقّق متعة الحريّة وحسب، ولكنه يضيف متعة الحضور في فردوس الطبيعة أيضاً. إنه ضربٌ من تلك السياحة التي يحثّنا الحكيم على ممارستها في حال ضاقت بنا الرؤيا التي يعجزنا أن نترجمها في العبارة. فالبرّية، بضيق الرؤيا، حريّةٌ حتى لو كانت عدماً. والبحر، بعسر التّبيين، هويّة حتى لو كان مقبرة.

Twitter: @alqareah

3

من سوء حظّ العدوس أن تتزامن هذه المراسم المقيتة بحضوره في حرم النقاهة: نقاهة ليست ككلّ نقاهة لأن ديدنها الروح ورأس مالها الحرية، ومعاناته ليست من مرضٍ ككلّ مرض، لأن علّته ليس العلّة، ولكن علّته السلطان الذي لا حيلة لنا في أن نشتكيه وهو: الدنيا! وكان من الطبيعي أن أعاند لألتقط الأنفاس في قاعة هي بالنسبة لي قمقمٌ خانق، كما فحواها محفل إغتربت عنه واغترب عنّي طويلاً لو لم أجد إلى جواري شقيّ الزمن الجميل رضوان أبوشويشة الذي استجرت به كما استجار قريننا جيلاني طريبشان يوماً بأحمد الفقيه عندما وجد نفسه في محفل الأكابر على المنصّة في ندوة عام 1974. ولكن المراسم الأمنيّة أو الإنتظار الطويل لم تكن مكوساً كافيةً، لأن الأوامر صدرت بالإنتقال إلى باب العزيزيّة لنحيا سيرة المراسم اللعينة من جديد.

وهي فصول تنمّ عن غرابة أطوار السيّد أبي منيار عرفها فيه كل من عرفه، حيث رأى فيها البعض دوماً إستجابة لنداء الهاجس الأمني في دنيا إنسان إبتلته الأقدار بألاّ يثق حتى بأقرب الناس، بل وألاّ يثق بأجهزته الأمنية نفسها، ليجد نفسه وقد حمل وزر نفسه بنفسه لا

Twitter: @alqareah

لشيء إلاّ لأنه قرّر ذات يوم أن يحتكر زمام الأمر كلّه بيده وحده بعد أن استبعد من المشهد شركاء الأمس لا لأنهم خذلوه يوماً وحسب، ولكن لأنه اكتشف أن السلطة كالمرأة ترفض الشراكة بطبيعتها.

والواقع أن التنكيل الأمني طقس له هويّة أعمق من مجرّد تلبية نداء الهاجس الأمني. إنه لا يكتفي بأن يكون مكوساً مستوجبة الدفع جزاء المثول في حضرة صاحب الشأن، ولكنها قصاص. إنها موقف إنسان لم يعد يرى نفسه إنساناً، ولكنه الإنسان الذي وهبته هويّة تولّي أمر الناس خصالاً أخرى ميّزته عن كل الناس. أي أنه هنا ربّ. ربٌّ حتى لو استنكر الناس. ربٌّ حتى لو بخل الناس، لأن لا قيمة هنا للناس. لأنه يستطيع أن يوهم الناس بسهولة فيما إذا أيقن عميقاً بهويّته الإستثنائية، بهويّته الربوبيّة، وإلاّ لما اصطفته الأقدار ليتولّى أمر الناس من دون كلّ الناس.

في هذا البرزخ الناس أنفسهم يفقدون هويّتهم كأناس. إنهم منذ الآن سوادٌ وليسوا أناساً. إنهم منذ الآن رعيّة وليسوا أناساً. إنهم منذ الآن قطيع وليسوا أناساً. والويل ثم الويل لمن سوّلت له نفسه أن يحسن بنفسه الظنّ إلى الحدّ الذي يتطاول فيه ليعامل ربّ الأمر معاملة الندّ للندّ! فهؤلاء وحدهم الخطر المستبطن الذي يفوق القنبلة الموقوته مفعولاً. هؤلاء وحدهم ينبغي الإحتيال بشأنهم لكسب ودّهم إذا استعصى كسر شوكتهم.

هذا الإحساس المتنامي والمتمادي بالإصطفاء في ظل طول البقاء في جوف العرش لابدّ أن يولّد إحساساً بالتفوّق يبيح استعارة

Twitter: @alqareah

صلاحيّات لا أرضيّة، معصومة من الخطأ، وغير قابلة للنقض. غير قابلة للنقض لأنها منذ الآن لا تبقى مجرّد صلاحيّات، ولكنّها تستحيل فرمانات. فرمانات ليست ككلّ فرمانات، ولكنها فرمانات ذات طبيعة قدسيّة. في هذه النقطة تتحوّل حتّى الأهواء فرمانات ذات هويّة قدسية. حتى أضغاث الأحلام تستعير أبعاداً ألوهية!

هذه الطبيعة الخبيثة لما نسمّيه سلطةً هو ما دعا حكيم الصين القديم لأن يذهب ليرمي بنفسه في نهر «لو» على أن يقبل تولّي السلطة برغم أنها سلطة ليست ككلّ سلطة، ولكنّها في عرف الصين القديمة سلطة «ما تحت قبّة السماء»، أي السلطة على الدينونة بأسرها.

رسالة هذا المستنقع أن يصيب روح مريديه بأبشع فساد حتى لو ناله صاحبه على سبيل الإعارة، فكيف إذا مكث فيه طويلاً ليراه كحقّ مكتسب؟ فامتهان السلطة ورمٌ في الروح محقّق. وكلّما تمرّغ المريد في أحضانها أمداً أطول كلّما اغترب المريد عن الحقيقة بأبعادها الثلاثة: الأخلاقي والجمالي والوجودي ليجد نفسه وقد تحوّل مع الوقت مسخاً مبتذلاً لا يرى الضرر في أن يمارس عبثاً هو تجديفٌ بكلّ المقاييس. وكلّما كانت الحاجة إلى التعويض أكبر كلّما كان مرتع السعلاة أخصب، وكلّما كان المرتع أخصب كلّما كان الظمأ إلى ارتكاب الكبائر أكبر. ففي المرحلة التي يتحقّق فيها التماهي بين الذات والموضوع ليبلغ الذروة، فلا يبقى للهبة المميتة إلاّ أن تنفي نفسها فتفني معها موضوعها. فالثروة وحدها تقنع بهويّتها كهبة خطرة، في حين تأبى السلطة إلاّ أن تكون هبةً مميتةً.

4

إلتأمنا في قاعة باب العزيزيّة، وحضر بيننا صاحب الشأن، ولكنّنا لم نسعد بحضور الفحوى. لقد أدهشني غياب الموضوع، ثمّ أدهشني أكثر زهد المحفل في الإستفهام عن بيت القصيد. توقّعتُ أن أسمع الإيضاح من لسان صاحب الدعوة، ولكن الواقع خيّب ظنّي. فلا المنطق يجدي في دنيا لم تعد دنياي، ولا الصواب حَكَمٌ في زمن إغتراب المفاهيم، ولا الواجب دينٌ في مجتمع تخلخلت فيه العلاقة بسبب تحلّل القيَم. وهكذا يغدو كل فعل جديد مجرّد فصل عدمي ركيك في سياق ملحمة الباطل الكبرى. ولهذا كان الإفلاس عنوان المرحلة. الإفلاس الذي أصاب كل مستوى، والتشبّث بحرف الشعار لم يكن سوى قفّاز التحدّي المرمي في وجه القوّة الخافية التي لا تنتظر التوبة من الخطاة لتتوّجهم بالغفران بقدر ما تراهن على الحدود القصوى للمهزلة إمعاناً في السخرية.

فما لم أعد أطيقه، بعد معجزة الميلاد الثاني، هو الزجّ بي في مواقف لا تحرج وحسب، ولكنّها تجرح أيضاً. مواقف لستُ معنيّاً بها ولم أُخلَق لها. وهو وضعٌ نتج عن الحساسيّة المفرطة المصاحبة لكلّ بعثٍ حقيقي. فإذا كانت صفة الولادة من رحم الطبيعة الأم هي

Twitter: @alqareah

الهشاشةِ الماديّة الإستثنائيّة، فإن صفة الميلاد من رحم الغيوب هي الهشاشة الروحيّة، أو فلنقل، الهشاشة الغيبيّة المطبوعة بأختمام الإبهام. إنه نوعٌ من الحضور في البُعْد المجهول لا في بُعْد الوجود. أو هو إغترابٌ في البرزخ القائم بين البُعْدَيْن. هذا اللايقين، الشبيه بشطحة درويش، له مفعول الأسحار التي تذيب مادّة الواقع لتحوّل التجربة حلماً مجبولاً بنشوة مريبة تترجم السيرة في الرؤيا، والخطوة في الرقصة، والكلمة في الأغنية، والموقف في الطقس، ولا يهدّد هذا النعيم سوى شبح العلاقة ليقينٍ خفيّ بأنّها وحدها شرّ! وها هو العدوس يجد نفسه اليوم في قبضة العلاقة بالحضور في محفل ينعقد ليمارس الحوار، فإذا به يتنكّر لأبسط قواعد الحوار وهو: موضوع الحوار.

وعبثاً حاولت أن أستعلم عن الموضوع الضائع الذي دعينا لأجله، كأنّنا ارتضينا لأنفسنا هويّة الشقيّ «كاف» في ملحمة كافكا المحكوم بالإعدام من قبل المجهول لقاء خطيئة مجهولة. فكلّنا في هذا الوجود نعتنق دين المواطن «كاف» في الواقع، ولهذا نساق إلى المذبح عن استحقاق! ولهذا لم أفاجأ عندما رأيت خليفة التلّيسي يستهلّ الجلسة بقصيدته الوطنيّة «وَقفٌ عليها الحبّ»، ليليه المصراتي بإحدى خطبه التقليديّة، ثم علي صدقي عبد القادر، ثمّ... إلخ. ويبدو أن صاحب الدعوة نفسه ملّ المسرحيّة التي يرجع له الفضل في تأليفها. ربّما بسبب غياب الموضوع بالذّات، فإذا به يتناول حزمة الأوراق الملقاة على المنضدة ليتوضّحها بإمعان قبل أن يطلق عبر مكبّر الصوت نداءً يحمل إسمي بأعلى صوت. لم أفهم في البداية

الغرض من النطق بإسمي في هذا المحفل من دون بقيّة الزملاء. لم أفهم لعدّة أسباب أهمّها بطء فهم هو خلل في تكويني، ولم أفهم أيضاً بسبب لذّة بَعْث كنت حديث العهد به ونفحاتِ وَجْدِه مازالت تتشبّث بتلابيبي. ولم أفهم أخيراً لأنّي أجهل المطلوب منّي في وضع اللاموضوع. أي غياب القضيّة. أم أن الرجل إنتهى به الأمر ليستجدي كلمة ثناء تعيد له الثقة في نفسه زمن محنته، أي أنه ينتظر بيعةَ من هذه الفئة البائسة والمستضعفة التي ناصبها العداء منذ أوّل يوم استولى فيه على السلطة وكان لها صِدامي التاريخي معه مفتتحاً في مؤتمره الصحفي في 1969م؟

هل تذكّر الرجل عنادي القديم في «ندوة الفكر الثوري» أيضاً في 1970 عندما رفضتُ الإمتثال لطلبه في شأن ابتسار مداخلتي وقرأ في هذا الموقف عداوةً مبيّته فانتظر منّي اعتذاراً أو كلمة تكفّر عن طيشي القديم؟ هل تخون الداهية فراسته إلى الحدّ الذي يعتقد فيه أن الإنسان الذي لم يطلب منه يوماً شيئاً، ولم يستجر منه يوماً بسفلته، واختار أن يحتفظ بآرائه دوماً لا لأنها تكفل له هويّة أن يبقى في العلاقة مع سادة هذا العالم ندّاً وحسب، ولكن لأن هذا الموقف وحده يحقّق له البقاء في قدس الأقداس: الحرية؟!

لحظتها أفقت من غيبوبتي لأن الحرية عندما تكون في خطر فقط تنتفض الروح بسبب الإحساس بالإهانة، فلم أجد ما أُجيب به سوى تلك العبارة البسيطة بساطة الحرية التي أنجبتها، والدالّة دلالة الحرية التي ألهمتها، والتي صارت مثلاً في أفواه أعداء الإبتذال تالياً،

Twitter: @alqareah

والتعويذة في قاموس أهل الرأي الآخر، والقائلة: «ما أنا في هذا المكان سوى إنسان يحاول أن يحسن الإستماع!».

أحدثت العبارة في القاعة بلبلة إستحسنها فريق واستنكرها فريق. إستحسنها الفريق الثقافي المشكوك دوماً في أمره، واستنكرها الفريق الرسمي، الموالي بزعامة أحمد إبراهيم ورجب بودبّوس، المدجّج دوماً بالأحراس والأعوان وحتّى بالسلاح. هذا في حين أخفى السيّد أبو منيار ردّة فعله في ابتسامة غامضة كانت له حصناً كلّما وُوجه بموقف أو قول لا يروقه، وربّما تسامح مع شقاوتي الجديدة لأنه استعاد الزمن الماضي فأيقن أنّي مازلت على عنادي القديم. وكي يلملم الحرج تناول القوائم ليرفع عقيرته بإسم رضوان أبو شويشة القابع بجواري. ولكن رضوان تمرّد أيضاً (كأنه يثأر للإستخفاف بالموضوع) عندما أعلن انضمامه لحزب الصمت بحجّة اعتاد أن يستجير بها من فضول الأجهزة الأمنية التي تستدرجنا لتوقع بنا وهي: وجود عطب في عضلة اللسان!

وأذكر أن لقاءَ جمعنا بصديقنا سيّد قذّاف الدمّ بعدها بأيّام فعلّق على الندوة التي شاهدها في التلفزيون منقولة على الهواء قائلاً لي بأنّي لم أكتفِ بحجب صوتي في الندوة، ولكني أصبتُ رضوان أيضاً بالعدوى!

Twitter: @alqareah

5

في جلسة اليوم التالي قررت أن أعتصم بحرم الحرية فاعتزلت اللقاء أملاً في أن أجير نفسي من سوء الفهم، وأجير المضيف أيضاً من حرج لم أقصد منه يوماً بطولة، لا في تلك المرة، ولا في المرات الفائته، ولا في المرات اللاحقة، لأن الله وحده يعلم أنّي كنت أتصرّف بسجيّتي، وأقول ما يمليه عليّ ضميري، فلا أتبدّى في نظر الأغيار عنيداً أو مكابراً أو مزعجاً لغرض في نفس يعقوب، ولكن تلبيةً لنداء معشوقتي الحقيقة التي صارت في حياتي هاجساً قد يتسامح بشأنه البعض، وقد يراه آخرون مثيراً للسخرية. ولكن الخلاص من لعنة الحضور في المحافل لم تقدّر لي لا في ذلك اليوم، ولا في الأعوام التالية، لأن الحكيم لم يخطيء عندما قال أن المجتمع لا يغتفر لمبدع أنجز عملاً نال الإعتراف فيعمل كل ما بوسعه كي لا يتكرّر هذا العمل بلجوئه لإغراق المعني بصنوف التكريم التي تلهيه عن نفسه وبالتالي عن عمله! ففي اللحظة التي أيقنتُ فيها بالتحرّر من الوزر وتأهّبت للإختلاء بالخلّ الوحيد الذي لم يخذلني من بين كل أخلاّئي (الكتاب) إذا بي أتلقّى مكالمة هاتفيّة من السيّد أحمد رمضان أمين سرّ القيادة ينبئني فيها بعدم قبول

Twitter: @alqareah

إعتذاري، وضرورة الحضور إستجابةً لرغبة الأغلبيّة. والمقصود بالأغلبية هنا أمرٌ انبثق عن سؤال طرحه الزعيم في لقاء اليوم السابق عن مدى الرغبة في مواصله وقائع اللقاء ليوم آخر، فما كان من المجمع إلاّ أن صوّت بالموافقة بأغلبيّة الأصوات. وهكذا وجدت نفسي مجبراً على احترام مشيئة الأغلبية، فأستقلّ مطيّة المراسم التي بعث بها السيد رمضان لأصل باب العزيزية بعد انعقاد الجلسة بثلث ساعة تقريباً. وهو تأخير لم يعفني من مراسم التفتيش فقط، ولكنّه فتح لي الباب الآخر المستخدم من قبل المضيف وحده، لأجد نفسي أواجه الجمع كلّه مباشرةً لأكتشف الزعيم وهو يوليني ظهره. بالجوار، من ناحية اليسار، فوجئت بصديقي القديم صادق النيهوم يوميء لي ليدعوني للجلوس في مقعد شاغر إلى جواره. همس في أذني قائلاً أنه وصل من مطار جربة للتوّ على متن طائرة خاصّة أقلّته من جنيف إلى الجزيرة، فساءلت نفسي عن سرّ الأهمّية الإستثنائية التي يوليها الداهية لمثل هذا اللقاء العاري من الموضوع، برغم غياب الموضوع. فالجلسة الأولى التي راهنّا عليها (نحن الذين لم نفقد الأمل في حدوث معجزة تفتح في وجوهنا حرية الرأي برغم كل عقود القمع) كانت مخيّبة للآمال. ولكن الطمع في حدوث الإصلاح لم يمت في وجدان أناسٍ حرفتهم الحلم، وكنّا مازلنا ننازع في سبيل الإنتصار للوطن الذي شاء له النظام أن يكون في قبضته رهينةً. وهي نزعة سادت مناخ اللقاء برغم الشكوك في نوايا السلطة التي تريد أن تبريء ذمّتها مما اقترفت يداها سواء في حقّ الوطن

الأبيّ والشقيّ، أو في حقّ أوطان الدنيا وأهل الدنيا ليدفع وطننا وأبناء وطننا الثمن غالياً جداً. فمهمّتنا كرسل إبداع هي تبرئة ذمّة الوطن من الآثام التي اقترفها النظام السياسي في حقّه ظلماً، والعمل على إعلاء شأن الحقيقة التي يجب أن تفرّق بين الوطن كمنظومة قيم أخلاقية واجتماعية وثقافية وبين النظام السياسي الذي يجثم على صدر الوطن. وهو ما تستطيع الثقافة وحدها أن تؤكده رغم أنف الإعلام الرسمي المبتذل. وقد عبّرت كلمة النيهوم عن هذه النزعة بالحرف المباشر عندما دعا إلى التخلّي عن الأوهام وفتح باب التعدّدية السياسية بالموافقة الفورية على نشوء الأحزاب واعتماد الإنتخابات.

وكم كنّا سعداء لأن كلمة النيهوم كشفت حقيقة القناع الذي حاول أبو منيار أن يخفي وراءه الغرض الخفيّ من تلك المسرحية وهو الإحتيال على ملّة البلهاء الأبديّين بعقد نوع من هدنة تضمن للنظام البقاء في السلطة أمداً آخر ليس إلاّ. وها هو الزعيم ينتفض كاللديغ ما أن جاء ذكر الأحزاب ليفزّ من مقعده واقفاً مسفّهاً رأي الرجل بالقول: «أليس الأفضل أن نذهب لتناول طعام العشاء؟».

في الطريق إلى قاعة العشاء اقترب منّي النيهوم ليهمس في أذني: «هل رأيت كيف سخر منّي؟ يستدعيني على عجل بطائرة خاصة من جنيف إلى جربة، ثمّ ينهي الجلسة ليسفّه وجهة نظري!».

إتّفقت مع صادق أن نلتقي في غرفته بـ«الفندق الكبير» صباح الغد على مائدة الإفطار، ولكنّي فوجئت به وقد غادر الفندق فجراً.

لقد تذكّرت السيرة القديمة التي تعود بتاريخها إلى عام 1970 أثناء إنعقاد «نَدوة الفكر الثوري» حيث إحتدّ الجدل بينه وبين عمر المحيشي عضو قيادة الثورة. فقد واعدني أن نلتقي بفندق «البحر الأبيض المتوسّط» حيث يقيم، ولكنّي لم أجده في الغرفة عند قدومي لزيارته حسب الموعد، ولا في قاعة الإنتظار، على غير عادته. ولكنّ نداء مكبّر الصوت حلّ الأحجية. إعتذر في المكالمة الهاتفية قائلاً أنه اضطرّ البارحة أن يقضي ليلته في غرفة رشاد الهوني، وعندما سألته عن السبب أجابني ضاحكاً بأنه اختلف في جلسة الأمس مع المحيشي، وهو رجل عسكري يتمنطق بمسدّس، فمن يضمن ألاّ ينقضّ عليه في الليل ليستخدم المسدّس في حقّه؟!

حقّاً ما أشبه الليلة بالبارحة!

6

لمواجهة لؤم العصابة القابعة في عشّ الخارجية تسلّحتُ بخطّة حربيّة. تأبّطتُ درويش هذا الزمان رضوان ليكون لي في الحملة تعويذةً وانطلقت به إلى سرت تلبيةً لدعوة صديقنا المشترك سيّد الذي لا أبالغ إذا قلت أنه يحيا منذ بداية الثمانينات منفىً حقيقياً، بل إقامة جبريّة مفروضة بمشيئة إبن عمّه الزعيم. وهو ما ذكّرني بوصيّة فيثاغورس التي تحرّم استخدام السكّين في تحريك النار كنايةً عن خطورة العلاقة مع ذوي السلطان الذين يجب أن نحترس في اختيار موقعنا منهم لأنهم كالنار التي تصيبنا بالضرر في الحالين: سواء بالقرب منها أو بالإبتعاد عنها: قربها حريق، وبُعدُها صقيع! وسيّد كان النموذج الذي دفع ثمن القرب لا بسبب صلة القرابة فقط، ولكن بسبب الهوية أيضاً. ذلك أن الضرر حتماً يمكن أن يكون أهون بكثير لو لم يهدهد هذا الرجل في قلبه روح الشاعر. فالقصاص في هذه الحال لا يصير مزدوجاً وحسب، ولكن يستحيل مركّباً أيضاً. إنه الشاعر الذي فرض عليه الواقع أن يحشر حساسيّته في بطن بزّة عسكرية. وهو سببٌ آخر لاغترابه. وها هو يعيش عقداً كاملاً سجين

Twitter: @alqareah

بيته في سرت في زمنٍ كانت فيه هذه الواحة خلاءً مهجوراً ولم تحوّلها نيّة النظام إلى عاصمة كما آلت إليه تالياً، دون أن ننسى ما كانت عليه في أزمنة ما قبل التاريخ كما تخبرنا المصادر اليونانية والرومانية وحتى مصادر الإخباريّين العرب أمثال البكري. عاش الرجل طوال هذه الأعوام مغضوباً عليه، مجرّداً من صلاحيّاته كلّها العسكري منها والإجتماعي والسياسي وحتى الثقافي. وقد حرصتُ على زيارته كلّما حللت بالوطن لنستعيد ذكريات الزمان المفقود: أيام الجيرة في رحاب أمّ الواحات سبها، أو زمن الطيش في بيروت قبل الحرب الأهلية، أو في مرحلة الأمل في لندن، أو في فترة الحملات الرومانسية في وارسو. يسمعني شجونه المبثوثة في متونه، وأسمعه شجوني المبثوثة في متوني. ولا نملّ مناجاة ليل الصحراء المرصّع بعناقيد النجوم حتى الصباح. الصحراء التي تنكّرنا لها، ولكنها لم تتنكّر لنا كأنها تأبى إلاّ أن تلقّننا الدرس تلو الدرس في الحِلم والتسامح وفي الغفران. وقد يتصادف وجود مظفّر النواب، أو محمد الفيتوري، أو أحمد إبراهيم الفقيه، أو شقيقه أحمد، فتتحوّل السهرات إلى ندوات أدبية حقيقية. ولكن زياراتنا إذا كانت ترياقاً لعزلة الرجل، فليس لها أن تكون بديلاً عن الحرية لروحٍ نقطة ضعفها الشفافية. ولهذا من الطبيعي أن تؤدّي هذه العلاقة الملتبسة مع النظام إلى انكسارات روحية ليس أقلّها افتراقه مع رفيقته نجاة الحجّاجي، فيزداد السجن ضيقاً، والصحراء إتّساعاً.

لم تعد سرت في تلك الزيارة عام 1992 هي سرت القديمة التي كنت أزوره فيها عام 1982.

فهي الآن ليست مدينة حقيقية وحسب، ولكنها حاضرة البلاد السياسية والإدارية. وكان من حسن الحظ أن يكون على رأس الحكومة في تلك الفترة فارس الواجب ومريد الحقيقة صديقي القديم أبو زيد عمر دوردة الذي لم يتردّد في أن يهرع إلى سيّد في وقتٍ تخلّى فيه عنه الجميع ليعبّر له عن تضامنه لا المعنوي أو الأدبي وحسب، ولكن العملي أيضاً. روى لي سيّد بلهجة تخنقها العبرة كيف عرض عليه أبو زيد تحقيق كلّ ما دخل في صلاحيّات رئيس الحكومة ضارباً عرض الحائط بذلك الحظر المفروض على الرجل، كأنّ سيّد يعتذر لي ضمناً عن كل آرائه ومواقفه السابقة المعادية لهذا الإنسان النبيل في زمنٍ كانت فيه هذه الخصلة (النبل) تلفظ أنفاس النزع الأخير في قلوب الناس.

كان أبو زيد قد عُيّن أميناً للجنة الشعبيّة العامة (رئاسة الوزراء) عام 1991 لا تكفيراً عن آثام النظام في حقّه (لأن الأنظمة الشمولية لا تكون شموليّةً إن كفّرت عن خطاياها)، ولكن لأنه الرجل الذي لا بديل له في مواجهة كابوس الحصار. فالدراما التي كُتب على أبي زيد أن يعيشها في ظلّ النظام هي كونه الشخصيّة الجادّة (شبه الوحيدة) في سعيها لعمل ما من شأنه أن يصلح أمر الناس. تبرهن على ذلك سيرته في كل الوزارات والمؤسسات التي تولّى أمرها، ويشهد بهذا التفاني كل من عمل معه أو تحت إمرته في زمن تحوّلات عصيّة عانى فيها الواقع زلازل الشطحات وأهوال الأهواء العبثيّة لتصبح

Twitter: @alqareah

مجاراة هذه الصراعات عملاً عدميّاً مستحيلاً. ففي الوقت الذي كان فيه هدف الجميع إرضاء الزعيم كان أبو زيد الإنسان الوحيد الذي سعى لإرضاء الضمير. وفي المراحل التالية التي استشرى فيها الفساد، وسادت نزعة الغنيمة ظلّ أبو زيد على وفائه لمبادئه الأخلاقيّة في العفاف، وفي الزهد، وفي النزاهة. فالمفارقة الأخرى أن يتحوّل صاحب الزهد في ظلّ هيمنة الفساد إلى جريرة تستوجب القصاص، تماماً كما يتحوّل مريد البناء في زمن الهدم خصماً، أو كما يتحوّل الدّاعي إلى النظام في زمن الفوضى عدوّاً.

فخصال أبي زيد هي التي جَنَت على أبي زيد. فالخصال الأخلاقية قوّة في نظامٍ لا يعترف بالمثل الأخلاقية منذ انحرف عن الصراط واختار احتكار السلطة، في حين تصبح القوّة في هذه الحال هي الخطر الذي يجب تجنّبه. وقد فعل النظام كلّ ما بوسعه طوال تاريخ العلاقة مع هذا النموذج المارق (من وجهة نظره) كي يختلق الذريعة تلو الذريعة لتحجيمه أو حتى للتخلّص منه، استجابةً لنداء الغوغاء، ولكن حُجّة دوردة كانت أقوى مفعولاً، لأن من المستحيل التنكيل بإنسان لا يريد منصباً، ولا يسعى لثروة، ولا ينشد وضعاً إستثنائياً، ولا يريد في دنياه إلاّ أن يؤدّي واجباً نحو وطن. من هنا كانت ضرورة إستزراع الفخاخ في طريق هذا النموذج الذي سينقلب منذ الآن في العرف السائد متمرّداً، بل عدوّاً يجب إستهدافه بأيّ ثمن تمهيداً لا لحرق أوراقه وحسب، ولكن لتسفيه نهجه أساساً. ولهذا بدأت الحملة ضدّه مبكّراً، أي منذ عُزل من منصب وزير الثقافة في 1974 ليتولّى وكيلاً لوزارة الخارجية للحطّ من شأنه. ثمّ عُزل من

منصب وزير الزراعة في 1986 ليُعيّن أميناً للجنة جبل غريان إمعاناً في ظنّ رأس النظام أنه إذلال. وها هي الأقدار تعيد له الإعتبار هذه المرّة رغم أنف النظام، لأن لا وجود لشخصية يمكن أن تُقارَن بأبي زيد كانت تحظى بالإحترام في الداخل بقدر القبول الذي تحظى به على المستوى الدولي يمكنها أن تدير شئون الدولة في مثل هذه المرحلة الحرجة التي هيمن فيها شبح الحصار.

فهل إلتزم السيّد أبو منيار بما وعد في شأن طلب رجل المرحلة بأن تتاح له فرصة العمل بحرّية دون ممارسة التدخل التقليدي الذي كان سبب الفوضى وشلّ عمل الإدارة في الدولة؟ كلّا بالطبع. فالإستفزازات الصبيانيّة ما لبثت أن بدأت ضدّ أبا زيد بدعوى أنه لم يفعل ما يجب أن يُفعَل في شأن تفكيك لغم الحصار الأممي كأنّ إنجازاً بهذا الحجم يمكن أن يتحقّق بمواهب السحر لا بدهاء السياسة التي تتطلّب في أقلّ تقدير المهلة في الوقت. كانت حملة توطين قبائل القذاذفة في ربوع الحاضرة الوليدة سرت تجري آنذاك على قدمٍ وساق. كانت واردات النفط تنفق بكاملها على مشاريع الإسكان في هذه المدينة المبعوثة من مجاهل العدم. وبرغم الإنفاق اللامحدود بيد أن الإسكان كان عاجزاً عن الإيفاء بحاجة قبائل بدأت تلتئم بعد شتات إمتدّ على رقعة صحراوية واسعة أصلها في جنوب البلاد وفرعها في سواحل الشمال. وها هي وفود هذه القبائل تتوافد على الخيمة أملاً في تيسير الإسكان، فلم يجد صاحب الخيمة سبيلاً لاتّقاء الحرج سوى تعليق الأمر على شمّاعة رئيس الحكومة الذي أُستُدعي لحضور مجلس الأشياخ. ولكن ليس من شيَم أبي زيد

المجاملة أو الإستسلام للإبتزاز. وها هو يواجه القوم في حضور زعيم القوم باستحالة إيواء الأفواج الجديدة في الوقت الراهن لأن حال أهل سرت في زمن الأزمة لن يختلف عن حال بقيّة المدن بما في ذلك غريان على سبيل المثال! لقد تعمّد أن يضرب مثلاً بغريان لأنها المنطقة التي قام بأمر لجنتها الشعبية في السنوات الأخيرة مومئاً بذلك إلى أنه لا ينوي أن يجامل صاحب الخيمة فيمنح سرت إمتيازاً عن بقيّة المدن لمجرّد أنّها مسقط رأس صاحب الشأن. فماذا فعل حاوي الزمان لينتقم؟ لقد أمر بإطلاق سراح الغوغاء ليقتحموا البنيان المتّخذ من قبل مجلس الوزراء سكناً ليستولوا على الشقق بالقوّة بما في ذلك سكن رئيس الحكومة نفسه! فبماذا أجاب أبو زيد دوردة على هذه الإهانة المبيّتة؟

لم يقم بتقديم إستقالته، ولم يهجر عمله على طريقة البعض، ولم يحتجّ على هذا العمل الهمجي، ولكنه أقسم ألاّ يبيت ليلة واحدة في سرت بعد هذه الواقعة. وكان يتمتّع بإرادة تنفيذ ما نوى كعادته. وها هو لا ينتقل بمقرّ إقامته إلى طرابلس كما توقّع الخصوم، ولكن إلى هون التي تبعد ما لا يقلّ عن الثلاثمائة والخمسين كيلو متراً عن مقرّ العمل في سرت.

هل هو عناد؟ بل هو التزام بالمبدأ الذي يهوّن الأهوال ويستهين بالمسافات، ويسفّه وزر الجسد إذا قورن بفروسيّة الروح إذا تجلّت. فهل قنع أبو زيد بهذا الجواب في حربه مع السيّد أبي منيار؟ الواقع أنه استخدم بعدها ضدّ سرت حملة إعلاميّة كان دوماً أحد فرسانها.

أليس هو مَن إذا سُئل عن وجهته أجاب بتلك العبارة التي صارت في تلك الفترة طرفةً تتندّر بها المجالس والقائلة: «أنا في طريقي إلى سرت أجارك الله!» تحدّياً للزعيم وإمعاناً في تحقير هذه البلدة الشقيّة التي استنزل الرحّالة البكري في شأنها وشأن أهلها صنوف اللعن لاقترافهم مخازٍ ليس أكبرها بيع فضلاتهم البشرية في الأسواق كأنّ التاريخ نفسه قرّر أن ينصف الرجل في صراعه مع السفلة فهرع لنجدته ليهب وصيّته في شأن سرت المبرّر الأخلاقي، في حين لا يبخل على صدقيّته حتّى حكيم الأجيال سينيكا الذي عاش قبل زماننا بألفي عام، فيزوّده بشهادة أخرى عندما يقول أن الأفاعي في سرت لا تقارن بأيّة حيّات على وجه الأرض، لا لأنّ مفعول سمومها بلا ترياق وحسب، ولكن لأن لا وجود لسلاحٍ في الدنيا يمكن أن يصيبها بمقتل حتّى أنها لا تهلك إلاّ على يد جيشٍ من الجند الذين يستخدمون صخور الجبل لتحطيم بدنها المحصّن بحراشف في قوّة الصلد؟!

فسرت التاريخيّة زالت من الوجود، ولكن روح هذه المسوخ التي عاشت على ترابها، وميّزتها عن بقيّة مدن ليبيا ما قبل التاريخ، لم تمت، ولكنّها تقمّصت أشباحاً أخرى تنكّرت في أجرام بهلوانات إغتنمت وطناً وأوقعته في الأسر على طريقة الحوريّة الأسطوريّة التي اعترضت سبيل أوليس، وأمثال أبي زيد الذين اعترضوا مسيرتها ما هم في السيرة الغيبيّة سوى تلك القرابين التي لو لم توجد لكانت تجربة التنكيل بأبناء الوطن أسوأ بما لا يقاس. وها هي القوّة الغيبيّة

Twitter: @alqareah

اللئيمة تنتقم من فارس الأصالة جزاء موقفه الشجاع من عبث البهلوان فتجرّده من منصبه فجأة إستكمالاً لفصول الملهاة لتفوز حكومة الرجل بقصب السبق في قُصر العمر!

عُزل الرجل لأنه تحدّى روح المجهول وجرح كبرياء بطل المهزلة، فهل إستوعب الدرس؟

أبو زيد لم يستسلم. بل ما لبث أن صعّدَ التحدّي من باب النكاية بالقوّة الشريرة وبزبانيتها من الخصوم. تزامنت حملَته مع تلك المرحلة العصيبة من تسعينيات القرن الماضي التي لم يكتفِ فيها النظام بإستكمال إحتكار السلطة، ولكنّه بدأ يمهّد لبدعة جديدة وهي توريث السلطة. وكان أبو زيد أوّل صوت إستنكر البدعة. لم يكتفِ بالإستنكار، ولكنه حرّر خطاباً قاسياً بهذا الشأن وجّهه لحضرة صاحب الشأن ليُلقي في وجهه بالحقيقة التي لم يكن أحد ليجرؤ على قولها في زمن ورثَ فيه الأبناء في الشارع الليبي الطغيان أيضاً عن الأب، فلم يتردّد أبو زيد في أن ينبّه الأب إلى خطورة ما انتوى في العبارة التي جرت على ألسنة الناس لأنها شفت بعضاً من غليل الناس برغم بساطتها: «إن أبناءك أكبر مسيءٍ لك!».

لم يكن من شيَم النظام أن يحرّر الفئة المغضوب عليها من جهاز الدولة، لأن الحرية داهية تستطيع أن تجعل منهم تلك القوّة التي تخافها كل الأنظمة وهي المعارضة. ولهذا إعتاد النظام أن يرشوهم بمنصب ثانوي يذلّهم به دون أن يفقدهم. ولكن أبا زيد عرّى هذه السوأة أيضاً عندما جرى تعيينه مساعداً للأمين العام لمؤتمر الشعب

العام فتندّر قائلاً أنه في واقع الأمر لا يساعد أي أمين عام، ولكنّه في هذا المنصب إنّما يساعد نفسه!

حقّاً أن الشرفاء لا يخسرون سوى قيودهم عندما يتحرّرون من المناصب. ها هو بطلنا يهجر المكان الذي ذهب إليه ليصلح أمر الليبيين، مضحّياً بالحضور في عشّ العائلة، فإذا بالمكان يعبس في وجهه، فلا يكتفي بهذا العمل المنافي لناموس الضيافة وحسب، ولكنّه لم يتردّد في أن يوجّه له الإهانة أيضاً. عاد أبو زيد ليقيم بطرابلس متّخذاً من قاعة الشعب مقرّاً لمكتبٍ متواضع ظلّ يتردّد عليه ليساعد.. ليساعد نفسه كما راقه أن يعبّر! قمتُ بزيارته في هذا المكتب مراراً لأصارحه بأني سعيدٌ لأنه تحرّر كما تحرّرتُ قبله يوم هجرت المكان الذي أهانني أيضاً لأقطع على نفسي عهداً بألاّ أتولّى في الإدارة الليبية أمراً، فلا أملك إلاّ أن أعبّر للعناية الألوهيّة عن امتناني لأنها لم تخذلني في شأن العهد إلى تاريخ كتابة هذا البيان. فيومٌ نحياه في الحريّة لهوَ أعظم شأناً من عمرٍ نقضيه في دوّامة العلاقة. قلت له زمن إستراحته تلك، التي لم أكن لأحدس أنها مجرّد إستراحة محارب، بأنّنا نحن معشر أصدقائه سعداء لأننا نستطيع أن ننعم بمجالسته كأصدقاء بعد أن تخاطفته الزوابع أعواماً طويلة، فلا نلتقيه إلاّ خطفاً في زمان تنقّله في الوزارات وتقلّبه بين المناصب. ويبدو أن اللوم أيقظ فيه شجون الشاعر الذي كانه دوماً، ولكن إفناء الذّات في العمل العام سرق منه هويّته الحقيقيّة، وها هو يستعيد تاريخ العهد الذي يرجع إلى 1970 فيبادر بتوطيد أواصر العلاقة بالدعوة إلى ممارسة ذلك الطقس الديني الأقدم من كلّ

Twitter: @alqareah

الطقوس الذي يجتمع فيه الأخلّاء حول موائد لم تكن الطعوم فيها سوى الذريعة الذكيّة لتجديد العهد القديم متوّجاً بلذّة اللذّات التي يؤكّد أفلاطون أن لا وجود لها خارج محادثة الصديق.

لكن الروح الشريرة التي تسكن كل الأنظمة سيّما الشموليّة، حسدتْ الرجل على الحضور في فردوس الحرية، فقرّرت أن تعيده إلى حضيرة ذلك البهتان المسمّى في معجمنا سياسةً، كأنها تستمتع بالنَّيْل من الطقس الأقدس عندما لاحظتْ كيف تكرّر بعد تلك المرّة مراراً سواء في بيته (البسيط العاري من ترفٍ كان عنوان تلك الأيام، ولكنه البيت العامر بروح شخصه النبيل)، سواء في بيت شقيقي حيث إعتدتُ أن أقيم في مواسم حجّي إلى أرض الوطن.

ففي منتصف التسعينيات كان الكابوس مازال يسحق بكلكله الكلّ دون وجود أمل في أن ينجلي أو يتزحزح فلم يجد أبو منيار مفرّاً من التنازل عن كبريائه وتكليف أبا زيد بتولّي أمر هذا التنّين (الجاثم على صدر الوطن كأنه غول طِيْبة الخرافي) من موقعه الجديد كمندوب لليبيا في محفل الأمم بـ نيويورك. ولا أنسى كيف استبشر الجميع خيراً لليقين السائد في كل الأوساط أنه الإنسان الوحيد المؤهّل لهذه المهمّة المعقّدة حدّ الإعجاز، سيّما بعد إخفاق كل الوساطات الدولية من قبل الأشقّاء أو الأصدقاء الذين لن ننسى حسن نوايا بعضهم، كما لا يجب أن ننسى سوء نيّة بعض هؤلاء أيضاً، بل جلّ هؤلاء الذين لم يتردّدوا في أن يتاجروا بمصاب وطننا ليكسبوا من ورائه صفقات نفعيّة. وقد صارحتُ الرجل بيقيني هذا عندما مرّ بـ بيرن لاستخراج التأشيرة الأمريكية، قائلاً بالحرف: «إذا لم يأتِ

الفرج على يديك في هذه القضيّة فليس لنا أن نأمل في فرَج!».
وبالفعل لم يخذلنا أبو زيد في ما عاهد الله عليه. وكان عليه أن يخوض الحرب على جبهتين لا جبهة واحدة. ذلك أن حصان طروادة المتمثّل في اللجان الثوريّة بالداخل كان عقبة أكبر أمام الحلّ إذا قورن بالخصم الأول في المعادلة الدولية وهو أمريكا التي ترفض التنازل عن إستعلاء القوّة العظمى وتصرّ أن تجري محاكمة المشتبه بهما على أراضيها لا على أرضٍ محايدة كما تقترح السلطات الليبية.
ولمّا كانت العقدة الأصلية في القضية هي انعدام الثقة بين الفريقين، فإن مهمّة أبي زيد الصعبة كانت في إقناع محفل الأمم بجدّية السلطات الليبية في تسليم المتّهمين في حال ضمن المحفل طرفاً ثالثاً محايداً كمكان للمحاكمة. والتاريخ لن ينسى لأبي زيد تلك المبارزة البطولية التي خاضها في مجلس الأمن ضدّ إنسانٍ ناكرٍ لأفضال ليبيا عليه وهو روبرت موغابي عندما كانت دولة الأخير رئيسة لهذا المجلس، فلم يستحِ أن يعبّر عن شكوكه في جدّية ليبيا بالتسليم فرمى أبو زيد بقفّاز التحدّي في وجهه قائلاً أنه على استعداد أن يأتي بالمتّهمين إلى قاعة هذا المجلس فيما إذا ضمن المجلس محاكمتهما في بلدٍ ثالث. ويجب أن نعترف أن الجهود التي بذلها مانديلاّ لم تكن لتثمر في تيسير خروج القضيّة من عنق الزجاجة لولا دور أبي زيد في محفل الأمم لا على المستوى الرسمي وحسب، ولكن على المستوى الشخصي أيضاً. فما لم يعتده مندوبو الدول الأجنبيّة المعتمدين لدى محفل الأمم هو وجود مندوب ليبي بخصال أبي زيد سواء الفكريّة أو الأخلاقيّة. ذلك لأننا كثيراً ما نخطيء في حقّ الحقيقة عندما نتوهّم أن المزايا الإنسانية هي ما يمكن أن يُخفى.

فالمواقف تعلن عن نفسها بصريح العبارة دون الحاجة لاستخدام العبارة. فالنزاهة أو الشجاعة أو الصدق أو الوفاء أو الحبّ أو غيرها إنّما تخاطبنا بالأصالة عن نفسها في مسلك الآخر دون حاجة لتدخّل العضلة التي لم يحسن بها الكتاب المقدّس الظنّ عندما وصفها بـ«الخبيثة التي لا تُضبط»! وقد حدّثني أبو زيد كيف كان مندوبو الدول، سيّما الدول العظمى، يسألونه في أية دولة أجنبيّة تلقّى تعليمه. وكانوا لا يخفون دهشتهم كلّما كان يجيبهم بأنّه لم يتلقّ تعليماً في أيّة دولة أجنبيّة خارج ليبيا. وأحسب أن من حقّهم أن يتعجّبوا، لأن من عرف النماذج التي كان النظام يبعث بها للعمل في بعثاته في العالم وحده يملك الحقّ لا في أن يتعجّب وحسب، ولكن في أن يستنكر، إذا التقى نموذجاً كـ أبي زيد. ولكن... ولكن اللغم الحقيقي الذي على أبي زيد أن يبطل مفعوله لإنجاز الحلّ كان ينتظره في الدّاخل، لا في محفل الأمم.

فاللجان الثورية التي مارست الإرهاب في الداخل والخارج لم تكن لتسمح بالتسليم أصلاً، بل قادتها هُمْ مَنْ كان وراء كل العراقيل التي أبطلت مفعول كل الحلول منذ بداية الأزمة بسبب تمسّكهم بعدم التسليم، حيث أقنعوا صاحب النظام بنظريّة تعجيزيّة تقول أن أي محاكمة لهذين المتّهمين لن تكون محاكمة لشخصين، ولكنّها محاكمة للنظام نفسه، وبالتالي لرأس النظام!

وكان على أبي زيد أن يخوض معركة ضارية في سبيل إبطال مفعول هذا اللغم اللعين لا بكتابة المذكّرات للقيادة، أو استعمال نمور اللجان الثوريّة الذي كانوا آنذاك هم الحكّام الفعليّين، كما كان

يفعل كل من سبقه في هذا المنصب، ولكنه استقلّ الطائرة وعبر المحيط ليجتمع مع صاحب الشأن رأساً. هناك، داخل أسوار باب العزيزية، واجه الرجل صاحب الأمر بما لم يجرؤ أحد أن يواجهه به. وقد حدّثني كيف استعر الجدل بينهما حول مسألة التسليم بأعلى صوت. وكان اللجانيّون يخشون هذا اللقاء أكثر من كل شيء لسببين: أوّلهما وزن أبي زيد وجرأته المعروفة في كلّ ما يتعلّق بما يراه صواباً، وهي مؤهّلات كافية في موقفٍ كهذا للإقناع، وثانيهما: عداوة أبي زيد القديمة لحركة اللجان الثورية، بل وحملته الإعلاميّة على أعضائها منذ تأسيسها وهو الذي تندّر دوماً بعبارة صارت مثلاً في تلك الأيام: «كل حركة بركة! إلاّ حركة اللجان الثورية!». ولهذا لن يتردّد في أن يفعل كل ما بوسعه كي يفقدهم السلطان لدى صاحب السلطان، والفرصة أمامه متاحة هذه المرّة. وقد حدّثني أيضاً كيف حام حول مجلسه مع الرجل زبانية دسّهم زعماء اللجان كي يتجسّسوا على اللقاء، فكانوا يقتربون كلّما تعالت الأصوات ليهرّوا في وجهه كالكلاب المسعورة: «بأيّ حقٍّ تصرخ في وجه القائد؟»، ولكنه لم يتردّد في أن يطردهم بروحٍ تعمّد أن تكون عدوانية ليوحي لصاحب الشأن بأن المسألة لم تعد مسألة بروتوكولات أو مجاملات، ولكنها هذه المرة بالنسبة للنظام مسألة أن يكون النظام أو لا يكون، أي واقعياً مسألة حياة أو موت. ولو لا هذه النزعة في حملته تلك لما أفلح في انتزاع الموافقة على التسليم!

Twitter: @alqareah

فبماذا كافأ النظام أبا زيد عمر دوردة بعد نجاحه في تبديد شبح الكابوس؟

لقد أعلن ورم الأنظمة الشمولية عن نفسه في الحال، فلم يغفر للرجل هذا النجاح، وكان من الطبيعي أن يقتصّ منه أسوأ قصاص لا بإعفائه من مهمّته كمندوبٍ دائمٍ للبلاد لدى محفل الأمم وحسب، ولكن بتعيينه في أسوأ منصب يمكن أن يخطر له على بال وهو تولّي جهاز لعين ظلّ في تاريخ ليبيا بمثابة الدّاء المجهول في عقب البطل الأسطوري أخيلوس وهو: السكك الحديديّة!

إنّه المشروع القائم منذ 1969 ولكنه لا يقوم أبداً. وقد ارتكبت السلطات أخطاء لا تُغتفر في مسيرة هذا المشروع منذ عشرات السنين فأنفقت المليارات على البعثات الطلابيّة خارج البلاد لتأهيل كوادر التسيير دون أن تفلح في إنشاء السكك المفترض أن تستوعبهم بعد تخرّجهم!

وها هو النظام يضع هذه المشروع الخرافي شَرَكاً لأبي زيد بعد أن فشل الجميع في تنفيذه موحياً بذلك للعامّة أن القرار جاء تلبيةً للقناعة السائدة بأنه الوحيد القادر على حلّ عقدة السكك بوصفه رجل المهام الصعبة، ولكن القلّة وحدها تعلم أن القرار لم يكن في حقيقته سوى نكاية بالرجل، لأنه الإنسان الوحيد الذي جاهر بعداوته لهذا المشروع منذ البداية ليقينه بعدم جدواه الإقتصادية في بلدٍ كليبيا. فكيف يتمّ تكليف إنسان بالدعوة لرسالةٍ لا يؤمن بها إن لم يكن في الأمر نيّة مبيّتة؟

ولكن أبا زيد تسامح مع هذه النكتة أيضاً وذهب ليحمل الصليب

Twitter: @alqareah

بروح الإيمان بالواجب بقطع النظر عن رؤيتنا لهذا الواجب، فهل تسامح النظام أيضاً مع وفائه في الدعوة إلى الرسالة الجديدة؟

كلاّ، بالطبع. فالعبث كان عقيدة النظام، وطبيعي لهذا السبب أن ينكر على أبي زيد إخلاصه لعمله، لأنه بهذا إنّما أفسد عليه مكيدته ضدّه. وها هو يصدر قراراً جديداً، لن يقلّ عن سابقه عبثيّةً، القاضي بتعيينه رئيساً لجهازٍ أكثر تعقيداً حتّى من مشروع السكك الحديدية وهو: البنية التحتيّة. وهي تسمية غامضة لأنها تخفي منظومة أخطبوطيّة لن تختلف شبكتها عن متاهة مينوس الأسطوريّة، أُعدّت خصّيصاً كشَرَكٍ أخير لإفشال مسعاه وتحطيم أسطورته في نظر الناس. ولكن أبا زيد خيّب ظنّ الأخطبوط وحمل صليبه بالتفاني ذاته الذي حمل به صليب عشرات الوزارات والمؤسسات والإدارات منذ 1969 دون أن يجني من هذا الوِزْر سوى الإنكار. فهل إستسلم النظام في حربه ضدّ الوفاء؟

كلاّ بالطبع. فليس من شيَم الأنظمة الشموليّة أن تغتفر القيَم، لأن رسالتها أن تنهش لحم أبنائها. وها هي تبتدع الحيلة الأخيرة في الملحمة فتقوم بتعيينه رئيساً لجهاز الأمن الخارجي خصّيصاً كي تستعين بطهارة الرجل في محو آثام هذا الجهاز السيّء السمعة!

والمدهش حقّاً ليس أن تلجأ القوّة العمياء لهذه الحيلة، ولكن أن تنطلي الحيلة اليوم على فرسان الأحلام القتيلة الذين جاءوا بالخلاص وورثوا الحكم، ليسوقوا الضحيّة إلى ساحة القضاء ليحاسبوا الضحيّة بخطايا الجلّاد!

Twitter: @alqareah

7

هذا الإنسان الباسل، المجبول بروح الأوائل، والمغترب عن بيئته الروحية، هو من استقبلني في مكتبه في ذلك العام، بعد فراقٍ دام منذ 1987 عندما زرته آخر مرّة أثناء منفاه في بلدية غريان، برفقة صديقينا المشتركين مظفّر النوّاب ووليد الحسيني، لنقضي بمعيّته التي لا تُملّ يوماً كاملاً في ذلك الزمن الذي هيمن فيه شبح الإفلاس السياسي على واقع العالم العربي كنتيجة لإفلاس الأيديولوجيا السوفييتية التي راهنت عليها الأنظمة التي تبنّت في سياساتها ما يسمّى بـ«النهج التقدّمي». إفلاس سياسي سبقه جمود ثقافي أيضاً. وكان من الطبيعي، بل والضروري، أن نطلب العزاء، في محنة غياب الأمل تلك، لدى أناسٍ أمثال أبي زيد لم يتسلّلوا إلى الثقافة من باب السياسة، ولكنهم ولجوا باب السياسة من حقل الثقافة، عكس الأغلبية الساحقة آنذاك. ولم تكن ملّة المثقّفين لتطمئن إليه لهذا السبب وحده لو لم يتميّز الرجل عن الأغيار بخصال إنسانية قد يكون العمق الروحي أحدها، ولكنه ليس قطبها. ولولا هذه الخصال لما اطمأنّت روح شفافة وشاعرة مثل روح رضوان (الذي صاحبني في تلك الزيارة) فتتفتّح وتستشعر الأمان إلى الحدّ الذي تسمح فيه

Twitter: @alqareah

لنفسها بمخاطبة إنسان لم ترتبط به بصلة حميمة (بقطع النظر عن مركزه كرئيس حكومة) بعبارة مازلت أذكرها حرفياً هي: «كيف تستطيع بالله التعامل مع هذا المستنقع؟!». المستنقع المعني هو الواقع الليبي بالطبع بكل أجناسه وشرائحه وفئاته ومستوياته. لم يستنكر أبو زيد سؤال راديكالي كهذا لسببٍ بسيط وهو حبّه لأهل الحلم الذي يجعله يغفر لهم ما لا يغفره لسواهم، ثم جمال الروح الذي خصّته به الأقدار فيفترض حسن النيّة التي تشفع لأرذل زلل. وها هو يجيب رضوان بعبارة مازلت أذكرها حرفيّاً أيضاً وهي: «أسمح لنفسي بالتعامل مع هذا المستنقع لأني الإبن الشرعي لهذا المستنقع!».

لم يشعرنا أبو زيد بانشغاله وهو المغلول بشئون الدولة الليبية الشائكة بأسرها على الرغم من نزولنا عليه بدون موعد مسبق في وقتٍ سنّ فيه نظاماً جديداً منع بمقتضاه استقبال رؤساء اللجان الشعبية النوعية والسفراء بشقّيهما الليبي والأجنبي، كما أخبرني أمين سرّه القديم الذي رافقه منذ عقود علي المقطوف. ولكنه اغتفر لنا هذه الزلّة أيضاً لا لهويّتنا الثقافية أو الشخصية وحسب، ولكن بسبب انتمائه إلى ملّة الدراويش أيضاً.

استقطعنا من وقته النفيس أكثر ممّا يجب في تلك الزيارة، وهو ما أبَتْ شيمه النبيلة أن تشعرنا به أيضاً. وها هو يستجير بروحه الفروسية المعهودة فيفاتحني عمّا إذا كنت أرغب في العودة إلى بولندا. لم يكتفِ بهذا، ولكنه أبدى استعداده لأن يصدر قراراً بهذا الشأن **الآن** فيما إذا شئتُ. قال «**الآن**» ليترجم نزعته المعادية للروتين

Twitter: @alqareah

الإداري التي ميّزته عن كل وزراء ليبيا عبر تاريخها الحديث حتّى صارت في ألسنة الناس مثلاً بطوليّاً يُحتذى بالمقارنة مع أقرانه الوزراء المكبّلين بأغلال الجنّ البيروقراطي الذي لا يُقهر.

لقد فاجأني أبو زيد بالعرض لأنّي ظننت أن تجربة بولندا الموجعة هي صفحة مطويّة بالنسبة لي إلى الأبد، دون أن أجهل الرسالة الخفيّة المخبّأة خلف حرف العرض. لقد أراد هذا الإنسان العظيم أن يبرهن لي على تعاطفه معي في الحملة اللئيمة التي شنّتها قوى الشرّ ضدّ شخصي سواء في بولندا نفسها أو داخل ليبيا طوال الثمانينيات. وما قصده بالقرار ليس أن ينصفني وحسب، ولكن أن يردّ لي اعتباري أمام السلطات في البلدين. لم يستطع أن يفعل ذلك في الزمن الصعب الذي عانى فيه هو أيضاً من القمع، فتزامن هذا القمع مع اختلاط الحابل بالنابل ممّا حال دون مواجهة الظلم.

شكرته في ذلك اليوم على حسن الظنّ، وصارحته بأنّي لا أنوي أن أعود إلى بولندا، ولكنّي أنوي أن أطلّق شرق أوروبا كلها بما في ذلك روسيا، لا لنزوةٍ في نفسي، ولكن رحمةً بصحّتي ورغبةً منّي في عمل ما من شأنه أن يعين في إيقاف نزيفي.

لم يفتني أن أحدّثه بموقف الخارجية التي تسمح لأصغر موظّفيها درجةً أو شأناً أن يتلقّوا العلاج بدولٍ أخرى عندما يتعذّر علاجهم بالدول المعتمدين لديها في حين تبخل بهذا الحقّ (المنصوص عنه في لائحة العمل بالخارج) على أمثالي، لا لشيء إلاّ لأنّي لا أنتمي لكادرها الوظيفي، ولا أتلو صلواتي في أروقة معبدها الوثني! وكل

ما أرجوه، إن أمكن، هو تسهيل انتقالي من بعثة موسكو إلى بعثة بيرن لغرض استكمال العلاج الذي بدأته في 1988، كما تقضي اللوائح المعتمدة.

كنت أعلم أن استصدار قرارات الإيفاد للعمل بالخارج صارت أخيراً من اختصاص رئيس الحكومة، ولكن استصدار قرار بشأن نقل موظّف بإحدى السفارات إلى سفارة أخرى، بقي خارج نطاق اختصاصات رئيس الحكومة، وظلّ ضمن صلاحيات الوزير المختصّ، وهو وزير الخارجية الذي لم يكن في تلك الفترة سوى السيّد إبراهيم البشاري الذي عرفته منذ سنوات طويلة عندما تولّى وزارة الإعلام والثقافة، ولكنّي لم أشأ أن أعرض عليه الأمر قبل الإستنارة برأي أبي زيد لا بصفته كرئيس للوزراء، ولكن بصفته كصديق. فبماذا أنجد أبو زيد؟

لقد أمر في الحال بتحرير خطاب موجّه إلى وزير الخارجية بالخصوص لاستصدار قرار النقل، ولم يسمح لي بالإنصراف قبل أن يحمّلني الخطاب الممهور بتوقيعه الذي لم تكن قيمته بالنسبة لي لتكمن في هويّته كخطاب صادر من أعلى سلطة إدارية في البلاد، ولكن في حقيقته كوثيقة زهقت باطلاً واستعادت حقّاً ضائعاً، لتصير بهذا تميمةً لتحقيق الحرية ببعديها الروحي والبدني: فالعافية إذا كانت حرية الجسد، فإن الحرية هي عافية الروح.

8

ليس النشاط النفعي في عالم البشرية وحده المغلول باللعنة، ولكن النشاط الإنساني كلّه مجبولٌ بالإثم. ولهذا تفضي كل حلقة من حلقات المسعى إلى حلقة أخرى من حيث توهّمنا أن الخلاص إنّما يكمن في حلحلة الحلقة الأولى. إنه السباق المحموم الذي أنتج أمثولة سيزيف، ومن الطبيعي أن يفضي إلى الإيمان بالوصيّة عن باطل الأباطيل. فالحملة الحربية ضدّ الإرادة قد تقتل الأمل، ولكنها لا تقيل من الحياة؛ لأن الموت هو البعبع الذي لا يجب أن نخافه، كما أنه الخيار الذي لا يجب أن نطلبه أيضاً بإجماع سدنة الحكمة. وهو ما يعني أن الإنسحاب من الدنيا ليس رديفاً للإنسحاب من الحياة كما تتوهّم الأغلبية. وعندما نطلب عافية الأبدان فهو ما لن يعني تعلّقاً بالدنيا أو انتظاراً لهبات الدنيا، ولكنّه ممارسة لحقّ البقاء على قيد الحياة. وهو ما لا يجيرنا من دوّامة لئيمة تخفي سرّ الوجود برغم استهانتنا بها وهي: قضاء الحوائج! ولهذا يبدو الإنتقال من وطنٍ (هو مجرّد مكان موبوء الأهوية ومريب الأهواء إلى مكانٍ آخر أرحم طبيعةً) ضرباً من ترف، بقدر ما يكون ترياقاً لجسدٍ هو أبسط حقّ للإنسان ما ظلّ على قيد الحياة. ولكن لا وجود لمنطقٍ يمكن أن

Twitter: @alqareah

يقنع الفئة التي تعاني من مرض الروح برغم تمتّعها بعافية الجسد، لأنها تقيس كلّ شيء بمقياس الأرومة التي تسكنها، ولهذا ترى في كل فعلٍ غنيمةً يجب الإستئثار بها من دون الناس جميعاً. فإذا أُضيف لهذه الخصلة رذائل أخرى كالجهل أو الحسد أو الأنانية أو الجشع، كما هو الحال مع الخشارة التي تستوطن الخارجية الليبية، فإن هذا مبرّرٌ كافٍ لإعداد الأشراك وحبك صنوف الكيد على نحوٍ لن يجدي معه لا حرف القانون، ولا نصوص اللوائح، ولا قرارات الوزراء، ولا أحكام الحكومة، ولا الأسباب الإنسانية، بل ولن تشفع في شأنه حتّى النواميس الإلهية!

فكم نحن أمّةٌ بَلهاء عندما نحسن الظنون بالحسود، ولا ندري أن مخلوقاً كهذا ليس على دين الله، ولكنّه على دين عدوّ الله. وحسن الظنّ هو ما يحوّلنا بأيدي أمثال هذا النموذج ضحايا دوماً فندفع الثمن غالياً. والمأساة لا تكمن في الضرر الذي نناله على أيدي هؤلاء، ولكن في عجزنا في أن نعاملهم بالمثل، لا تسامحاً منّا، ولكن لأننا لا نملك مواهبهم فنحاربهم بأساليبهم!

لم يكتفوا بالتآمر، ولكنّهم لم يستحوا من أن يشيعوا في الأوساط السياسية والثقافية أنّي مصاب بورم مميت مترجمين بذلك أمانيهم، ولم يدروا أن أورام الدنيا تهون إلى جانب الورم الذي كانوه هم بالنسبة لي. وها هي العناية الإلهية تخيّب ظنّهم عندما بعثتني من عدم وابتلتهم هم.. فإلى متى، أيّتها الروح الشقيّة، تحترفين الدفاع عن النفس حتى صار لك قدراً عبثيّاً لن يقارن إلاّ بعمل سيزيف؟

9

الحوائج!

حوائج دنيانا، كوجودنا في الدنيا، سمٌ زعاف لا ترياق له سوى الموت.

الحوائج كالخدشة التي قد نستهين بها، أو نتجاهلها، أو نرجيء علاجها، ولكن كل ذلك لن يجدي مع طبيعتها الخبيثة القادرة على أن تتحوّل ورماً يقلب حياتنا رأساً على عقب. فالعيش في حظائر العمران كلّه حضورٌ في شبكة معقّدة وثريّة من الحوائج التي لا حدود لها بقضائها، ولكنها تتناسل وتتكاثر بتصفيتها، والخلاص الوحيد من لعنتها يكمن في وأدها في مهدها. وهو ما قد يستقيم في رحاب الحرية، ولكن هيهات أن يتحقق في حبوس العلاقة. ولهذا السبب صارت الصحراء، في شأن الحوائج، فردوساً بالمقارنة مع عالم العمران، لأن الصحراء وحدها تستطيع أن تضغط الحاجة إلى حدودها الدنيا لأنها البرزخ الملتحم بالموت. فعبثاً يحاول مريد الحرية أن يقنع بأنه يمارس حقّاً مكفولاً بحرف القوانين الوضعيّة كلّما عنّ له أن يدفع الصخرة اللعينة إلى شعفة الجبل كرّةً أخرى، لأن التكرار هو عمل لا أخلاقي، وبالتالي، مخلّ برغم قانونيّته.

Twitter: @alqareah

فاستخراج الحقوق الواقعة بين أيدي الناس هو نوعٌ من استجداء لحسنات (في عرف كل روح شفافة) مهما حاولنا أن نحكّم في شأنه حرف القانون، أو حتى شرع الإله. هنا تكمن علّة الإحساس بالعار. إنه في نظر الفطرة ليس عاراً وحسب، ولكنّه إثم. فالفطرة لا تنزع عن قضاء الحاجة قناع الصفقة الدنيوية فقط، ولكنها تأبى إلاّ أن تلبسه مسوح الفضيحة الدينية! ولذا لا وجود لقصاص في حقّ إنسان الحرية (لأن الفطرة دوماً حرية) أسوأ من المثول بين أيدي الناس لقضاء حاجة مهما حاول أن يقنع نفسه أن هؤلاء الناس هم مخوّلون لأنهم أصحاب اختصاص. وكم مرّة غالبتُ هذا الإحساس المثير للغثيان كلّما طرقت باب هذه المقصلة، ليقيني الخفيّ بأني أقترف ذنباً لا يُغتفر. وما زاد محنتي في كل مرة هو جهلي بالكيفية التي يجب عليّ أن أكفّر بها عن هذه الخطيئة. والمريب هو أن هذا الإحساس يتضاعف في حال كان من قصدتُ هو مِن مَن ربطتني به علاقة سواء أكانت صداقة أو حتى معرفة عابرة، حتى لو كانت هذه الحاجة أتفه حاجة كاستخراج شهادة ميلاد، أو طلب الحصول على جواز سفر!

هذا يعني في الواقع أن واقع الحياة الحضرية ما هو سوى الدوّامة الدنيوية المطبوعة بأختام الإثم، بدليل أن إنساناً بريّاً كالعدوس لم يحتَج في واقع الصحراء لا لشهادة ميلاد، ولا لجواز سفر، ولا لوثيقة إثبات الهوية، ولا لمستند حسن السيرة والسلوك، ولا لقرارِ إيفادٍ بأيّ مكان. لا يحتاج لكل هذه الإضبارة من الوثائق للبرهنة على

وجودٍ على قيد الحياة يروق أبالسة الحضارة أن يبخلوا به عليه، وينكّلوا به في سبيل الحصول عليه، فلا يشفع له في هذا الإنكار حتى حضور شخصه في حضراتهم. وهو ما يعني أن على الإنسان الذي نزح من ملكوت الحرية ونزل أرض الدنَس المدعوّة عمراناً أن يتنازل عن كرامته قبل أن ينتهي به الأمر إلى التضحية بحريّته. فالناس لا يعترفون بوجود الناس ما لم يبرهنوا على وجودهم بورقة. أي أنهم مشكوكٌ في وجودهم برغم حضورهم لحماً ودماً بينهم ما لم يُثبَتْ هذا الوجود بإبراز ورقة ممهورة بختمٍ ومذيّلة بإمضاء.

أفلا يبدو نظام كهذا سخريةً من جلالة الحقيقة واستهتارٌ بناموس الوجود؟

فالحضارة إذا كانت مفهوماً أخلاقياً في المقام الأول، فإن هذه التجربة تترجم روحاً عدميّة، بل وعداوة مبيّتة ضدّ الأخلاق. وليس غريباً أن يكون أئمّة الزهد في مطلع من نبّه لخطورتها عندما أوصى حكيمهم القديم قائلاً: «لقد استعنّا على قضاء حوائجنا بالإستغناء عنها!». فهل يسمح لنا هذا الزمان باعتناق وصيّة كهذه دون أن نجد أنفسنا روّاد سجون؟

10

في أزمنة البلبلة كالّتي كُتب لوطني أن يعانيها في تلك الأعوام ليس لأمثالي أن يراهنوا على القوانين في تيسير حوائجهم الدنيوية، ولكن على ما تسخّره لنا العناية الإلهيّة من رسل لم نعوّل عليهم، في وقتٍ خذلنا فيه أولئك الذين انتظرنا منهم العون بوصفهم هم المخوّلون بحرف الواجب سواء أكان ذا طبيعة أخلاقيّة أو قانونية. وعلّ موقف إبراهيم البشاري سواء في 1992 أو قبلها في 1981، لهو أكبر برهان على هذه المفارقة فيما إذا قورن بموقف كامل المقهور في 1985. وهو ما يعني أن تميمتنا التي يجب أن نحكّمها في هذا الشأن ليس العلاقة (ببعديها الشخصي أو الروحي)، ولا الهويّة (التي يحاول الطرف الآخر أن يقنعنا بأصالتها)، ولكن القاضي في هذه الحال هو: المعدن!

فالعلاقة التي ربطتني بالسيّد البشاري لم تجتز حدود الإحترام المتبادل، في حين ضلّلتني أوهامي عندما أحسنت الظنّ بالسيّد المقهور فحسبته قريناً روحيّاً لمجرّد أنه عاند الأدب يوماً، فإذا بقناعه يتكشّف عن عدوّ ما أن واتته الفرصة عند تولّيه لحقيبة الخارجيّة في منتصف الثمانينيات. هذا في حين تحلّى السيّد البشاري بروح

Twitter: @alqareah

الفروسيّة في الموقف من المجلّة الثقافيّة الصادرة بمقتضى قرار رسمي من جهات الإختصاص بالدولة، فإذا بمسؤولي الدولة يناصبون هذا المنبر العداء لا لشيء إلاّ لأن الثقافة آنذاك كانت الحلقة المفقودة في آلة الدولة التي لا تهمّ أحداً وحسب، ولكنها الشأن المشبوه الجدير بأن يناصب العداء أيضاً. وها هو الدرويش الذي توهّم أنه حقّق نصراً بتشييد منبر هو بمثابة قنطرة للحوار بين الثقافات في قلب حلف وارسو المعادي للديانات، يجد نفسه في ورطة لأن الجهات المعنيّة لا ترعى سوى المشاريع ذات الطبيعة النفعيّة أو الأيديولوجيّة، والبقيّة الباقية تحطّ من شأن عملٍ كهذا، لأنها تحسبه وسيلة لتحقيق أمجاد شخصيّة، فتحاربه من موقف الحسد. وسوء حظّ الدرويش أن يعاند عملاً كهذا في زمن هيمنة الفوضى على كل مستوى ليتقهقر النظام مفسحاً المجال للمزاج الشخصي ليتولّى حكم البلاد بالإنابة طوال تلك المرحلة العصيبة في كل شيء. لقد شهد ذلك العهد غياباً مطلقاً للمسئوليّة لتتحوّل الأهواء هي الدين. ولهذا السبب لم يكن لي أن أقرأ في التجربة مع البشاري سوى الموقف الشخصي من شخصي أوّلاً، ومن شأن عامّ ثانياً وهو الثقافة من خلال موقفه الداعم لإصدار المجلّة.

فألاّ نحسد على شيء مّا وحده رحمة ألوهيّة ونعمة كبرى. فإذا لم يُتّخذ ضدّنا حكم مسبق بوحي من كيدٍ، كان ناموس تلك الأيام، رحمة أخرى ونعمة أكبر. والبشاري في واقع الغوغاء آنذاك كان في طريقي استثناء للقاعدة. وهو ما برهن عليه في المرّة الثانية أيضاً

Twitter: @alqareah

عندما استقبلني في مكتبه كوليّ لأمر الخارجية في أحد أيام عام 1992 عندما بلغت الضغوط الدولية ذروتها فتزامنت زيارتي له مع صدور الدفعة الثانية من حزمة العقوبات الأممية التي تضمّنت أيضاً تقليص مستوى التمثيل في السفارات، بل وتقليص عدد أعضاء البعثات الدبلوماسية إلى حدٍّ صار سابقة في تاريخ العلاقات الدولية.

إنها حملة تضييق الخناق التي حوّلت ليبيا إلى قمقم لا حضور له فعليّاً في العالم، برغم وجوده جغرافيّاً في قلب العالم.

كانت العودة الجماعية لسفرائنا في القارات حديث الساعة، وقد صاحبها عودة أفواج الموظّفين تنفيذاً لقرار تقليص الأعضاء في البعثات أيضاً، ممّا يقلّص الأمل في وجود أي خانة شاغرة بأي سفارة لنا في بلدان الدرجة العاشرة، فكيف ببلدان الفئة الأولى (حسب تصنيف لائحة العمل بالخارج) كما هو الحال مع سويسرا؟

أخجلني أن أطرق باب الرجل في ظلّ تلك الظروف، وأعترف أنّي لم أعوّل على قضاء أي حاجة عندما جالسته في ذلك اليوم، ولكنّي فوجئت به يلاقيني بالروح القديمة التي تريد أن تسدي معروفاً لا لشيء إلاّ لأن ذلك يسعدها. وها هو يستدعي مدير مكتبه ليأمره باستصدار قرار النقل فوراً. وعندما استوقفته قائلاً أنّني عليمٌ بالظروف، ولا أنوي أن أسبّب له حرجاً فيما إذا تعذّر وجود خانة شاغرة ببعثة بيرن. لحظتها كشف ذلك الإنسان عن معدنه الأصيل عندما أجاب قائلاً أنه سوف يستصدر قراراً بنقل موظّف لتحرير المكان فيما إذا تعذّر وجود المكان. قلت له أنّي أفضّل أن أعاند

Twitter: @alqareah

المرض على أن ألحق الضرر بأحد. ولكنه أَبى إلاّ أن يكبّلني بدينٍ أبَديّ عندما أعلن أنه سوف يعمل على نقل الموظّف المعني لا إلى الداخل، ولكن إلى سفارة أخرى في بلدٍ أفضل كي يجيرني من تبكيت الضمير!

لم يكتفِ بذلك، ولكنّه أخجلني بالثناء على شخصي كأنه يريد أن يبرهن أن الخصال الأصيلة ليس ممّا يمكن أن يُخفى، وهو ليس جاهلاً بأمري برغم أن الزمان لم يجمعنا إلاّ نادراً، ثمّ ذكّرني بجلستنا على مائدة العشاء بأحد مطاعم وارسو (عندما قام بزيارة خاطفة لبولندا مع إبراهيم بجاد)، فتقاسمنا طعوم الروح عندما تجادلنا حول «الخبز الحيّ»، الممنوح في أجواء الحرية، و«الخبز الميّت» المبذول في غياب الحرية. ثمّ أضاف أن وجودي في بعثة بيرن فخرٌ للوطن حتّى لو لم يوجد الظرف الصحّي، فكيف بوجود هذا الظرف؟

لا أريد أن أخطيء في حقّ الرجل فأرجع الفضل إلى خطاب أبي زيد الذي لعب دوراً هامّاً بلا شكّ، ولكن تجربتي مع كهنة الإدارة الليبية تقول أن الحكم في مثل هذه الأحوال ليس للقوانين السارية، ولا لمشيئة الدرجة في المنصب، ولا حتى لأوامر السلطات العليا، ولكن الحكم يخضع لناموس العلاقة وما تمليه هذه العلاقة من شروط. أي أن قضاء الحاجة في هذه الحال رهينٌ بالموقف الشخصي من شخص مريد الحاجة سلباً كان أم إيجاباً. وهي نزعة لم تنتعش في واقع الإدارة الليبية في مرحلة انحطاطها الموجع وحسب، ولكنّها إفراز منتَج بمشيئة الأنظمة الشمولية إجمالاً على نحوٍ يؤكّد أمثولة

كافكا عن متاهة الروتين لا في بعده الكينوني وحده، ولكن في بعده الغيبيّ أيضاً. ذلك أن مسألة قضاء الحوائج تمتلك أيضاً بعداً غيبيّاً إلى جانب بعدها الدنيوي. وإلاّ لماذا تخذلنا تلك الفئة التي عوّلنا عليها دون سواها في قضاء حوائجنا؟

لقد حيّرتني هذه الأحجية دوماً، وتأمّلتها مراراً طلباً للحلّ. فنحن لا نعوّل على هذا المخلوق أو ذاك عبثاً، ولكن لوجود أسباب. فالأَوْلى في نظرنا أن يهرع لنجدتنا ذوو القربى، فإن لم يكن، فالأخلّة، فإنّ لم يكن فمن عرَفْنا، فإن لم يكن فأخيار الدنيا. ويجب أن نلاحظ كيف نميل إلى وضع سلالات الأخيار في الدرجة الدنيا في سلّم التصنيف. وهنا تكمن خطيئتنا. ذلك أن مقياس الغيوب يختلف كلّياً عن مقياسنا ما دام مبدأ الخير هو قاضي القضيّة. فالخفاء لا يعترف بصلات القرابة، ولا وجود في عرفه لصداقة، ولا لمعارف، ولكنّه معنيٌّ بالثنائي الخالد: الخير والشرّ. ومن الطبيعي أن نُخذل في سعينا ما دمنا لا نستطيع أن نضمن سرائر من اخترناهم كي يتولّوا عنّا قضاء حوائجنا أمام محكمة الغيوب التي لا تنطلي عليها الحيلة، ولها القدرة على قراءة ما استخفى. في ساحة هذا القضاء النافذ المفعول يخسر الفريق الذي عوّلنا عليه لأن حكمنا عليه هو حُكم المنطق لا حكم الحقيقة، في حين يكسب الأخيار القضية بالمقابل تلبيةً لنداء القيمة، لا الهويّة. وهو ما سيبدو في نظرنا ضرباً من مفارقة بالطبع. هذا يعني أننا نمارس التجديف في حقّ العناية الألوهيّة عندما نستنكر أن يخذلنا ذوو القربى، أو خلاّن البهتان، لأننا

لا نريد أن نعترف بالأخيار رسلاً سخّرتهم لنا الغيوب لأنها لا تريد لنا أن نتلقّى إحساناً من أراذل نحسبهم بمنطقنا الأرضي أفاضل، وهم لنا في الواقع أعداء بالتجربة.

فالغيوب أعلم بنا من أنفسنا لأنها أعلم بما تخفيه نفوس السفلة. وهي تحسن لنا من حيث ظننّا أنها تسيء لنا عندما تحرمنا إحسانهم، لأن في هذا الحرمان تسكن حقيقتهم. والحقيقة أعظم شأناً من الإحسان. أي أن الغيوب تكافئنا بإفشال صفقة مسعانا وتلقّننا بالمقابل درساً هو وصيّة خالدة إذا ما قورن بالحوائج الفانية!

11

ولكن هل يأبى القطب الآخر في معادلة الوجود أن تنقضي حاجة لنموذج كالعدوس دون دفع مكوس؟

لو حدث هذا فإن خللاً سوف يتهدّد ناموس القدر، لأن قضاء الحاجة ما هو إلاّ المسمار في نعش التميمة في رحلة العدوس وهي: **الإستنفار!**

فالتوفيق، إذا تكرّر، أيضاً خطر، لأنه يهيّء السبيل إلى الإسترخاء، فنستسهل الأشياء، ونسلّم الزمام، لتتضعضع فينا الإرادة، فيهرم القلب، وتتخاذل الروح، فلا نستيقظ لنكتشف خيانتنا للعهد إلاّ بعد فوات الأوان. وهو ما لا يبيحه ناموس القدر في شأن إنسانٍ مكبّلٍ بدَيْن. ولهذا لا يجب أن نستهجن العقبة التي تعترض سبيل صاحب السُّرَى عقب كل تجربة فلاح لأنها لم تُخلق لتثنيه عن عزم، ولكنها خلقت لتشحذ فيه القلب، وتستفزّ في وجدانه الإرادة. والدليل تهديه لنا أساطير الشعوب بسخاء أمثولةً مجسّدةً في نموذج البطل الذي يخرج لمنازلة عدوَ (سواء أكان تنّيناً، أو مسخاً) ليستعيد من براثنه أسيراً (سواء أكان أميرةً، أم كنزاً)، لن يطمع في أن يلتقط

Twitter: @alqareah

الأنفاس في رحلة البحث عن الحقيقة هذه، فتتنزّل البلايا على رأسه الواحدة تلو الأخرى على نحوٍ تصاعدي، لأن الخلاص رهين الإستنفار الأبدي في يقين المخيال الأسطوري. فالألوهة لا تدلّل من اصطفتهم لنفسها، ولكن لابدّ أن تجلّلهم بمسوح الضحايا بترويضهم بصنوف التأديب، وإلاّ لما تنازلت عن صلاحيّاتها لتنصّب القدر سلطاناً على الوجود ليتولّى الأمر عنها بالإنابة باعترافها المبثوث في وصيّة إله معبد دلفي. فالمصائب، إذا تأمّلناها مليّاً، دروسٌ نبيلة عندما لا نتلقّاها دفعةً واحدة، ولكن على أقساط. فالحظّ ملاكٌ حارس ما ظلّ ضيفاً، فإن أقام في ديارنا طويلاً تحوّل لعنةً، لأن الهلاك هو ما يتركه عندما يتخلّى عنّا. وتجربة ملك اليونان الذي لازمه الحظّ على ذلك النحو المريب أقوى برهان على حقيقته الغيبيّة.

لهذا لم يدهشني أن يهبّ خصمي القديم ليعترض سبيلي من جديد تماماً كما اعترض سبيلي عام 1982 ليمتحن صبري ويلقّنني درساً في هذه التجربة أيضاً كأنه يريد أن يذكّرني بقدري فلا تنقضي لي حاجة بالبساطة التي تنقضي بها لبقيّة الناس حتّى لو كانت في بساطة التقاط الأنفاس، لأن الأمر الذي لا يمتنع هو ما لا يجب التعويل عليه، وإلاّ لما ابتلاني قدري بضيق الأنفاس منذ الطفولة ليغدو الهواء في حياتي هو الحياة. فما نخلع عليه لقب إبليس في لغتنا لا يتبدّى لنا مجسّداً في سيمائه التقليديّة (كما عرفناها من نصوص المخيال الشعبي) بلا سبب. وقد رأيته يتقمّص أجرام أناسٍ

Twitter: @alqareah

قبل تلك التجربة، كما عرفته أيضاً في أُناسٍ بعد تلك التجربة، تماماً كما تقمّص جسد السكّير الموسكوفي الشقيّ. وها هو يجد لنفسه ملاذاً آمناً في بدن مخلوق يُدعى محمد البرّاني، يتولّى إدارة الشئون الوظيفية والمالية، في وَكْرٍ تتنكّر فيه الأفاعي في أجرام البشر، يُعرف بـ«الخارجية» من باب التمويه، تجنّباً لإثارة البلبلة في نفوس السابلة. لم يكن ذلك المخلوق مسعوراً وحسب، ولكنه كان قبيحاً، بقامة قزميّة، وأوصاف أخرى تؤهّله لأن يستعير مواهب تلك المسوخ التي وُهبت من الهشاشة بقدر ما أخفت من السموم المميتة التي أطلق عليها قدماء العرب إسم «بنات طَبَق»!

فالوظيفة التي يتولاّها هذا الكائن هي العمل على تنفيذ قرارات الوزراء. ولكن ذلك منطوق اللغة الرسميّة، أمّا فعليّاً فوظيفته هي دفن قرارات الوزراء بكل ما أوتي إبليس من صنوف الدهاء وضروب الحيلة، وإلاّ مَن يملك الحيلة، أو الصلاحيّة، أو القوّة، أو الوقاحة، التي تؤهّله لأن يخترع العراقيل في تنفيذ قرار لا تعود صفته إدارية، ولكنه يكتسب بعداً سياسياً بهويّته الوزارية، بروح ذلك التحدّي، والثقة بالنفس، الذي لم أعهده من قبل، بل وحيّر زملاء ذلك الشبح أنفسهم؟

سرّ السحر يكمن في الشرّ الذي يسكن مبدأ الوساطة التي نسمّيها في مهنة التجارة سمسرةً، وفي العلاقات البشرية قوادةً، وفي الشئون المنزلية خادماً، وفي عالم الإدارة موظّفاً!

بلى! فالموظّف هو الوسيط الموكّل بعقد الصلة بين قطبين إثنين

Twitter: @alqareah

فلا يستحي أن يجمع في مسلكه خصالاً لا أخلاقية، بداية بالسمسرة، ونهايةً بالقوادة، ومروراً بروح الخدم!

وهي خصالٌ لن تجتمع في قلب مخلوق إنسيّ ما لم يتنكّر المخلوق الإنسي لإنسيّته وينال تزكية مباشرة من إبليس. وليس لنا إلاّ أن نتخيّل نفسيّة مخلوق مسكون بكلّ هذه الرذائل إذا شئنا أن نعبّر عن كمّ الكيد الذي ستفيض به روح هذا الكائن، ولتقييم ما يمكن أن يجود به من شرور. فما المطلوب على وجه اليقين من حضرة المدير في حال صدور القرار، أي قرار؟

المطلوب لا يتعدّى مخاطبة السفارة المعنيّة (السويسرية) لاستكمال إجراء الإعتماد، ثم تحرير رسالة إلى السفارة الليبية بالعاصمة السويسرية مشفوعةً بنصّ القرار. هذا هو دور الوسيط الإداري بلا أي اجتهاد وبدون أيّة فلسفة في شأن قرارات تصدر كل يوم ويجري تنفيذها أوّلاً بأوّل دون تأخير، فلا أدري أي نعمة تميّز بها قراري حتى استحققت أن أُحسد عليه إلى الحدّ الذي يتسبّب في تعطيل إجراءه التنفيذي الروتيني شهوراً كاملة من دون بقيّة القرارات؟

لم أكن في وضعٍ صحّيّ يسمح لي بالدخول في حربٍ كالتي اعتدتها طوال الزمن الضائع في تجربة طويلة النَّفَس كانت لي حرزاً في الدفاع عن النفس، سيّما في الوقت العصيب الذي تزامن مع هيمنة الهمّ الكينونيّ الذي هدهدته في القلب الشقيّ ليكون فيه ورماً مضافاً إلى طغيان الإحساس بالتخلّي الناجم عن الزهد في الشأن الدنيوي، مكلّلاً بباطل الأباطيل، محرّضاً على التسليم. هذه

Twitter: @alqareah

الأسباب الثلاثة أمست لي في مرحلة الميلاد الثاني خدراً حقيقياً استمرأته حتى صار في حياتي أفيونا.

كانت الأبديّة حاضرةً في وجداني، وجرثومة الموت تتنامى في كياني، والتحديق المزموم في ما وراء البرزخ يعرّي حقيقة هذا الجانب الزائف الذي نراهن عليه في صفقة الوجود، فلا أملك إلاّ أن استهزيء بالعراك، لأن سيماء الغنيمة الإلهيّة التي سكنتني منذ ابتداء الرحلة (ولم أجد لها إسماً سوى الحقيقة) بدأت تلوح من وراء الأفق بوضوح رغم أنف البُعْد المفقود، فأمتليء بسكينة لا أجد لها إسماً سوى القداسة، لأتيقّن بوجود ما تسمّيه كتب التوحيد فردوساً هنا، على الأرض، فأزداد احتقاراً لكلّ ما يعترض سبيلي، بل وغثياناً. فأنّى لي أن أستسلم لأحابيل ميفستوفلس، فأقبل بهذا الإنسان البائس خصماً، كي يستدرجني إلى متاهة المربّع الأوّل؟

لم أتحلّ في تلك المرّة بالصبر، ولكني قررت أن أمتحن الصبر. أمتحن الصبر الذي اعتاد أن يمتحنني. وهو ما لم أكن لأطمع به لولا الرؤيا. لولا الغنيمة القدسية التي لوّحت لي براياتها من خلف الأفق، فأبتسم في وجه الرجيم الذي تلبّس جرم الوسيط المسكين كأنّي أستعير سيرة المسيح وهو يدير خدّه اليسرى لتلقّي الصفعة الأخرى، فيسقط في يده لأني لم أستجب لاستفزازاته المضحكة. لم أجادله في لغوه، لم أسلّط عليه رؤساءه، لم أستنفر في حقّه الأصدقاء، لم أواجهه بحقيقته كعبد لأن العبيد يتمادون ما لم نذكّرهم بهويّتهم

Twitter: @alqareah

كعبيد، بل لم أستجب حتّى لنداء أرسطو فأوجّه له صفعةً، لأن السفلة في يقينه لا يفيقون من بهتانهم ما لم يتلقّوا منّا صفعةً!

كنت أتحصّن ببسمة الإستخفاف في كلّ لقاء، ثم أخرج من ذلك البنيان المرمري الموبوء بالرذائل لأتنسّم هواء البحر في الرصيف المقابل. أمشي على الكورنيش التاريخي العريق صوب المدينة حامداً الله على وجود الهواء في هذا الكون، ووجود سماء زرقاء (كسماء ليبيا) في هذا الكون، ووجود شمس صفراء في هذا الكون، ليقيني العميق بأن وجود العناصر الأربعة وحده يكفي لتحقيق السعادة. فإذا أضيف إلى هذه العناصر وجود سماء زرقاء، وشمس صفراء، وبحرٍ حميمٍ كبحر ليبيا، فهذا وحده كفيلٌ بأن يجعلنا ننافس الربّ نفسه في السعادة!

12

لم يدهشني شيء في هذه التجربة أكثر من ألعاب الرجيم. أو فلنقل تجلّيات المخلوق الذي كشف لي عن حقيقته يوماً في موسكو مسخاً مطروحاً في عرض الطريق والذي أبدع الفرقان عندما وصمه بلقب «الرجيم». وهي مفردة مشتقّة في العربية من فعل «الرجم» الدالّ على استهداف جرمٍ مّا رمياً بالحجارة، ولكنّها ذات مدلول آخر تتحفنا به اللغة البدئية مازال يجري على ألسنة أمّة الصحراء الكبرى وهو: «الذمّ». فصفة الرجيم هنا تتوطّد بعمق عندما تتماهى في صفة المذموم تعبيراً عن قبح أفعاله. ومن المثير حقّاً أن تتكشّف لنا الدلالة ذاتها في كلمة «ترجمة» التي تعني في لسان البدايات «المذمومة» أيضاً. ونحن لا نستطيع أن نتخيّل مدى صواب هذه الصفة ما لم نستعد حقيقة النقل من لغة إلى لغة كفعل هو في الواقع ضربٌ من عمل الحواة، لأن اللغة إذا كانت القرين الشرعي للوجود برمّته، فإنّ تحويل وجودٍ هو واقع مفعول، إلى عالم وجودٍ آخر نجاهد في أن نضفي عليه طبيعة الوجود الأصلي، فإنّما نمارس التزوير في أبشع أجناسه! وهو ما عبّرت عنه ألسنة الأمم عندما نعتت حضرة الترجمان

Twitter: @alqareah

بلقب «الخائن»! هنا يشترك عمل الترجمان مع عمل الشيطان في نفي الحقيقة وتحويلها إلى مسخ، لأن الكتب التوحيدية عندما تصف هذا البهلوان (إبليس) بممارسة تزيين الكبائرلاستدراج الأخيار لارتكاب الخطيئة إنّما تعني أنّه يحترف الترجمة، أي ذلك الفعل المشين المدان باتفاق الأئمّة، لأنه عبقرية اللعب بالأقنعة. هذه العبقرية في انتحال الأدوار هو ما عبّر عنه نبيّ الأزمنة الحديثة شكسبير بالقول: «للشيطان وجهٌ جميل!». فالجمال في السيماء هو أحد الأشراك المستوجبة في حال الضرورة، بالقدر نفسه الذي يكون فيه قبح السيماء شركاً آخر في حالٍ أخرى. ويبدو أن الإختيار لم يقع على السيّد البرّاني هذا إلاّ لمواهب القطبين (الروح والجسد)، لأن المطلوب في الحال مع نموذج هشّ كالعدوس ليس الإغواء الذي يستدعي جمال السيماء، ولكن المطلوب هو الإرهاب للبطش بشخصي، وهو ما يتطلّب قناعاً مختلفاً هو البشاعة في الوجه، والكراهة في الروح. ولكن ما كشفت عنه تلك التجربة كان بالنسبة لي فتحاً جديداً، لأنها أظهرت كم هي قصيرة النَّفَس هذه القوّة الرهيبة التي نسمّيها شيطاناً تارةً، وشرّاً تارةً أخرى. فالتسليم مزّق عنها قناع الطاغوت لتتبدّى على حقيقتها شبحاً جباناً مغلوباً على أمره!

فليس الإنسان وحده من يهفو لأن يحيا لاهياً، ولكن القرين أيضاً يهفو لأن يحيا لاهياً. ونحن ولا شيء سوانا الدمية التي اختارها لكي يتلاعب بها. وإذا آمنّا مع من آمن بالسيرة في الكتب المقدّسة، فإنه

Twitter: @alqareah

لم يختر دمية لهوه طوعاً، ولكن التلاعب بنا هو قدره. هو رسالته التي لم يكن ليوجد لولا وجودها. فسياسة التلبيس التي يتحدّث عنها ابن الجوزي ليست سوى القناع للإحتيال على الجسد، كما الخواطر في فلسفة النفّري ليست سوى الشَّرَك الرديف للشِّرْك. أي نسيج الأحبولة لارتهان الروح. وإذا كان قد كشف لي عن وجهه القبيح، وبدنه المثيل لحيوان الكونغرو، المكسو بالشعر الرصاصي المقرف، وهو يتقمّص جسد السكّير الذي اعترض سبيلي في تجربة موسكو التاريخيّة (تماما كما تبدّى في حضرة إيفان كارامازوف، أو في تجربة مارتن لوثر التي استثمرها توماس مانّ في «الدكتور فاوستوس»)، فإنّه لم يكن ليفعل لو لم يشأ البرهنة على قدرته في احتراف الجدل ليؤكّد حقيقة البادية كوجهٍ آخر للخافية، أي موهبة ما استبطن في قدرته على أن يستظهر. فالوسوسة التي نحدّق فيها بما تستحقّ من يقين تتجسّد. لا تتجسّد وحسب، ولكنها سوف تسعى. لن تسعى وحسب، ولكنها سوف تستعير لساناً. وأحسب أن إنساناً كالسيّد البرّاني لم يكن، في تلك التجربة، ملاذاً لعدوّ البشريّة الخالد شكلاً فقط، ولكن موضوعاً أيضاً. أي الملاذ للقطبين الوجوديين الأبديين: الروح والجسد. وكنت سعيداً بتأمّل هذا الدرس المجّاني في أبعاده الميثولوجية والدينية ما أن أفلحت في أن أتحرّر من مفعوله الدنيوي لأشاهده من موقع الحياد. فالحرية (التي نسمّيها أحياناً تجرّداً) هي ما يحدث فينا التغيير الذي لا يكتفي بأن نستشعر فيه الشفقة على من ظنّ أنه يستطيع أن يفعل بنا شرّاً، ولكنّنا لا نلبث أن نتعاطف معه في

Twitter: @alqareah

حملته لسببٍ بسيط وهو أنّنا لا نجهل المجهول وحسب، ولكننا نجهل أنفسنا أيضاً، فلا ندري عمّا إذا كان هذا الطرف الذي نحسبه عدوّاً، ما هو إلاّ الرسول الذي أقبل علينا بالوصيّة المكتسبة التي تخفي في حقّنا خيراً من حيث أرادت بنا شرّاً، وإلاّ لما هلّلنا للقوّة التي تتباهى بأنها تفعل شرّاً ليقينها بأنه سيتحوّل خيراً، ولكنها لا تفعل خيراً أبداً لأن قوانين الجدل سوف تحيله شرّاً!

13

ولكن هل نتحرّر حقّاً قبل أن نستأصل الحلم؟ هل يتحقّق الخلاص بدون التخلّص من الأوهام؟

أجل! لا نتحرّر ما لم تستوِ فينا كل الأشياء. وأول كلمة في أبجديّة السيرة ليس أن نزهد في أن ننال فقط، ولكن في أن نحتقر كل ما يُنال. لا أنسى كيف كان الغثيان يتلبّسني كلّما راودتني الحاجة لقضاء الحاجة. ليس الحاجة الطبيعيّة بالطبع، ولكن الحاجة الدنيوية. لا ينتابني الغثيان وحسب في مثل هذه اللحظات، ولكن إحساساً مبهماً كان يراودني في مثل هذه المواقف. وقد عاندته طويلاً قبل أن أكتشف أن الغثيان نتاج اشمئزاز عميق، بجذور غيبيّة يقيناً، يصيبني بوسواس كاقتراف الذنب.

بلى! إنه نوعٌ من اقتراف الخطيئة. خطيئة مجبولة بمهانة حقيقيّة، ربّما للإحساس باستحالة غسلها بسهولة. ربّما لاستحالة التحرّر منها بمراسم التكفير عنها. بالمراسم التقليدية في التكفير كتلاوة الصلوات، أو دفع المكوس بتقديم القرابين. ذُلٌّ ببُعْدٍ دينيّ. والعجز في التكفير عنه يسممّ الوجود ويترجم حقيقته كإثم. إثمٌ بترياق وحيد. لأن الإحساس بالإثم رسولها الذي لا يُحتمل، تماماً كما فهمت الآن

Twitter: @alqareah

فقط الحقيقة التراجيدية التي يخفيها البولنديّون في عبارة «بشيبراشام جي جِيِّيه» التي تعني في الترجمة: «إغفروا لي أنّي أحيا!». فالوجود على قيد الحياة، في شرع هذا النموذج، جريمة. جريمة في حقّ القداسة. جريمة في حقّ الحقيقة. جريمة في حقّ الإنسانيّة. جريمة في حقّ الطبيعة، وبالتالي، في حقّ الألوهة.

والبديل؟ ما هو البديل عن قضاء الحاجة إذا كانت حياة الإنسان في الدنيا ما هي إلاّ نسيجٌ محبوكٌ من حزمة حوائج؟

الواقع أن لا بديل سوى الإكتفاء بالحضور في أحضان الأم (الطبيعة) لليقين بأن هذا الحضور هو أيضاً حضورٌ في الموت إذا قبلناه في حدوده القصوى. وهو ما يعني أن الطرق كلّها تؤدّي إلى الموت. والإحساس بالوجود في برزخٍ بين هذين القطبين الوفيّين لذات الفحوى هو ما يبطل مفعول الكيد، ويجعل من تلبيس بهلوان الشرور أضحوكة. أمّا تلاميذه الذين يسخّرهم في تنفيذ خططه فيتحوّلون هواةً يثيرون الشفقة!

فالعدوس الذي عاش تجربة الميلاد الثاني وحده الجدير بأن يستهين بقضاء الحوائج إلى الحدّ الذي يراها فيه رجساً من عمل إبليس، لأنه لم يكن ليحقّق أعجوبة الميلاد الثاني لو لم يستهن بما هو أعظم شأناً من الحوائج وهو: **الموت!**

14

الحوائج التي نستهين بها نستغني عنها. والحوائج التي نستغني عنها تنقضي عنّا. وهي أقوى تميمة نستطيع أن نستخدمها في العراك ضدّ سلطان الدنيا (إبليس) كي ننزل به الهزيمة التي لا يتخيّلها وهو الذي اعتاد أن يسمّم حياة ضعاف النفوس بتصوير الحوائج كضرورة يستحيل الإستغناء عنها أو التساهل معها. فسلطة التسليم تكمن في الإيمان بأن الأقدار أعلم منّا بما هو أنفع لنا. وقد جرّبت مراراً أن الأفضل أن نسلّم زمام أمرنا لمشيئتها على أن نتّحدّاها فنعاندها في كل ما له علاقة بحوائج دنيانا. وكم من مرّة أُسقط في يد ملك الحظوظ الرجيم في نزاع تسلّح فيه الخصم بروح التسليم. كل ما نخسره في أي نزاع مع الطاغوت هو أصفادٌ ظننّاها ملاذاً لا غنى لنا عنه. فما لم أحط به علماً هو الكيفية التي بلغ بها الأمر سمع أبي زيد دوردة وإن لم تكن لتخفى النتيجة التي انبثقت عن هذا البلاغ. فقد تداولت أوساط المحفل خبراً مفاده أن أبا زيد أمر بإبلاغ قزم الجرم هذا وقزم الروح (لأن الكثيرين لا يدرون أن الأقزام ليسوا مسوخاً في الحجم فقط، ولكن في الخلق أيضاً) وصيّة يقول نصّها: «إذا لم

تستحِ فسوف تضطرّني لأن أشرّدك تشريدة الطليان للمجابرة!». وهي وصيّة مجبولة بنَفَس الأوائل الذين يترفّعون عن العبارة، تجنّباً للإبتذال، فيعتصموا بالمقابل بحبل الإستعارة. فـ المجابرة هي عشيرة ليبيّة إستوطنت منطقة إجدابيا الواقعة في المفازة المميتة التي تتوسّط شرق البلاد وغربها، واشتهرت باحتراف قطع الطرق منذ القدم، ربّما بسبب قسوة جدب المنطقة إلى الحدّ الذي استعارت فيه إسمها «إجدابيا» من الجدب. وقد عانت السلطات التي توالت على حكم الشمال الليبي من أفعالها الشقيّة ضدّ القوافل. إلى أن جاء الطليان مطلع القرن العشرين ليحكموا على أبنائها بالنفي إلى تشاد دفعاً لشرّهم، برغم أن خبثاء القبيلة ما لبثوا أن استثمروا هذا الإجراء وعملوا على تسويقه كجهاد ضدّ الإحتلال إبّان العهد الملكي عندما صار الجهاد عملة لشراء المناصب وشهادة للحصول على الأموال من الخزانة العامّة. وهي النزعة التي سادت في العهد الثوري أيضاً. وأحسب أن مخلوقاً كـ البرّاني لم يكن ليتبوّأ هذه المكانة التي أهّلته لأن ينكّل بالناس لو لم يستثمر انتماءه إلى هذه القبيلة في تلك الحقبة التي كانت فيها أسهم الجهاد المزعوم تشهد ذروة ازدهارها. أسهم أضحت بالتكرار شهادة خالدة يبرزها الأدعياء على حساب النزهاء كلما حانت الفرصة فقام الشرفاء برفع السلاح في وجه جورٍ، لتكون الفئة الأولى هي أول من يجني ثمارها. فهل استجاب هذا البراني للنداء؟

Twitter: @alqareah

لم يجد مفراً من أن يستجيب بالطبع، ولكن بمذهبه هو لا بمذهب القوانين، ليقينه بأنه هو السلطة الفعلية، وكل ما سواه مجرد أشباح، بدليل أن الأشباح تعبر كالطيف، في حين يظلّ الموظفون هم الفئة الباقية. فالجهاز المسمّى دولة يستطيع أن يستغني عن خدمات الوزراء ورؤساء الحكومات، ولكن هيهات أن يستغني عن مهمة الكائن الميتافيزيقي القابع في ظلمات الزاوية، شاهداً أبدياً على المهزلة، ومحركاً لخيوط الدمى البلهاء من وراء حجاب. هذا الكائن في الآلة الجهنمية إسمه: الموظف!

بروح هذا الموظّف تظاهر المدعو البرّاني بتنفيذ القرار، ولكنّه اضطرّ أن يستدعي كل دهاء مولاه بوحيٍ من هذا المولى بالذّات. وها هو يوهمني ويوهم رؤساءه باتخاذ ما يلزم من إجراء فيقوم بتحرير خطاب موجّه إلى السلطات السويسرية متمثّلة في بعثتها بطرابلس طلباً للإعتماد المسبق المنصوص عنه في معاهدة فيينا. وكان على شخصي أن يحمل الخطاب إلى السفارة لاستكمال البيانات الشخصيّة المطلوبة هناك. ولم أكن بالطبع لأتخيّل أن أحمل في ثنايا ذلك المظروف المغلق بإحكام لغماً حقيقياً كان سينفجر في شخصي ما أن أضعه بين يدي مسئولي السفارة الأجنبية بدل أن ينفجر في مستلميه كما يقضي المنطق. إنه ذلك النوع من الألغام اللئيمة التي نجد لها مثيلاً في التاريخ على غرار أحمد القرمانلي الذي حمل في عبّه خطاباً شبيهاً إلى زعيم قبائل المحاميد يأمره فيها وليّ الأمر بقتله؛ ولم يكن لينجو لو لم يعترض سبيله رسول القدر الذي أوحى له بقراءة الرسالة!

Twitter: @alqareah

خرجتُ في ذلك النهار من بنيان محفل اللئام ممنّياً نفسي بالخلاص، دون أن يخطر ببالي أن ما ظننته خلاصاً إنّما هو الدرجة الأدنى والأسوأ في سلم القصاص. ولكن الأقدار التي كانت لي في دنياي ملاكاً حارساً لم تخذلني هذه المرّة أيضاً. وها هو رسولها يعترض سبيلي، تماماً كما اعترض رسولها سبيل أحمد باشا القرمانلي عام 1711 وهو في طريقه إلى جبل غريان لإبلاغ زعيمها الفرمان القاضي بإعدامه. كنت أيضاً في ذلك اليوم في طريقي إلى الجبل حاملاً في جيبي فرمان إعدامي. أوَ ليست سفارة سويسرا هي الوطن المصغّر لتلك البلاد الأسطوريّة القائمة كلّها على جبل يعلو مئات الأمتار عن سطح البحر كما هو الحال مع سويسرا؟ أوَ ليس الإنسان الذي اعترض سبيلي هو الرسول المجهول المكلّف من جلالة القدر كي يجنّبني المصير المجهول الذي ينتظرني، تماماً كما كان ذلك الرجل الذي اعترض طريق القرمانلي رسولاً مجهولاً مسخّراً من المجهول؟

أذكر الآن بوضوح كيف لفظني باب البوّابة الرئيسية المواجهة لمقبرة السلطانات حيث تهجع عائلة القرمانلي محاطةً بسياج يطوّق حديقة لا يفصلها عن كورنيش البحر سوى طريق الساحل. إنها الحديقة التي إلتقطت فيها أنفاسي مراراً، فأجلس على كراسيها الخشبيّة لأتطلّع إلى معشوقي البحر في الجانب الآخر، فيكافئني بامتصاص أحزاني ويزوّدني بالطاقة الضرورية لمواجهة أهل الكراهة المجّانية إبّان غزواتي لكيان المحفل المجاور. والواقع أن صلتي

بذلك البستان كانت أقدم عهداً، لأنها ترجع بتاريخها إلى العهد الملكي، أي بين 1965 و1969 عندما كان المبنى الرخامي مقرّاً لرئاسة مجلس الوزراء قبل أن يتم التنازل عنه للخارجية في أوائل السبعينيات. وكم من مرّة ارتدتُها برفقة طيف هذا العالم جيلاني طريبشان عندما تسرح بنا الأحلام فنتوغّل في سعينا بعيداً عبر كورنيش البحر تماماً كما توغّل الشيخ سانتياغو في البحر. فالبحر هو الحرية التي تحيي، ولكنها الحرية التي تميت أيضاً.

لم أقطع مسافة بعيدة من البوّابة في طريقي نحو بستاني التاريخي، حيث تنتصب قباب الأسرة المالكة، لأسمع خلفي نداءً. كان ذاك قريبي حسين الكوني الذي لم ألتقه منذ أمد، يرافقه شخص لم أعرفه شخصيّاً قدّمه لي حسين بإسم صالح الشمّاخي أحد موظّفي الخارجية. كان هذا الرجل سويّاً على نحوٍ لم أعهده في موظّفي هذه المؤسسة، بل كان عفويّاً بأريحيّة تكاد تكون طفوليّةً.

في تلك الوقفة سألني حسين عن آخر شوط في ملحمتي الأبدية مع الدوّامة التقليديّة، فأجبته بأنها تُشرف على الإنتهاء، والخطاب إلى السفارة في جيبي. في هذه اللحظة تدخّل السيّد الشمّاخي طالباً منّي أن أريه الخطاب بعفويّة ظننتها مجرّد فضول، ولم أكتشف كم كان ذلك العمل حكيماً إلاّ بعد أن افتضّ المظروف وقرأ الفحوى. تكلّم فقال أن الإسم المقترح لأكون له بديلاً في الكادر الوظيفي بالسفارة إنسانٌ سيّء السمعة، يتبع أحد الأجهزة الأمنيّة، ومستبعد من الأراضي السويسرية. الخلاصة أن الرسالة فرمانٌ بإبعادي، أو بالأصحّ منعي من الدخول، إلى الأراضي السويسرية!

Twitter: @alqareah

كان حسين خبيراً بمؤامرات الأوباش وهو الذي عمل سفيراً في النيجر أمداً طويلاً، فعاد معي إلى الإدارة المشئومة. صاحبنا الشمّاخي أيضاً. كما انضمّ لحملتنا عبد السلام الزوي الذي عرفته منذ العهد الملكي عندما شغل مديراً لمكتب وزير الثقافة، ويشغل آنذاك مديراً لإحدى الإدارات. في الإدارة لم نجد السيّد البرّاني. ويبدو أن غيابه كان مخطّطاً، فخرج ما أن سلّمني فرمان الإعدام حتّى إذا انفضحت المكيدة جنّب نفسه المواجهة!

في المكتب قبع أحد زبانيّته الذي إنقضّ عليه كلٌّ من حسين والزوي فسمع منهما توبيخاً قاسياً دون أن ينبس. ويبدو أن أمثاله اعتادوا مثل هذه المواقف فكانوا على استعداد لتلقّي الصدمات في حال أخفقت فصول المكيدة، ولم تنطلِ الحيلة.

في اليوم التالي وجدت على مكتب أمين سرّ السيّد الوسيط خطاباً آخر على النقيض تماماً من الخطاب الأوّل يطلب فيه اعتماد شخصي بديلاً للقائم بالأعمال المنتهية ولايته ببعثة بيرن، كأنّ الخطاب الأخير اعترافٌ صريحٌ بالهزيمة، متوّجاً بصكّ طلب غفران من شخصيّة لم تكن لتنال منّا اهتماماً لو لم تكن نموذجاً وجوديّاً نصّب نفسه خازناً على الحوائج، وبالتالي صانعاً لمصائر الخلق. فإيهام الجنس البشري بامتلاك الأسرار هو نقطة ضعف العالم التي لن تنافسها حتى سلطة امتلاك الحقيقة!

فالموظّفون ملّة خدم. والعالم محكومٌ بالخدم، لا بالسادة. وكل الأجناس التي تتنكّر لنا في أجرام السادة، وتتولّى أمر هذا العالم، إنّما يحتلّون المرتبة الأولى في قائمة هؤلاء الخدم!

Twitter: @alqareah

15

بعد استكمال أبغض الواجبات في عرف العدوس (وهي مراسم الروتين) انطلقت لممارسة طقوس غسل الروح بالحجّ إلى قدس أقداسي: **الصحراء!** فالهجرة صوب الشمال قدرٌ يستطيع أن ينتظر، ولكن ما لا يحتمل الإنتظار هو الوطن الوحيد الذي يستعصي كل يوم بأن يزداد اغترابا لا عن العالم وحسب، ولكن عن نفسه أيضاً، وهو: الصحراء. فإذا كان الشمال منذ الطفولة هو الحلم الذي يغوي، فإنّ الصحراء ما لبثت أن غدت النداء الذي لا يقاوَم: نداء حنين ذي طبيعة حميمة، بل وغيبيّة. ولا أدري كيف صار الظمأ إلى هذا الحرم وسواساً لجوجاً يرتقي إلى رحاب الذنب كلّما تأمّلته مليّاً، وكلّما ارتدته عابراً في رحلاتي الخاطفة، ممّا يوحي لي بأنّي بالفعل إبنٌ ضالّ. ومأساتي أنّي لا أعرف كيف أهتدي إلى السبيل الذي أكفّر به عن ضلالي هذا. فالأم لا تريد في الواقع سوى استرداد عطيّتها. وها هي تتوعّدني في كل مرّة ببيانها الذي يفوق ألف لسان منطقاً وصراحةً وحجّةً. تتوعّدني بوجوب الحلول بها، بل فيها، فإن لم يكن فبعرف الحدود القصوى: الموت! أراها في عبوري، أو زياراتي المقتضبة، واجمةً، عابسةً، متكتّمةً، ولكن الرسالة لا تخفى. فهي

Twitter: @alqareah

التي سنّت ناموس العبور، ولكنّها أنانيّة بما يكفي كي ترفض أن تُستغفَل باحتراف العبور خارجها، لأن الحرية (تلك الهبة التي يحقّقها العبور) لا وجود لها خارج محيطها. وبالرغم من موقفها هذا، بيد أنها لا تملك إلاّ أن تظلّ تلك الطبيعة التي تأبى أن تخالف طبيعتها كأمّ، فتسامح، وتتحلّى بالحِلْم، فتحتفي بظهور السليل في ملكوتها، برغم الدموع في مآقيها، فتهرع لي بعطاياها التي لم تبخل بها عليّ يوماً. تغرس في الوجدان أنفاس الشعر الذي كان دوماً حرفتها، وتجود بالوحي الذي كان دوماً وديعتها، وتطعم القلب حلماً كان دوماً ديدَنها، فتفيض الذاكرة بأناشيد أساطيرها التي تستقيم في لقية كلّ مرّة، كما حدث مع «نزيف الحجر» إبّان زيارة صحراء «مساك سطّفت» أو «التبر» في زيارة «تينغرت»، أو «المجوس» عند زيارة صحراء «آكوكاس».

إخترت هذه المرّة أن أرابط في وطن الجرمنت بوادي الآجال الذي شهد أقدم حضارات الجنس البشري، لأتوسّد أضرحة «إيدبني»على طريقة هؤلاء الأسلاف عندما تضيق بهم السبل فيحتكموا للسلف طلباً للنبوءة. لأن الضلال إذا كان مازال قائماً، فإنّ الوفاء هو ما لم يمت في روح مريد السُّرَى. فما أستطيع أن أتباهى به هو حضور المعبودة في قلبي، أكثر من حضورها في نفوس أهل الصحراء الذين وجدت نفسي بينهم، فاكتشفت كيف إستلّ منهم الإستقرار الولاء لفردوسهم القديم، فتنكّروا لقيمه، وضلّوا عن السبيل أكثر مما ضللتُ، لأن صحرائي ظلّت تسكنني، برغم احتراف

Twitter: @alqareah

السياحة في أرض الله الواسعة، بعد أن كنتُ مَن يسكن الصحراء. فالأوطان التي نعبدها ترافقنا لتغدو هاجسنا مهما ابتعدنا عنها، في وقتٍ تتخلّى فيه عنّا الأوطان التي نستوطنها فتقلب نعيمها جحيماً، لأننا ننكر فيها القيمة ولا نرى فيها سوى الغنيمة.

يكفي أن أستيقظ كل سَحَر مشفوع بغياهب ميلاد يوم جديد (هو في عرف القدماء عمر جديد) كي أجادل سيماءها الغنيّة التي تنطق بها السلسلة الجبلية الممهورة بأكوام الأضرحة الأسطورية، كأنها دمامل هائلة تتشبّث بسفوح السلسلة ذات اللون الأدمي، أو الدموي، المثيل للون البدن البشري، كأنه مستعارٌ من لون الخليقة ليبرهن على هويّته التاريخيّة الرامية بقفّاز التحدّي في وجه الزمان، فأتلقّى خطاب الصحراء الخالد المستلهم من وصيّة ربّة الأرباب المستخلفة على الطبيعة الأمّ تانيت: «أنا كلُّ ما كان، وكلُّ ما هو كائن، وكلُّ ما سوف يكون، تحجّبتُ بحجابي، فلا وجود في الدنيا لفانٍ يستطيع أن يكشف حجابي». فسرّ الطبيعة لا يتجلّى كما يتجلّى في هذه المملكة العصيّة، المتوحّدة، المستغلقة في قمقمها، المعتصمة بصمتها، كما هي الصحراء. فالصمت لا يكتفي بأن يكون لغتها، ولكنه يضيف ليصير حُجّتها. فالصمت لا يقنع بمزاياه الإستسرارية، ولكنه يتواصل ليتماهى في حجابٍ آخر هو: العريّ. فالصحراء ليست صفحة غُفْلٍ من توقيع وحسب، ولكنها غُفلٌ من نصّ. فالرهان على العريّ بوصفه اللاّحجاب، لا يلبث أن يستفزّ البواطن لتتحوّل البواطن خزنة إلهام؛ لأن الحقيقة في الإيماء، الحقيقة في ما يعجز

اللسان ترجمته إلى بيان. إنها المؤهّلات التي جعلت من الصحراء مستودع النبوّة منذ الأزل. والنبوآت هي روح الصحراء التي تحقن العالم بأنفاس الحياة، في حين يجحدها العالم هذا الحق ما أن يشتدّ فيه الساعد ويدبّ على قدمين.

فالعالم طفلٌ، والصحراء له أمّ. وقدر الإبن أن يضلّ السبيل وينكر فضل الأم. وها هو العدوس يقتفي أثر العالم فيذهب بعيداً أيضاً. ولكن عزاء العدوس أنه لم يبتعد جرياً وراء غنيمة يعد بها سراب العمران، ولكنه احتضن تزكية الصحراء له لدى جناب العالمين لكي يروي رسالتها: رواية من شأنها أن تردّ الإعتبار لجلالتها.

فالحجاب نقطة ضعف أمّة الصحراء الكبرى. كل شيء في الصحراء الكبرى يبدأ من الحجاب وينتهي بالحجاب.

فالربوبية في الصحراء حجاب، وأهل القارة الصحراوية يخفون وجوههم من وراء حجاب. وصدور أهل الصحراء مدجّجة بحزم الحجاب، وكل مفضوح وعارٍ في هذه الصحراء معصومٌ بالحجاب. السماء حجاب، والأرض حجاب، وما بينهما حجاب، بدايةً بالأشياء البادية، ونهايةً بالأرواح الخافية. فَدينُ الصحراء هو دينُ الحجاب. كأنّ هذه القارّة تتلذّذ بممارسة المفارقة فتعتنق ديانة الحجاب شراءً لخطيئة التعرّي، وتعويضاً لفقدان ستور الطبيعة التي لن تكون سوى الحجاب.

فالصحراء حجابٌ ضائع. والإحساس بهذا الفقد هو سرّ الهوس بالتورية، بل وسرّ عبادة الإستعارة.

فالعبارة، في ناموس القوم، لا تنال من الأخيار اعترافاً ما لم تتحصّن بتعويذة الحجاب، بتعويذة الإستعارة. ولهذا كانت الصحراء مهد الأسطورة بسبب احتفاء الأسطورة بمنظومة الإستعارة. الأسطورة هي رواية الصحراء المسكوكة من معدن الإستعارة المروية بلسان الحجاب.

16

أوباري...

أوباري هي مفتاح الشريط الذي اختطّته أمّنا الطبيعة وساماً بهيّاً على صدر الصحراء الكبرى في برزخ ملكوتها الفاصل بين شقّيها الشمالي والجنوبي ليكون حالياً متحفاً سخيّاً لآثار حضارات ما قبل التاريخ التي كانت حتى القرن الخامس قبل الميلاد مازالت تحتفظ ببعض أمجادها كما يحدّثنا إمام التاريخ هيرودوت في كتابه عن ليبيا. ويبدو أن إسم «وادي الآجال» المتداول اليوم ما هو إلاّ التعبير عن تعاقب الحضارات على هذا الشريط، فلا تفنَى حلقة إلاّ لتعقبها حلقة أخرى لخصال المكان الطبيعية في زمن لم يبلغ فيه شحّ الأمطار المدى الذي بلغه اليوم. والواقع أن عطايا السماء لم تكن السرّ الوحيد في عبقريّة هذا المكان، ولكن فضل العطاء يرجع للموقع.

فالوادي كناية عن أخدود يشقّ الأرض على نحوٍ مستقيم محاصر بقطبين طبيعيين: السلسلة الجبلية الأسطورية من جهة الجنوب الشرقي، تقابلها سلسلة من طينة أخرى هي السيوف الرملية السخيّة. والسلسلة الجبلية لا تستعير هويّتها الأسطورية من كمّ الأضرحة التاريخية التي تتلبّسها وحسب، ولكن من تكوينها الطبيعي أيضاً.

Twitter: @alqareah

فقمم الجبال مسطّحة كأنّها سوّيَت بسكّينٍ خرافيّ على نحوٍ لم أشهد له مثيلاً في كل بقاع الأرض التي حللت بها وترصّدت جبالها بروح إنسانٍ مهووس بالجبال دون أن يعرف لماذا. تسطّح عنيد مكابر كأنّه يريد أن ينبيء برسالةٍ مّا. والواقع أن الرسالة لا تقتصر على استواء الشعاف المبرم كأنه عهدٌ مجهول، ولكن في الإيحاء الذي توميء به هذه الجبال. إنها جبالٌ تبدو ناطقة. ناطقة بخطاب. خطاب يختلف عن كل خطابات ما رأيته من جبال. إنها لا تكتفي بأن تتلو بياناً حول ما وقفَتْ عليه شاهداً طوال ألوف السنين، ولكنها تروي سيرة تترجم سرّ التكوين فيما إذا استنطقها المريد لا بعين المشاهد، ولكن بوجدان الحنين. وهي لا تروي في بيانها سرّ التكوين وحسب، ولكنها تروي أيضاً باطل الأباطيل. وكم من مرّة، أثناء إقامتي تلك، تسلّقت ذروة «تيندي» المشرفة على أوباري، لأحكم على نشاط الجنس البشري في الأسافل من وجهة نظر تلك الجبال من موقعها التائه في الفضاء. حكم يذكّرني بحكم «أوداد» بطل «المجوس» المتماهي مع الطبيعة، المتقمّص لروح التيس الأسطوري المسمّى في العربية بـ«ودّان». حكم يبدو أكثر تطرّفاً من حكم حكيم الجامعة، الأب الشرعي لوصيّة «باطل الأباطيل». حكم يشهد به المشهد من موقع العلوّ، فيسفّه المسعى الذي لا يختلف عن مسعى النمل، ولا يحمل معنى أكثر من المعنى المبثوث في مسعى النّمل! فالبيان الجبلي من أسفل يختلف عن بيان الأجبال من أعلى، كأنّ السلسلة تريد أن تؤكّد صواب الجدل الذي لا يعترف بحقيقة الوجود خارج

ناموس الأضداد التي لا تتآلف إلاّ لتتخالف، ولا تتخالف إلاّ لتتآلف. وهي كجبال لا تمتلك إلاّ أن تخضع للناموس وتمارس لعبة التحالف لا في بعدها الطبيعي فقط، ولكن في بعدها الوجودي أيضاً. فهي لا تجسّد الرمز الوسيط الذي يربط السماء بالأرض وحسب، ولكنها تلعب دور الرسول أيضاً في شأن سرّ الحياة على الأرض: الماء! فحيثما جثم جبل فثمّ مستودع ماء. وحيثما انتصب جبل تخلّت السماء عن استعلائها وتعطّفت باستنزال شآبيب رحمتها على الصحراء.

فالسلسلة لم توطّد أركانها في ذلك الموقع عبثاً، ولكنّها قامت سدّاً منيعاً لمياه البحيرة العظيمة التي اندثرت منذ آلاف الأعوام ولم يبق منها في عهد هيرودوت سوى النهر الذي تحدّث عنه، ولم يبق لنا منه اليوم سوى بحيرة «مندرة» و«قبر عون» و«أم الماء» المنتشرة في خطٍّ مستقيم يجسّد أعجوبةً طبيعية في قلب بحر الرمال العظيم، الواقع على بعد عشرة أميال تقريباً من شريط الوادي شمالاً.

وهو ما يعني أن الحضارات الفانية كانت تتشبّث بسفوح السلسلة الجبلية قبل أن تخسر المياه بسبب زحف المارد الرملي الذي لا يقهر الذي استطاع أن يبتلع البحيرة الممتدّة مئات الأميال شمالاً حتى تعترضها السلسلة الجبلية المعروفة اليوم بإسم «جبل الحساونة». هيمنت الرمال في مراحل تاريخية تالية، ولكن النهر ظلّ يجري إلى العهد الذي روى فيه أبو التاريخ سيرة الإنسان في المنطقة التي أدركت عزّها في أمبراطورية الجرمنت التي سيطرت على كل جنوب

Twitter: @alqareah

الصحراء الكبرى متّخذةً من الشريط الملاصق لحضيض السفح عاصمةً لها، تنطلق منها حملاتها الحربية لصدّ غزوات أمم الشمال القادمة من عوالم ما وراء البحار كاليونانيين والرومان، كما تروي مصادر هذه الأمم ذاتها أمثال سالوستي وبليني. ولكن... ولكن هل يُكتب لإمبراطورية أن تستمر في الوجود إذا نضب النهر؟

زالت الإمبراطورية بزوال النهر، لأن الإمبرطوريات من صنع البشر، ولكن مصيرها لا يخضع لمشيئة البشر، بل يخضع لمنطق الطبيعة. ولكن الحياة لم تمت بموت الإمبراطورية، وها هو محفل النمل يفقد الهوية، ويتعرّض للشتات الذي قاده إلى مشارق الأرض ومغاربها في تلك الدياسبورا الأسطورية التي تناولناها في بياننا في لغة اللاهوت، دون أن تمتثل فئة أخرى لمشيئة ضعاف النفوس، فآثرت البقاء في المكان مستعينةً بما تجود به العيون الجوفية أو الأمطار التي استحالت هبات عصيّة، ولم تعد موسميّة.

ويبدو أن تتابع الأجيال في مجال الشريط البهيّ هو ما يهب الشرعيّة للنبوّتين الدهريّتين التي تكمّل إحداهما الأخرى برغم اختلافهما في الأمد، وتباينهما في اللغة: تقول الأولى أن يوماً سوف يأتي على الوادي يخلو فيه من الخلق، يعقبه زمانٌ تزدحم فيه الأقوام وآي العمران حتى يفيض بالأخلاط والرخاء، ثم يعقبه زمانٌ آخر يشهد فيه الوادي بلبلةً تجري فيه دماً بدل السيل!

أمّا نصّ النبوءة الثانية فيقول بلسان العوام: «وادي الآجال، شرقيك رمال وغربيك جبال، خليت إنتَ والاّ مازال؟». أي أن

الإخلاء قدرٌ معلّقٌ في رقبة الوادي إلى الحدّ الذي لا يجب أن ينخدع فيه بحقب الرخاء التي لا تسود إلاّ لتتبدّد. ليس هذا فقط، ولكن حياة العمران هي أيضاً باطلٌ ككلّ شيء في وجودنا الأرضي، فلا تنقشع وحسب عندما يحين الأوان، ولكنّها تخسر بدون دفع مكوس مميتة أيضاً. والدماء التي تتحدّث عنها النبوءة الأولى ليست سوى الدليل الذي يجسّد الثمن. وهو ما يهب النبوءة، في جناحيها، بُعْد الأمثولة المقرّرة في حقّ كلّ ما له حضور في ثنائي الزمان والمكان.

وهي التحوّلات الخالدة التي قُدِّرَ لي أن أشهدها يوم جاء بي الأب لأوّل مرّة من واحة آدري إلى هذا الوادي عندما كان هو وليّ أمره بحكم عمله كمدير لناحيته، لأكون شاهداً على واقع النبوّة في حرفها الذي يتحدّث عن خلاء الوادي المهجور آنذاك من الخلق. ثم شهدتُ سنوات بعثه التي فاض فيها بالعمران، وأهل العمران، والرخاء المادّي. وها هي الأقدار تمهلني حتى اليوم الذي وافق كتابة هذا البيان لأرى كيف يغرق الوادي في الدمّ بسبب الحرب الأهليّة الجنونية التي التهمت وطني كحريقٍ لا يستثني لهيبه أحداً، لأن الغالب في الحرب الأهلية أيضاً طرفٌ مغلوب!

17

بهذا الوادي، المغلول بأحضان الصحراء دون أن يستعير هوية الصحراء، إستجرتُ من وحش الدنيا الذي لم يمهلني يوماً منذ اغتربت عن الصحراء، مروّضاً وصيّة الحكيم القائلة بوجوب أن نتوارى عن الأنظار كلّما ساء الأمر في واقع المكان، فإذا تمادى في طلب المزيد، فلا حيلة تجدي سوى الفرار!

كان أفراد الأسرة مازالوا يلتئمون في قاع الوادي في 1992، ولم يهاجر كلّ الأشقّاء للإقامة بالحاضرة بعد. وكانت أمّ الجسد أسعد الجميع بوجودي في حضرتها كلّ هذا الأمد، برغم وجود خصم لها في لقياها وهي أمّ الروح: الصحراء! فالحضور في الواحة ليس حضوراً في الصحراء، والمكوث في الوادي المطوّق برموز الصحراء، لم يكن ليشفي غليل السليل الضّال، الضاميء للمثول في حرم الأصول. وهو مالا ينال بسهولة كما قد يتخيّل البعض، لأن التوغّل في جوف الصحراء ليس مجرّد مغامرة عابرة، ولكنّه رحلة تيه لا تختلف في القسوة عن رحلة تعميد المريد في الديانات الإستسرارية. رحلة لا تشترط فقط الأدوات التقنيّة، ولكنها تستدعي دليلاً لا يختلف عن دليل أوليس أو أناي أو دانتي إلى العالم السفلي.

Twitter: @alqareah

ليس هذا وحسب، ولكنها تستوجب طقوس إحرام حقيقيّة، مجبولة بروح البطل الذي يتأهّب للحملة على المجهول، بلا أمل في العودة.

فالنيّة، مجرّد النيّة في ارتياد الصحراء هو قبول مسبق بقدر الشهيد الذي فرغ من كل شيء، ولم يعد يعوّل على شيء سوى على حرية هي فردوس حتى لو كانت في عرف الحرف حتفاً!

لهذا السبب يتلجلج كل من انتوى المثول في ملكوت الصحراء وتستولي عليه حمّى الوجد، لإيمانٍ في النفس عميق بأنّه لا يمثل بنزول الصحراء في وطن الإنس، ولكن في الوطن الوحيد الذي يكون فيه في حلٍّ من كلّ شيء، حيث تبطل العلاقة، وتلفظ حتّى الهويّة أنفاس النزع الأخير، ويتخلّى حتّى المعنى عن المعنى!

في هذا البعد الرؤيوي الذي استوحى منه روّاد المدرسة الإنطباعية في الفنّ التشكيلي واقعهم الحُلْمي، حللت، مع قريبي وصديقي القديم أحمد بلال في حِجّة ذلك العام، في وطن التكوين، بعد أن أفلحنا في تدليل كل العقبات ذات الصلة بالوسائط الفنيّة كالسيّارة الصحراوية ذات الدفع الرباعي، ومخزون البنزين، والتزوّد بالنصيب الكافي من تعويذة الصحراء الأولى (الماء)، إلى جانب المؤن، وسائق السيارة. أمّا الخبير فكان ينتظرنا في مشروع «تاهلا» الزراعي الواقع على بعد خمسمائة كيلو متر من أوباري، والمشرف على وطن الجنّ «إيدينان» الأسطوري.

والواقع أن ارتياد الصحراء لم يكن ليستحيل بهذا العناء الذي يستدعي كل هذه التقنيات لو ظللنا على وفائنا لناموس الصحراء الذي

Twitter: @alqareah

لا يتطلّب لمثل هذه الرحلة سوى جمل ونصيب من ماء. ولكن اغترابنا عن الصحراء، وتنكّرنا لشرعها، هو ما يجبرنا على دفع الثمن باستجداء الوسائط، وتدبير التقنيات، والمبالغة في الإجراءات التي لا نبالغ إذا قلنا أنها تفرض تدخّل الدول لتوفير المواصلات ذات المواصفات التقنيّة المحددة التي كانت حكراً عليها وحدها بعد أن مُنعت لاستخدام الأفراد للأسباب الوحيدة التي تُراعى بحذافيرها في ظلّ الأنظمة المطلقة الصلاحيّة: الأسباب الأمنيّة!

إنه دهاء دنيا العمران التي تستدرجنا بفنون بهتانها لتحرمنا من خلوةٍ في صحراءٍ هي لنا فردوس حتّى لو كانت جدران هذا الفردوس مشيّدةً من عدم.

Twitter: @alqareah

18

في الطريق إلى الحرم تشيّعنا فتنة الوادي مئات الأميال. على اليسار تستميت الجبال في مرافقتنا لتجاريها السيوف الرملية الحميمة على الجانب الأيمن. أمّا في البرزخ الفسيح المحشور بينهما فيحتفر الإسفلت شريط الطريق المعبّد الذي لم يُستحدث إلاّ مع مطلع سبعينيات القرن الماضي، فلا أملك إلاّ أن أستعيد الزمن المفقود الذي عبرت فيه هذا الطريق في ستينيات القرن عندما كان مايزال بكراً عارياً من بصمة الحضارة المسمّاة إسفلتاً. على السفوح الجبلية لا تكفّ الأضرحة عن التشبّث بتلابيب الأحاضيض، بل تستبسل أحياناً في حملات الصعود إلى أعلى، كأنّها تنوي الإستقرار على القمّة لتستعطف السماء.

يتوالد الطريق طويلاً، طويلاً، ولا يكفّ عن جنونه إلاّ في الأوان الذي يتطوّع فيه السراب ليقطع دابره من الوجود. ينفذ مخزون القول، ويتعطّل نشاط اللسان. تتململ الروح، لتستيقظ من سباتها المستهجن. يتنامى الإحساس بانقطاع الصلة مع العالم. الطريق لا يعود طريقاً يشقّ مسيراً في مكان، ولكنّه يغدو سباحة في الفراغ.

التحرّر من المكان يعقبه تحرّرٌ من قرينه الزمان. يهيمن على

Twitter: @alqareah

الكون سكونٌ ليس ككلّ سكون. يتوحّد الكائن ليتّحد مع الكائن. تتماهى الأعالي بالأسافل فينطلق الحلم الذي لا يلبث أن يسلّم زمام الأمر لجلالة التجلّي. التجلّي كناطقٍ مفوّض من قبل الروح لقول حكم الخلود في شأن الأحجية: في شأن الوجود!

أفيُعقل أن يكون هذا الحال هو ما نسمّيه في معاجمنا اليومية المبتذلة: حرّيةً؟

من أين للصحراء بهذه السلطة التي تختلس الإنسان من نفسه، من جسده، من حضوره، على نحوٍ لا يريد معه أن يعود إلى الوراء أبداً من حالٍ هو أبعد من الوجد، ومن الغياب، ومن الحال الذي يعجزنا التعبير عنه بالعبارة، لأنه استهتارٌ بقوانين الطبيعة من حيث هو مِيتة، وعبثٌ بقواعد المنطق من حيث هو بعثٌ من ميْتة؟

سرّ الصحراء في قدرتها على محو الحدود بين المحدود واللا محدود، بين العدم والوجود.

Twitter: @alqareah

19

في الصحراء الواقعة بين سردلس وغات تتبدّى تاهلا كمشروع زراعي لتوطين قبائل رُحّل بإسم كيل أبادا في صفقة مشبوهة معقودة مع شيطان الإستقرار تتنازل بموجبها القبيلة المذكورة عن حرّيّتها مقابل رخاء مزعوم لم يُكتب له أن يتحقّق أبداً لا كمشروع زراعي، ولا كواقع إستيطاني، مثله مثل جلّ المشاريع الزراعية أو الإستيطانية التي تغنّى بها النظام تلك الأيام بوصفها إنجازات خرافية. كلّ ما تمّ تشييده حتّى ذلك اليوم هو استراحة مكوّنة من عدّة حجرات منفصلة تتحلّق حول مطعم مفتوح على مشروع بستان صغير تتناثر فيه بضعة أعشاب أماتها الإهمال والجفاف كأنها النموذج الناطق بحقيقة كل المشاريع الوهمية السائدة آنذاك التي لم يتحسّر جيلنا على فشلها، بقدر ما تحسّر على ما استنزفته من موارد نفيسة لا يمكن تعويضها كما هو الحال مع الثروة المائية مثالاً لا حصراً. وكم آلمتني نبرة الندم في خطاب الشيخ الحاج أحمد زعيم هذه القبيلة يوم زرته في حيّ الأكواخ الذي ابتناه أبناء القبيلة بمجهودهم الشخصي، لأن الحكومة خدعته يوم استدرجته لهذا المقام ثم تخلّت عنه ما أن لبّى النداء ليجد نفسه في موقف حرج مع القبيلة التي فقدت هويّة التنقّل، دون

Twitter: @alqareah

أن تنال هوية الإستقرار الموعودة. كان الرجل يستنكر أن تمارس الدولة رذيلة الكذب، ولم يعلم أن الكذب في شرع العمران هو الفضيلة ما ظلّ سفيراً في قضاء الحوائج.

والحاج أحمد كان خلاً قديماً لأبي الذي عرّفني به عندما كنت أحتمي بقلعة القارة بسببها في الستينيات. وقد أهداني آنذاك بهمتَيْ غزال في فترتين مختلفتين كما تناولت في أحد الأجزاء السابقة من هذا البيان. غزالتان لم آكلهما على عادة الكلّ لا لأنّي لا أستطعم لحوم الغزلان فقط، ولكن لهوسي بهذا الكائن الإلهيّ منذ الطفولة ورأيته دوماً تجسيداً لفتنة مجهولة كان على شخصي أن يحيا أعواماً أُخر، ويرتاد أمكنةً، ويعاني آلاماً، قبل أن يكتشف أن البعد المجهول في هذه الفتنة ليس شيئاً آخر غير الجمال. لهذا لم يخطر ببالي أن أفعل بالغزلان كما يفعل الناس في الزمن المفقود الذي كنت فيه أقيم وحيداً بالبيت الواقع خلف مركز الشرطة بالهامة الجبليّة المكابرة بأمّ الوحات، منقطعاً للدراسة، ومنهمّاً بقراءة الكتب، مسلّياً عزلتي بتربية رمز الجمال الإلهي: الغزال!

لا أدري كم استغرقت هذه الرفقة، لا في المرّة الأولى، ولا في الثانية، ولكن ما لن أنساه كيف هجرني الضيف الإلهيّ في المرّتين. حزنت للفقد، ولكنّي لم أندم على فرار الفتنتين، لإيماني الخفيّ بأن وطن الجمال ليس فناء البيت المطوّق بأسوار الجدران، ولكنه هو: الحرية. كنت في الخامسة عشر آنذاك، ولكنّي لم أجهل أن الفراق لِما نحبّ سوف يأتي إن لم يكن عاجلاً فآجلاً، والغزال، الذي

Twitter: @alqareah

نأسره لا لنأكله، ولكن لنصادقه لابدّ أن يهجرنا، بالفرار، فإن لم يكن فبالموت!

إلتقيت الحاج أحمد بعدها مراراً في السنوات التي كان فيها طائراً حرّاً كما كنت مثله مهاجراً حرّاً، أي قبل أن تنطلي عليه حيلة الإستقرار اللئيمة. ولكنّي لم أزره في بيته إلاّ في تلك المرّة من عام 1992 لأجده يعاني مرض الإستقرار أكثر من معاناته لداء الشيخوخة وهو الذي اجتاز الخمسة والثمانين عاماً (كما أخبرني آنذاك) التي لم تكن لتنال من قواه لو أخلص لجناب الحرية، ولم يستسلم لخرافة الفردوس المزيّف.

في تلك الزيارة استعدنا ذكريات لقاءاتنا القديمة، ثم لم يستحِ أن نراه وهو يبكي (ككلّ العظماء الذين لا يخجلون أن يراهم الأغيار وهم يبكون) ما أن استعاد ذكرياته مع والدي الفقيد. ترنّح كالمصاب بنوبة وجد على عادة أشياخ قبائلنا الذين رحلوا، ثمّ أطلق زفرة وجع تعبيراً تقليدياً عن قسوة الفقد، قبل أن يردّد: «كان رحمه الله لا ينزل إلاّ في خبائي سنوات الترحال، ثمّ دأب على النزول في هذا البيت كلّما مرّ من هنا في طوافه الذي لا يتوقّف أبداً».

في تلك الليلة ألحّ أن يستبقينا للعشاء، ولكني اعتذرت بالأصالة عن نفسي وبالإنابة عن رفيقي أحمد. ولكنّي فوجئت به يلحّ مراراً متحجّجاً برفيقي بوصفه رجلاً غريباً ولا يجوز في العرف أن يذهب بدون إبرام مراسم للعهد. ولكني تحجّجت بظروفي الصحيّة، وبالإرهاق بعد سفر يوم كامل، فانتزعت تميمة الظروف الصحيّة

إذنه، ولكن على مضض. وكم آلمني أن أعلم من خبيرنا السيّد «غاوني» أن الشيخ قد استغفلنا أثناء الجلسة وأمر بنحر شاة على شرفنا، ربّما كانت آخر ما يمتلك على الإطلاق، فإذا بنا نرفض لا دعوة على عشاء، ولكن تجديد مراسم ذلك العهد الذي كانت فيه الأضاحي طُعْماً، لا طعاماً، دون أن يدري المسكين أنّي طلّقتُ اللحوم وما شاكَل اللحوم من الطعوم منذ عهد الميلاد الثاني، وأصبحت إنساناً مهووساً بصنوف النبوت إلى الحدّ الذي دفعني لأن أرتكب في رحلتي تلك خطأً فادحاً فأكلت مع الرفيق عشبة جادت بها سحابة عابرة في منتصف الطريق كما كنّا نفعل مع أعشاب صحراء الشمال، فأصابتنا بالغثيان والحمّى، ولم نعرف حقيقتها إلاّ في رواية خبيرنا «غاوني» القائلة بأنها نبتة سامّة تنمو بوفرة في تلك المنطقة بإسم «فلهله» التي لم تكن سوى عشبة «فلجلجت» التي يتحدّث عنها إبن خلدون في تاريخه كما اكتشفت تالياً.

Twitter: @alqareah

20

يحلّ البعض في محراب الصحراء ليتنزّهوا، ويحلّ البعض الآخر ليصطادوا، وتستجير بها فئة ثالثة لتتطهّر: فالحنين إلى الصحراء بالنسبة لهذه الفئة، هو ظمأٌ إلى القداسة. ظمأٌ إلى القداسة المفقودة في عالم العمران حيث يهيمن الدنس بوصفه الإبن الشرعي للروح النفعيّة. فهنا، في بوّابة الصحراء الغربية الملقّبة في لسان القوم بإسم «آغرم نودادن»، تلفظ العلاقة أنفاسها، وتبطل الحاجة إلى الصفقة لتموت الحاجة إلى قضاء الحاجة أيضاً، لأن الحرية منذ الآن هي ناموس هذا الملكوت العاري، اللا محدود، المجلّد، كأنّه جوهر لا أرضيّ، على نحوٍ يدعونا لكي نؤمن بوجود معجزة الروح في بُعدها المجسّد أيضاً، لا المجرّد فحسب.

«آغرم نودادن» تعني في الترجمة «وطن الودّان». والودّان ذلك المخلوق الأسطوري الذي انقرض في ربوع أوروبا منذ القرن الثامن عشر، ثم انقرض تقريباً في عالم الصحراء الكبرى أيضاً بفعل جشع الإنسان إلى الإبادة لا إلى القُوْت، لتصير التقنية عوناً في الإخلال بالتوازن البيئيّ، سواء بتزويده بالبنادق الفعّالة، أو بسيّارات الدفع الرباعي القادرة على اقتحام الوعورة. وهذه المنطقة التي نزلناها في ذلك اليوم أكبر شاهد على ذلك.

Twitter: @alqareah

فالوطن الغني بالمغاور الذي كان بالأمس القريب جنّةً لهذا الحيوان المكابر والغامض الذي نصّبته أساطير الأوائل روحاً للجبال، تماماً كما نصّبت قرينه الغزال ليكون روحاً للسهول الرمليّة، قد اختفى من أرباع هذا الوطن مخلّفاً وراءه الإسم وحده، كما اختفى قرينه الغزال من ممالك الصحراء الرملية. لم يختفِ هذان القرينان من عالم الصحراء في ذلك الزمن الذي كان فيه إنسان هذا المكان جائعاً، ليقينه بأن هذه المخلوقات ليست أنعاماً، ولكنها أرواح تتقمّص أجرام الحيوانات، والمبالغة في قتلها ليس خطيئة في حقّ الطبيعة وحسب، ولكنّها جريمة في حقّ الذات لإيمان عميق بأنها تحمل أرواح ذوي القربى الذين غابوا. أمّا ثقافة العمران في زمن البحبوحة الإقتصادية فلم تقتحم الصحراء بحثاً عن طرائد للإشباع من جوعٍ جسديّ، ولكن امتهنت الإبادة لإشباع جوع روحي، هو في الواقع إختلاس روحي، مطلقةً على هذا العمل القبيح تسليةً!

إنها رسالة التقنية ـ العدوّ التي اختلست الإنسان من حصن طبيعة كانت دوماً أمّاً، لتسحب من بين يديه خلافة الله على الأرض. وهي المؤامرة المدبّرة بدهاء والتي تتفاقم يوماً عن يوم، ولن يستبعد أن نشهد قريباً في أحد فصولها كيف يتحوّل بفعلها الإنسان مسخاً يعتنق دين الـ «غوليم» (الإنسان الجسد، الخالي من الروح) على النحو الذي تتنبّأ به ميرينيك في الرواية الملقّبة بهذا الإسم. فهذه الجنيّة المتنكّرة في جرم التقنية، لن تقنع بشيء ما لم تقدنا على التهلكة على طريقة «وانتهيط» في أساطير الصحراء الذي تقول النبوءة أنه سوف يقبل على الأمم يوماً، ممتطياً ظهر دابّةِ نحسٍ هي الأتان،

Twitter: @alqareah

ليعمي عيون الملأ ببريق مقتنياته المغرية، فينطلق السفهاء في ركابه ليودعهم هاوية بلا قاع. فالروح التي ينوي هذا اللئيم أن يسرقها منّا بتغريبنا عن الطبيعة بمقتنياته المشئومة، ليست سوى هذه الطبيعة نفسها إذا تحرّرت من طبيعتها كطبيعة لها حضور قيد الوجود، كما أن الطبيعة ليست سوى الروح فيما إذا اغتربت عن سجيّتها فتجسّدت. في الإنسان يتآلف هذان البُعْدان الحميمان المتاخمان في صفقة الروح فيها حرية، والطبيعة حضور: تثري الروح بقدر تلبيتها لنداء الطبيعة لتنتحل خصالاً عبقرية، في حين تتبلّد الروح ويختنق فيها الوهج بقدر غياب استعدادها لتلقّي الهبة الطبيعية. وهو الدور الذي تلعبه التقنية في حملتها الكيدية ضدّ الجنس البشري.

فالماء بوصفه تجسيداً للطبيعة إذا كان يغسل كلّ ما هو من طينته وهو الجسد، فإنّ الصحراء بالمقابل بما هي تحرّر من الطبيعة إنّما تغسل ما هو من طينتها وهو الروح. هذا يعني أن الغذاء إذا كان قوت الجسد، فإن الصحراء هي قوت الروح. وليس عبثاً أن تستعير الروح هويّتها من الريح لخصائص ثلاث ذات بعد ميتافيزيقي: الهشاشة الإستثنائية، والقوّة الإستثنائية، والحضور في البعد المفقود. هذا في حين يتميّز حميمها الحميم وعدوّها اللدود في آنٍ معاً بخصالٍ ثلاث أيضاً ذات بُعْد فيزيائي هذه المرّة: الوزن، والوهن مع وجود الوزن، والإحتفاظ بالحضور في البعد الموجود. لهذا يهوي الجسد، وتسمو الروح.

يهوي الجسد ليكون غنيمة طبيعته الأرض. وتسمو الروح لتغدو غنيمة طبيعتها السماء. وهو ما عبّر عنه هوراك في مراثي إيزيس:

«تنال الأرض جسدك، وتنال السماء روحك».

21

«آغرم نودادن» وسمٌ يفضي إلى وسمٍ آخر هو «تيهنبكا»؛ لأن الصحراء أوطان داخل قارة، ولا تبدو بملامح صحراء أبديّة إلاّ للأغراب الذين جهلوا طبيعتها. فهي لا تتنوّع في التضاريس الطبيعية وحسب، ولكنها تتنوّع في الهوية الجمالية أيضاً. وهذا التنوّع الأخير سرّ لا يسكن بالنسبة للمشاهد الرؤية، ولكنه يسكن رؤيا فرعها في الطبيعة الخالية وأصلها طلسم في قلب مَنْ يشاهد.

والوطن الجديد، الملقّب بإسم «تيهنبكا» ليس سيماء في الطبيعة وحدها، ولكنه وطن له تاريخ بالنسبة لمحترف التّيه في صحراء الدنيا كما هو الحال مع عدوس السُّرَى. فهو الوطن الذي اختار الزعيم فنايت عمّ أبي ليكون له منفى الأبد عندما قرّر أن يتخلّى عن عرش «آزجر» التي كان زعيمها ليستجير بتلابيب القداسة إلى آخر يوم في عمره المديد الذي تجاوز المائة عام. و«آزجر» هي وطن الصحراء الذي يشمل جنوب غرب ليبيا، ويتواصل ليضمّ شرق جنوب نوميديا (الجزائر حالياً)، ونصيباً من العمق الصحراوي في الجنوب المتاخم، لتخوم تشاد و«آير» (النيجر حالياً). إنها السلطنة الموروثة منذ القرون الوسطى التي دخل بسببها سلف الزعيم فنايت المعروف بـ أخنوخن

Twitter: @alqareah

حرباً شرسة ضدّ فرنسا القرن التاسع عشر في سبيل استقلالها فيبيد جيش الغزاة في الحملة المعروفة تاريخياً بإسم «حملة الجنرال فلاترز». ولا أحد يدري إلى اليوم السبب الذي جعل ذلك الإنسان النبيل يتنصّل من واجب شئون القبائل فجأة فيهاجر ليعتزل الدنيا في هذه الخلوة القاسية، تاركاً وراءه كل شيء باستثناء مخلوقين إثنين تحدّثت الأجيال بسيرتهما فقالت أن الإنسان فيهما أَمَة، والحيوان كلبة. ويقال أنه أجاب عندما سُئل عن سرّ حرصه على هاتين الغنيمتين من دون كلّ ما ملكت يداه فأجاب قائلاً: «حتّى لا يتذكّرني الناس بهما!». وهو ما يترجم في ظنّي الرغبة في قطع العلاقة لا مع الزعامة فقط، ولكن مع أهل الدنيا أيضاً.

والواقع أن هذا الرجل لم يفعل إلاّ ما نحلم جميعاً أن نفعل، فنحقّق ما أفلح هو في تحقيقه. هذا الحلم الذي يراودنا دوما، ولكننا نتجاهله ليبقى في حياة كلٍّ منّا حنيناً مؤجّلاً ليس شيئاً آخر سوى: القداسة!

إنه الحلم البطولي الوحيد في الواقع، لأنه الخيار الصعب بما هو إنجاز ضدّ التيّار، ولطبيعته الزهدية في عالم أحلامه كلّها أنانيّة. ولكن... ولكن لماذا نحتال على اللغة، ونتهرّب من تسمية الأشياء بأسمائها الحقيقية، فنجتنب أن نقول الحلم بالقداسة ليس سوى الإسم المستعار لذلك المبدأ الذي ننقاد إليه إنقياد الفراشة إلى النار، كما نفرّ منه فرارنا من النار أيضاً، وهو: الحرية! ننقاد إليه انقياد الفراشة إلى النار، لأن الحرية: ترياق، ونفرّ من هذه الحرية فرارنا

من النار، لأن الحرية: مسئولية. الحرية ترياق الوجود، والحرية أيضاً مسئولية أمام الوجود. ولهذا السبب يكتفي الجبناء بالحنين إلى الحرية، في حين لا يجازف بالإرتماء في أحضان الحرية إلاّ الأبطال.

فالجدير بلقب البطل ليس المغامر الذي ينتحل لنفسه مواهب لا يملكها إلى الحدّ الذي يجرؤ فيه على القبول بتولّي أمر الناس، ولكن البطل الحقّ هو الذي يتخلّى عن السلطة ويذهب بعيداً لينقطع عن الناس على طريقة إمام الحكماء السبعة صولون، أو على طريقة عمّ أب العدوس فنايت أغ موسى زعيم قبائل الصحراء الكبرى في زمن ما بين القرنين التاسع عشر والعشرين.

من حسن حظّ هذا المريد أنه لم ينجب من صلبه ذريّةً وإلاّ لما أفلح في تنفيذ حنينه الألوهي، لأن صاحب العيال لا يفلح كما يقول سفيان بن عُيينة، ضارباً المثل بقطّته التي كانت لا تكشف القدور، ولكنّها كشفت القدور وسرقت ما أن أنتجت أولاداً. ففي هذه الخلوة السمحاء عاش الذي قطعه الله لنفسه عندما جرّده من الذريّة، ومن ذوي القربى، ومن حبّ الدنيا، فانقطع هو لله طوال ما تبقّى له من العمر إلى أن ماتت الكلبة، ثم جاء اليوم الذي تجرّأت فيه عليه الأمة (كما يُروَى) وقد سئِمت معاندة شئونه فدبّرت لمأواه الحريق الذي حرّره من مرضين: مرضٌ إسمه الشيخوخة، ومرضٌ إسمه الحياة الدنيا.

والواقع أن الزهد ليس قيمة عارية، ولكنه حمولة. الزهد منظومة لا تختلف عن حزمة القوانين التي لا تكتمل، بل ولا تُفهم، بدون ملاحق أو مذكّرات أيضاحيّة.

Twitter: @alqareah

فالسخاء الذي يتنازل فيه إنسان كالأب عن كل ما يملك باستثناء سرجه وبندقيّته (كما يوحي لرفيقة رحلته) لن يكون شفيعاً كافياً بمنطق الزهد. ربّما لهذا السبب احترف الأب الإنقطاع المميت الذي زلزل علاقته بقرينته طوال ذلك الزمن الصعب (بيئياً واقتصادياً وسياسياً) من تاريخ القارّة الصحراوية المفقودة. فهو لم يقطع حبل السرّة مع القبائل ليسكن إلى مكان مثل «تيهنبكا» (على طريقة عمّه المجيد)، ولكنه سلّم زمام الأمر لناموس الصحراء الذي لا يعترف بغير العبور. هذا العبور إذا كان لمريده ضمان حرية، فإنه للمرأة قصاصٌ بالطبيعة. لأن المرأة هي خليفة الطبيعة على الأرض بقدر ما الرجل خليفة الله في الأرض. المرأة في الصفقة الوجودية واقعٌ حسيّ، طينٌ مغمورٌ بالماء، أرض؛ والرجل ريحٌ تسرح في الفضاء، روحٌ تسكن بُعْداً مفقوداً هوالسماء. تُخلص المرأة لطبيعتها كواقعٍ سفلي يهفو للركون إلى المكان، ويخلص الرجل لطبيعته فيتطلّع إلى النجوم طلباً لبعده المفقود. لهذه العلّة كانت المرأة رسول الديانات الطبيعية لتتربّع على عرش الكهانة، فتلتقط النبوءة من فم الغيوب لتنقلها للناس وَجْداً شعريّاً على طريقة «سيفيلّلا» أو عرّافات معبد دلفى في اليونان القديمة، في حين لم يتبوّأ الرجل عرش النبوّة إلاّ بعد هيمنة الديانات التوحيدية.

هنا تكمن الضرورة في نشوب الصِّدام، لأن الحميم الذي يأبى أن يكون لحميمته غطاءً، لن تكون له الحميمة فراشاً، لأنه إخلالٌ بوصيّة كهنة الفرعون الذين يأمرون المرأة أمراً بأن تكون لرجلها أرضاً

Twitter: @alqareah

لكي يكون لها سماءً. ولكن سماء المهووس بالعبور سماءٌ لا يعوّل عليها، لأنها من طبيعة السحاب المتحوّل، لا السماء الخالدة.

الهوس بالفرار، إذاً، بندٌ تراجيدي في ملاحق العقيدة الزهديّة، لأنه لا يكتفي بأن يجرّد مريده من الحطام، ومن الأمان، ومن حميميّة المقام في المكان، أو دفء العلاقة مع أخيه الإنسان، ولكنه يُفقده حقّ تشييد كيان الأسرة بوصفها العملة الوحيدة للإبقاء على سلالة الجنس البشري.

فليس على من قرّر أن يقترن بإمرأة أن ينسى أن هذه الصفقة هي قربانٌ في الأساس. قربانٌ نضحّي بموجبه بأنفس ما في الوجود وهو: الحريّة. حريّة هي حلم الكلّ، بل هاجس الكلّ، والشجعان وحدهم مَن يضحّون بكل شيء، فيذهبوا لمنازلة تنانين هذا الوجود، لأنهم تجاسروا فسمّوا الأشياء بأسمائها، فيرتضون المنافي ناموساً، لأنهم إذا كانوا يستطيعون أن يتساهلوا في كلّ أمر، أو يتنازلوا عن كل غنيمة، في سبيل هذا الحلم، فإنّهم لن يستسلموا أمام أي عقبة عندما يتعلّق الأمر بالبند الأسمى في شرع العقيدة الزهديّة وهو: الحنين إلى الله.

ولكن ألاَ تكون الحريّة هي الإسم المستعار لعبارة «الحنين إلى الله»؟

أفلا يكون لهاث العدوس في ليل السُّرَى مجرّد صيغة أخرى مستعارة من ذات المستودع؟

Twitter: @alqareah

22

يتمدّد الجرم المزموم في المسافة كجوهرٍ مجلوٍّ بنَفَسٍ ألوهيّ، فحقّ لنيتشة أن ينصّبه رديفاً لوجودٍ لا أرضيّ. إنّها معجزة الروح إذا تنازلت عن هويّتها وارتضت أن تتنكّر في جسدٍ لا تجهل أنه فانٍ، فلا تحلّ فيه إلاّ لتستنزل فيه بصمة خلود. هذه البصمة هي ما يأسر كلّ مريد صحراء، فَيتوَغّل مستسلماً لمشيئة الإغواء. تتوالد الصحراء وتتوالد مستخدمةً في سفرها فيوض الوعود، فلا تملك النفس الظامئة بطبيعتها للمجهول إلاّ أن تصلّي كي تتواصل ملحمة التّيه إلى ما لا نهاية..

ولكن ما يبدو للعابر الطاريء تِيهاً مسطّحاً تستوي فيه الأعالي بالأسافل، هو في عرف أهل المكان أوطانٌ محدّدة بتخومٍ خفيّة. وها هي «تارات» المجيدة التي كانت يوماً قبلة القبائل تعترض سبيلنا في استواءٍ سخيٍّ حميمٍ محميّ الظهر بجبلٍ مهيبٍ، مستوٍ في السطح، ودامٍ في اللون، مشوّش الشعاف بغلالةٍ هشّةٍ تتبدّى عن بُعْد قناعاً صبيانيّاً موحياً بالغموض. إنه الجبل الذي يزحف صوب الجنوب الغربي ليتواصل بعد مئات الأميال في سلسلة تاسيلي التي أضحت عنوان المنطقة منذ أماط العلاّمة هنري لوت اللثام عن كنوزها (التي

Twitter: @alqareah

اختطّها فنّانو ما قبل التاريخ على جدران كهوفها) في بداية خمسينيّات القرن الماضي، قبل أن تدنّس هذا الحرم أحذية عسكر الجارة نوميديا (مستعيرةً إسماً مختلقاً هو الجزائر) كبديلٍ للإسم الأصلي بنيّة مبيّتة غايتها طمس هويّة السكّان الأصليّين التي اعترف لهم بها جبابرة العالم القديم يوم كانوا عَصَبَ جيوش هانيبال ليرجع الفضل لفرسانهم في احتلال روما.

وها هي الأحذية العدوانيّة المنكرة تحتلّ تاسيلي بعد نيلها الإستقلال عن فرنسا، فلا تكتفي بذلك، ولكنّها زحفت في الأعوام الأخيرة لتبتلع النصيب الأوفر من أراضي آزجر داخل حدود ليبيا إلى الحدّ الذي اجتازت به جبل تارات لتقيم لنفسها نقلة حدوديّة في عمق الصحراء الليبية دون أن يحرّك النظام ساكناً لردع هذا التحدّي بعذرٍ أقبح من ذنب وهو: وحدة الفضاء القومي!

فالسلسلة التي تبدأ من تارات وتتواصل في تاسيلي هي بمثابة السدّ الجنوبي الغربي للبحيرة الكبرى التي كانت السلسلة المانعة لوادي الآجال حدّها الشرقي، وجبل الحساونة في أقصى الشمال حدّها الشمالي، فزحف عليها طوفان الرمال وقطع دابرها من الوجود، ولم يبقَ منها سوى آثار طبيعيّة متمثّلة في ثالوث البحيرات الضائعة في بحر رمال زلاّف، وآثار أخرىً إنسانيّة متمثّلة في رسوم فنّاني ما قبل التاريخ في تاسيلي وآكوكاس. فهل نوافق أفلاطون المدعوم ببراهين الآثار، وأساطير القوم، وحجج الطبيعة، فنؤمن بحقيقة هذه القارّة المفقودة كرديفٍ شرعيّ لأطلانطيدا الضائعة، أم

نخون الواقع لنرضي المسيو هنري لوت الذي ينفي اكتشاف أطلانطيدا الأسطوريّة من باب التواضع يوم أماط اللثام عن آثار تاسيلي المغمورة تحت رمال أكثر صحاري الدنيا جمالاً وأعظمها اكتمالاً كما ينعتها ابن جلدَته العلّامة مانو؟

سيرة أطلانطيدا رواها كهنة مصر القديمة لحكماء اليونان، ولكن لعنة الزوال لاحقتها حتّى في النصّ الوحيد المروي على لسان أفلاطون ليكون المتن الوحيد في كلّ أعمال الفيلسوف المبتور، إمّا لأنّه لم يكتمل أصلاً، وإمّا لأنّ كفّ القدر امتدّت لتتلف ثلاثة أرباعه، ولم ترث الأجيال منه سوى الإستهلال. من هذا الإستهلال نعلم طائفة حقائق ذات دلالة فيما إذا تأمّلناها مليّاً. وأوّل ما يجب أن يستوقفنا في رواية أفلاطون معلومة وردت على ألسنة الكهنة تُرجع تاريخ العهد الذي شهد مجد هذه القارّة إلى الألفيّة التاسعة من تاريخ روايتهم. فإذا احتكمنا إلى بلوتارخ الذي يؤكّد أن المصريّين القدماء هم أقدم أمّة في العالم لأنهم الأمّة الوحيدة التي تعامل الأعوام كأشهر في حساب العدد، فهو ما يعني أن التسعة آلاف عام التي يحدّدها كهنة مصر تاريخاً يفصل حاضرهم عن ماضيهم هي في الواقع ثمانية وتسعين ألف عام إذا سلّمنا جدلاً بالتقويم المصري حسب رواية بلوتارخ. وهو رقم لن يذهل إلاّ من جهل تاريخ حضارات الصحراء الكبرى الذي يعود إلى الوراء لا مئات ألوف الأعوام وحسب، ولكن إلى ملايين السنين. وأوّل برهان في هذا الشأن تهبه لنا جمجمة السبعة ملايين عام التي اكتشفت في الصحراء

Twitter: @alqareah

الكبرى في العقد الأوّل من هذا القرن لتكون ثورة في علم السلالات إستقبلها علماء الإنثربولوجيا بتظاهرة في مؤتمرهم الصحفي العالمي المنعقد في زيوريخ منذ أعوام ابتهاجاً بالمناسبة.

ولكن سيرة الجمجمة ليست الكلمة الأولى والأخيرة في سيرة القارّة الضائعة، لأن المتن المبتور يزوّدنا بمادّة نفيسة في هذا الشأن فيما إذا أخضعناها لما تستحقّ من تأويل، وفيما إذا احتكمنا إلى المنهج الميثولوجي المقارن، الذي يجود به الواقع الأسطوري لسكّان الصحراء الكبرى الأصليّين، فأوّل حرف في أبجديّة الملحمة الأطلانطيديّة هو الواقع البيئيّ، المائيّ تحديداً، المترجم في المروية الكهنوتية في هويّة السرد. فما عهدناه في سيَر الأمجاد هو الإشادة بالبطولة. والبطولة تقليديّاً نتاج حربي هو في الواقع عدواني سواء أكان دفاعاً عن النفس، أو حملة لإخضاع عدوّ. أمّا في حال أطلانطيدا فالبطولة تبدأ بوصف حملة إعمار: تفاصيل لسيرة تشييد قناطر لتطويع العلاقة بين البرّ والغمر. وهي السيرة التي غذّت الإعتقاد السائد بوجود هذا الفردوس في مكانٍ مّا من المحيط الأطلسي، والكارثة التي حلّت بها كانت بفعل الطوفان حسب إجتهادات الأجيال. ولكن المنطق سوف ينفي كل هذه المعتقدات من خلال واقع الحال. فالبُعد الغائب من الملحمة الأسطورية هو ناموس الطبيعة بالنسبة لعالمٍ يجهل حقيقة محيط آخر بالجوار ينافس المحيط الأطلسي ويرث خصاله سيّما إذا تعلّق الأمر بميلاد ما نسمّيه اليوم حضارات. فالحضارة ظاهرة أرضيّة. أي وجود الفردوس الأرضيّ

رهينٌ بالحضور في اليبوسة، لأن الغمر إذا كان في الصفقة أصلاً، فإنّ البرّ واقعٌ مستحدث. وهو ما يعني أن سيرة التكوين رهينة وجود رقعة أرض تمرّدت على مشيئة الغمر الكوني، في زمنٍ مّا في مكانٍ مّا، ونفذت برأسها نحو الشمس تماماً كما تنفذ الكمأة من الطين لتتطلّع إلى أعلى. هذه الولادة العسيرة كانت الحرية التي جسّدت الأرجوحة الأولى التي كانت مهد المخلوق البشري. واليوم عندما تُجمع كل الثقافات على كون إفريقيا هي مهد هذا الجنس البشري، لا تضيف الحقيقة الأهمّ: أيُّ أرض في افريقيا التي كانت للإنسان مهداً؟ هل هي الأدغال الإفريقيّة التي مازال الإنسان فيها بدائيّاً ولم يتحرّر من خصال الأرومة الأولى التي تربطه بالقِرَدة تحرّراً نهائيّاً بعد؟ أم أن المنبت في إفريقيا إنّما كان المكان الذي تعرّى من المياة أوّلاً، وتحمّم بشموس الأزل قبل أن ينجب من جوفه الكمأة الأكثر أسطوريّةً من الكمأ وهو الإنسان، بدليل أن هذا المكان لم يكن ليشيب اليوم ويبيد لو لم يكن هو أوّل يبوسة سطرت في الوجود سيرة التكوين؟

فعلم الجينات إذا كان آخر برهان يهرع لنجدة البشرية ليؤكّد نظرية الأصل الإفريقي للجنس البشري، فمن المخجل أن يمضي العالم في جهل، أو تجاهل بالأصحّ، حقيقة غاية في الخطورة وهو أن أصل الجنس البشري ليس إفريقيا (الرديفة في معجم اليوم للأدغال)، ولكن مهد الجنس البشري في ذلك الجزء من إفريقيا الذي لولاه لما سُمّيت إفريقيا بهذا الإسم، ولولاه لما وُجدت إفريقيا

Twitter: @alqareah

كإفريقيا، برغم أنه لم يغترب اليوم عن العالم إلاّ لهويّته كوطن تكوين، ولم يُنسَ على هذا النحو التراجيدي إلاّ لانتمائه إلى الماضي الأبعد الذي لا سلطان للذاكرة عليه وهو الصحراء الكبرى. فأهل هذه القارّة المنسيّة الذين يتعرّضون اليوم للإبادة العرقية من قبل العنصرية السوداء، وإلى طمس الهوية المبرمج من قبل العنصريات العربية في الشمال، هم آخر همزة وصل بين عالمنا وعالم سلالة التكوين، والبراهين المذهلة الواردة في المجلّدات السبعة من بياننا في لغة اللاهوت عن حقيقة اللغة الأولى التي انبثقت منها اللغات الدينية، هي الشهادة العلمية على هذه الحقيقة في عالمٍ لا يدري حتّى الآن أن كلمة إفريقيا نفسها مستعارة من هذا المعجم البِدْئي، لأن كلمة «آفرا» التي أُستعيرت منها كلمة «افريقيا» إنّما تعني في لغة الطوارق (الإيموزاغ) أحد المعاني الكثيرة لوطنهم الأسطوري: الصحراء!

فتجارب الأمم هي التي علّمتنا أن أسماء الأوطان عادةً مستعارة من العلامة الفارقة التي تميّز هذه البقعة عن تلك، ولا شيء يميّز هذه القارّة السوداء عن بقيّة أصقاع الأرض سوى هذه البقعة المضيئة، المغسولة بروح معبود الأوائل (الشمس)، وهي الصحراء التي لم تكن ككلّ صحراء، ولكن أسبقيّتها على الصحاري، بل وعلى الأوطان قاطبة، وفرادتها، وأصالتّها، وإعجازها، كانت كلها مؤهّلات عظمتها التي أجبرت الأقوام أن تطلق عليها الإسم الجدير بها: الصحراء الكبرى!

أفلن يعني هذا أن القناطر الأسطورية التي عاندها أبطال أطلانطيدا

الأسطوريّين لم تكن لتقوم على طوفان هو المحيط الأطلسي اليابسة فيه جزيرة بائسة، ولكنها قامت على بحيرة هي بمثابة بحر عائم يتوسّط يابسة، وليس العكس، والطوفان الذي أهلك هذا العمران البدّئي ليس طوفان المياه، ولكنه طوفان الرمال التي ابتلعت البحيرة، فهام القوم على وجوههم في ذلك الشتات العظيم الذي فاض على كلّ القارّات حاملاً في الوجدان تعويذة التكوين كأنّها شعلة برومثيوس؟

فهل هذا كل ما في الجعبة من براهين؟

كلاّ، بالطبع. فالوهم الذي يربط وجود القارّة المفقودة في المحيط الأطلسي يكمن في الإسم، أي الأطلسي. وهو تجديف صريح في حقّ الناموس القديم القاضي بتسمية المحيطات والبحور استعارةً من أسماء أوطان اليابسة التي تجاورها، وليس العكس، كأن نقول «بحر ليبيا»، أو «البحر الأدرياتيكي»، أو «بحر إيجه»، أو «بحر الروم»، وهي أسماء للأوطان اليابسة التي تجاور هذا الجزء من البحر أو ذاك، من هذا الجانب أو ذاك. وعندما يوصف هذا البحر ذاته بـ«المتوسّط» فلأنه يتوسّط القارات الثلاث. أمّا إذا عُدم وجود صفة للمكان، ففي تلك الحال يستعير الغمر إسمه من طبيعته، كأن يقال «المحيط الهاديء»، أو «بحر الشمال»، أو «بحر الظلمات».. إلخ. وهو أمرٌ طبيعي، لأن الغمر في الكون أصل، وكل ما عداه طاريءٌ عليه بما في ذلك اليابسة التي تسكن قيعانه كتراب، ولكنها لا تستعير هويّة الأرض إلاّ بخروجها من قمقم الظلمات المائية، وبروزها إلى الشمس كحرية. فمن أي حرية استعار المحيط الأطلسي إسمه؟

Twitter: @alqareah

الأطلسي تشرّف باستعارة الإسم من الحرية الأولى، أي من أوّل يبوسة استطاعت أن تشقّ عصا الطاعة على سلطان الغمر الكوني، وهي البقعة التي شاخت الآن لأنها أول ما شهد في دنيانا ميلاداً، والملقّبة بإسم الصحراء الكبرى. ولهذا السبب يُطلق اللسان المصري القديم (الذي هو طرفٌ في الدياسبورا الأطلانطيدية العظمى وإلاّ لما كان كهنة مصر هم من روى سيرة الوطن الضائع) إسم «وشّر» على الصحراء. وهي كلمة مازالت تحتفظ بمعناها الرديف للصحراء في لسان الطوارق بمعنى: «شاخ»، باعتبار الصحراء مجرّد أرض نالتها الشيخوخة. من هذه الكلمة اشتقّت اللاتينيّة إسم الصحراء المتداول في اللغات المنبثقة عنها بإضافة حرف الدّال لتسهيل النطق في لسانٍ مختلف. فأهل الصحراء الكبرى يتباهون بالإنتماء إلى سلالة ربّة الأرباب «تانّيت» أو «نيت» أو «تانّس» المعبودة في ديانات كلّ أقوام المتوسّط، فيهتفون بالهوية مردّدين: «أترانتا» بإبدال مشروع وشائع بين حرف يت التي هي في الأبجديّة تاء التأنيث! وهي تنطق أيضاً «أتلانتا» بإبدالٍ مشروع وشائع بين حرف الراء واللام بوصفها حرف ساكن واحد يكوّنان مع النون ثالوثاً هو بمثابة حرف واحد كما يبرهن إبن منظور في موسوعته اللغوية. وهي وحدة نجد لها حضوراً في كلّ اللغات تقريباً.

أتلانتا (أطلنتي) إذاً هي إسم أبناء القارّة المفقودة في صيغته الدينية. وهو لم يكن ليتأهّل إلى الحدّ الذي يسطو فيه على غمرٍ مهيب ليبصمه بهويّته لولا هذا البعد الديني بالذّات. فقد عوّدتنا عقليّة

الإنسان القديم على عرفٍ ساد يكمن في عدم الإعتراف بشيء لم ينتهب لنفسه نصيباً من روح الدّين. وها هي الألواح المكتشفة أخيراً في عاصمة الجرمنت تتحدّث بحروف أمّة التكوين «تيفيناغ» عن أمجاد سلالة «أترانتا» أو «أتلانتا» المنسيّة كأن كهنة الأمّة تنبّأوا بأنّ يوماً سيأتي تندثر فيه الأوطان، ويفنى العمران، وتُفقد الهوية بفقدان روح الهوية المبثوثة في كتاب التكوين «آنهي»، فدسّوا اللوح ليشهد يوماً على وجود الوطن الضائع فيستعيده بالتميمة الحجريّة من قبضة النسيان، بعد أن طمس بحر الرمال أثر العمران الذي مازال أهل الصحراء يتغنّون في أساطيرهم بعظمة كيانه المخفي بعيداً أسفل كثبان الرمال.

فإذا كانت الجمجمة ذات السبعة مليون عام دليلنا الأركيولوجي، وإذا كان علم الجينات برهاننا الإنثربولوجي، وإذا كانت أساطير القوم عن واحة واو الضائعة، والكتاب الضائع، والمدن المخفيّة تحت طيّات الرمال، هي حججنا الميثولوجيّة، فإن أسبقيّة وجود المكان في بُعْد الزمان هو الكلمة الفصل في علم المنطق، دون أنّ تكون الوثيقة الأخيرة في حكم الدّين: الدّين في شقّيه الثقافي والطقسي. وهو جانب لم تهمله الوصيّة الكهنوتيّة المصريّة المرويّة بلسان أفلاطون عندما أشار في الرواية المبتورة إلى تقديس القوم للثيران على نحوٍ عابر، ولكن الخبير بواقع الصحراء الكبرى سوف تستوقفه هذه الإشارة.

فيكفي أن نطوف هذه القارّة المهووسة باللانهاية لنشاهد العبقرية

Twitter: @alqareah

التي جسّد بها فنّانو ما قبل التاريخ الثيران سواء في بعد الكيف أو بعد الكمّ. فكلّ حجر في هذا العالم المجبول بالمجهول متوّج ببصمة دهريّة تمثّل هذا الكائن الذي لم يكن ليوجد بهذا السخاء، وبهذه الروح الجمالية الآسرة، وبهذا الثراء، وبهذه الحميميّة الإستثنائية، لو لم يكن كائناً قدسيّاً، لو لم يستعر أبعاداً دينيّة من إنسان حديث العهد بالطبيعة، وبالتكوين، والمحموم بوسواس الدّين. فكلّ لوحة في هذا الفضاء الثّري، بل وكلّ وسمٍ مبثوثٍ في أيّ صلد سواء أكان حجراً أو جدار غار أو لوح ملقى في قاع سهل، هو توقيع مبلبل بمسّ من هذا الوسواس الدِّيْن. ولكن اللوحات التي تجسّد الأبقار (سيّما القطعان) تتم بتقنية فريدة يتفوّق فيها الفنّان على نفسه وهو ما لا يحدث بدون هوس من جنس خاصّ. هوس نسمّيه بلغة اليوم إيماناً. ليست التقنية هي الإستثناء الوحيد في هذه الملحمة المذهلة، ولكن الموهبة أيضاً: الموهبة في ضخّ الألوان التي لا تبدو أكثر الأحيان مجرّد ألوان، ولكنها نزيف. نزيف الروح المبثوث في قلب الحجر لتحيي الحجر وتجبره أن يخون ناموس الأشياء فينطق. النزيف يستنطق الحجر لا ليقول كلمة وحسب كما يليق بكل كائن في هذا الوجود، ولكن ليبعث للعالمين بوصيّته. هذه الوصيّة التي استطاعت أن تتحدّى الزمن في ألوف الأعوام الفانية، ولكنها تستمرّ في الإحتفاظ ببكارتها، ببراءتها، بعفويّتها، بنقاوتها، باستماتتها، بعبقريّتها، بتفوّقها، بحنينها إلى البعد المفقود، بإصرارها على تحقيق الخلود.

وأحسب أن عبادة الثيران الشائعة في الديانات القديمة (مصر، الهند، إسبانيا) مستعارة من هذا التقليد الذي تأسّس في وطن التكوين هذا، بدليل حضوره في معتقدات أهل الصحراء الكبرى إلى الحدّ الذي صار فيه إسم الثور «آزجر» مدلولاً لمركز القارّة الديني المعروف بهذا الإسم إلى اليوم ليطلق على المنطقة الوسطى من الصحراء التي كانت البحيرة الغابرة برزخاً لها من بين كلّ الأطراف الأخرى.

ليس هذا وحسب، ولكن الواقع سوف يدهشنا فيما إذا استنطقنا الذاكرة الميثولوجيّة لفكّ طلسم الأحجية المخفيّة وراء هذا الرمز الذي كان معبوداً. ففي أسطورة الطوارق الكبرى «تانّس» أو «تانّيت» نجد حضوراً للثور في نموذجه المصغّر: العجل!

فالأسطورة ملحمة حبّ بين الشقيقة تانّس وشقيقها وانّس يرد في أحد فصول سيرتهما كيف ماتت أمّهما ليتزوّج الأب إمرأة أخرى أنجب منها ولداً وبنتاً في فترة كان وانّس فيها وشقيقته تانّس يرعيان بقرة تركتها لهما أمّهما المتوفّاة إرثاً وحيداً. وكانت زوجة الأب تحسن إطعام ابنتها وولدها، ولكنها تهمل تانّس ووانّس ولا تغذّيهما بغير غسول أوعية الطعوم، فكانا يخرجان إلى المرعى للعناية بالبقرة ليعودا من هناك في كلّ مرّة مَرحين مشفوعين بسيماء العافية وآثار الشبع، ممّا أثار شكوك زوجة الأب. فالبقرة نتوج ولا تدرّ حليباً، والصحراء مهجورة ولا تطعم خبزاً، فأيّ قوتٍ يمكن أن يغذّي هذين الجنّيين في صحراءٍ بلا قُوْت؟ فكّرت الزوجة مليّاً ثم بعثت إبنها

ليرافقهما ليأتيها بالخبر اليقين. هناك تنقّل الولد معهما حتى إذا جاعا قامت تانّس مع الشقيق وانّس لاستدرار بول البقرة الذي تحوّل حليباً، وبعرها الذي تحوّل تمراً، واستحلفا أخوهما من أبيهما كي يكتم السرّ. في المساء، وبعد عودتهم من المرعي، استنطقت المرأة ولدها عن عمل الأخ والأخت في الخلاء فأنكر، وهو مالم يقنع أمّه التي استبدلت في اليوم التالي الإبن بابنتها وبعثتها لمرافقتهما. في المرعى استحلفت تانّس الإبنة بأن تكتم ما ستراه بعد قليل كما استحلفت شقيق البنت في اليوم السابق، فعاهدتها. ولكن البنت استغفلت الأخ والأخت فشقّت تمرة وغمرت الشقّ بزبد الحليب ودسّتها في ظفيرتها. وعندما عادت إلى الأمّ طلبت منها أن تسرّح لها شعرها دون أن تكشف السرّ بعضلة لسانها كي لا تخالف العهد الذي قطعته على نفسها بلسانها في المرعى. من ظفيرة الفتاة انتزعت المرأة السرّ فقرّرت أن تفتك بالبقرة. ذهبت لتتمارض، وادّعت أن لا وجود لشفائها إلاّ في لحم البقرة. تردّد الأب، ولكن المرأة ظلّت تتقيّأ سوائل مريبة بعد أن أكلت عشبة مسمومة وادّعت أن سحراً نالها والترياق هو لحم البقرة! تنازل الأب أخيراً ونحر البقرة النتوج. فأخذت الفتاة رحم البقرة وغمرته بالرماد لتدفنه تحت القربة المعلّقة في مدخل الخباء، فينسلّ الماء عبر أهداب الجلد ليسقط أرضاً بإيقاعٍ وئيد، ولكنه عنيد. تك! تك! تك! بعد زمن تمخّض التراب فولد من بطنه عجلاً، وأحسّت الإبنة أنها كفّرت عن خيانتها للعهد، لأن العجل ورث وصيّة البقرة ووفّر القوت لأخويها تانّس ووانّس.

Twitter: @alqareah

هنا يجب أن نلتقط الأنفاس لنتأمّل النصّ. فالرحم في لغة القوم هو: إيجل. ولمّا كان الألف بمثابة العين في العربية فـ«إجل» هي نفسها كلمة: عجل! ولمّا استدعى نضوج الجنين في بطن الأرض (الممسوسة برمادٍ هو في ميثولوجيا القوم رمزٌ للروح لأنه سليل نار) مهلة في الزمن فليس مريباً أن يتولّد من الملفوظة السالفة مدلول: الأجل أيضاً. وإسم وادي الآجال الذي كان مسرحاً شهد مجد أطلانطيدا الضائعة، ليس للتدليل على تتابع الأجيال التي أفناها الزمان في هذا الموقع بالذات، ولكنه أيضاً بوصفه وطناً للمعبود القدسي: العجل (الذي هو أجل). ولهذا لن نستهجن أن يستجير به العبرانيون في تيه الأربعة عقود في صحراء سيناء فيجسّدوه مسبوكاً من معدن الذهب حنيناً إلى ديانة التكوين التي مارسوها في فرع الدياسبورا الذي التجأ إلى مصر.

هذا ليس كل شيء في شأن ملّة الثيران.

فحضارة الجرمنت كانت بمثابة آخر فصل في ملحمة التكوين التي بدأتها سيرة أطلانطيدا (أتلانتا ـ أترانتا) إنّما استعارت إسمها (جرمنت) من إسم الثور في «آزجر» لتضيف «منت» كعبارة تعني في الترجمة: روح يت، لأن «يت» تعني الأحَديّة، وتانيت تعني: ذات الأحَديّة. أمّا ترجمة إسم «جرمنت» كاملاً فسوف يغدو «الثور روح الربّة تانّيت» كنايةً وطنيّةً للتعبير عن هويّة دينيّة.

مسألة أخيرة يجب أن تستوقفنا في نصّ أفلاطون المبتور في شأن أطلانطيدا وهو: الموقف من الحديد. أي التحريم القاضي باستبعاد

Twitter: @alqareah

هذا المعدن الخبيث من المعاملات ذات الصلة بالعبادة وبالمعابد. إنه الموقف الذي مايزال سائداً في تجربة أمّة الصحراء مترجماً في حرف العلاقة الملتبسة ذات الطبيعة الجدلية مع طبقة الحدّادين. فهم مهابون من جانب لمواهبهم السحرية في تطويع هذا المعدن الغيبيّ، ومحتقرون في الآن نفسه لأنهم مشبوهون ومدنّسون. وبسبب هذا الدنس لم يتردّد دهاة الأمّة الأوائل في أن يضعوا هذه الفئة في الدرك الأسفل من السلّم الطبقي بحيث تحتل مكاناً أدنى حتى من طبقة العبيد. وهي نزعة نجد لها حضوراً في الديانات القديمة، بل وفي ممارسات الديانات التوحيدية أيضاً. وعلّ وجوب التطهّر من كلّ ما مسّه سَمُّ الخياط أثناء تأدية مناسك الحج إلى بيت الله الحرام، على سبيل المثال، هو أكبر دليل على هيمنة هذا اليقين المستعار من عقيدة التكوين.

فإنسان التكوين هو إنسان الروح. وحضارته تلك هي حضارة الروح. واختراع الحديد ليس انتهاكاً لحرم الطبيعة وحدها في مفهوم إنسان التكوين، ولكنه تدخّل منكر في حرم الغيوب أيضاً. أي أنه استباحة صريحة لمحراب هو بالنسبة له قدس أقداس وهو: الروح. إنه العمل الجدير بإسم الخطيئة قبل تنزيل الكتب المقدّسة لتعتمد هذا المصطلح كرديف للشرّ. فاختراع الحديد كان شرّاً أوّل. كان الحرف الأول في أبجديّة الخطيئة ولا يقارن إلاّ بخطيئة آدم، بل سابقٌ عليها، لأنه أيضاً تمرّد على مشيئة الطبيعة، وفضولٌ آثم، لأن القاسم المشترك للخطيئتين هو: المعرفة، بدليل أن حضارة الروح تواصلت

Twitter: @alqareah

في قسم الدياسبورا الذي نزل أرض مصر، وكان يمكن أن تهيمن زمناً أطول لو لم تلتهمها روح الحديد (المتمثّلة في روح شث) على ذلك النحو الدرامي المعبّر عنه في الكتب السماوية بتحوّل عصا موسى حيّةً التهمت حيّات كهنة الفرعون. لأن الحيّة في كل الثقافات هي رمز الروح.

الحصيلة في هذا الحصاد هي أن الطوفان الذي اعتمدته جلّ ثقافات العالم القديم كرسول هدم لكيانات الجنس البشري، لن يستعير هويّة مائيّة في حال أطلانطيدا المفقودة، ولكنه طوفان من طبيعة معادية للهويّة المائية، لأنه هذه المرّة طوفان غياب الماء، أي: طوفان الرمال!

فالطبيعة التي استطاعت أن تلقّن الإنسان درساً في الدهاء، فاقتصّت منه بفيوض الماء مراراً جزاء آثامه، لم تعدم الحيلة هذه المرّة في أن تقتصّ منه بالضدّ: بطوفان الرمال!

23

في صحرائي الكبرى يهيمن جنسان من الآثار: جنسٌ صامت، وآخر ناطق.

جنس الأثر الصامت يكمن في بصمات احتفرها على الصخور وَجْد فضول يسكن يقين الأوائل، وأثرٌ ناطق هو رمز قيد الوجود يسعى في الأرض حاملاً في الوجدان قيماً هي عهدة مستعارة من عهد التكوين، تغالب النزع الأخير، لأن زوالها رهينٌ بزوال هذه الرموز التي تبدو أشباحاً بلا حولٍ ولا قوّة في واقعٍ نفعيّ لم يعد يعترف بالقيم.

لهذه الملّة المغتربة، المهدّدة بالفناء لا معنويّاً وحسب، ولكن عرقيّاً أيضا، إنتمى صديقي بوشا حاج أحمد الذي استقبلنا في رحاب وادي «آلّون» الجليل ليكون نقطة النهاية في رحلة تلك المرّة، وليصير هذا الوادي العظيم الحرم الذي أَلْهَمَ العدوس أعسر أعماله الروائيّة الملحميّة على الإطلاق وهو: «السَّحَرة».

والسيّد بوشا هو السليل البكر لزعيم قبائل «كيل أبادا» الحاج أحمد الذي تناولناه في الفصول السالفة، أنجبه من قرينته الأولى، الصحراوية، التي لم تكتفِ بإنجابه من بطنها، ولكنها سلّمته للأمّ

Twitter: @alqareah

الكبرى (الصحراء) لكي تنجبه من بطنها أيضاً، على عادة الصحراويات، ليولد هذه المرّة بالروح، كما وُلد في المرّة الأولى بالجسد. ولهذا اختلف عن أخويه التاليين اللذين أنجبهما الرجل من قرينته الثانية، إبنة الواحة، فجاءا دنيويّين، نفعيّين، ممسوسين، عكس بوشا تماماً. إنه الجدل الخالد في الإنتماء إلى السلالتين المتعاديتين برغم التآخي في صلة الرحم: سلالة الشقيّ قابيل، وسلالة الضحيّة هابيل. قابيل الذي صنع منه الإستقرار قاتلاً، وهابيل الذي صنع منه الترحال ملاكاً. بوشا أيضاً يبدو من طينة أخرى لا تنتمي إلى هذا العالم. إنه النموذج الصريح لمِلل البسطاء الذين لا أعرف لماذا كانوا نقطة ضعفي، ربّما بسبب روح الإغتراب التي تتلبّسهم، فيبدون بلا حولٍ ولا قوّة في عالمٍ يناصبهم العداء، فلا يعرفون كيف يدافعون عن أنفسهم في ظلّ غيابِ القيم التي ألفوها في ملكوت الحرية المعهود: الصحراء.

ولهذا حقّ للسيّد بوشا أن يكون الأب الشرعي للمقولة المتداولة اليوم في لسان كلّ ذي حسٍّ وجودي عن بليّة «الفرع البلدي». فما سرّ هذا الفرع اللعين الذي لقّبه الرجل بـ «البلدي» في وصيّته التي صيّرتها الأصالة مثلاً يتردّد في لسان الجيل، لتصبح مسماراً في نعش لا الروتين الإداري وحسب، ولكن في نعش الدوّامة العمرانية أيضاً التي لم يكن لها الفرع البلدي إلاّ رمزاً؟

لقد عبّر عن الدّاء الذي يسكننا جميعاً نحن الذين اغتربنا عن واقعنا البيئي لنجد أنفسنا رهائن عالم مادّي لا إنساني شرّير أخفقنا

Twitter: @alqareah

كلّنا في أن نهادنه أو نصالحه أو يتنازل فيخاطبنا بلغة نفهمها. ففي تلك الليلة الباردة في ضيافة الوادي الأسطوري العميق، الشاسع، المتشبّث بتلابيب الجبل المستطيل بلونه الدّامي تحت ضوء البدر، المثيل للون بشرة البشر الذين استجاروا بأحاضيضه منذ ألوف الأعوام، كأنه استعار منهم سيماءهم، كما استعار غموضهم، وعمقهم، وحنينهم، ليتنكّب هذه الحمولة بعد أن رحلوا، ليتلوا هذا البيان الدّال على أجيال الذين تلوا، كما نقلها لنا في تلك الليلة التي تجلّى فيها السيّد بوشا وهو يدفن العجين في جوف الرمل المغمور بالجمر ليطعمنا خبز الملّة بهدوئه المعتاد كأنّه يتوضّأ استعداداً لتأدية صلاة، دون أن يتطلّع حوله ليتفقّد بعائر صاروا في حياته خلّاناً امتلكوه أكثر ممّا امتلكهم هو (كما عبّر)، قبل أن يتغنّى بمزايا معشوقته الصحراء بالمقارنة مع حياة الواحات، حيث يضطرّ الإنسان أن ينفق حياته كلّها واقفاً في الفرع البلدي منتظراً أن يقضي حاجة لا تنقضي أبداً لأنه لم يكن ليكون في حاجةٍ إليها أصلاً لو لم يوجد في ذلك المكان!

بلى! الفرع البلدي هو الضريبة التي ندفعها مقابل وجودنا في العمران، تماماً كما الجسد هو المكوس التي ندفعها مقابل قبولنا بالوجود قيد الحياة. إنّه الفخّ الذي ينتهي إلى كابوس كافكا، لأننا ننسى أن وجودنا ليس استثناءً فقط لموتٍ هو في الواقع قاعدة، ولكنه وجودٌ مدنّسٌ بخطيئة مسبقة لا ذنب لنا فيها، ولكن لابدّ أن نشتريها لا بالموت فقط، ولكن بعذابٍ هو أسوأ من الميتة المنتظرة.

فالحكم صادرٌ بحقّنا قبل أن نولد. برغم علمنا بحيثيّات الحكم، بيد أننا نغفل عن حقيقتنا كأكباش فداء، في حمّى التوق إلى الخلود، فنغالي في علف أنفسنا ولا ندري أن ما نفعله هو مجرّد باطل، لأن لا وجود لفرق بين قربانٍ سمين وآخر غثّ في عرف الجلّاد الذي يرابط في نهاية النفق. وفضيلة الصحراء في قدرتها على تبديد الوهم، لأنها لا تنوي أن تجير من الموت، ولكنها تروّضنا على التحديق في الموت، فنتصالح مع الموت بالحفر العنيد في الروح حفراً متزامناً مع قهر الجسد في تقنية عبقريّة من إبداع الصحراء وحدها، لأنها.. حرّية. والحريّة في حدودها القصوى هي الموت.

فكل يومٍ في الصحراء موت، وكل يومٍ في الصحراء بعثٌ من موت.

فمن شاء أن ينجو من الموت، فليس له إلاّ أن يحتمي بالموت. ولهذا يقال في الأدبيّات الموروثة: «من طلب الموت، كُتبت له الحياة».

Twitter: @alqareah

24

يبدو أن العمق الوجودي رهين التجربة الغيبيّة. فلا نبوّة بدون صدمة مدبّرة بمشيئة العالم الذي يسكن ماوراء الطبيعة. والمسالم بوشا لم يكن استثناءً من هذه القاعدة وإلاّ لما أفلح في أن ينحت أمثولة «الفرع البلدي» بلا حسّ لم يعرف في دنياه المسّ. حسّ حكيم، لأنه يختار ضحاياه بدهاء الروح التي لا تُخفى عليها خافية. فالروح التي تسكن الجسد تهفو لملاقاة الروح التي تسكن الغيوب في حال استبسال الأولى في هدم المحظور باختراق صلد البرزخ الفاصل بين المحدود واللامحدود، بين الوجود والبعد المفقود، على طريقة الشقيق فنايت في التجربة الغيبيّة التي تسخر من منطق الواقع بفحوى تنافس خيال مبدع «ألف ليلة وليلة»، أو التجربة الغيبيّة الأخرى التي عاشها العدوس في موسكو، في إحدى ليالي صيف الشمال التي تجسّد فيها عدوّ الأجيال الخالد بالسيماء ذاتها التي سوّقها المخيال الشعبي لدى مختلف الأمم، فتبرهن بهذا التحدّي على وجود الله، بالبرهنة على وجود عدوّ الله!

ففي المرّة التي خضتُ فيها طقوس تعميد مماثلة في حرم

Twitter: @alqareah

آكوكاس عام 1991 لأتلقّى الإلهام بـ «المجوس» مكافأةً هي بمثابة العهد المبرم مع المريد، قضيت ليلة في استراحة «تهالا» أيضاً فجاء السيّد بوشا لزيارتي آنذاك بصحبة أبناء القبيلة الذين استغفلوه في حضوري وهمسوا لي بسرّه في سيرة مبتسرة. لم أقنع بالواقعة لأن ديني كروائي التفاصيل، وليس الوقائع. وهو ما استوجب أن أستنطق بوشا نفسه كصاحب شأن. ولكن الرجل تحفّظ مثله مثل كل إنسان خصّته الأقدار بقيمةٍ مجهولةٍ كنبوءة تتنزّل فيه هالة قدسيّة يستعير بفضلها خصالاً تظهره في نظرنا نبيّاً صغيراً! في ذلك الموقف تبدّى بوشا أيضاً حصناً منيعاً في الدفاع عن سرّه. ولولا إكباره لشخصي (الناتج عن قواسم بيننا مشتركة من ذلك النوع الذي لا يُخفى على أمثاله من البسطاء الذين لا تُخفى عنهم خافية، لأن الخفاء العليم بكلّ شيء حليفهم وملهمهم)، لما تنازل في تلك الليلة ليروي لي سيرة هي في دين المسكونين وديعة ستكون له في دنياه تميمةً في حال أحسن استخدامها، أو لعنةً في حال أساء استعمالها. والثرثرة بها على طريقة السفهاء هو ما يحوّلها في العرف السائد لعنة. لأن حدث مثل انهيار السدّ العازل بين المعلوم والمجهول، بين المحدود واللامحدود، بين الوجود والبُعْد المفقود، هو القارعة التي لا تُروَى. القارعة التي خُلقت لنحياها بشرط ألاّ نرويها، ربّما بسبب الخلل الكامن في اللسان، ربّما بسبب الدنَس المدسوس في عضلة اللسان. ولهذا كان على السيّد بوشا أن يعاند قرينه ببسالة قبل أن يعترف لي بالسيرة. قال أنه كان عائداً من رحلة إلى واحة غات الواقعة غرب

Twitter: @alqareah

مستوطنة «تهالا» بما لا يزيد عن الثلاثين أو الأربعين ميلاً، في منتصف الطريق، وعند أعتاب وطن الجنّ القديم، جبل إيدينان المجيد، حلّ المساء، فأوقف مطيّته ليصلّي المغرب. بالطبع كان بوشا مفطوراً على موروثٍ سخيٍّ، مرويٍّ بلسان الأجيال، عن شقاوات الجن الذين يسكنون هذا الجبل، كما هو حالنا كلّنا، ولكن لم يسبق أن اعترضوا سبيله طوال المرات الكثيرة التي عبر فيها المكان ذهاباً للواحة وعودةً للمستوطنة، إلى الحدّ الذي نسى فيه وجود الجنّ، بل ووجود الجبل الأسطوري نفسه، لأن وجود الأشياء يغدو جزءً من وجودنا عندما نألفها، والجبل فقد بحكم العادة فحواه الغيبيّة ليبقى معلماً جماليّاً لا يختلف عن قرينه الجنوبي، أو صروح آكوكاس التي تلوح في البُعْد البعيد جلاميداً خرافيّةً مستنزلةً من كواكب خيالية برغم المسافة التي تزيد على المائتي كيلو متراً من موقع الجبل.

انتهى بوشا من صلاته، وقرأ أوراده، قبل أن يعود إلى مطيّته الصحراوية ذات الدفع الرباعي، ولكن المحرّك لم يستجب لنداء المفتاح. حاول مراراً بلا جدوى. كشف عن المحرّك فلم يجد خللاً مشبوهاً. الخيوط والزيوت والوقود وكل الأجهزة في وضعها الطبيعي. أعاد المحاولة بلا جدوى. عاد يعاند ويتفقّد حتّى هيمن الغيهب. اقتعد جانب الطريق أملاً في عبور عابر، ولكن السكون الصحراوي المميت انقلب سيّد الموقف. في السماء بدأت جيوش النجوم تتنادى وتتغامز قبل أن تبسط سيطرتها على قناع الليلة الظلماء. فتشبّث

Twitter: @alqareah

بتلابيب الحلم كما اعتاد أن يفعل أزمنة عزلته في صحاري الغرب. فالسأم رذيلة لا وجود لها في عرف حميمته الفاتنة، لأن كل ومضة، أو نأمة، أو إشارة، أو جرم، في الصحراء ما هو بالنسبة له سوى بيان يدعو لحوار. كل شيء في الصحراء سؤالٌ يبحث عن جواب. وتلبية نداء الجدل مع هذه الكاهنة الحكيمة وحده أُنس. وحده لذّة. وَجْدٌ يفوق في النشوة وجد دراويش الطريقة القادرية الذين يجذبون في الواحات كل ليلة جمعة. ولكن...

ولكن مفاجأة أيقظته من غيبوبة ذلك المساء. مفاجأة وصفها بقيام قيّامة فلم يقدر أن ينساها، ولا أن يعترف بها: جنّة السكون ما لبثت أن تزلزلت بالهرج. عشرات السيّارات الصحراوية تكتسح العراء، بل مئات السيّارات. رجالٌ ملثّمون، وآخرون حاسرون، ينتشرون في المكان وهم يتصايحون ويتجادلون بأصواتٍ عالية. أضواء كاشفة، وهرجٌ يتداخل مع هرج قامات تتقاطع مع هامات، حابلٌ يختلط بنابل، أصواتٌ تنفي أصواتاً، وهدير محركات يجبُّ هدير محرّكات. وأول ما توهّمه بعد أن استوعب المفاجأة هو تعرّض الوطن لغزوٍ غادر. وهو ظنٌّ أوحته الحرب مع تشاد التي لم يمضِ على نهايتها آنذاك سوى عام أو عامين. وما أدهشه أيضاً أن القوم تجاهلوه تماماً، فانتهز الفرصة لينسلّ شاقّاً طريقه بينهم في نيّةٍ للوصول إلى المستوطنه سيراً على الأقدام.

يفقد بوشا وقاره المعهود وهو يصف سيول هذا الجيش الذي عبره طوال الليل ولم يدرك البيت إلاّ عند الفجر. ولكن في الصباح

Twitter: @alqareah

كان كل شيء قد انقشع كأنّ ما حدث كان كابوساً .أو أضغاث أحلام. العجب أيضاً حدث عندما رافق أحد الأقرباء ليقلّه إلى الموقع لاستجلاب سيّارته العاطلة. لم يعثر هناك على أثر قيّامة البارحة. ليس هذا وحسب، ولكن رفيقه أراد أن يختبر العطل فأدار المفتاح في الثقب، فإذا بالمحرّك الميّت بالأمس يسفّه صاحبه ويهدر بأعلى صوته!

Twitter: @alqareah

25

بعد العودة من مناسك هذه الحجّة إلى صحرائي، تلقّيت اتصالاً من أحد أقربائي بالحاضرة يخبرني فيه بأن السفارة السويسرية تبحث عن شخصي الضائع لا في المكان وحسب، ولكن في الزمان أيضاً، لأن الإنفصام في العلاقة مع العالم لم تحدث مع ميلاد البعث، ولكن جذورها تعود إلى تاريخ سابق حتّى عن الإنفصال الموجع عن الصحراء، ربّما بسبب الإحساس الذي لم يفارقني يوماً بانتمائي إلى عالم مغترب بمقياس الواقع المعاش، وبهويّة لا صلة لها بالراهن ولا بالغابر. لأن البعد المفقود الذي أنتمي إليه هو ما لا سلطان للزمن عليه.

حزمتُ أمتعتي وودّعتُ جنيّتي. في الحاضرة استخرجت بصمة الدخول إلى السفارة السويسرية، ثم طرقت أبواب الجحيم في الخارجية الليبية لاستكمال إجراءات الإنتقال. هناك استقبلني نموذجها الأبدي المتمثّل في شخص السيّد البرّاني بخيبة أمل أخفق أن يخفيها عنّي وهو يتطلّع بحسرة إلى التأشيرة السويسرية في جواز السفر بوصفها الدليل الأخير على فشل كل مؤامراته، كأنّه لا يصدّق أن يُهزم بهذه البساطة وهو الضليع في فنّ الكيد والواثق من مواهبه.

Twitter: @alqareah

حسرة قرأتُ فيها بياناً أفصح من خيبة الأمل. إيماءٌ يقطع بوجود فصل آخر خفيّ في ملحمته الكيدية.

فالحدس الذي لم يخذلني يوماً يؤكّد لي قيامه بنشاطٍ آخر سرّي بالطبع للحيلولة دون وصولي إلى سويسرا بالحصول على التأشيرة بالتنسيق مع آلته الجهنّمية سواء في الخارجية، أو مع الأجهزة الأمنية أو في علاقاته مع السفارات الأجنبية. وهي سلطات يملكها بحكم منصبه المفصلي في معقل الشرور هذا والمسمّى بالخارجيّة من باب التمويه. وهي صلاحيات لن يتردّد في استخدامها يقيناً ليبرهن لنفسه قبل الأغيار أنه يحكم، أنه إلهٌ كامل الصلاحيات، ولكن ما لم يحسب له حساباً أن سلطاني هو **الحرية**. أي أني مازلت على قيد الحياة لأنّي عدوّ أي سلطة بالطبيعة، ولا وليّ في الدنيا يشفع لي، ولهذا صار وليّ الأولياء هو وليّي الذي لن يجدي معه كيد العالمين.

كان عام 1992 يحتضر آنذاك، فانتظرت حتّى ميلاد أوّل أيام 1993 لأقفز إلى الباخرة المتجهة إلى مالطا لأقضي ليلة على شعفة تلك الصخرة التي ارتدتها مراراً في سبعينيات القرن الماضي، ونزلتها آخر مرّة قادماً من موسكو بعد صدور قرار الحظر الجوّي على وطني الشقيّ إلى طرابلس. وآخر تلك المرّات في السبعينيّات هي زيارة حزينة رافقت فيها شقيقي فنايت مع أسرته عندما كان يقيم على أراضي الجزيرة عند عودتنا من مراسم الحداد على والدنا الفقيد بدايات عام 1979 قادمين من حاضرتنا جوّاً، لأغادرها من هناك للإلتحاق بعملي في وارسو. فجزيرة مالطا هي بوّابة طرابلس البحرية، كما صارت جربة بوّابتها البريّة.

Twitter: @alqareah

إنها رسالة التاريخ التي لا تنوي أن تخون نفسها، في حين يدهشنا أن تتكرّر وهي تسخر من حصار جوّي فتبطل مفعوله لأنّ ولائها للأصالة، وكل ما هو مستحدث في عرفها هو ما لا يعوّل عليه.

في اليوم التالي غادرت إلى زيوريخ، ومنها بالقطار إلى بيرن. إلى «تافل فيج» (مقر السفارة في بيرن): واحةً لوطنٍ في صحراء الواقع الجديد الذي آوانا في 1988 مع رفقاء المرض، لتعاند إجراءاتنا مع المستشفيات، في زمن عاندتُ فيه نزيف الجسد، مشفوعاً بنزيف الروح، كأنه عراك مع أنفاس النزع الأخير، لو لم تشأ العناية الإلهية أن تمهل أيّاماً أُخَر.

هناك استخرجت وثيقة الإقامة لأغادر إلى موسكو بعد أيام لممارسة طقوس الوداع ليقيني بأن كلّ خروج جديد هو بمثابة حرق لسفن العودة، وتعبيد لسبيل اللاّعودة.

خروجٌ هو قطع لشبكة جذور بدايةً بالعلاقة مع رموز المكان، ونهايةً برموز الروح التي صمّمها الوجود في المكان. فالمكان الذي نهجره مكان ضائع. المكان الذي نتخلّى عنه يتخلّى عنّا أيضاً. أطلانطيدا التي نتنكّر لها تتنكّر لنا عملاً بناموس المعاملة بالمثل. فإذا كان المكان الذي نهجره هو واقع في حجم وثراء وحميميّة واقع مدينة تحوي في عبّها طائفة مدن كما هو الحال مع موسكو، فإن القطيعة هذه المرة سوف تكون فادحة، بل وتراجيدية، لأن قارّتي التي ألفتها وألفتني، وأحببتها وأحبّتني، ووهبتها نصيباً من روحي،

Twitter: @alqareah

كما لم تبخل عليّ بنصيبٍ من روحها السخيّة، سوف تضيف نزيفاً آخر إلى نزيف ذاكرتي، لأن الحنين إلى رحابها سوف يُغني الحنين إلى البعد المفقود، وسيضاعف الهمّ الكينوني الذي هو رافد قطب في سيرة الحلم الأبدي بالفردوس المفقود. هذا يعني أني في الواقع أشهد مراسم موتي. أشهد مراسم ميْتة حقيقية بتأدية طقوس الوداع هنا، فلا أملك إلاّ أن أحصي عدد الميتات التي عشتها منذ خروجي من الصحراء، لأدرك أننا لا نموت في الواقع مرة واحدة، ولكننا نموت بعدد الأمكنة التي نزلناها، ثم ألفناها، ثم عشقناها، ثم هجرناها: ميتة الخروج من وطن الرؤى السماوية الصحراء، وميتة الخروج الأول من دنيا الواحات، وميتة الخروج من دنيا المدن في الحاضرة، وميتة الخروج الأول من موسكو، وميتة الخروج الأول من وارسو، وميتة الخروج الثاني من موسكو. فكم ميتة، يا إلهي، على العدوس أن يموتها قبل أن يدرك في عَدْوِه الأبديّ نهاية المطاف؟

Twitter: @alqareah

القسم الثالث

وطن الله

«الشاعر لا ينبغي أن يحبّ الجمهور، ولكن ينبغي أن يحبّ الإنسانيّة التي لا تقرأ متونه في سوادها الأعظم، ولكنّها برغم ذلك تحتاجها».

هيرمان هيسِّه

«تحيّة من بيرن» 1917م

Twitter: @alqareah

Twitter: @alqareah

1

موسكو التي قطعتُ معها حبل السرّة في 20 فبراير 1993 ليست هي موسكو التي نزلتها في 20 فبراير 1987. كما أن موسكو التي قطعت معها حبل السرّة في 1977 ليست هي موسكو التي نزلتها لأول مرة في 1970؛ لأن ماراقني أن أخلع عليه إسم «الحقبة الرومانسية» هو دين الحاضرة في ذلك العهد الذي كانت فيه كعبة الحالمين باستعادة الفردوس المفقود في نهاية الستينيات وإطلالة سبعينيّات القرن الماضي. أقول الحقبة الرومانسية لأن عبادة الثقافة كانت النزعة الطاغية التي لجمت الجمود الأيديولوجي وغذّت فينا الروح الوجدانية بحضور الحلم في عالمٍ لم يُدنّس بَعد بروح **النفع**. هذا في حين إختلف الأمر في زمن العودة الثانية مع منتصف الثمانينات، لأن المخاض الذي زلزل الكيان كان قد بدأ بسبب اغتراب القيم، ثم العجز عن بعث الحياة في الأحلام القتيلة، ليصير الركود الإقتصادي هو الفأرة التي كانت سبباً في انهيار سدّ مأرب!

أمّا تاريخ المغادرة الأخير المرادف ليوم المجيء في اليوم والشهر بعد ستّ سنوات من المقام، فقد اختلف هذه المرّة على نحوٍ دراميّ. فما اغترب هذه المرّة ليس القيم وحسب، ولكن **روح روسيا**

Twitter: @alqareah

هي التي اغتربت عن روسيا. فدين النفع لابدّ أن يفرض شروط الصفقة. وأوّل بند في هذه الصفقة هو الإستهانة بكلّ ما له صلة بعالم الروح في حمّى تحرير الإقتصاد من قبضة الدولة، لتكون الفنون أول ضحايا الحملة. فالحرية المأمولة تستخفّ بكل شيء ما لم يُختزل في حرية واحدة لا شريك لها هي: حريّة الكسب! ليس الكسب فقط، ولكن الكسب **بأيّ ثمن!** وكان من الطبيعي أن تنجب هذه الأيديولوجيا مِسخاً مشوّهاً هو «الروس الجدد» كما سُمّي آنذاك، ومازال هذا النموذج يتبختر بيننا إلى يومنا هذا، متباهياً بما امتلك، غير مكترثٍ بالدماء السخيّة التي سفكها في سبيل الحصول على ما امتلك.

ولكن هذا كله لن يجدي كترياق لغصّة الفراق، بل هذا الواقع الجديد إنّما يضاعف الإحساس بالمرارة. وهو ما يعني أن العدوس الذي أحبّ روسيا لا يودّعها بخروج ذاك الزمان مرّة واحدة، ولكنه يودّعها مرّتين، إن لم يودّعها مراراً وهو يرى أهل روسيا أنفسهم يودّعون روسياهم، فيغتربوا عنه ويودّعوه هم قبل أن يودّعهم هو بالخروج من رحابهم المضيافة. وهو حالٌ كان يمكن أن يكون عزاءً في العلاقة مع إنسانٍ دنيوي، لأن إغتراب الواقع الوجودي وتنكّره لهويّته، أمرٌ يهوّن المصاب، ولكن هذا ما لن يصْدق في حال روحِ رومانسيّةٍ كروح العدوس الذي لا يرى الأشياء كما تبدو، ولا يعترف بالواقع كما يفرض، ولكنه مهووسٌ بالظّلال: ظلال الأشياء، مخيال الواقع، روح الواقع، فلا يملك إلاّ أن يتساءل: من أين لي أن

Twitter: @alqareah

أضمن وجود أصدقاء أهجرهم هنا إذا كنت أعلم أن الصديق هو ما لا يُنال على سبيل الهبة، والإنسان قد يحتاج إلى عمرٍ كامل كي يكتسب في دنياه صديقاً واحداً؟ كيف لي أن أعوّض خساراتي في سيماء المكان من عمران ومعمار، من طبيعة سخيّة ومن بساتين تجري من تحتها الأنهار، ومن طرقات وأزقّة وكل حمولات المكان، لأنّها كلها استودعتها روحي، وكانت معجماً لذكرياتي، سيّما وأنّي أعلم الناس بما ينتظرني في المكان الجديد القرين في واقع كل مهاجر للاّ مكان، لأنّ ما تبقّى من العمر أقل ممّا أدبر، واستزراع وجودٍ جديد في مكان جديد لا يكفيه العمر المديد، ولا تحتمله الروح التي تكاد تلفظ أنفاس النزع الأخير بفعل الهمَّيْن: الهمّ الكينوني والهمُّ الدنيوي المدبّر بأيادي أهل الكيد؟

فليس أمام العدوس كعابرٍ لليل هذا العالم سوى التّيه، وليس خلفه عند كل خروج سوى تيه أيضاً. هذا اليقين بالحضور الأبدي في التيه هو رأس مال العدوس، وسرّ قوّة كل عدوس، لأن المهاجر بطل ما ظلّ على العهد مع الفرار، فإن ركن إلى المكان استقبلته جنّية العبودية وكتمت فيه الأنفاس بوزر الكابوس. لهذا السبب استعار المهاجر هويّة دينيّة، ولهذا السرّ أيضاً استعار بُعْداً أسطورياً في كل الثقافات: فالعدوس هو جلجامش في سومر، والعدوس هو أوليس الزمان في اليونان، والعدوس هو دون كيخوت الإسبان، و«كاف» كافكا لم يصبح مخزن الأحزان، المحكوم مجّاناً بالإعدام، إلاّ بسببْ الإستسلام لكابوس المكان!

2

يوم حللتُ في 20 فبراير 1993 في مطار زيوريخ كان الثلج مازال يتشبّث بتلابيبي، ولكنه كان خائراً بما يكفي كي يذوب حال سقوطه، تماماً كما ألِفته في ربوع الشمال لا في فبراير بالطبع، ولكن في طور الإستهلال أواخر سبتمبر من كل عام. كان في استقبالي الإنسان الذي كان الإستثناء المخوّل بأن يثبت القاعدة السائدة في ملاك الخارجية الوظيفي، وهو إسماعيل شلغم الذي كان القائم بأعمال السفارة آنذاك، والذي فُجعت فيه عندما كنت أتأهّب لمعاندة المرحلة السويسرية من المغامرة العدوسية، حتى لا أقول الأوديسيّة!

بضعة أسابيع في فندق بالحاضرة بيرن. ومراجعة البروفيسور هالتر بمستشفى «إنزل». إستعادة لذكرى مضى عليها خمس سنوات من عهد الإقامة الأوّل بفنادق العاصمة، وأوّل زيارة للطبيب المختصّ. خمس سنوات انقضت من عمرٍ محدود في الزمن الذي ينسج لنا من أيّام أعمارنا أثواب الكفن. هذا ما عبّر لي عنه البروفيسور هالتر أيضاً (بعد غياب الخمسة أعوام) حسرةً على الزمن الضائع الذي لا يدرك أمثاله حقيقة زواله إلاّ من خلال المرضى أمثالي الذين يراجعونه من حين لآخر ليقرأ في وجوههم سيرة الإختلاس الوئيد واللئيم، لأن

Twitter: @alqareah

المرض ما هو سوى الرشوة التي تدفعها هذه الفئة لكي تشتري بها البقاء على قيد الوجود، في حين يظلّ العدم شبحاً معلّقاً على رؤوس الأصحّاء (وملّة الأطبّاء هي الفئة التي تلعب في الصفقة دور النموذج)، لأن المفارقة المعتمدة في حرف الناموس تقول أن قدر الأصحّاء أن يموتوا، أمّا المرضى فالمرض هو شفيعهم لدى جناب الموت، ولهذا السبب يحيون. إنها المفارقة التي ألهمت كامو مسلك الطاعون الذي يحلّ ليقضي على الأصحّاء، في حين يتجاهل المرضى الذين يستجيرون بالموت. وهو ما يعني أن المرض بقدر مّا يبدو بلاءً، بيد أنه يبقى الرقيّة الوحيدة التي تقي من الموت. فالعافية إذا كانت تاجاً على رؤوس الأصحّاء لا يراه إلاّ المرضى كما يقال، فإنّ المرض هو التميمة على رؤوس المرضى قد يستنكرها الأصحّاء، ولكنّها الشفيع المعترف به، بل والسفير الوحيد فوق العادة المعتمد في بلاط الموت.

فالموت أيضاً يتسامح معنا فيمهلنا إلى أمدٍ مجهول في حال لم يباغتنا ليأخذنا على الفور! فهو صنف استثنائي من عهد أشبه التسهيلات الشائعة في الصفقات النفعيّة التي تبيح دفع المكوس المستحقّة نسيئةً مؤجّلة تخضع للإستعادة على أقساط!

3

لم يطل المقام بـ بيرن، ولكن الأقدار أبت إلاّ أن تستجيب لنداء الحلم في قلب العدوس يوم قادتني إلى هونيباخ، تلك القرية التي تتلبّس خاصرة الجبل المشرف على بحيرة تون: تون الملقّبة بزهرة الألب السويسري الأكثر فتنةً ونبلاً من بين كل الألب الأوروبيّ، لتكون الواحة الجديدة في صحراء هذا العالم التي آوت أخيراً المهاجر الأبدي لتكون له العزاء في السفر الدّامي، والوطن المسكون بالأمان، في واقع اللاوطن. هنا، في هذا الحرم المهيب، بدأتُ تلاوة أولى صلواتي التي لا تحلو إلاّ مع السَّحَر كما علّمني حكماء القبائل، فأترصّد ميلاد الضياء الرديف في يقيني لميلاد الكون، منتظراً أن تسري الأنفاس الخفيّة في عروق الطبيعة المجبولة بذلك النوع من الصمت الذي يدمدم بصوتٍ مكتوم من فرط العمق، فينقشع الغيهب باستحياء، كاشفاً الستور عن القمم الأسطوريّة المكسوّة بجليد كلّ الفصول، كأنها في برزخ الأفق أشباح تختطّ لنفسها في الفضاء داراً، في حين يتنازل الهلال وهو يلفظ أنفاس النزع الأخير ليسكب فوق غمر البحيرة ضوءً فضيّاً شاحباً يختنق رويداً ويتضعضع مفسحاً المجال للفجر في حملته الكاسحة.

Twitter: @alqareah

حللتُ في رحاب هذا البعد الألوهيّ، المشيّد بمشيئة الطبيعة الأوروبيّة القاسية، دون أن أتخيّل أنه الفردوس المستعاد الذي استضافني في أحد أيام 1988 عندما قضيت فيه ليلة مضطرّاً بسبب الزحام في فنادق بيرن الصيفيّة كأنّه وفاء من الأقدار بالوعد. فقد سلكتُ بعد حلولي بيومين الطريق الآخر المنحدر جنوباً لأجد في مواجهتي الفندق ذاته الملقّب بـ«بلاط الضيافة» (Gasthof) الذي قادني إليه العجوز السويسري المقيم بجوار النهر بمسافة خطوات نحو الأسفل. وها هو العدوس يستعير هوية أبناء هذا المكان بالذات بعد خمسة أعوام من الزيارة التي لم تكن في عرف القدر مصادفةً كما يروقنا أن ننعتها في معجمنا البليد، في حين كانت فعليّاً بمثابة استطلاع في عرف الغيب! هذا الطريق يعود إلى الشارع الرئيسي الذي يطوّق البحيرة في حزام يؤدّي إلى «إنترلاكن» الذائعة الصيت سياحياً، مخترقاً محلّات القرية التجارية المطلّة على البحيرة، والمؤسسات الخدمية الأخرى كالمصرف ومكتب البريد والصيدلية. هذا في حين يقود الطريق الشمالي إلى محطّة القطارات مخترقاً المدينة المحروثة بأخاديد نهر «آري» المنطلق إلى البحيرة: ذلك الرافد النقيّ والأسطوري الذي يجري حثيثاً ليشقّ بيرن نصفين، مجسّداً الوريد المغذّي لنهر الراين الخرافي في بازل. ففي طريق الشمال هذا الذي اعتدت أن أسلكه مشياً على الأقدام لابدّ أن يعترض طريقي النبع الهاجع عند ضفّة البحيرة، المتوّج باللوح الرخامي الذي يتغنّى بالأبيات الشعريّة التي تمجّد العبقرية الموسيقية التي مرّت بالمكان يوماً لتهبه عنواناً في شخص الموسيقار يوهانّس برامس، تخليداً لذكراه. النبع يتدفّق من الجبل، تظلّله شجرة هائلة،

Twitter: @alqareah

كأنها حارس مارد مسخّر من الطبيعة، يرتوي السابلة من سلسبيله النقيّ، في حين يصدح الغمر السخيّ بلحنٍ وجدانيّ كأنه أنشودة الأبدية.

لم يكتفِ أهل المكان بهذا المَعْلَم الشعري للإشادة بروح هذا الإنسان الملهم، ولكنهم أبوا إلاّ أن يضيفوا إليه مَعْلماً آخر، كان شجرة قد استزرعوها بعد نزولي ضيفاً على ديارهم بعامين.

شجرة أخرى، تبعد عن النبع بضعة أمتار أخرى، كنت أناجيها كلّما مررتُ بها في طريقي إلى محطة القطارات، تماماً كما كنت أناجي النبع قبلها، الموسوم بالأبيات الشعرية التي تتغنّى بقدرة الإبداع على تحدّي العدم.

ولكن يوهانّس برامس لم يكن الموهبة الوحيدة التي تتباهى بها زهرة الألب تون. ففي الجانب الآخر من البحيرة الواقع عند حضيض الجبل الجليل، المثلّث الأضلاع كأنّه هرم خرافي، تستلقي جزيرة صغيرة، يتوسّطها بنيان عتيد، كلّ مجدها أنها آوت يوماً عبقريّة أخرى، أكثر تراجيديّةً، وهي الشاعر هنري كلايست. أَبَى الوفاء السويسري إلاّ أن يجود بها ويطلق عليها إسم «جزيرة كلايست» تخليداً لذكرى هذا الملهم الذي اختارها يوماً لتكون له مقاماً بعد أن ضاق به الوجود كلّه وحرمه المقام، قبل أن يتمادى هذا الضيق الوجودي ليكون سبباً في خروجه من الوجود بتلك الطريقة الدراميّة التي اختارها للتحرّر من الوجود المتمثّلة في اصطفاء الأنيس الذي رافقه في رحلة الخروج، فيطلق النار على تلك الحسناء الهشّة قبل أن يطلق النار على نفسه حسب الصفقة المبرمة بينهما مسبقاً!

Twitter: @alqareah

4

درب الشمال يمرّ عبر نهيرٍ شقيّ يخترق السفح منحدراً من أعالٍ باسم «فارت بودن» ليهوي إلى البحيرة غير بعيدٍ من أعتاب المدينة القديمة حيث تختنق الأرض لتنفذ المياه من المعتقل الصارم في شريانٍ مشطورٍ بلسانين يخترقان العمران بسيمفونيّة تستفزّ أوتارها العوارض الخشبيّة التي أُقيمت على القناطر خصّيصاً لهذا الغرض، في حين يستعيد النهر شقّه الضائع ما أن يجتاز تخوم المدينة ليلتئم في سيلٍ عارم، نقيٌّ، يخضرّ مستعيراً هويّة الأشجار التي تصطفّ على شاطئيه، أو يزرقّ مستعيراً هويّة السماء إذا تعرّت، فيرافقني في رحلة الأربعين كيلو متراً بالقطار إلى بيرن، ليودّعني هناك أيضاً بعد أن يطوف أنحاء المدينة قبل أن يواصل رحلته ليزوّد الراين في بازل بفيضه الثريّ الذي لا يبدو ماءً إلاّ في نظر البلهاء، ولكنّه في نظر الشعراء ما هو إلاّ روح سويسرا السخيّة المهداة إلى الأمّة الجرمانيّة!

فالجبل الذي استجرت به كله محروثٌ بالأنهار بأحجامٍ مختلفة، وفي امتداده جنوباً، نحو قمم الألب الأعلى قامةً، لا يتردّد في أن يستوي في شلّالاتٍ أيضاً، سيّما في التحفة الطبيعية الفاتنة الملقّبة بإسم إنترلاكن. ولهذا، فقطع المسافة بين بيتي في الأعلى إلى قلب

Twitter: @alqareah

المدينة، متعة وجدانية، لأن معزوفات الماء تصاحب العدوس طوال التجوال؛ تعلو حيناً، وتخفت حيناً، حسب جرم النهر، وتبعاً لمستوى ارتفاعه عن الحضيض. تتسلّل عبر الأشجار، ترطن كلما اعترضتها الحجارة، وتهتمل بصوتٍ مكتوم في المسافات التي تغيّبها الأرض، كأنّها برطمات كهنة يتلون تعاويدهم الوثنية بلغة استسرارٍ، يُبدع لها غناء الطير رافداً شعرياً موحياً، ينتهب الفردوس من مُحال الحلم، ليحيله واقعاً محسوساً. إنها الأوردة البكر، المجبولة بالشفافيّة، التي تتنادى في حلف حريّةٍ لا أرضيّة، تمخر اليابسة في حملتها النبيلة، مجسّدةً سرّ الإعجاز الذي يبعث الحياة في يبيس التراب، ويحيي وجوداً كان سيظلّ بغيابها حضور عدم.

نهر امتلك يميني، وآخر استولى على يساري، يستدرجانني مع كل خروج ليتولّيا أمري، كدليلين خيّرين مستعارَيْن من دنيا الأساطير، فلا أملك إلاّ أن أنقاد لهما سليب الحيلة، يعبران بي السفوح المغمورة ببساط العشب، المجلّلة بقامات أشجار الصنوبر المشيّدة من صلب الجبل سدّاً يجير البحيرة في الأسافل، حتّى يلقي بي في مواجهة حصن القرون الوسطى المكابر الذي آوى يوماً جان جاك روسّو في القرن الثامن عشر، وشهد ميلاد أولى وثائق الحريّة في العالم منذ سبعة قرون ونصف: الحصن الذي ظلّ بالنسبة لي لغزاً، لأن قدمي لم تطأ له أرضاً إلى اليوم، على الرغم من وجوده في قلب المدينة القديمة، فكان يعترض سبيلي في كلّ مرّة ارتاد فيها بنيان «ميغرو كلوب شولي» لتلقّي دروس اللغة الألمانيّة، محققاً

بذلك حلم الطفولة الرومانسي في تعلّم هذه اللغة بالذات من دون كل اللغات دون أن أدري لماذا. إنه نوعٌ من نزعة الإستهانة بالأمكنة التي نسكنها، لأن الإطمئنان لوجود الأشياء في متناولنا كان دوماً علّة إهمالنا، والسبب الذي يقتل فينا الفضول في استكشاف خفاياها.

فنحن لا نسعد بحضورنا في المكان ما لم نفلح في خلق علاقة مع روح المكان، لا حرف المكان، لأن الحرف روتين، والروتين آفة التجربة والورم الذي يكتم أنفاس الوجود. وروح المكان مستعارٌ بالطبع من روح أهل المكان، لا من طبيعة المكان. فسويسرا فردوس الطبيعة حقّاً، ولكنها الفردوس العصيّ فيما لو تخلّى عنه فردوس الروح الذي يسكن الإنسان السويسري. هذه الروح هي مفتاح السرّ الذي يهوّن قسوة الواقع الطبيعي الذي أفزع حتى مريديه من فرط صرامته برغم شعريّته إلى الحدّ الذي أعجز هذه الشعريّة أن تشفع لهذا الواقع لدى إنسانٍ هدهد في نفسه روح الشاعر مثل صديقي الفقيد الطيّب صالح الذي أقام مرّةً في رحاب الألب لغاية الإستشفاء ليعبّر لي عن دهشته من قدرتي على المقام في مثل هذا المكان العَبوس! فسويسرا بالفعل مزمومة بقدر ما تبدو للمشاهد جنّةً أرضيّة بلا منازع. والألب أكثر صرامة، في عرف العابر، برغم روح الأسطورة التي تستوطن جباله وتبصم كل سيمائه، ولكن الأمر سوف يختلف بالنسبة للإنسان الذي ألقى عصا الترحال وحقّق الصفقة مع المكان مبرمةً مع روح أهل المكان. فالسويسريّون هم بلسم الواقع العصيّ، والترياق لمداواة الإغتراب الناتج عن الحضور في طبيعة

Twitter: @alqareah

منيعة ترفض الإعتراف بالأضياف. وعلّ أول حرف في أبجديّة المعجم السويسري هو ذوبان جليد الحدود بين مدنها وأريافها على نحوٍ يبدو فيه الوطن كلّه نسيجاً واحداً لا يكتفي بأن يحقّق الإنسجام بين هذين العالمين اللذين كانا عقدة العالم الحديث، ولكنه يأبى إلاّ أن يحقّق أعجوبة أخرى وهي: الإنسجام مع المحيط البيئي الذي يستضيف في رحابه أعباء إنسانٍ لا يستغني عن حاجاته وأدوات لهوِه وإلاّ لما صار خليفة الله في أرض تضيق بأهوائه كما ضاقت دوماً بضلاله. والأغلبيّة لا تدري أن سرّ القوّة التي جعلت من سويسرا فردوساً أرضياً إنما يرجع الفضل فيها لقسوة هذه الطبيعة بالذّات! فأن يجد الإنسان نفسه سليلاً أعزلاً مطروحاً على قمم جبالٍ عاليةٍ مرصّعةٍ بالجليد في كل الفصول، وعلى عاتقه وحده تقع مسئولية تحويل هذا الواقع المعادي وطناً حقيقيّاً، فتلك بطولة الإنسان السويسري الجديرة بأن نحسده عليها حقّاً.

ويبدو أن أعجوبة سويسرا ما هي إلاّ ثمرة منتجة بحرف قُدرة الإنسان السويسري على خلق لغة مشتركة مع واقعه الطبيعي القاسي إنطلاقاً من القاعدة التي تقول أن جنس السلعة من جنس الثمن المدفوع. فكم هو ثمن جسيم أن يبدع الإنسان من الجلاميد المعلّقة في الفضاء وطناً، فلا يكتفي بهذا، ولكنّه ينحت الصخر ليستنزل في هذا الصلد فردوساً: يشقّ الطرق، ويحفر الأنفاق، ويستزرع السفوح، ويبتني البيوت، لا في أرضٍ ككلّ أرض، ولكن في رؤوس أعلى الأجبال وأكثرها في الدنيا مناعةً وصقيعاً. ملحمة دامية

Twitter: @alqareah

وعنيدة تشهد على عبقريّة روح الجنس البشري في قهر هشاشة الجسد، بتطويع أقسى ما في الطبيعة وهو الحجر ليغدو لخليفة ربّ الأرباب فراشاً ومداساً والطبق الذي يطعم القُوْت. فالقلّة فقط تدري أن هذه الجزيرة المنفيّة عن العالم، المعزولة بعوامل الطبيعة أكثر من عزلتها بسبب مبدأ الحياد الذي اعتنقته منذ القرون والقرون، لتغدو الناسك في دنيا تدمن وباء الأحلاف السياسيّة، إنّما تسكن رقعة لا أرضيّة، ترتفع فوق سطح البحور ألوف الأمتار، ولا تمتلك من الثروات سوى العمل الذي تحوّل على يديها عبادةً حقيقيّة هو رأسمال كل أمجادها، بل وجواز سفرها لدى بلاط الأمم. هذه البطولة لم تجعل من الوطن السويسري استثناءً في عالمنا وحسب، ولكن التجربة احتفرت في وجدان إنسانها بُعْداً آخر ليصبح بموجبه مخلوقاً من طينة أخرى بالمقارنة مع مَنْ جاوره من شعوب الأرض، بل وبالمقارنة مع كل أمم الأرض. هذا البُعْد هو ما شكّل روحاً أخرى في نفسيّة الإنسان السويسري، مجبولةً بقيَم أخرى، ومشفوعةً برسالة أخرى ليس رأسمالها المال كما هو الحال مع مَن عاصره أو جاوره من أجناس، تتجلّى في مسلكه الأخلاقي في علاقته مع الآخر بوضوحٍ لن تخطئه عين حتّى المشاهد العابر، فكيف بعين المتأمّل في حالٍ تجلّى؟

فالصفقة المبرمة بين المدن والأرياف لم تكن لتكون مربحةً للطرفين لو اقتصرت على التضحية بامتيازات هي صفة لازمة في عرف المدن كما هو الحال مع الكيف في العمران، أو الكفاءة في القطاع الخدمي، أو الترف المنزلي، أو كلّ ما شابه، لكي تتناسب

Twitter: @alqareah

كل هذه المكتسبات مع أريافٍ تضحّي بدورها بقبول المساواة في أسعار الحاجات الضرورية أيضاً على سبيل المثال مقابل الحصول على الدعم الحكومي للمنتوجات الزراعية المحصّنة بيولوجيّاً، ولكن الصفقة الضمنيّة تتضمّن بنوداً سرّيّة، أو فلنقل ضمنيّة، تمشّياً مع الروح الوطنيّة، لا مجرّد مبادلة نفعيّة. والحسّ الوطني هو ما يبثّ في الصفقة روحاً أخلاقيّة إلى جانب نفعها الدنيوي. فإذا كان الآخر، في نظر إنسان المدينة، ذئباً يجب معاملته كعدوّ، كما الحال في كل أركان الدنيا، فإنّ الآخر، في نظر إنسان المدينة السويسري، شريكٌ في الوطن، وقرينٌ في رأسمال الثروة الوطنيّة التي لم تكن لتكون لولا وجود الطرفين، ولهذا فهو ذخيرة أيضاً بقدر ما يرى نفسه هو كذخيرة، لأن المنطق يوحي لكليهما أن الوطن كلّه سيختفي من خارطة الوجود فيما لو أغفل أيّ منهما الحقيقة التي تقول أن وجود أيٍّ منهما رهين وجود الآخر، ولذا فالدّين المعتنق من قبل الكل هو **المعاملة**. والمعاملة لن تكون خصلة أخلاقيّة ما لم تكن برنامجاً فعليّاً مترجماً في حرف المسلك اليومي. وهي لن تصبح دستوراً معتمداً من الكل بدون نزعة صدقيّة. ولهذا يهرع السويسري لقضاء حاجة قرينه المواطن بروحٍ أريحيّةٍ يقيناً منه أنه إنّما يقضيها لنفسه في الواقع بسبب الوعي العميق بوجود شراكة وجودية بين الطرفين. أي أن ما يفعله هو **واجب**. واجبٌ نحو قرين، وبالتالي نحو **نفسه**، وبالتالي نحو الربّ الذي خلّفهما على الأرض، ونزّههما عندما رفعهما عن الحضيض يوم ميّزهما عن بقيّة الخلق وأوْجَدهما منتميين إلى ملّة بلد إسمه سويسرا، لا إلى سلالة أي جنسٍ أرضيٍّ آخر.

Twitter: @alqareah

هذه العقليّة تحتاج بالطبع إلى التحلّي بالوعي في حدوده القصوى. وهو ما لا يتأتّى بدون عوامل أخرى إلى جانب قسوة الطبيعة وغياب الموارد الطبيعيّة؛ وعلّ ترويض أجيال النشء الذي نسمّيه تربيةً يأتي على رأس القائمة بعد دروس الأمّ الأولى: الطبيعة. هذا يملي على ضمير الإنسان السويسري أن يؤدّي عمله بإخلاصٍ شديد، لا لأنه مجرّد عمل، ولكن لأنه الواجب في بعده الغيبيّ. يفعل ذلك بحبٍّ يجعل من العمل طقساً قدسيّاً لا يختلف عن الصلاة. وهو ما يحيل عملاً كهذا قيمة، وليس غنيمةً كما يُعامَل لدى أمم أخرى. يمارس الإنسان السويسري عمله بروح الصدقيّة، راضياً، باسماً، فيلقّن درساً في الإتقان. وهي نزعة تفيض في سيماء الإنسان السويسري فلا تُخفى حتى على السابلة. فأوّل انطباع يستطيع أيّ سائح أن يقرأه في وجه هذا النموذج هو روح الصدق أوّلاً، ثم الإستعداد الفطري للجود بالعَوْن فيما إذا سئل عن عون ثانياً. وهي خصالٌ لا يحتكرها سكّان الريف السويسري البسطاء وحدهم، ولكنها تنتقل كالعدوى لتشمل أبناء المدن أيضاً. وهو ما نفتقده في مدن بقيّة العالم. وكم أدهشني أن أتلقّى التحيّة من أناسٍ أغراب لم أعرفهم يوم أقمت لأول مرة بـ«هونيباخ»، وأدهشني أكثر أن يحيّيني أناسٌ لم أعرفهم يوماً لا في هونيباخ وحسب، ولكن في شوارع مدينة تون أيضاً. هذا المناخ هو ما يجعل إنسان سويسرا ليس ككلّ إنسان، وأطفال هذا الإنسان ليسوا ككلّ أطفال، وأشياخ هذا الواقع ليسوا ككلّ أشياخ، لأن الإحساس بالشراكة أبعد من أن يعبّر عنه مصطلح شائع مثل Höflichkeit، وهو أيضاً أنزه من أن يكون مجرّد إحساس بشراكة في وطن، أو شراكة في أيّ حطام دنيا، ولكنه

Twitter: @alqareah

يكتسب أبعاداً وجوديّة هي فردوسٌ مفقود في عالمنا الموبوء بالروح التجارية، لتغدو انتفاضاً بطوليّاً يستعيد فيه الآخر هوية «**الفكرة**» بالمفهوم الأفلاطوني، أي الشفرة المثالية الضائعة في سيرة تحرير النواة للجمهورية الفاضلة لا في هويتها السياسية، ولكن في فحواها الأخلاقيّة والوجودية، لأنه الفردوس الذي نحقّقه بأنفسنا ولأنفسنا، لا الفردوس الذي نناله على سبيل الهبة فيخلّف لنا اللعنة عندما يهجرنا مثله مثل كل الهبات التي تجود بها الحظوظ بالمجّان!

هذه العقليّة هي المكوّن الذي كوّن كينونة هذه الأعجوبة الملقّبة باسم سويسرا إلى الحدّ الذي يجعل أجيال أمّة عظمى كالألمان تخلع عليها لقب «سويسرا ـ وطن الله!» بلى! سويسرا وطنٌ ليس من هذا العالم.

وهذه ليست شهادة شاعر يحلم باستعادة أطلانطيدا المفقودة، بقدر ما هي شهادة إنسانٍ طاف كل أوطان العالم، فاضطهدته كل أوطان العالم، ولم ينعم بالسلام إلاّ في هذا الوطن الذي لم ينتمِ يوماً لأوطان هذا العالم!

أقول هذا رغم يقيني اليوم بأن الضياع قدر أوطاني كلّها، الطبيعية منها والميثولوجيّة، بما في ذلك واحة السلام سويسرا، بعد أن أضحت للجسد جحيماً، بقدر ما كانت للروح نعيماً، كأنّ مبدأ اللاوطن هو القدر المعلّق في رقبة العدوس حرفاً أيضاً، لا مجازاً فقط، لا لشيء إلاّ لأنه اختار السُّرَى ديناً!

Twitter: @alqareah

5

نزيف الروح الذي تدفّق بغزارة في وارسو، ثمّ في موسكو، أنجز «نزيف الحجر» الذي صار للعدوس أول سفير لدى الواقع الجديد في سويسرا، بل وفي كل أوساط أوروبا. لم تسبقني إلى هنا لا «التبر»، ولا حتى «المجوس»، ولكن «نزيف الحجر»، كأنّ الأقدار تريد أن تقول أنّ النزيف هو بالذات الشهادة الأنبل والأصلح لحمل وزر أيّ شأنٍ رسوليّ.

وكان لابدّ ساعتها أن أستعيد وصيّة شكسبير لشخصي يوم أجابني في الحلم عن سؤال الكيفيّة التي يجب أن نعتمدها في السيرة المرويّة بلسان مخبول، الملآنة بالصخب والعنف، كما يسمّي الحياة، فأجاب بما استوجب أن أعتنقه كتميمة: «**بالعرق والدم!**»، أي في الترجمة: جهد الجسد الذي لا معنى له خارج **العمل**، ثم نزيف الروح الذي سيعدم المعنى أيضاً خارج **الألم**، الألم بشقّيه الروحي والعضوي كالإبتلاء بمرض من جنسٍ خاصّ. فكيف لا يصير النزيف رسولي على الواقع الجديد إذا كان هذا النزيف من الصنف الإستثنائي الذي تماهى فيه النزيفان إلى الحدّ الذي يستجيب فيه حتّى الحجر بالنزيف؟

Twitter: @alqareah

وفي ظنّي أن زمن ما يربو على ربع القرن الذي فصلني عن نبوءة المعلّم حتى ذلك اليوم، مهلة كافية لعبور جحيم الآلام، ودفع الضريبة المستوجبة لبلوغ تخوم البرزخ أخيراً. برزخ لم يهرع لنجدتي ليكون لي فيه دليلاً إمام النزاهة كاتون، كما في «برزخ» دانتي، ولكنه البرزخ الذي انتظرتني فيه العزلة لتكون لي في دنياه شفيعاً إلى الحدّ الذي أدهش أناساً كانت العزلة دوماً مريدتهم كأهل سويسرا فيضطرّ السيّد مايير، جاري في المقام، لأن يخلع على شخصي لقب «الناسك!» فيطرق باب بيتي معتذراً عن الإزعاج في كل مرة يستقبل في بيته، الواقع في الطابق العلوي، أضيافاً.

أمّا «نزيف الحجر» الذي سبقني إلى المكان الجديد فطالعني بين يديّ المستشرق الألماني (المقيم بسويسرا) هارتموت فيندريخ الذي أعيته الحيلة في الإهتداء إلى شخصي كما يقول. برغم أن الحيلة لم تعيه في الإهتداء إلى «النزيف» لأن سهرةً جمعته مع أصدقاء له في باريس قادته إليه، فترجم النصّ واتّفق مع دار النشر للطبع، ولم يبق لتنفيذ العمل (الذي وصفه بـ«الإكتشاف») إلاّ الحصول على موافقة المؤلّف المفقود! إنها السيرة التي تكرّرت حرفياً بعد سنوات قليلة من ذلك التاريخ، مع الياباني نوتاهارا الذي ترجم «التبر» إلى اليابانية قبل أن يهتدي إليّ بسنواتٍ أيضاً لاستكمال الجانب القانوني في إجراءات النشر.

وسيرة هذين العملين في ترجمتهما إلى اللغات الأوروبية هي ما ألهمني بيقينٍ يثير الفضول في أهواء أمم الشمال بالمقارنة مع أمم

Twitter: @alqareah

الجنوب الأوروبي. ففي الوقت الذي استهوت فيه أمم الشمال رواية «نزيف الحجر» كما هو الحال مع الألمان أو الإسكندنياف، فتَنتْ «التبر» أمم الجنوب أكثر كما هو الحال مع الفرنسيس أو الطليان أو الإسبان. وهو ما حفّزني لاستجلاء السبب المفترض ألاّ نطلبه خارج النصّ، أو بالأصحّ، **طبيعة**، النصّين. طبيعة غابت عن النقد، سواء الغربي أو العربي، لتخيّب بذلك ثقتنا في مِلَل النقّاد، الذين لم يفلحوا يوماً في استجلاء حقيقة نصّ؛ كأنّ الروايتين مكتوبتين بنَفَسين مختلفين، بل ومن مؤلّفين مختلفين، برغم يقيني الخفيّ بأن البعد الوجداني، أو الغنائي، في الـ «التبر» (الذي استهوى أمم الجنوب الأوروبي) يتقاطع، أو يتداخل، بقوّة، مع البعد الوجودي المهيمن في «نزيف الحجر» الذي استهوى أمم الشمال. إنه تلبية لنداء مكوّن يسكن عميقاً في المجهول مترجم في حرف طبيعةٍ بهيمةٍ مبهمةٍ تشكّل علاقتنا النفسيّة الكئيبة إزاء الوجود، مقابل الإستجابة لنداء مكوّن آخر مدوّن بحرف طبيعة وجدانيّة مرحة بفعل سماءٍ زرقاء مغسولة بفيوض شموسٍ سخيّة تعبد آلهة أخرى، كما تبدع بمسلكها سيمفونيّة وجوديّة أخرى، فلا أدري شخصيّاً لأيّ وترٍ في وجداني استجبت عندما استنطقتْ معزوفتي هذين المعبودين اللذين لم يكن أيّ منهما ليلبّي ندائي لو لم يجد لنفسه مكاناً في نفسي؛ كأنّ النصّ في حقيقته ما هو إلاّ المفارقة المبهمة التي سكنتني وجهلتها ولم أعترف بها لنفسي يوماً، وأبَى إلاّ أن يتولّى ترجمتها بالإنابة عن شخصي، ورغماً عن أنفي!

Twitter: @alqareah

فالرواية، كما يبدو، قراءة في أحاجي الذاكرة المنسيّة، والدليل يجود لنا به مسقط الرأس الذي كان مسرح الطفولة الأولى كوطنٍ كان إلى عهدٍ قريب (قريب في عرف الطبيعة بالطبع) نقطة **التّماس** بين عالمين نراهما اليوم نقيضين، بينما آلف بينهما بالأمس هذا الحدّ المسمّى في لغة القوم «تينغارت»، أو الحمادة الحمراء بلسان قبائل الجوار، وهما: عالم الشمال وعالم الجنوب، أي الطبيعة القطبيّة والطبيعة الإستوائيّة. وحجّتنا في هذا الإلتئام شهادة أبو التاريخ هيرودوت التي تصف هذه المنطقة من ليبيا فتقول أنها المكان الذي تسرح في أرضه الدّببة جنباً إلى جنب مع الفيلة. أي اجتماع رسل الطبيعة القطبية برسل الطبيعة الإستوائية. إنها تلك المرحلة من عمر الطبيعة التي زحفت فيها أنفاس الصحراء شمالاً لتصيب هذه المنطقة بالعدوى التي أطاحت بمارد الجليد الذي كانت بقاياه ترابط آنذاك على مناكب جبل نفوسة، فتزحف الفيلة في ركاب هذه الحملة شمالاً أيضاً، لتأخذ رموز الطبيعة الجليدية (الدببة) على حين غرّة، في وقتٍ كان فيه أسلاف العدوس (الذين احترفوا الترحال مبكّراً) فرسان الحملة الطبيعية، ورموز واقعها البيئي ذي الهوية المزدوجة. أفلن يعني هذا أن سليل هؤلاء لم ييمّم صوب الشمال البعيد لينزل أوطان الدببة إلاّ تلبيةً لنداء الحنين إلى طبيعة مفقودة هي رديفٌ آخر للفردوس المفقود، وما نطقت به الرواية لم يكن سوى ترجمة لهذا التوق المجهول إلى الماضي المبثوث في الدمّ؟ ألا يعني هذا أيضاً أن الفردوس المفقود (في عرف الجينات التي تسكننا) ليس فردوساً

Twitter: @alqareah

وحيداً، ولكنّها حزمة فراديس مفقودة؟ أليست الرواية من هذا المنطلَق هي بمثابة مشرط الجراحة الذي يستخرج فينا كنوزنا التي استودعها الزمن دسيسةً في خزنة الروح، فنتحرّر بهذا الكشف؟ ألا يعني هذا أيضاً أننا إذا كنّا نتحرّر من المكان بالترحال، فإننا بالرواية نتحرّر من الزمان أيضاً؟

6

كان على العدوس في تلك المرحلة أن يجد حلاً جذريّاً لداءٍ يدري أنه لن يهنأ بأيّ فردوس ما لم يعثر له على ترياق وهو: الموقف من الأقزام، أي العلاقة مع تلك الفئة الحاملة لجرثومة الشرّ الجديرة بلقب «الأقزام» لا جسداً بالطبع، ولكن بطبيعة الروح دون أن نغفل عن وجود الصلة النفسيّة بين القزمين (قزم الجسد وقزم الروح)، لأن انحطاط جسد هذا، لا يختلف في النتيجة عن انحطاط روح ذاك، لتكون العقدة التقليدية مبرّراً كافياً لممارسة الكيد لكليهما، والخسّة قاسم القطبين المشترك. ولا أحسب بإمكان وجود علاج لهذا الوباء المتفشّي في الواقع الإنساني إجمالاً، وواقع الإنسان الليبي تخصيصاً، سوى ما يسمّيه أهل التصوّف: **التقيّة!**

لقد تذكّرت وصايا الإمام الغزالي في تلك السنوات التي جلست فيها لأواجه الإنسان الذي يسكنني طلباً لخروج نهائيّ من المأزق الأبديّ الذي كان علّة كلّ أمراضي منذ أن تنكّرتُ لوطن السكينة وسلّمتُ زمام أمري للفجّ العميق المسمّى حضارةً. وصايا تحثّ مريد الخلاص من سجن الدنيا أن يتخلّى عن كل ما يستهوي الأغيار من ألعاب، ويبتعد ما استطاع عن تلك الأسواق التي سخر منها مؤسس

Twitter: @alqareah

إمبراطوريّة فارس قيروش الأول ليصفها بوحيٍ من روح إنسانٍ حديث العهد بفردوس البريّة فيقول أنها المكان الذي يجتمع فيه الأرذال ليغشّوا بعضهم البعض! وهذه الأسواق في حال العدوس لن تكون سوى الموقع المفترض أن يكون حرماً لصلاةٍ هي العمل، ولكن روح الإستهلاك التي أنتجتها لعنة النفط حوّلتها إلى منتدى لثرثرة أناسٍ لا يمارسون العمل، ولكنهم يعانون من ورمٍ خبيث سبّبه غياب العمل!

هذا يصْدق على حال سواد الليبيين الأعظم، بل على سواد كل الأمم التي ابتلتها الأقدار بلعنة استنزاف أمّنا الأرض لاستخراج الذهب الأسود، فكيف في حال تلك الشريحة من الليبيّين التي لم تحترف الدبلوماسيّة إلاّ لتتنصّل من واجبٍ قدسي هو العمل، لتستبدله ببطالة منكرة دينها التظاهر بالعمل، لا ممارسة العمل؟

وأعتقد أن المقياس في سبيل تحديد معدن أي أمّة إنّما يكمن في الموقف من هذا الأمر الجلل الذي نستهين به ظانّين خطأً أنه مجرّد سبب للفوز بالقُوت، وناسين أنه يُخفي معنى الوجود، وهو: العمل!

ولا أبالغ إذا قلت أن الإستهانة بالعمل ليس سرّ تخلّف هذه الأمّة، بالمقارنة مع تلك الأمّة وحسب، ولكنّه في الحقّ هو سرّ الشرّ أيضاً. الشرّ الذي يصيب هذه الأمّة بالمقارنة مع تلك الأمّة، انطلاقاً من الوصيّة التي تقول أنّنا مذنبون عادةً في كلّ ما يصيبنا من شرور.

إنه البعد الوجودي الذي خلق من الإنسان إنساناً. لم يكتفِ العمل بأن يروّض في الإنسان إناسة مبثوثة في حرف العقل، ولكنه دسّ فيه لغزاً غيبيّاً آخر هو: الروح!

Twitter: @alqareah

وليس لمن استهان بالعمل أن يعترف بوجود معجزة كالروح، وهو الأمر الذي أفقدني وجود لغة مع أناسٍ حسبتهم أهلاً، ولكنهم أبوا إلاّ أن ينفوني عن عالمهم الخالي من روح العمل، وبالتالي، من عمل الروح! وكان أن اكتشفت في زمن الخلوة مع قرين الغيوب مدى عمق اغترابي الذي يرجع إلى تاريخ نزولي الواحة، برغم أنّي لم أندم على عدم انتمائي إلى طينة كطينتهم. وعداوتي لآلهتهم إنّما يرجع إلى هذا التاريخ المبكّر الذي عبّرت فيه عن استنكاري لاغتصاب بكارة الأرض لاستخراج الكنوز الآثمة منذ منتصف ستينيات القرن الماضي في مقالاتي بجريدة «فزّان»، لأعلم أخيراً صواب موقفي بعد أن اختلست لعنة الأرض روح أبناء جلدتي لينتهي بهم المطاف إلى الإغتراب عن حقيقتهم.

ولمّا لم أكن مصلحاً دينيّاً كي أهديهم إلى الصراط، فليس لي لاجتناب الفرار بقيَمي إلاّ التشبّث بتلابيب اغترابٍ آخر أبعد من الإغتراب عن الوطن ليكون اغتراباً مركّباً لأنه يخفي في عبّه اغتراباً آخر على طريقة «متروشكا» الروسيّة: أي بالإحتجاب كسبيل وحيد لاتّقاء شرور أناسٍ لن يهنأوا دون وجود ضحايا، لأن الإحساس بهويّة الجلاد هو الضمان الوحيد الكفيل باستعادة القيم الضائعة التي فقدوها بسبب غياب موهبة العمل، وممارسة الشرّ بالنسبة لهم يغدو التعويض عن خسارة قدرهم أن يجهلوا طبيعتها الحقيقية.

ليس القناعة بغياب اللغة المشتركة وحدها هي ما أوجد المبرّر الأخلاقي لمنفاي الجديد، ولكن التجربة الدموية المميتة مع أشباح الخارجية الليبية في سيرة حرث المنفى داخل المنفى. فتجربة بولندا

كانت الكلمة الأخيرة في معجم علاقتي مع هذه الملّة، لأن خطيئتي أنّي أخلصتُ لجلالة العمل في واقعٍ يعادي العمل، ويرى في كل مَنْ أحسن عملاً عدوّاً مبيناً جديراً بانتقام. ولهذا السبب تحالفتْ ضدّ شخصي مع عصابة الداخل التي تعتنق ذات الدّمن، لتصيبني بأمراض أقوى في البطش بالجسد (كالأعصاب) من أيّة أمراض موضعية، لأن هشاشة الروح هوية كل مريد واجب، وحسن النيّة شهادة براءة لا تلبث أن تصبح منالاً سهلاً لسهام الغدر المسمومة. وهو ما لم أشأ أن يتكرّر بأيّ ثمن، لا لأعتنق دينهم فأستهين بالعمل على طريقتهم، ولكن يقيناً منّي بعدم جدوى الحرب التي نخوضها ضدّ عدوّ لن يعترف بهزيمته حتّى لو هُزم ألف مرّة، لا طمعاً منه بأن يحقّق نصراً يوماً، ولكن لتسليمه بهزيمته المبدئيّة السابقة على كل معركة، لتكون حربي آنذاك حرباً عبثيّة لأنها ضدّ الخصم الوحيد الذي لا يُهزم أبداً وهو: الموتى!

فهل يبيح لي ضميري بعد كل هذا أن أذهب إلى مكانٍ موبوءٍ بالأحقاد، لأنتحل دوراً في مسرحيّة هزلية تجمعني مع ظلال تنتمي إلى العالم السفلي، تتظاهر بأداء عمل لم تعترف بفحواه يوماً، بل وتجني عليه بممارسة شعائر وثنية أقلّها شأنها أكل لحم ذوي القربى ميّتاً؟

المنطق يقول أني سأكون من ملّة هؤلاء لو ارتضيت (بعد تجربة بولندا) القبول بزورهم الذي يبيح التضحية بالمضمون في سبيل الشكل، بدل أن يبيح التضحية بالشكل في سبيل المضمون، كما يقضي ناموس الحقيقة المبثوث في طبيعة الأشياء. والدليل؟ الدليل يجود لنا به عرفهم الإداري الذي لا يقيم وزناً للقيمة (التي لا وجود

لها خارج العمل الحقيقي، لا العمل المزيّف)، ولكن الشهادة له هي سجلّ التوقيع بالحضور بالإنصراف. دليلٌ آخر؟ الدليل الآخر يقدّمه لنا واقعهم الذي لم يحدث أن حرّك فيه موظّف منتدب للعمل بالخارج ساكناً، بدايةً بالسفير ونهايةً بأصغر موظّف، اللهمّ إلاّ إذا كان التوقيع على رسائل الإرفاق عملاً، لأن جيوش الموظّفين المعيّنين محليّاً هم من يقوم بكل أعمال سفارات ليبيا بالخارج، ولا فضل لأيّ موظّفٍ مبعوث من الداخل في تأدية أي عمل حقيقي باستثناء تزجية الوقت في حبك الدسائس، واحتساء القهوة، وترديد الشائعات، على عادة نساء الحاضرة عند تأدية طقوس التزاور في سويعات الضّحى!

فالفخر، كلّ الفخر، أن أنزّه نفسي عن طقوسٍ كهذه حتى لو لم أُوئدّ عملاً على الإطلاق، فكيف إذا كنت أعتقد أن ما أفعله كل أعوام الألم والتبتّل والإنقطاع عن كل ما يراه الناس لذّةً، إنّما كان تضحيةً في سبيل إعلاء شأن وطنٍ إغترب ظلماً عن حقيقته كقيمة، وواجب التأكيد على هذه القيمة إنّما يقع على عاتق كل مريد حقيقة؟

لقد بلغ الإنحطاط بعصابة الخارجيّة الليبية، أن تسمح لنفسها بإصدار بيانٍ مضحكٍ تتبرّأ فيه ضمناً من عملي بسفارتها الشقيّة بسويسرا، مدّعيةً في شخص سفيرها المشلول جسداً وعقلاً وخُلُقاً، بأنّ لا وجود في دفاترها لما يثبت أنّي زاولت فيها عملاً، ولا تدري هذه المؤسسة البئيسة، كما لا يدري سفيرها السفيه، أنهم بهذا البيان إنّما يعلّقون على صدري الوسام الجدير بأن أتباهى به، في حين تدين نفسها بنفسها، لأن عملي بسويسرا كان حقيقيّاً (لا شكلياً) إلى

Twitter: @alqareah

الدرجة التي اعترفت لي بها لا سويسرا وحدها (شعباً وحكومةً) وحسب، ولكن اعترف لي بها العالم بأسره بالشهادات الحقيقية التي لا يأتيها الباطل المتمثّلة في حزمة الجوائز الأدبية الدولية التي علّقتُها وساماً على صدر ليبيا، معيداً لها بهذا اعتبارها الضائع بين الأمم، في وقتٍ فعل فيه سفلة تلك المؤسسة كل ما بوسعهم كي يلحقوا بها العار طوال سنوات عملهم بالخارج كرسلٍ لنظامٍ سياسيّ يعادي الوطن سواء كهوية ثقافية أو كقيمة أخلاقيّة، دون أن يخطر ببالهم أنّهم هم من عمل مع شخصي طوال تلك السنوات كل عملٍ دنيء، ولست أنا من عمل معهم؛ وعلى عاتقي وحدي يقع وزر تقديم كشف الحساب الحقيقي لهم وللعالم من بعدهم لفضح ممارساتهم؛ والمسئولية الأخلاقية في رقبتي وحدي في قراءة صحيفة الإتّهام التي ستدينهم، لا أمام محاكم دنيا يمكن أن تُخدع بشهود الزور، ولكن أمام محكمة الضمير التي لا تحتاج إلى شهود إثبات، لأن البطولة الحقيقية فيها أن تكون أنت لا سواك السفارة التي تحوي كل السفارات، لا أن تكون نكرةً في سفارةٍ مّا هي نكرة في كل الأعراف إذا قورنت بعمل ذلك الفارس الذي لم تخطيء الوصية الشعبية عندما نصّبته المنقذ الذي يحيي القبيلة، في زمنٍ تعجز فيه القبيلة بالطبيعة أن تحيي فارساً!

7

فوجود تقليد نبيل كالتفرّغ الأدبي كما في العالم هو ما لا وجود له في عرف أناسٍ لا وجود في حياتهم لشيءٍ إسمه الأدب أصلاً. وليس لأمثالي أن يقرأوا مزاميراً كهذه لملّة الخارجية دون أن يستثيروا سخريتهم فيضاعفوا بها عداوتهم. تفرّغ أدبي لم يكن العدوس هو الوحيد من بين زملاء الأدباء من مارسه في الخارج، ولكن سبقته إليه قائمة تكاد تحوي كل أدباء ليبيا بدايةً بالشاعر محمد الفيتوري ولم تنتهِ عند أحمد الفقيه أو إدريس إبن الطيّب، ولكنّها يمكن أن تنطوي أيضاً على يوسف القويري ورضوان أبو شويشة وحتّى جيلاني طريبشان الذي صدر قراره كمدير للمركز الثقافي بالأرجنتين ولكن المنيّة وافته قبل الإلتحاق بالعمل. وهو ما يعني أن العمل بالخارج لم يكن امتيازاً للعدوس حتّى لو استثنينا الظرف الصحّي الذي استدعى انتقاله إلى سويسرا، وحتى لو غضضنا النظر عن مسألة التفرّغ التي لن يعترف بها سدنة الخارجيّة الذين يحيون في عالمٍ آخر لا وجود فيه لهذا المفهوم، لأن لا وجود في دنياهم لأُدب!

ولكن ناموس التقيّة هو ما ألهمني أن أتخلّى لأبالسة الغنيمة عن كل ما يرونه ذا قيمة كالمكاتب والسيّارات وحتّى اللقب في السلك

Twitter: @alqareah

الوظيفي الدبلوماسي لعلمي بأن شيطان الحسد إنّما يسكن هذا الحطام.. ولم يكن أمامي إلاّ أن أتوارى عن الأنظار تاركاً كل شيء علّ ذلك يكفيني شرورهم، ولكن هيهات!

فالحظوظ التي طاردتني دوماً كخصم ما لبثت أن طاردتني هنا أيضاً لتجرّدني من أبسط الحقوق الواردة في اللائحة. فبعد أن كان العلاج المجّاني معتمداً بحرف القانون ها هي لائحة جديدة يتزامن صدورها مع وجودي بأغلى بلدان العالم، لتقضي بوجوب دفع نصف قيمة المصاريف من راتبٍ بائسٍ كان دوماً نكتة المجالس الدبلوماسية الدولية لأنه الأتفه في تاريخ الدبلوماسية على الإطلاق سيّما إذا كان المبعوث من دولة يعتبرونها الأغنى في العالم.

ليس هذا وحسب، ولكن لائحة التقشّف الجديدة قضت بحرمان المبعوثين من منحة تعلّم لغة البلد المعتمدين لديه كما في السابق، ليجد العدوس نفسه مضطرّاً لتقسيم معاشه البائس بين مصاريف وجوده في أغلى البلدان، ومصاريف العائلة المنفيّة في أوكرانيا، لتكون مصاريف العلاج وزراً آخر، إلى جانب مصاريف دراسة اللغة الألمانية التي كانت في حياتي حلماً رومانسياً مجهولاً، كأنّه حنينٌ، أوعهدٌ مجبولٌ بنَفَس الدين.

وهم لا يعلمون بالطبع أنّي سوف أقترف الخطيئة التي لن أغفرها لنفسي فيما لو تنازلت عن قناعاتي ونزلت حضيضهم لا لأن هذا الفعل تَبَطّلٌ وحسب، ولكن لأنه استهتارٌ بالمبدأ الذي لا يعوّض في عرف كل مريد حقيقة، في حين يظلّ الحمولة التي لا تُحتمل في دين أمثالهم من الكسالى وهو: **الوقت!**

Twitter: @alqareah

وهكذا أيقنت بأن الحيلة الوحيدة لإتّقاء العدوى هي أن أتجنّبهم ما استطعت إلى ذلك سبيلاً، دون أن أضطرّ لقطع شعرة معاوية بالطبع. وهو ما لن يتحقّق بدون اعتزال عالمهم كما اعتزلتُ عوالم من سبقهم في آخر عام في وارسو، وفي كل السنوات الستّ في موسكو.

ولكن المفارقة أن هذه الملّة لا تقنع لا بحضور أمثالي في محافلها، ولا بغيابهم أيضاً؛ وهو ما من شأنه أن يعقّد الموقف في العلاقة معها، تماماً كما لا سبيل للتفاهم مع مَنْ لا يعرف ماذا يريد! قد تتنازل رموز الملّة فتقبل حضور أمثالي في حضرتها فيما لو عبدتُ أوثانها، وارتضيت تلاوة الصلوات في معبدها، ولكن الويل ثم الويل لمن تمرّد على شرائعها، وتجرّأ فحقّق نجاحاً رغم أنفها. سيوف الحسد تتظافر عندئذٍ وسوف تتخطّفه لتمزّقه إرباً إرباً. وهو لن ينجو من هذا القصاص بالغياب عن المحفل أيضاً، لأن هذا الفعل سيُعدُّ خروجاً عن الناموس، وكفراً بالمعبود، لأن الوصيّة القدسيّة القائلة: «إن الله لا يغيّر ما بقومٍ حتى يغيّروا ما بأنفسهم» لا وجود لها في قاموسها إلاّ كحرف يجري على طرف اللسان، لأن كتاب الله كلّه بالنسبة لها مجرّد راية تُحمل كتعويذة حسب، أمّا فحواه فمغتربة عن واقع الحياة اليومية عن سبق إصرار.

الخلاصة أن التجربة برهنت لي أن لاخلاص، لأن لا وجود لتقيّة يمكن أن تجير من شرور هؤلاء!

ولهذا حملت صليبي هنا أيضاً كقدر محاولاً أن أتحلّى بروح

الغفران ما استطعت، فلا أبادلهم الكراهة المجّانية بكراهة مماثلة، ولا آكل لحمهم ميتاً على طريقتهم، وإلاّ لن أكون شرّيراً مثلهم وحسب، ولكني سأجد نفسي عاطلاً، مستهيناً بالعمل، مثلهم أيضاً!

فكم مرّة واجهت نفسي لأتأمّل مسلكهم فوجدت أنهم أجدر ما يكونوا بشفقتي لا بكراهتي، لسبب بسيط وهو أنهم لا يملكون أمر أنفسهم، لأنهم ثمرة واقع سياسي واجتماعي قمعي بكل المقاييس. فلو استنطقنا مسألة الموقف من العمل على سبيل المثال لفوجئنا بأنها هويّة مستعارة من واقع الوطن بحذافيره. فاللعنة النفطيّة هي ما شلّ في الإنسان الليبي روح العمل ليسلّم زمام أمره، بل زمام روحه، للعمالة الأجنبية لا لتعمل بالإنابة عنه وحسب، ولكن لتحيا عنه بالإنابة في الواقع؛ لأن الإنسان الذي لا يعمل هو الإنسان الذي لا يحيا! بلى! لقد سرقت لعنة أمّنا الطبيعة من الإنسان النفطي الروح، بل الوجود، لتبقيه جسداً بلا روح، بل بلا وجود. فهل يكفي أن نقول مع ماكس فيبر أن الثروة هبةٌ خطرة؟ كلاّ، فإذا كانت الثروة في مفهومها ككنز هبة خطرة، فإن الثروة التي نلناها اغتصاباً من رحم أمّنا الطبيعة سوف تكون بليّة خطرة مرّتين، بل بليّة كبرى مراراً!

ليت حدود المأساة تتوقّف هنا، ولكن تأمّل عابر لواقع تلك المرحلة سوف يكشف عن حقيقة أخرى وهي أن المذنب في بؤس الواقع السياسي القمعي إنّما يستعير سطوته من اللعنة النفطيّة بالذّات. فهل كان الجنون سيبلغ بالقائمين على الأمر حدّاً يمكّنهم من أن يجعلوا من وطنٍ نبيلٍ وبريء أضحوكة العالم، ليصير الإنتماء إليه في نظر الدنيا عاراً، لولا وجود نزيف الأرض الذي نسمّيه نفطاً؟

فوجود ثروة مجانية لم ندفع مقابلها حبّة عرق هو ما ربًى في الجيل روح الغنيمة، البديلة لروح القيمة التي كانت عبقريّة أسلافنا الذين لم يجنوا منه سوى المثل الأخلاقيّة، وبرغم ذلك لم يبخلوا عليه بأرواحهم كلّما اقتضى الأمر. أمّا الأخلاف فلم يتردّدوا في بيع الوطن في المزاد العلني مقابل اغتنام الحطام، ناسين أن الحطام هو هبة الوطن، وليس العكس، لأننا إذا كنّا نتوهّم أننا سنكسب العالم بهبة الوطن، فيجب أن نعلم أنّنا سوف نخسر أنفسنا أيضاً بخسارة الوطن!

8

هذا الواقع لابدّ أن يفرز تلك العقلية التي هيمنت في حياة الليبيين طوال تلك الأعوام التي يتلقّى الناس فيها الرواتب لا كمقابل العمل، ولكن **كحصّة مستحقّة** من ثروة طبيعية لم يكن للدولة أي فضل في الحصول عليها، أي حصّة من غنيمة، فحتّى إذا حدث وارتضى هذا الإنسان القيام بعمل، لم يحسنه بوصفه عملاً، أي بوصفه واجباً، ولكنه يعامل العمل كعبءٍ ثقيل عليه أن يتخلّص منه بأيّ حيلة بدل أن ينفث فيه من أنفاسه، ويمارسه كطقس قدسي، أي كصلاة، أو على الأقلّ، كسحر يستدعي نصيباً من ذلك الفضول الذي يحوّل أي عمل فنّاً، أو فلنقل، إبداعاً، يحاكي عمل المعبود الذي أبدع الكون وكائنات الكون في ستّة أيام، فاستحسن عمله، ورآه شهيّاً للنظر، فأعطى لنفسه الحقّ في أن يرتاح في اليوم السابع.

وبدل أن تقوم الدولة بترويض هذا المخلوق، بالإحتيال عليه لممارسة عمل إتقانه رهين بعث الحياة في رغيف الخبز الميّت سواء بالتدابير التربوية أو بالإجراءات الإدارية، نجد هذه الدولة تشجّع في هذا الإنسان روح الإستهانة بالعمل، وتقدّم له النصيب من الثروة الطبيعية، لا على أساس أنه حقّ مستوجب بالطبيعة، ولكن بوصفه

إحساناً منها حيناً، أو كرشوة حيناً آخر مقابل التسامح مع شطحاتها العبثيّة، أو قطع النظر عن إنفاقها اللامعقول على المشاريع الوهمية، أو فلنقل، الجنونية، التي لا تستحي أن تنفخ في الفرد الفاني لتجعل منه ربّاً خالداً.

هذا يعني أن المعاش الذي تلقّاه الليبيون لم يكن يوماً أجراً حقيقياً، ولكنه رمزي. رمزيّ ليس مرّة، ولكن مرّتين. رمزي كقيمة شرائيّة أوّلاً، ورمزيّ كقيمة أخلاقيّة ثانياً، لأنه وُهب على سبيل الهبة، أو على سبيل النصيب من كنز، لا عن جهدٍ مشفوعٍ بعرق جبين. فإذا كان هذا هو النظام الإقتصادي السائد لعدّة عقود في حياة المجتمع، فبأيّ منطق يجرؤ إنسانٌ كهذا أن يحسد أخاه الإنسان لمجرّد أنه يتلقّى هذه المعونة الملعونة الشبيهة بالمعونة الإجتماعية التي تُدفَع في الغرب للمُعدَمين لا لكي يحيوا، ولكن لكي لا يموتوا جوعاً؟!

هذا سؤالٌ أوجّهه لحفنة الزبانية العاطلة عن العمل التي تسمح لنفسها أن تحرّر البيانات الكاذبة التي تتّهم مَن اعترف العالم كلّه بعمله، في حين تطالب هي بمحاكمته بسبب هذا العمل لا لشيء إلاّ لأنه عرّى سوأتها بإفنائه ذاته في عمله، برغم أن هوسه بهذا الواجب هو ما أقعده عن الدفاع عن نفسه لإيمانه بأن من يتكلّم وحده لا يعمل، أمّا من يعمل فلا يتكلّم!

وأظنّ أن الليبيّين كافة يعلمون أن الفئة التي أعنيها هنا الكلم هو مؤهّلها الوحيد، فإذا حدثت أعجوبة مرّة وأحسنت في دنياها عملاً

Twitter: @alqareah

مّا، فلن يكون هذا العمل سوى تلك الوشاية الكاذبة، المبثوثة في حرف التقرير الرديء الصياغة، المحرّر بوحيٍ من حسد، الموجّه لإحدى الأجهزة الأمنيّة، على غرار بيان السفلة الأخير، المدسوس في المواقع، غفلاً من توقيع، ممّا يدلّ على جبنهم، وظنّاً منهم أنّ بوسعهم أن ينالوا من إنسانٍ زعموا أنّهم عرفوا شخصه، ولا يدرون أنهم لم يعرفوه يوماً، إذْ جهلوا نصّه، وسوف لن يُكتب لهم أبداً أن يفكّكوا لهذا النصّ طلسماً حتّى لو حقّقوا على أنفسهم نصراً وأُلحقوا بدورة في محو الأميّة!

فمفعول اللعنة الناتجة عن احتراف الكنز يتضاعف عندما تتحالف مع السُّعار الأيديولوجي ليغدو التجهيل الذي يميت في الإنسان القلب هو المنهج البديل لتلك الأصالة الموروثة عن أسلافٍ لم يرتادوا حرم الأكاديميات، ولم يتخرّجوا من الجامعات، بل لم يطرقوا أبواب المدارس ليسحب الحرف البساط من تحت أقدام ذاكرتهم: الذاكرة التي كانت إنجيل سليل الفطرة، والفردوس في حياة إنسان الطبيعة، وما اختراع الكتابة سوى مؤامرة خبيثة لتغريبه عن فردوس هذه الأمّ، فكأنّ الأجداد حكماءُ بالسليقة، لأنهم لم يعوّلوا على رسولٍ يأتيهم بالنّبأ اليقين مزبوراً على لوحٍ، أو رقعةٍ، أوقرطاسٍ، من خارج، ولكنّ دليلهم الكتاب الذي يسكن الذاكرة، لأن الحقيقة إذا كان لها الكتاب وطناً، فإنّ الذاكرة لها مسقط رأس، والمتن المكتوب بحبر الحرف إذا كان ترجمةً، فإنه في الذاكرة أصل. ولهذا صار أبناء الجيل بالعلم المزعوم جهلةً، وظلّ آباء الجيل

Twitter: @alqareah

بالذاكرة حكماء. فالجامعة كانت هي البريّة، والذاكرة في رحابها هي المعلّم الذي لقّن الوصيّة.

الموقف منذ الآن يستدعي وضع حجر الزاوية للمعادلة في الجانب المقابل. فالمناهج التعليمية أو التدابير التربوية، أو الجهود التثقيفية، تتحوّل حرفاً بلا معنى في ظلّ هيمنة أيديولوجيا تسوّق **التعصّب** (سواء أكان التعصّب فكرياً، أم عرقيّاً، أم دينيّاً) سيّما إذا تزامنت مع منظومة اقتصادية مدنّسة بجرثومة **الإثم** الناجم عن كسبٍ لم يُتوّج بالعرق تستنكره الكتب المقدّسة عندما تخلع عليه إسم «الحرام» بوصفه ثروة من حقّنا منذ اللحظة أن ننزع عنها تاج الشرعيّة، لتصبح في العرف الأخلاقي: **كسباً مغتصباً!**

فإذا كانت الحكمة بنت بيتها ذي الأعمدة السبعة، في حال جيل السلف، فإن الجهالة في حال جيل الخلف تستعير بعداً مثلّث الأضلاع في واقعٍ يحترف الأدلجة حتى في العواطف الإنسانية، ولا يكتفي أن يمارس التزييف في شأن الحقيقة أو التاريخ، ولكنه لا يستحي أن يزوّر حتى الدلالة في العبارة بروحٍ عدميّة لا تتحدّى قوانين لغوية (هي بطبيعتها قوانين الوجود) وحسب، ولكنها تتحدّى القدر أيضاً بتحدّي النواميس الألهية. هنا تتضح ملامح الثالوث المنكر الذي أصاب الأصالة في روح الليبيين وقاد أغلبيّتهم إلى حضيض الإنحطاط الأخلاقي الذي يجعل من رذيلة كالحسد (مثالاً لا حصراً) عملة التداول: أوّلها بطبيعة ثقافية يوطّد أركان **الجهالة** بنزعة الإحتفاء بالشكل لقاء التضحية بالمضمون كما يترجم السلوك

Twitter: @alqareah

الذي يعامل الشهادة العلمية بوصفها وثيقة نفعية، لا كبرهانٍ معرفيّ. ثم (ثانيا) إعتماد مبدأ التعصّب فكرياً وعرقياً ودينيّاً كمسلّمة في النهج اليومي. ثم (ثالثاً) إستمراء أرذل رذيلة في عرف الوجود وهي: الكسل الناتج عن عقليّة التسليم بالأحقيّة المسبقة في نيل النصيب المستوجب من الكنز المكتشف بالمجّان. فإن لم يكن بالتي هي أحسن، فالإستيلاء عليه غصباً عمل مشروع بوصفه غنيمة يجب تقاسمها على الكلّ!

جهلٌ، وتعصّبٌ، وغصبٌ، هو ثالث الآثام الأصلح كجواز مرور لدخول الجحيم الذي لن نخطيء فيما لو قارنّاه بالثاوث الذي نصّبه الحكيم ضماناً للبطش نستطيع أن نتمنّاه لأي عدو: سلطة مطلقة، وثروة هائلة، ونساء بلا عدد.

بالقدر نفسه الذي يبدو فيه سخريةً مريرةً من الشعار السياسي الشرير المرفوع في وجه الليبيين طوال تلك الأعوام: السلطة والثروة والسلاح بيد الشعب!

فلا سلطة، في يقيني، أقوى من سلسلة الجهل، ولا سلاح يمكن أن يفوق سلاح التعصّب، ولا وجود لثروة أعظم إثماً من ثروة المجّان التي ننالها بالغصب لا بفضل العمل. وليس مصادفةً أن يكون جنس هذه الثروة هو العنصر المرشح دوماً للإطاحة بعروش الذمم، وتمهيد التربة لمواقع الفساد. ومن حقّ العدوس أن يفخر بارتضائه نصيب المواطن النزيه في زمنٍ كان فيه الكلّ تقريباً يتكالبون على الغنيمة كما تتكالب الوحوش على الجيفة، للفوز بنصيب بنات آوى

المتبقّي من فضلة الأسد، على نحوٍ لم يقلب الثروة وحدها أضحيةً، ولكن الوطن كلّه تحوّل بين أيدي هؤلاء فريسةً (!) في ذلك الوقت الذي كان فيه الإكتفاء بالحسَنة البائسة المسمّاة معاشاً دروشةً، بل وغفلةً، في عرف الخاصّة والعامّة. ومن الطبيعي أن تكون السفارات وكراً آخر لمحافل هذا الفساد. فلا تتردّد الحثالة القائمة على أوكار الأفاعي في حجمه المصغّر هذا في أن تتاجر بالمرضى الذين يتلقّون العلاج بالخارج، وبالوفود الرسمية، وبالتأشيرات، بل وتتاجر بالزملاء الدراويش أيضاً إذا سنحت الفرصة كما حدث مع شخصي عندما تلقّى أحد الزملاء «أتعاباً» لقاء إستئجار سكني الأوّل بسويسرا.

ذلك أن مفهوماً كالزّهد في حطام الدنيا هو العنقاء التي لا وجود لها في معجم مجتمع إغترب عن القيمة كما هو الحال مع مجتمعنا في تلك الأيام. فأن تقنع بالحدّ الأدنى المكفول بحرف المعاش الذي يقلّ عن حدّ الأجور الأدنى في بلد كسويسرا بأضعاف، هو ما لا يعترف به ناموس المرحلة، ويراه الكلّ غباءً ما بعده غباء. أمّا إذا ابتسم لك الحظّ وطرح لك في المتناول شريحة من الغنيمة ولم تنتهز الفرصة فتنتهش ما تيسّر، فأنت في العرف مجرم لا في حقّ نفسك أو في حقّ عائلتك وحسب، ولكن في الحقّ العام، لسببٍ بسيط وهو أن عقلية تلك الأيام ترفض الإعتراف بالمعاش كنصيب من الغنيمة الكبرى، وتعتبره بمثابة زكاة، أو ضريبة، مستخرجة لتشفع السطو لدى جلالة الوهّاب، أي أنه مجرّد قيمة رمزية تُدفع لتطهير الثروة كتعريفة التخليص الجمركي لتحصينها من غضب الله. أي أن

المعاش مجرّد حيلة من القائم على أمر الثروة تدفع كصدقة في مفهومها الديني.

ولكن لأهل الجهالة سجيّة فريدة وهي عدم التسامح حتّى مع الزهد، ربّما لأنهم لا يصدّقون، أو بالأصحّ، لا يؤمنون بوجود الزهد أصلاً. ولهذا السبب لابدّ أن يطغى في مياه نفوسهم لون الإناء فيختلقوا في حقّه الأكاذيب حتى لو حُرم حتى من حسنة المعاش (كما حدث مع العدوس سنوات الإقامة الثانية في موسكو وكما يحدث اليوم أيضاً بعد الثورة العفويّة المخذولة)، فكيف إذا تنازل وتقاضاها بحجّة خرافيّة في نظرهم كالتفرّغ الأدبي؟

أمّا أن يستجير الإنسان بالطبيعة الأمّ طلباً للإستشفاء من مرضٍ كان لأمثالهم، المنتمين لملّتهم، الفضل في بثّه في جسد ضحيّتهم، فهذا ما لن يعترفوا به أيضاً، لأن العلاج من العلل إمتيازٌ من حقّهم وحدهم كسلالة تعتبر الخارج وقفٌ عليها، وإلاّ لماذا سميت خارجيّة؟

يستطيع المبدع الشقيّ أن يغالب في هذه الحملة النزيفين (نزيف الروح ونزيف الجسد) لكي يستنطق المستحيل، ويستجوب الغيوب، لكي يبعث الحياة في واقعهم الميّت، ويستخرج من مجاهل التاريخ حقيقة وطنهم، لكي يترجم إلى العالم كلمتهم، ويستطيع العالم أن يحتفي بألمه، فتكتب وسائل الإعلام ما شاء لها أن تكتب، وبوسع دور النشر أن تتسابق في نشر الوصية، ويستطيع الباحثون من كل أجناس الأرض أن يستنبطوا الكنوز من الأعمال المنشورة في

الأبحاث العالمية، وتستطيع جامعات الدنيا ومدارسها أن تعتمد المتون في مناهجها الدراسيّة، وتستطيع لجان العالم العلمية أن تخلع على المريد جوائزها الأدبية والأوسمة الشرفية، ولكن كل هذا في حكم العدم في شرع أمّة الجهالة لأنها لا تعاني من غياب العقل أو الوجدان أو الروح وحسب، ولكنها مصابة بعلّة العلل وهي غياب الحواس. ذلك أن اللعنة المصاحبة للثالوث المنكر مركّبة أيضاً من أضلاع ثلاثة. في هذا البرزخ تدرك السيرة ذروتها لتكشف هذه الفئة عن نواياها الخبيئة (بل والخبيثة) لتكفر حتى بقدس أقداس هو الوطن الذي أطعم من جوعٍ وآمن من خوف، فتنازعه الخصام كعدوٍّ مبين!

فمَنْ منّا توقّع أن يكون التشوّه في هذا الجنين هو من سيفسد على الليبيين فرحتهم بالحرية بعد ذلك التاريخ بسنين؟

فما أهونك يا ظلم ذوي القربى على شخصٍ يعبر ليل العالم، عندما يكون الوطن رهين ظلم أناسٍ هم أبناء وطن، أو مَنْ يحسبون أنفسهم أبناء وطن؟!

Twitter: @alqareah

9

هل نغالي إذا قلنا، بعد كل هذا، أن الأيديولوجيا هي تجديفٌ في حقّ الوجود؟

فالواقع أن الأيديولوجيا لا تكتفي بأن تكون سمّ العلاقات الإنسانيّة، ولكنّها تأبى إلاّ أن تكون حفّار قبر الطبيعة، والعلّة لورم الوجود!

لاستجلاء حقيقة هذه الأمّة لن نحتاج إلاّ أن نستنطق الواقع في بعديه السماوي والأرضي. فمعبود هذه الجنيّة هو الحرف كما نعلم. ولهذا أنتجت المسوخ أينما حلّت.

يكفي أن نتأمّل ما فعلته بالإيمان كي نعلم الجرم الي اقترفته في حقّ السماء من خلال معزوفتها على أوتار قيثارة الحرف لتحبك من نسيج هذا النشاز نزعة التحريف التي قتلت الروح في الديانة ليغترب الله عن واقع الدين فتخلو الساحة لعبدة أوثان لا يستحون أن ينفوا البعد الأخلاقي في الدين ليستبدلوه بعبادة الأصنام في الشعائر. فالحرف لابدّ أن يجيز التحريف، والتحريف إذا استمرّ فلابدّ أن ينتهي بإباحة الكبائر، أي ما نسمّيه بلغة اليوم إرهاباً.

ولكن نفي الدين عن الدين ليس جناية الأيديولوجيا الوحيدة.

ذلك أن مسخ المسوخ هذا مخوقٌ يقاتل بثلاثة رؤوس مسمومة مثله مثل ميدوزا الأسطورية، وليس مصادفةً أن تكون الديانة أول ضحاياه، لأن بدون الإطاحة بعرش اللاهوت لن تفلح الحملة في الإطاحة بسلطان الناسوت. فبعد الإنتهاء من السماء لابدّ أن يتنازل المسخ ليتولّى أمر ما تحت قبّة السماء. ففحوى الأرض هي الطبيعة. والطبيعة أول أعداء الأيديولوجيا على الأرض. وليس لنا أن ننتظر أن يرحم الأرض من استهان بربّ الأرض ولم يتردّد في أن يدنّس السماوات. فالموقف الأيديولوجي من الطبيعة معادٍ بشطريه اليميني واليساري على حدٍّ سواء. وما فعلته الأيديولوجيا الرأسمالية بالطبيعة لن يقلّ بحال عن ما ارتكبته الأيديولوجيا الإشتراكية من آثام بدايةً بتدمير الغابات، ونهايةً بتسميم الصحاري بالإشعاعات النووية، مروراً بتلويث الأهوية، وسمّ الأغذية، والعبث بالثروات المائية في الأنهار بتلويث الاهوية، وسمّ الأغذية، والعبث بالثروات المائية والبحار، ومعاملة كل ما له علاقة بهذه الأمّ كأعدى عدوّ. ليس هذا وحسب، ولكن حملات الإستنزاف للثروات الطبيعية المستخرجة من أعماق الأرض أو من قيعان البحور، سباق نهم يفوق الخيال إذا ما قورن بما فعله بها إنسان ما قبل التاريخ الذي لم يسلم برغم ذلك من إستنكار أساطين الحكمة. والشهادة يضعها بين أيدينا بلينوس الأكبر في كتابه الثالث والثلاثين من «التاريخ الطبيعي» في هذا النصّ المبتسر: «لم نترك عرقاً واحداً من عروق الأرض دون أن نستبيحه بحثاً عن ذهبٍ أو فضّةٍ أو حديد (الذي أصبح بفضل الحروب أنفس

قيمة حتى من الذهب) ثمّ نستنكر بعد كل هذا أن تتصدّع هذه الوالدة المقدّسة أو تهتزّ أحياناً إحتجاجاً على ما نفعله بها، كأنّها بخلت علينا يوماً بما تهبه لنا طوعاً حيثما حللنا!» ثم يتساءل: ما ضرّنا لو اكتفينا بهذا النصيب السخيّ الذي تقدّمه لنا عن طيب خاطر بدل إغتصاب ما أخفته عنّا بعيداً في الأسافل، وكم سنكون سعداء فيما لو اكتفينا وقمعنا في نفوسنا الجشع واكتفينا بهذا النصيب السخيّ الذي تهبه لنا بالمجّان!

لا أدري ماذا سيقول حكيم غيور على الطبيعة ورائد في التنبيه إلى الكارثة البيئية مثل بلينوس الأكبر فيما لو قدّر له أن يكون شاهداً ولو للحظة على ما ينال الطبيعة اليوم على أيدي أبنائها الأشقياء؟ اليقين أنه سوف يتمنّى لو لم يولد، وإذا وُلد سوف يطلب الموت بأسرع وقت ممكن! فهل اكتفى إنسان هذا الزمان بحملات قطع دابر طبيعة هي في الواقع أمّه الرؤوم؟

لم يكتفِ هذا الإنسان بنيل الأجنّة السريّة المخفيّة في بطن أمّنا الأرض غصباً، ولكنّه اقترف خطيئة أخرى في حقّ هذه الأمّ عندما استخفّ بالثروات المغتصبة على نحوٍ أمات الروح في هذا النزيف ليأكل بذلك خبزه ميّتاً!

ولكن غول الأيديولوجيا لم يهنأ بكل هذا التجديف. وها هو يوجّه طعنة مميتة أخرى لقلب الجنس البشري بفعل تغريب القيم، ليغيّب بذلك آخر أمل في وجود المعنى في سيرة وجودٍ بلا معنى. فهل حقّق هذا الغول السعادة لإنسان الزمان، أو الحرية التي لا يملّ

Twitter: @alqareah

من التشدّق بها؟ كلاّ بالطبع. فالسعادة ليست في أن ننال، ولكن السعادة في أن نتخلّى عمّا ننال. والحرية إذا كانت في غياب الطبيعة، أو غيابنا عن الطبيعة، في حدودها القصوى، فلن يكون لها وجود إلاّ بالتصالح مع الطبيعة بمعاهدة عدم إعتداء.

فبعد اغتيال الحسّ الأخلاقي، تجهز الأيديولوجيا على حسّ إنسان الزمان الجمالي أيضاً كنتيجة طبيعية لحملات التنكيل بطبيعة كانت المبدع لحرم الجمال. بهذا يكتمل صنيع الأيديولوجيا البشع، فلا نستهجن بعد هذا أن يغترب الإنسان عن حقيقته كإنسان لينصّب مهندس المسوخ هذا ربّاً على الأرض بديلاً لربّ السماوات والأرض.

Twitter: @alqareah

10

حمّى العَدْو في سيرة العدوس حمّى صقيع. فعندما أستعرض اليوم جراح الصقيع التي اختطّها هذا المارد في الجسد الهشّ، المكبّل بالعلل منذ الطفولة، فليس لي إلاّ أن أستعطف الذاكرة لتسرّ لي بما فعله بي الصقيع سنوات تكوين كانت له وطناً تلك الصحراء الرومانسية التي تتسلّق ظهر جبل نفوسة في امتدادها إلى الجنوب الغربي المسمّى في لغة القوم «تينغرت». وهو المقام الذي استزرع في روح إبن المهد غراماً غيبيّاً بالجبال، فحطّ على شعافها أينما حلّ طوال سفره في صحراء الوجود تالياً: قارة أم الواحات سبها، ثمّ جبال فوربيوف بموسكو، سواء في الحملتين الأولى أو الثانية، ثم جبال الألب السويسري.

في امتداد جبال نفوسة العارية، القاسية، المصبوغة بلون الدمّ الذي لم يبخل به الأسلاف في الدفاع عن حرمها المهيب بوصفها وطن تكوين، كانت القبائل تتسابق للإستجارة بها مع حلول موسم الأمطار في الشتاء لحيازة موقع قدم يكفل النصيب من الكلأ عند مطلع الربيع. تبدأ الهجرة من وادي آوال الأسطوري (المبلبل برطانات الجن، والحافل بالنجوع والأشباح وآبار المياه وأضرحة

Twitter: @alqareah

الدهور وبقايا الحيوانات الإستوائية المنقرضة كالصلول والضباع وبنات آوى). تبدأ الهجرة مع إطلالة الخريف وانحسار حرّة القيظ التي تجعل من الإقامة في الأعالي جحيماً لا يحتمل في فصل الصيف، فتتخلّى عن فراديس القمم لترتضي أحاضيض الوادي وطناً أهون حرّاً طوال الأصياف.

هذه الحمادة المرويّة بنزيف الأجيال استأصلت من قلب العدوس كل الذكريات الأخرى، ومحت من الوجدان كل أثر، إلى الحد الذي صارت فيه الحمولة الوحيدة في خزنة الطفولة كلّها. وأمّا الإنطباع الذي خلّفتْه في قيعان الذاكرة فهو: الصقيع!

فهي البقعة الإستثناء في مناخ الصحراء الكبرى الذي لم يوصف بـ«القارّي» في الكتب إلاّ بسبب هذا الإستثناء. فهنا فقط تجود السماء بالثلوج في بعض مواسم الشتاء. وهو ما يعني أن المكان هو برزخ النقيضين (الحرّ والقرّ) في أكثر أجناسها تطرّفاً. ففي الوقت الذي سُجّلت فيه أعلى درجة حرارة في العالم في 1923 أسفل هذه السلسلة وهي 58 درجة في الظلّ، سجّلت أعالي السلسلة أعلى درجات الصقيع في البلاد في مواسم الشتاء. وأوّل مشهد لهيمنة الكفن الناصع على الأرض الدامية اللون إنّما صدم العدوس في هذا المكان لأول مرّة قبل أن تطير به الأقدار لترمي به في أحضان شمال الأرض حيث يهيمن الجليد. فمنذ زمن الوعي الأوّل وشبح الثلج هو سيّد الموقف في حياة الطريد. وعلّ تجربة الضياع التي استيقظ فيها التائه لتومض في عينيه الستور المجلّلة بالبياض لم تكن سوى تدشيناً

Twitter: @alqareah

لقدرٍ سوف يصير في سيرة العابر نبوءةً، كما صار له التّيه منذ ذلك التاريخ قدراً.

في وطن الرؤى السماوية هذا تهوي الأمطار بغزارة في نهايات الخريف فلا يعلق في الذاكرة سوى بصمة الرطوبات السخيّة المصاحبة لرياح شمال باردة في أرضٍ حجريّة صارمة خالية من الأحطاب التي تُستجلب عادةً من الوديان السفلية النائية، فنعدم الحيلة في قدح زند ما من شأنه أن يشعل دفئاً في واقع الصقيع الطاغي لأناسٍ لا يسترون أبدانهم بغير ثيابٍ فضفاضة هي أسمال بمنطق القيافة، حتّى إذا تمادى الشتاء، وفاضت الوديان بالسيول، تدافع القوم لاعتلاء هامات المرتفعات فراراً من الغرق، انهالت الغيوث على الوجوه بالصفع الموجع في قلب عراء لا يرحم لا تجدي في إبطال مفعوله حتّى الأعواد الهشّة التي اعتدات الأمهات إخفائها في أكمام ثيابهن خوفاً من البلل، لأن سخاء السماء يغرقها في الغمر فتستعصي على سلطان الزند. وهكذا تنطبع في مخيال الذاكرة الآية التي تستقرّ كبصمة التكوين الوجدانية المبثوثة في لحون القوم الشجيّة: طفولة تقف في عراء مغمور بالغمر، ترتجف فرقاً مثل كتكوت الطير، من فرط صقيع ينتحل في الكون صلاحيات ربّ الكون.

في البدء، إذاً، كان الصقيع. وما لم يخطر على البال أن يصير الصقيع قدر المطاف كلّه، وربّما القدر المخوّل بنسج خاتمة المطاف أيضاً.

ففي حصن أم الواحات سبق في المكان حضور الصقيع، وفي

Twitter: @alqareah

موسكو كان شبح الصقيع ينتظر ليضع تاج التدشين على رأس طريد الأوطان ومريد المنافي كأنه شعار عرش، وليس صليب قصاص.

فهل سيرة العَدْو المستميت (بل والمميت) في صحراء هذا العالم ما هي إلاّ استبسال في حركة هي الحيلة الوحيدة في بعث الدفء في الجسد، وإنتاج الطاقة اللازمة لتغذية الحلم الحميم؟ ألا تبدو مغامرة وارسو احتكاماً آخر إلى ساحة العَدْو، والعودة الثانية إلى موسكو والإحتماء بجبال فوروبيوفو، إصراراً ثالث للبرهنة على الوصية القائلة بأننا لا ننجو إلاّ بما نخاف، كما لا نهلك إلاّ بما نهوى؟

الواقع أن الإلتزام الحقيقي بهذه الوصيّة لم يتحقّق كما تحقّق في مرحلة سويسرا، أي الحلول في أرض الجليد: جبال الألب! فالمفارقة أن يكون الطمع في الشفاء من داء سبّبه غياب النقاوة في الأهوية، وهو ما قادني للحلول ضيفاً على جناب الألب، دون أن أدري أني أستعير لنفسي دوراً في رواية توماس مانّ «الجبل السحري» الذي يقصده مرضى الجهاز التنفّسي فيضاعف أمراضهم، بدل أن يشفي أمراضهم. فالجبال بطبيعتها بلسم بنقاء الهواء، ولكنها أيضاً داء بالصقيع المبثوث في الهواء.

ولكن الروح التي تهفو إلى البعد المفقود لا تتراجع في حملتها على السماء حتى لو انتظرتها هناك الحتوف، لأن هذه القمم الغامضة التي كانت لهذه الروح الظامئة لارتياد المجهول دوماً فتنةً، لم تكن مجرّد مسقط رأس، ولكن هويّتها كوطن تكوين هو ما يستنزل فيها البعد الميثولوجي الذي ينفي الموت المرابط في الغيوب ليبعث خلوداً وراء الغيوم.

Twitter: @alqareah

11

ولكن هل بوسع عدوس الأبد أن يطمع في الركون إلى الخلوة واستنشاق أنفاس الحرية في طبيعة الفردوس السويسري أخيراً؟

كان ممكناً أن يتحقّق الحلم فيما لو وُفّق العدوس في التنصّل من بليّة وجودية إسمها العائلة، سيّما عندما تكون المرأة رأس الأفعى في هذا العشّ المزعوم. وعبثاً حاولت طوال هذه السنوات أن أعزّي نفسي بأداء الواجب نحو أناسٍ لم أتخيّل أن يأتي اليوم الذي سيتحوّل فيه هذا الثالوث (المتمثّل في الأمّ وسليليها) أشرّ أعداء لا لشيء إلاّ لأنّي لم أتخلّق بأخلاق الصقالبة فأقطع دابر هؤلاء من حياتي منذ اليوم الذي أعيتني فيه الحيلة في الإبقاء على اللغة المشتركة مع القرينة، فآثرتُ الإبتعاد لا تنصّلاً من واجبٍ كان لي دوماً هاجساً مرضياً، ولكن لتسيير دفّة القارب عن بُعْد بعد أن أعجزني تولّي أمره عن قرب، ناسياً أن المرأة لن ترى في الإبتعاد حلاًّ مناسباً حتّى لو كفاها شرور القتال، ولكن عقليّتها تقرأ فيه إهانة لا تُغتفر، لأنه في يقينها هجر. ومن الطبيعي أن تستنكر المرأة أن يكون الرجل هو الذي يهجرها وهي التي يقول لسان حالها عندما يهجرها رجلها: «لقد

Twitter: @alqareah

طردته!»، وتقول عندما يطردها: «لقد هجرته!». ولا جدى من محاولة تصويب هذا المنطق المقلوب لا في اللغة وحسب، ولكن في المسلك أيضاً. فهي لن تهجر رجلاً إذا أوحى لها الحدس أنه ينتوي أن يهجرها، ربّما من باب النكاية، لأن دين المرأة في الصفقة مع الرجل أن تتسلّط لا أن تتنازل لتسعد كما نتوهّم. فإذا انتصر الرجل للحرية فهو عدوّ، وهي تعمل كل ما بالوسع كي تفسد عليه هذه الحرية طمعاً في أن تعيده إلى سجونها. وعندما اشتكت السيدة يانينا مراراً من هوس العدوس بهذا العدوّ (الحرية)، فلم يكن هذا التصريح سوى البيان الصريح بإعلان الحرب في الواقع. فكم ضرّها، منذ ذلك اليوم، أن أخلو لنفسي في مدينة أخرى كموسكو، أو بلد آخر كسويسرا، لأتفرّغ لمداواة جراحي التي لعبتْ دور البطولة في جلّها، أو لأتأمّل أحزاني في عزلة الطبيعة، لأن الطبيعة هنا، أو العزلة، لا تعود مجرّد ضرّة فقط، ولكنها جنّة الرجل بقدر ما هي جحيم المرأة، ومهمّتها الميتافيزيقية العمل على طرد الرجل من هذه الجنّة استجابةً لنداء الجينات الموروثة عن حوّاء!

ولهذا لم تتوقّف غزوات تسميم وجودي طوال سنوات فراري بشتّى الحيل، ولم تكتفِ بهذا، ولكنّها سخّرت مواهبها، المكتسبة من الصفقة القديمة مع إبليس، فنفثتِ هذه السموم في نفوس الروحين البريئتين لتربّي فيهما عداوة المهد ضدّ الأبّ كعادة كل بنات جنسها الظامئات بالسليقة إلى الإنتقام حتى لو لم يوجد مبرّر حقيقي للإنتقام. ولم تكن هذه النزعة ما يمكن أن يفاجيء الإنسان الذي لم

يعتد في حياته سوى الإنكار كما هو الحال مع العدوس، لأن هذا النصل لم يكن سوى إضافة للخنجر القديم المغروس حتى المقبض في قلب ظل ينزف روحياً وجسدياً طوال عقود بسبب هذه العلاقة المشئومة. ذلك أن السّر كله في هذا الفخ الشرير الذي نسميه علاقة. فأي علاقة هي شرك، فكيف إذا كانت العلاقة مع إمرأة؟ فالخرافة بأن وراء كل رجل عظيم امرأة لا تصدق إلا في حال وجود المرأة التي أخفقت في أن تبقى في طريق الرجل حجر عثرة، لا المرأة التي نتخيل أنها قادرة على أن تكون في مسيرة الرجل عوناً. كما تريد هذه الوصية البلهاء أن تقنعنا.

فالواقع أن العلاقة هي شرٌّ بالمبدأ، لا بالنسبة. ذلك أننا يجب أن نكون في شكّ من قيمة أي عمل لم نحققه بالحرية. والعلاقة، أي علاقة، هي عدو حرية شئنا أم تجاهلنا، فإذا كانت مع امرأة فالخطر يتضاعف. لا أنوي الذهاب بعيداً فاستشهد بالحكيم القائل بأن المرأة كلها شرّ، ولا تصير خيراً إلا مرتين: مرة في مخدع العشق، ومرة على فراش الموت، ليقيني بأنها لا تصير خيراً، في دين مريد الحرية، لا في مخدع العشق، ولا على فراش الموت، لأن المخدع ساحة حسّ، والموت سبب فَقد. أي أنهما على نحوٍ ما علاقة أيضاً. ولهذا لا نجاة إلا بترياق نابليون: الفرار!

إنها الوصية التي اعتنقها كيركيغور عندما قرر أن يحرق سفنه ويتفرغ لله فتخلى عن أحب ما في الوجود وهو مخطوبته ريجينا أولسن دون كلمة وداع، ودون إيضاح الأسباب وسط إستنكار كل

Twitter: @alqareah

الأوساط، معتمداً شفيعاً واحداً ترجمه بمسلكه بلسان الحال لا بعضلة اللسان يقول: «أحببتك أكثر من كل شيء في الدنيا، ولكني وجدتُ نفسي مضطرّاً لأن أنسحب بعد أن اكتشفت أنّي أحبّ الله أكثر!».

وهي تجربة سبقه إليها دانتي في الموقف مع بياتريس، وكأنّ هذين الشهيدين يريدان أن يقولا للإنسانية (كما قال الأنبياء من قبلهم) أن الحقيقة لا تُنال بدون القبول بهويّة الشهيد!

فالمرأة ليست شركاً لأنها شهية للنظر أو لفتنة الجسد، ولكن لأنها معقل رهانها الخالد: الذريّة! والذريّة حجر الزاوية لعقبة أي صاحب قضيّة وجودية، لأن صاحب العيال لا يفلح كما يوصي سفيان بن عُيينة وهو يتمثّل بقطّته التي لم تكشف القدور لتسرق إلاّ بعد أن أتت إلى الدنيا بتلك السلالة التي قدّر لها أن تصير في صفقة الكينونة طرفاً ثالث يوهم القرينين بهويّة توحّدهما، في حين يتربّص بهما لينفيهما من الوجود كليهما. ففي الأبناء يكمن فناء الآباء. لا ينتظر الأبناء أن تتولّى الطبيعة تنفيذ بنود هذا المرسوم، ولكنهم يبادرون بانتحال هذا الدور منذ أول يوم لوجودهم. يبدأون في حفر قبور الآباء مبكّراً. يفقد الأبوان صوابهم منذ لحظة ميلاد الملّة. فإذا لم تفتك بهم الوساوس التي كانوا سبباً في وجودها، فتكت بهم الأمراض الناتجة عن الهموم. فإذا لم تعجّل الأمراض والهموم بغيابهما، فعلوا كل ما بالوسع كي تعجّل الطبيعة كي تكفيهما شرّهما. فإن تباطأت الطبيعة في محوهما، فلن يتردّدوا في تولّي أمرهما.

Twitter: @alqareah

والأب في الخطّة الأزلية يرد دوماً على رأس القائمة بالمقارنة مع الأمّ كما تبرهن التجربة البشرية. الأب يدفع ثمن الخطيئة الأبدية المدبّرة بهوى الضلع الملعون أوّلاً. فكلّ الآباء ينتظرون جني فاكهة عملهم لينالوا قصاصاً اختزلت الإنسانية أمثولته في سيرة أوديب أو هاملت أو إيفان كارامازوف الذي لقّن القتل أخاه اللاشرعي سميردياكوف لتكون جريمة قتل الأب بيد هذا النغل، لأن الدرس يقول أن الأبناء بالروح أنغال لا يشتهون شيئاً في وجودهم كما يشتهون قتل الآباء!

ثم يأتي بعد هذا من يحاول أن يقنعنا بأن نعوّل على وجود الأبناء بوصفهم أخلاف الآباء الذين سيرثون الأرض، ناسين أن لا سوفوكليس، ولا شكسبير، ولا دوستويفسكي، رأى أن يختلق هذا النموذج، ولكن كل ما فعله هؤلاء الكهنة العظام هو استنطاق المكبوت البشري المبثوث في لا وعي **البنوّة** الظامئة بطبيعتها للفتك **بالأبوّة!**

وهو قصاصٌ ليس لنا كآباء أن ننكره على الأبناء لأننا وجودياً مذنبون في حقّهم إذا كنّا السبب في وضعهم قيد الوجود مادام الوجود هو الإثم الذي ندفع الموت له ثمناً. وهو ما يعني أن الأبناء إنّما يؤدّون واجباً مفروضاً بحرف الديانات السماوية عندما يجهزون على الآباء!

Twitter: @alqareah

12

من هنا كان الإحساس بوجوب التدخّل الجراحي لاستئصال علاقة صارت ورم الروح قبل أن تكون ورم الجسد، لو لم يتدخّل قاضي آخر هو الواجب، فيحكم بوقف التنفيذ. وهو ما صيّر الخلاص قدراً مؤجّلاً في حياة إنسانٍ لم يكن ليقبل بالعبور ديناً لولا هوسه بمبدأ إعتنقه دوماً كقدس أقداس، وهو: الحرية!

حرية ليس لها أن تتجاهل الواجب في سيرورتها سواءً في بُعْد الوطن، أو في بعد القبيلة، أو في بُعْد العائلة (العائلة بشقّيها المكبّر والمصغّر). يحدث هذا في ظلّ تفاقم الوضع الصحّي، وهيمنة شبح الإضطهاد بالداخل، المتزامن مع حصار الإغتراب في الخارج، في ظلّ غياب الحيلة في عالمٍ يعادي حتى أبناءه، فكيف بأغرابٍ لا يعترف بهم أصلاً، لأن لا وجود في قوانينه لتعريفٍ لهم فكيف بوجود بنود يمكن أن تعترف لهم بحقوق؟

في هذا الوضع الذي يستحيل فيه الواقع لا واقعاً لا يكتفي عمل كإعالة العائلة في بعدها المصغّر بأن يكون واجباً وحسب، ولكنه يستحيل بطولةً، سيّما إذا كانت هذه الإعالة تعتمد ناموس القوْت النزيه في زمنٍ لا يقنع فيه أحد بالحسَنة الرمزية الملقّبة في معاجم

Twitter: @alqareah

الأنظمة الإشتراكية (أو الشمولية) بـ«الراتب» حيث يمارس الكل أعمالاً جانبية يفرزها إقتصاد الظلّ في تلك الدول. وبرغم كل هذا يبقى الجانب الروتيني في المعادلة هو البليّة الأكثر تعقيداً. فواقع قران مخلوقين بشريّين يحملان هويّتين مختلفتين في عرف نظامين سياسيين لا يعدّ في نظر قوانين البلدين المعنيّين إعترافاً قانونياً بعلاقة إنسانية، لأن هذا البُعْد في وثيقة القران هو الجانب الغائب فعلياً في دساتير الأمم، ولهذا يعامل في الروتين السائد كاستثناء، أو كخطيئة مّا تستدعي البحث لها عن حلول خارج حرف القانون، ممّا يعرّض الطرفين للمساءلة في عرف الروتين، والوقوع ضحية ما يسمّى في العلاقات الدولية بـ«نزاع القوانين» الذي إذا كان سيتساهل بشأن الصفقات التجارية، أو العلاقات السياسية، بيد أنه سيستأسد في شأن العلاقات الإنسانية المغتربة بطبيعتها، والهشّة بسبب عزلتها. فإذا حدث وانتقل حاملا الهويّتين المختلفتين إلى بلدٍ ثالث (كما هو الحال مع العدوس) فإن المعادلة سوف تتركّب على نحوٍ معجز، لأن قران هويّتين مختلفتين إذا كان استثناءً منكراً في الأعراف السائدة، فإن إضافة هذا الضلع الثالث إلى المعادلة سوف يُعتبر تحدّياً لا للقوانين المعتمدة فقط، ولكن تحدّياً لسياسات الدول يرتقي إلى مستوى التدخّل في الشئون الداخليّة. فإذا اجتزنا بهذه الشراكة الحدود وعبرنا ما وراء الستار الحديدي، فإن معاملة هذه الحالة سيستدعي نقل الأمر من خانة الروتين الإداري إلى خانة أسوأ ألف مرّة وهي خانة الروتين السياسي الذي سيتطلّب رأي اللجنة المركزيّة، وكهنة

الـKGB، وغيرهم، في كل ما له صله بتسيير دفّة القرينين الدنيوية بدايةً بتأشيرات الدخول والخروج ونهايةً بالإقامة، مروراً باستخراج جوازات السفر، أو تجديدها، أو بالأدغال الرهيبة الأخرى التي سيستحدثها ميلاد الأبناء.. إلى آخر هذه الملحمة المميتة التي اكتوى العدوس بنارها طوال سنوات تنقّله بين ليبيا وروسيا وبولندا وسويسرا. فهل إعترف له الطرف الآخر بالإحسان لقاء هذا الجحيم ولو مرّة؟

كلّا، بالطبع. فالإعتراف بالجميل هو ما لا وجود له في عرف العدوس، لأن ما أراده هو السلام وليس الإعتراف بالجميل. ذلك أن مريد الواجب وحده لا يحسب للإعتراف بالإحسان حساباً، لأنه وحده ما يهوّن التضحيات، ويبطل مفعول الرذيلة الإنسانية الشائعة كنكران الإحسان. ولكن ما لا يحتمل في معاندة صخرة سيزيف الروتينية المذكورة هو روح العداء الذي يتصاعد في خطاب الطرف الآخر ليتناسب طردياً مع كل تضحية جديدة. نبرة تتحوّل تدريجيّاً إلى موقف يتبنّى جبهة لتنفيذ الطعن وراء الظهر على نحوٍ يتزامن بالذات كلّما اشتدّ وطيس الحرب الدائرة مع جبهة الخارج. وهو ما أعجزني دوماً في إيجاد تفسير لمثل هذه الحملات الجنونية، ولم أملك في كل مرّة إلاّ أن أغفر. غفرت، ثم غفرت، وعندما أعجزني الغفران، هاجرت إلى بلدان أبعد علّ الحدود الدولية تفلح في صدّ العدوان، أو تخفّف على الأقل من وقع السهام!

ولكن... عبثاً! فسهام المرأة هي ما لا تفلح في صدّه المسافات ولا الحدود. لم يعد للغفران معنى عندما لا يكون للغفران سلطة.

تغافلت، تجاهلت، تغافرت، ثم لم أجد مفرّاً من الإحتكام إلى التدخّل الجراحي لاستئصال الورم!

في أحد أيام 1995 تنفّست الصعداء ظنّاً منّي أنّي نجوت بجلدي. ولكن هيهات، لأنّي إذا كنت قد تحرّرت من كابوس كتم أنفاسي بحرف القوانين الوضعية، فإنّي لم أكن لأستطيع أن أتنصّل من المسئولية الأخلاقية في العلاقة بالشقّ الآخر بحمولته المنتجة بالصفقة الملغيّة الصلاحيّة، فيما تعلّق بتسيير شئون دنياه الملتبسة، المترتّبة عن ازدواج الهويّة، أو فيما تعلّق بتوفير الحاجات المعيشيّة. ذلك أن القنطروس الجريح عرف كيف يلاحق الخصم بسهامه المميتة الملوّثة بدم الميدوزا المسموم التي استودعها روح الذرّية الشقيّة لينال من مريد الحرية بيد هؤلاء الأعداء الذين يتنكّرون في أجرام الأبناء لكي ينوبوا عنها في استكمال حملة ذلك النوع من الكيد الذي كان دوماً هبة المرأة وحدها وهو: عبقرية تحويل الحسنات على سيّئات، ممسوسةً بسبب فشلها في تطويع مَنْ ظنّت انها تستطيع أن تخلق منه عبداً، فإذا به يخذلها بانتصاره لضرّتها اللّدودة الحرية، لأن هاجس الربّ في قلبه أقوى. وها هي شروط ملحمة الدفاع عن النفس تتصاعد لتدرك الطور الذي يندفع فيه أبطال جدد إلى الساحة ينتحلون هذه المرّة هويّة أقرب ذوي قربى ليكون لها الفضل في إلهام العدوس عمل درامي هو: «من أنت أيُّها الملاك؟» بعد سنوات. وهو ما يعني أن جريمة قتل الأب **الحرفيّة** ليست دائماً الجريمة الأبشع في التاريخ، لأن جريمة قتل الأب **الرمزيّة** كثيراً ما تكون الأبشع على الإطلاق.

Twitter: @alqareah

13

هل يُعقل أن تستوي السيرة بدون أن نخلي المجال للّحون كي تقول كلمتها، سيّما وأنها بطل في المسرحية برغم هويّة البطل الخفيّة؟

تاريخ العلاقة مع الموسيقى يرجع إلى الطفولة المبكّرة عندما كان جبل نفوسة أرجوحة المهد وأنفاس الطبيعة (سواء جنسها البارد الذي يهبّ من الشمال، أو أنفاسها الأخرى، النارية، التي تهبّ من الجنوب) تعصف بها لتعزف في أشجار البريّة لحونها الشجيّة مستخدمةً أعراف الرتم، أو أنصاب الحجارة، أوتاراً في السيمفونية. في هذه الأنساق الغنائية، المشفوعة بروح الطبيعة الأمّ، تخفّى شجنٌ مبهمٌ يحتفي باللغز ببُعديَه: كوجود فانٍ، وكحضورٍ غامض لابدّ أن يحتفرا وسماً في أي وجدانٍ بتول. وأحسب أن جذور هيامي الميتافيزيائي بما راقني أن أنعته بـ البعد المفقود إنّما ينهل من هذا النبع الوجداني المبكّر. فالنبوءة التي تخبر بها الموسيقى لم تكن لتنال على أرواحنا هذا السلطان القاهر لو أوتينا القدرة على ترجمتها إلى اللغة. ورسالتها الألوهيّة المستحيلة إنّما تكمن في هذا الإعجاز. إنها رسول الحقيقة الشرعي، لأن الحقيقة هي ما يتملّكنا فنسلّم بوجوده، ولكن هيهات أن نفلح في التعبير عن حقيقة حضور قيد الوجود.

ففي الليالي الشتوية الطويلة تودِعنا الأمّ فراشنا مبكّراً فلا أجد أنيساً

Twitter: @alqareah

أقصّر به عمر هذه الليالي سوى معزوفة الريح في فروة أشجار الرتم، فلا أملك إلاّ أن أذهب بأحلامي صحبة الأناشيد في رحلة وجديّة تقودني بعيداً، فلا تقنع بالمثول بين يديّ الله، ولكنها تتمادى فتجدّف في حقّ الإله عندما تطرح على ذي الجلال السؤال عن ماهيّة الإله.

هذه الأحلام ذات النزعة الآثمة هي ما زاوج في الوجدان الهشّ بين معبودين إثنين! الروح الغنائية الرومانسية بالنَّفس التراجيدي الأبيّ، بحيث يبقى الهوس بواقع وجودي شعري بمثابة تسليم بوجود الله، في وقتٍ تترجم فيه التراجيديا سؤال المعنى في عالم لا يعود أحسن العوالم بغياب هذا المعنى.

إنها بذار الجدل المبكّر الجديرة بأن تكون نواة كل تكوين، برغم أن المدهش هنا هو أن تلعب اللحون دور الرسول الذي أوحى بها، أو الدليل الذي قاد إليها.

والواقع أن الدهشة سوف تتبدّد إذا تأمّلنا رسالة الموسيقى في حياة إنسان الصحراء الكبرى، حيث لا تكتفي الترنيمة بأن تكون باعثاً على بهجة تبدّد همّ اليوم، ولكنها تميمة تحرّر من شرك الوجود. وعلّ طقوس الوَجْد، كحيل خلاص من أشراك الواقع، هي البرهان على سلطة الموسيقى في تحقيق الحرية في عالمٍ مغلولٍ بالنثر الركيك! وأحسب أن هذا هو سبب مراسم القداسة التي يعامل بها أهل هذه القارّة اللحون وأولئك الذين برعوا في اللحون إلى الحدّ الذي حرّم فيه كهنة القوم منذ القدم تحوير الأنساق الغنائية الرئيسية مثلهم في ذلك مثل دهاة الإسبارطيين. وهو تحريم لم يُسنّ تلبيةً لنزوة، أو استجابةً لمزاج، ولكنه ذو جذور دينية عميقة في البُنية

Twitter: @alqareah

الإجتماعية. فالغناء لم يوجد لإشباع الجوع إلى الطرب كما هو حالنا اليوم، ولكنه وُلد كأنين حنين إلى الله. أي أنه ابتهال، أو فلنقل، **صلاة**. صلاة نفس موسوسة بالضياع، ولا ترياق لها إلا بالحضور بين يدي الله. هذا الحضور الذي لا يتحقق بدون نزيف روحي يقطع في الرحلة الوجدانية درجات عصيّة قبل أن يطمع بالرؤية التي لا تضيق حدود العبارة وحسب، ولكنها تعطّل مفعول العبارة، بل تنفي العبارة، فتغترب الحدود، ويحدث التماهي الموصوف في لغة التصوف بـ«**الوَجْد**».

إنها تجربة شعرية تختزل تجارب الديانات الإستسرارية التي تترجم هذه الرحلة ذاتها على مستوى تجريبي يخضع فيه المريد لامتحانات عسيرة قبل أن يُتوج كشيخ طريقة.

هذه الرسالة المبثوثة في صوت الموسيقى هي ما أحاط أهل الغناء بالقداسة في مجتمع الصحراء الكبرى، لأنهم في العرف هم الأوصياء على روح الأمة. هذه الروح التي لا وجود لها خارج اللحن الموسيقي. بل الموسيقى ليست خزنة روح الأمة وحسب، ولكنها القمقم الحافظ لتاريخ الأمة أيضاً، لأن اللحن الذي نسمعه اليوم هو النغم المشحون بروح السلف أيضاً بفضل تحريم تغيير أنساق اللحون المعتمد في حياة القوم كناموس لا يختلف عن الناموس الشائع «آنهي»، وربّما اللحون ما هي إلاّ الترجمة المعنوية لحرفه الضائع.

ولهذا السبب نفهم لماذا يحثّ حكماء قبائل هذه القارّة النساء على الجود بأنغام الآلة الوتريّة الوحيدة المسمّاة «إيمزاد» على الرجال، لأن أنين الأوتار سيربي في الأجيال الإحساس بالنبل،

Twitter: @alqareah

ويُبقي على روح الفروسية في نفوسهم حيةً. ولم يكن العدوس ليقبل الإستثناء في شأن هذه الوصية وهو الذي طاف الدنيا حاملاً في عبّه الأشرطة الحاملة لفحوى الرسالة، تماماً كما حمل الألحان الصحراوية في وجدانه إلى جانب متاعه. لم أتهاون يوماً مع كل ما له صلة بالموسيقى منذ خروجي من وطن الرؤى السماوية ونزول الواحات حيث تلتئم الصبايا في المناسبات ليعزفن في العراء نزيف الأجيال في أوتار الحنين، فتزداد العضلة المسمومة عجزاً عن القول، وترتّل الروح آيات الوجد في صمت. ويجب أن أعترف كم كان الأسلاف حكماء عندما أوصوا النساء كي يتحفن جنسنا الطائش باللحون كي تروّض جنوننا، وتشعل في أبداننا نار الهمّ الكينوني كبرهان رجولة.

فالإنسان الذي قرأ لوح الطبيعة مبكّراً وحده لن يعجز في أن يكتشف نغماً في كل حرف وضعته الطبيعة في طريقنا. فالنجوم في السماء ملحمة شعرية، والكائنات على الأرض سيمفونية وجودية، والجماد أبياتٌ شعرية، والريح في الأشجار لحونٌ أبديّة، والحنين في قلب المريد ترنيمة ألوهية.

وأعتقد أن الهوس الدائم باللحون لابدّ أن ينتهي بتربية وجدان أيقاع. وترويض الإيقاع هو ساعد أيمن في بعث **الحسّ الشعري**، لا في العلاقة مع اللغة وحسب، ولكن في العلاقة مع الآخر أيضاً. فاستحضار الروح الشعرية في الحوار مع البعد الإنساني الآخر هو شهادة على استحضار الله في هذا الحوار، قبل أن يكون شهادة على استحضار الجمال كحجّة على متعة.

لقد فتنتني موسيقى الأمم عموماً، القديمة تخصيصاً. نغمٌ فاتنٌ مجبولٌ بحنينٍ مجهول يسكن لحون الصين القديمة، ولهفة حزينة في الأغاني الشعبية الروسيّة والأوكرانية، وهمٌّ غيبي في لحون المرزكاوي مستعارٌ يقيناً من اغتراب إنسان الصحراء قبل أن يتماهى في الواحات مع الحنين العربي والإفريقي المحمولين إلى هناك على ظهور القوافل.

ولكن العلاقة مع الموسيقى الكلاسيكية وحدها لم تكن لتكتمل قبل وساطة تلك التقنية التي لم تكن لتُكتسب لولا تدخّل الميلاد الثاني، لأن هذا النوع من الموسيقى هو الآله الذي لا يتنازل عن عرشه لينزل أرضاً ما لم تتطهّر بمحاريث الزهد، وتُفلح بسكك التخلّي، لتسكنها الروح الخاوية. وهي تجربة بدأت في وارسو، وتواصلت في موسكو، وبلغت الذروة بجوار قمم الألب بسويسرا.

في وارسو كان المخاض، وفي موسكو تمَ طرد كل أجهزة التشويش من تلفزيون وفيديو وحتى التلفون من البيت لتفسح المجال لصوت الموسيقى الإلهية المنبعث من راديو يموت مؤشّره على إذاعة موسكو الخاصّة بالموسيقى الكلاسيكية، فلا يبرحه للبحث عن أي محطّة دنيوية. نظامٌ صارم حقّق للعدوس رحيلاً يومياً جليلاً أبعد من العوالم الفلكية التي نصّبها أفلاطون وطناً للموسيقى الأوّلية، لأن اللغز الذي يسكننا أبعد منالاً حتى من الأفلاك السماوية، برغم أنه أقرب لنا من حبل الوريد فيما إذا غيّرنا ما بأنفسنا (الذي لن يعني هنا سوى قتل ما بأنفسنا) لنبعث فينا الإنسان الجدير باستجوابه!

القسم الرابع

شطآن إيثاكا

«إذا أراد الإنسان أن يتيقّن من صواب السبيل الذي اختاره لنفسه، فليس له إلاّ أن يغمض عينيه ويخطو في الظلام».

(القدّيس خوان دي كروز)

Twitter: @alqareah

Twitter: @alqareah

1

ما أن يحقّق الخريف الحضور في نفسه حتّى تغترب الطبيعة عن نفسها. نشهد هذا في شمال العالم أكثر ممّا سنشهده في جنوب العالم، حيث تغيب الحدود الصارمة بين الفصول، فتفقد بذلك الفصول هويّتها الشعريّة، بل وروحها الإستعارية أيضاً. وحضور هاتين الخصلتين (الشعر والإستعارة) هو ما لا يتجلّى في مكانٍ كما يتجلّى في طبيعة الألب السويسري في فصل الخريف. فحضور الخريف في نفسه طقس موجع في طبيعة هذا المكان يمارس فيه الفصل حملة التغريب بتفاصيل عسيرة تستغرق طويلاً، يهيمن فيه الجمال مجبولاً بالتراجيديا، فلا يملك خليفة الله في مملكة الطبيعة إلاّ أن يستجيب لنداء الإغتراب، فيحتمي بتلابيب الروح لئلاّ يفرّ من نفسه أيضاً. فالصيف إذا كان للخليفة مسرح حرية، فإن الخريف نذيرٌ يبشّر بحلول العدَم، وعلينا أن نستعين على منفانا في البيات الشتوي بالكتاب بوصفه الزاد الوحيد في هذا البيات. ولهذا سنّ إنسان الشمال التقليد المجيد القاضي بإغراق الأسواق بسيول الكتب في فصل الخريف بوصفه البوّابة التي سنلج بها بلاط البيات، فلا نطأها إلاّ

Twitter: @alqareah

وقد تسلّحنا بالتعويذة الوحيدة القادرة على أن تعزّينا في ليل البيات الطويل.

تلفظ المطابع مع مطلع الخريف من الكتب السيول، ولكن كتباً قليلة فقط تتمرّد على قدر السيول، فتركن إلى الشطآن، ولا يجرفها المجرى الذي يصبّ في يمٍّ هو عدم.

ولهذا فليس بطولةً أن نكتب كتباً، أو نُظهر للملأ كتباً، ولكن البطولة أن نكتب الكتاب الذي لا يخضع لمشيئة سيول الكتب، ويتنزّه عن المصير الذي ينتظر سيول الكتب، فلا تكون له مراسم الإحتفاء وحدها إمتيازاً، ولكن مقياس القيمة تترجمه ما حظي به من صنوف الجدل، كما هو الحال مع «نزيف الحجر» الصادر في موسم الكتب لعام 1995م.

إنه كتابي البكر المترجم إلى تلك اللغة التي كانت في طفولتي حلماً دون أن أدري لماذا، كما كان الكتاب روايتي الأولى المترجمة إلى لغة أجنبيّة، برغم أنها تُرجمت قبلها إلى اللغة الروسيّة في وقتٍ شاء سوء الحظّ أن يتزامن مع انهيار «برج بابل» لتنهار معه المؤسسة الثقافية العموميّة، وفي مقدّمتها دور النشر. فعلى الرغم من صدور الرواية بالعربية في زمنٍ سبق صدورها بالألمانية بخمس سنوات، بيد أن الدراسات التي تناولتها وسائل الإعلام السويسرية والألمانية والنمساوية في الرواية لا يمكن أن تقارن بما حظيت به عند صدورها في النقد العربي لأن موضوعاً أخلاقياً ووجودياً مثل موقف الإنسان من الطبيعة لم يكن مطروحاً في الأدبيات العربية، هذا في حين

إكتشف النقد الأجنبي في الرواية بُعْداً كان قد بدأ يتحوّل في الغرب قضيّة الساعة. فالرواية، من هذا البعد، هي وثيقة إدانة بحقّ إنسانٍ خان العهد المبرم مع الطبيعة الأمّ في شأن وحدة الكائنات. عهدٌ ينصّ في أحد أهمّ بنوده على الناموس القديم الذي إذا كان قد فوّض الإنسان ليكون في الصفقة وصيّاً على واقع بيئيّ كل الكائنات فيه شركاء لا مجرّد رعايا، أو غنائم، فإنه لا يعطي لهذا الإنسان الحقّ في انتحال صلاحيّات الربّ الذي يحيي إذا شاء أن يُحيي، ويميت إذا شاء أن يُميت، لأن هذا سيكون لا إخلالاً بالعهد القديم وحسب، ولكنه سيكون بداية الخلل في ناموس الوجود!

في بيرن قامت مؤسسة «شتاوفاخر» بعقد أول ندوة حول الرواية بعد صدورها بأمدٍ قصير، قبل أن تُعقد حولها عدّة ندوات من جلّ المؤسسات الناطقة بالألمانية تالياً. ثمّ ما لبثت أن انهالت الدعوات من جلّ المدن السويسرية الناطقة بالألمانية تالياً. ثم ما لبثت أن انهالت الدعوات من مختلف المؤسسات لحضور ندوات حول الرواية سيّما من المؤسسات الثقافية الألمانية وعلى رأسها «البيت الدولي لثقافات العالم» ببرلين. والمشكلة في هذه الحال هي وجوب حضور المؤلّف. وهو شرطٌ إستهجنتُه دوماً بوحيٍ من ديني الجديد الذي لم أكن لأتنازل عنه بسهولة وهو العزلة التي لا تعترف بالحضور في حضرة الجمهور.

ولا أدري اليوم عمّا إذا كانت العزلة هي التي عمّقت الروح الزهدية، أم أنّ الروح الزهدية هي التي أوجدت دين العزلة، ولكنّ

Twitter: @alqareah

اليقين أنهما قرينان حميمان لا غنى لأحدهما عن الآخر. ويستطيع المشاهد المحايد أن يصالح بينهما فيوحّدهما في هويّة إصلاحيّة هي التصوّف، ولكن من يمارس العزلة ويؤمن بالزهد ديناً غيرُ معنيٍّ بالمصطلحات، ولا يعترف بالهويّات، وإلاّ كفر بالترسيمة الطبيعية، واستبدل الحرية بالشعار.

هذه النزعة الوجودية لابدّ أن تستنكر كل ما من شأنه أن يهدّد قناعتها، ويعرّض الحرية للخطر. وأكبر الخطر في يقين نموذج كهذا هو التضحية بفردوسٍ هو فيه حديثُ عهد، واستبداله بالذهاب إلى البرزخ لينازل من وراء تخومه البعبع الذي أثخنه يوماً بجراحٍ لم يتعافَ منها بَعْد. فالكتاب بالنسبة لملّة العدوس نزيف روح، وليس ترفاً. أي أنه طريقة للتّغنّي بالحقيقة، وليس طلباً لمجد، أو تحقيقاً لسلطة. والخروج للمثول في حضرة الملأ بقصد تسويق هذه الحقيقة هو في يقيني ابتذالٌ منكر، لأنه عملٌ لا يختلف عن الدعاية الرخيصة؛ والحقيقة أعظم شأناً من أن تكون في حاجة لدعاية، لأن ما لا ينال إلاّ بالألم، كما هو الحال مع الحقيقة، سيطلب **الدم** قرباناً، لا دعاية هي قرين المجّان.

فالنصّ الأدبي هو دوماً أداءٌ لواجب. وكلّ نصٍّ خلا من روح هذا الواجب هو نصٌّ ميّتٌ قبل أن يولد. فكيف يحتاج أداء الواجب إلى تسويق، أو لمذكّرة إيضاح؟ بأيّ حقّ يبتذل العالم القيمة في نصّ الحقيقة فيطالبنا بأن نخضع للمحاكمة في محكمة الجمهور، أو نلعب دور المهرّج في مهزلة السواد الأعظم؟ ألاَ يجبرنا ناموس العالم ذي

الروح التجارية أن نمارس العهر عندما يستوجب المبدع بالحضور في حضرته لا موضوعاً وحسب، ولكن شكلاً أيضاً؟ أليس خطيئة أن يدعونا العالم لنعتنق دين السوق في شأنٍ مُعادٍ بطبيعته لصنم السوق، ومُدانٌ بحرف الحقيقة المبثوثة في النصّ لكلّ ما متّ بصلة لمعبود العالم الملقّب بالنفع؟

ولكن الشركاء يستميتون في الدفاع عن المعبود القابع في السوق، ويستبسلون في حملة الإقناع عندما يقولون أنّي إذا كنت لا أكتب لنجاحٍ أو مجدٍ أو سلطةٍ، فإنّ الحقيقة أيضاً تحتاج إلى حربٍ كي يقتنع بها الناس. هنا يسوقون موقف الأنبياء من التبشير بنبوآتهم كحجّة أخيرة.

ولكن للمعجزة التي نسمّيها ضميراً رأيٌ آخر. قاضي القضاة هذا الذي نلناه على سبيل الوديعة ليكلّمنا باسم الله حَكَمٌ يرفض الحلول في الوسط، ولا يعترف بغير الحقيقة ديناً. وها هي وسوساته الأليمة توجعني كلّما تنازلت عن قناعاتي ومثلتُ بين يدي أناسٍ لا تستهويهم الحقيقة في النصّ، ولكن ما يعنيهم حقّاً هو الحرف، فلا يتردّدوا في أن يطعنوا صاحب النصّ كلّما أعجزهم الحرف، ليكون المبدع بهذا ضحيّةً مرّتين: مرّة بنزيف الروح، ومرّة أخرى بجراح الجسد أيضاً، مثله في ذلك مثل مَن سبقوا من رسل، لأنهم لابدّ أن يُهانوا، بل ويرجموا، كي يدلّلوا أن الصليب هو قدرٌ في سيرة كل مريد حقيقة، كأنّ الإبداع ليس قصاصاً كافياً، كأنّ معاندة الحقيقة ليست قصاصاً كافياً، ليُضاف إلى كل هذا القصاص الأقسى: قصاص ذوي قربى

مختزلٌ في حرف جمهورٍ لا يعرف في انتقامه الحدّ، لأن الحقيقة كانت منذ الأزل عدوّه الخالد!

فالإثم الذي حصدتُه في كل مرّة أمْثُل فيها أمام الجمهور هو بمثابة الكفّارة المستوجبة الدفع لقاء خيانة الحقيقة التي إذا كانت ترفض أن تعبّر عنها اللغة إلاّ إيماءً، فكيف تبيح أن تدنّس حَرَمَها عضلة إثم كاللسان، سيّما إذا كان هذا اللسان هو لسان السواد الأعظم؟

Twitter: @alqareah

2

الواقع أنّي لم أكن لأستسلم بسهولة برغم كل الحجج التي ساقها أصدقائي في سويسرا لإقناعي بأهميّة المشاركة الشخصيّة في مثل هذه المحافل. وتشاء الصُّدَف أن تتزامن حملتهم مع جلسة جمعتني بالسيّد الخويلدي الحميدي عضو مجلس الثورة في بلدي الذي كنت قد عرفته عن كثب أثناء تردّده على بيرن في تلك السنوات بغرض العلاج في وقتٍ كان الحصار المضروب على الوطن قد بلغ الذروة.

وها هو الرجل يسوق أمر الحصار كحجّة لإقناعي. قال أن العالم فعل كل ما بوسعه كي ينفي حضورنا في هذا العالم لا كأشخاص، ولكن كأناس يحملون هويّة هي وطن قبل أن تكون هويّة نظام، فكيف يرفض الإنسان الذي أعاد الإعتبار في أدبه للوطن دعوات العالم لحضور محافل يستطيع أن يكون فيها صوتاً لهذا الوطن؟

الوطن بالطبع هو نقطة ضعف في حياة كل مريد عَدْو. فالمهاجر مهووسٌ بالحرية حقّاً، ولكن الوطن يبقى في سيرة كل عدوس هاجساً لجوجاً إلى الحدّ الذي يتحوّل فيه رمزاً.

وعلّ سيرة إمام العَدْو أوْليس أقوى دليل على ذلك. فالتّيه إغواء لأنه حرية، ولكن الملاذ يظلّ حلماً في سيرة التائه، وحطّ الرحال

Twitter: @alqareah

في الوطن هو فردوس صاحب التّيه. والإله بوسيدون لم يعاقب أوليس جزاء قتل الأخير لأنه أراد أن ينال روحه (كما في مرافعته)، ولكنه اقتصّ منه بحرمانه من الوصول إلى «إيتاكا»، أي الحلول في الوطن. ولهذا فكل رحيل هو فردوس قُدُسِيّ ما ظلّ له الوطن غاية، ولكنه ينقلب سعياً عدمياً بلا معنى عندما يغيب من الأفق الوطن.

وعلّ المدهش أن تجود بهذه الوصيّة نفس إنسانٍ يحسبه الكثيرون أحد الجناة الذين ألحقوا إساءة بالغة بالوطن بوصفه شريكا في فعلٍ يراه هو ثورة غايتها إنقاذ الوطن، في حين يحسبه الأغيار مجرّد إنقلاب ألحق الضرر بالوطن.

وأظنّ جازماً أن حبّ الأوطان هو الإحساس الغيبيّ الذي لا نملك الحقّ في أن ننكره حتّى على مَنْ نرجمهم بتهمة الإجرام في حقّ الأوطان لأننا كثيراً ما ننسى أن الوطن دوماً هو إله معبود الصلاة في حرمه ليست حكراً على أحد. ولهذا نجد كل الشرائع تتّفق على تجريم خيانة هذا المعبود فتحكم على مقترف هذا الجرم بأقصى قصاص وهو الإعدام ترجمةً حرفية للتهمة الوحيدة الجديرة بحكم كهذا وهي «الخيانة العظمى». وهو ما يعني أن كل خيانة تهون إلاّ خيانة واحدة لا تحتمل التهاون وهي: خيانة الوطن! ولكن المشكلة في العلاقة مع الوطن تنتج عن الخلط الأبله بين الوطن كقيمة تكاد تكتسب بُعْداً ميتافيزيقيّاً قريناً لما يسمّيه كانط «الشيء في ذاته»، وبين الترسيمة التي تتولّى أمر الوطن سواء أكانت هذه الترسيمة نظاماً سياسيّاً، أم منظومة أخلاقيّة. ولهذا نرى أن ملامح الوطن لا تستعير

Twitter: @alqareah

وضوحاً محدّداً إلاّ في حال وقع الوطن ضحيّة غزو من خارج لتتولّى زمام الأمر عصبة ذات هويّة أجنبيّة علنيّة. وضوح الرؤية في تحديد الوطن ككيان مغتصب في هذه الحال هو السبب في رفع أسهم التضحية في سبيله لتبلغ مستوى دينيّاً وهو: **الشهادة!**

في المقابل تتبلبل الرؤية، وينعدم الدليل، في حال يكون سليل الوطن هو مَنْ يقوم باغتصاب الوطن، لأن لا أحد يستطيع أن يبرّيء ذمّته من إثم كهذا ما لم يتسلّح بمبرّرٍ قويّ غالباً ما يكون **إنقاذ** الوطن، أو أي حجّة مشابهة تصلح لتسويق فعلته ومنحها الذريعة الأخلاقيّة القادرة على شلّ مفعول الإحساس الغيبيّ الطاغي الذي يحرّم العبث بمصير الوطن ويعدّه من صنف الكبائر الرديفة للكفر. وكيف لا يكون الإستهتار بأمرٍ جلل كالوطن عملاً نظيراً للكفر بربّ الوطن إذا كان الوطن في يقين الكلّ أيضاً معبوداً؟

ألاَ نرى الإيمان بالوطن قريناً في كل ثقافات هذا العالم بالإيمان بالله؟

ولهذا السبب كان التشكيك في حبّ الوطن الموجّه حتّى لأكثر الطغاة طغياناً سيبدو لهذا النموذج تجديفاً منكراً في حقّ الحقيقة حتّى لو قطع في سبيل الطغيان ما لم يقطعه كاليغولا في مغارب الأرض، أو قمبيس في مشارقها. فالطغاة حرصوا عبر التاريخ على بقاء شعرة الولاء للوطن مهما اقترفوا في حقّ أبناء جلدتهم من آثام، ولا تسقط عن سوآتهم ورقة التوت هذه إلاّ في حال استعانوا على أوطانهم بالعنصر الأجنبي. وهو ما حاولوا أن يتجنّبوه في حملات تشبّثهم

Twitter: @alqareah

بالسلطة بأيّ ثمن. بل كثيراً ما نراهم يبرّرون فظائعهم في حقّ أبناء جلدتهم بارتداء قناع حرصهم على الوطن من التهديد الأجنبيّ. بالمقابل نلاحظ أيضاً كيف تنتحل أفعال أبناء الوطن ضدّ حكم الجور صفة الدفاع عن الوطن إلى الحدّ الذي تكتسب فيه ما يبدو خيانة عظمى (كالجوسسة على سبيل المثال) بعد الدفاع عن الوطن. هذا يعني أن كل شيء مُباح في ناموس سليل آدم ما لم يمسس قدس الأقداس الأقدس من كل شيء وهو: الوطن، كأنَّ اليابسة الملقّبة في معجم الأنام بإسم مسقط الرأس ليست مجرّد أرض، ولكنها تربة الربّ، وحبل السرّة ليس يبيس الدمّ، ولكنّه الوسيط السرّي في العلاقة بين السماء والأرض، والوديعة الإلهيّة التي تسكننا ونسمّيها روحاً هي نتاج هذا الزواج المبثوث في جذوره في رحم هذه البقعة وليس في أيّ مكانٍ آخر. هنا، في هذا البُعْد بالذّات، تستعير طبيعة الوطن طبيعة الحقيقة التي تفيض فينا فتشعرنا بالإمتلاء، برغم هويّتها الخفيّة التي تستعصي على اللسان فتضيق في تأويلها العبارة.

وأحسب أنّنا سوف نجانب الصواب إذا حاولنا أن ننزع هذه الروح الوطنية عن تلك الفئة من العسكر التي شاركت في حركة سبتمبر، ثم اكتشفت خيبة الأمل في واقع التجربة، فانسحب قسمٌ منها من المشهد مبكّراً، وحاول شطرٌ آخر إنقاذ ما يمكن إنقاذه بحركة التصحيح الفاشلة، في حين واصل فريقٌ ثالث مسايرة الركب برغم اليأس من التغيير كما هو الحال مع نموذج كالحميدي الذي غسل يديه من الشأن العام، وانزوى في ركنٍ لا يبدو منصباً حقيقيّاً،

إلاّ من باب التمويه. وهكذا لم يجد الرجل مفرّاً في وضعٍ كهذا سوى استبدال الموقف الرسمي بالموقف الشخصي استرضاءً لضميرٍ يطرح الشعارات جانباً، ويعمل على الأخذ بيد المستضعفين ما استطاع إلى ذلك سبيلاً، انتصاراً لقيم الفضيلة المستوحاة من سير الأسلاف. وأعتقد أن المبدأ الأخلاقي هو قارب النجاة الذي يقف في انتظارنا ليحقق لنا الخلاص كلّما فُجعنا في الأيديولوجيا، وخذلنا الشعار السياسي. والمرارة التي حدّثني بها هذا الرجل عن الوضع البائس الذي انتهت إليه حركة الضبّاط الأحرار لهي أقوى صحيفة إتّهام في حقّ النظام، وأبلغ دليل إدانة في حقّ أيّ مغامرة ثورية. وهي صحيفة لم يتردّد في قراءتها في مجالس خاصّة، برغم أنه لم يكن ليجرؤ على قراءتها على الملأ بالطبع. قراءة تراجع فيها الحماس الأيديولوجي لترتفع فيها الأهزوجة التي تتغنّى بالوطن، لأكتشف كم هي الأيديولوجيا عدوّة للأوطان أيضاً بقدر عداوتها لقرينة الأوطان: الحقيقة!

فكلّ صنوف التنكيل التي استنزلها النظام بالوطن، وبأهل الوطن، وببيئة الوطن، إنّما كانت من وحي هذه الأيديولوجيا لاسترضاء شيطان الأيديولوجيا. وفعل هذه الجنيّة على الأرض هو ما زعزع نموذجاً كالحميدي ليستيقظ فيه الإنسان الذي سعى لفعل الخير ليكفّر عن خطيئة اعتناقه يوماً لدين هذه السعلاة الشرّيرة التي أوهمته أنه يستطيع أن يغيّر ما بالعالم دون أن يُفلح في تغيير ما بنفسه!

هذه السيرورة المثقلة بالأحزان هي أقصر طريق عادةً لولوج باب

الـ Vanitas Vanitatum، وروح البهتان هنا هو أيضاً أقصر طريق لدخول محراب ما أعجز الأجيال فلم تجد له غير التصوّف إسماً. وهو ما سيبدو مفارقة عندما يتعلّق الأمر بهذا النموذج النابليوني المزموم في بزّة العسكر والمعوّل على حدّ السلاح الذي يرى فيه العدّة الوحيدة لانتزاع الحقيقة من برثن هذا العالم.

فطوبى للصدمة التي تميت في الإنسان إنساناً، لتحيي في الإنسان إنساناً. والتغنّي بالأوطان دائماً دليلٌ على حنين، وشهادة على توبة. والتوبة هي الدرس الذي يخاطب المشاهد المتأمّل، لا التائب كصاحب تجربة. ومحي الدين إبن عربي يتحفنا بالوصيّة التي ترفع من شأن التوبة درجات بالمقارنة مع مَن لم يعرف توبةً، لأن من اقترف إثماً تاب عنه أحبّ إلى الله ممّن لم يقترف إثماً على الإطلاق. وهي التوبة ذاتها التي جعلت من أوديب تعويذة كان لها الفضل وحدها في فكّ أسر أهل طيبة من بطش التنّين، كما كانت عظام أورست التميمة التي وضعها إله دلفى للإسبارطيّين شرطاً للإنتصار في حربٍ ضدّ أعدائهم. كان من الطبيعي أن يقرأ العدوس في مرثيّة إنسانٍ كهذا للوطن المغترب نداءً لردّ الإعتبار للمعبود برغم ما في المثول أمام محفل الجمهور من مهانة كثيراً ما وسوس لي الحدس بأنها إثم!

ولكن ألا تشفع القيمة التي تسكن لغزاً كالوطن الإحساس بالإثم في حال كان هذا الإثم القربان المقدّم على مذبح معبود هو الوطن، على الرغم من حقيقة هذا المعبود الذي لا يستحي من أن يستعير هويّة القطّة التي تلتهم صغارها؟

Twitter: @alqareah

3

في هذا المنعطف تبدأ في سيرة العدوس مسيرة أخرى، صغرى، داخل المسيرة الكبرى، تيمّناً بطبيعة الأشياء التي سنّت في حرف الرحيل ناموس الوجود الذي يكشف حقيقة متون الإنسان الكبرى كلّها في إسم السفر المستعار في اللغة من المسير في بُعْده كرحيل، مشدّداً بهذا على الحرية كقدرٍ في لغز الوجود. فالحنين الذي يحيا فينا للسفر هو تعبيرٌ عن حاجة ميتافيزيائية لم توجد فرضاً من ظرف زمانٍ أو مكان، ولكنها شفرة تسري في جينات التكوين، وإلاّ ما سرّ هذا الهوس المحموم بالخروج المعبّر عنه في كل المتون بدايةً بأسفار العهد القديم بل وقبل أسفار العهد القديم؟ جلجامش سَفَر، وكتاب الموتى سَفرٌ إلى العالم السفلي، والإلياذة سفر من البداية إلى النهاية، والأوديسة فصلٌ آخر في سفرٍ ما لبث أن صار فيه أوليس بطلاً يختزل في تجربته معنى السفر كمفهومٍ عالمي، والكوميديا الإلهيّة سفر، وقرينتها الكوميديا البشريّة سفرٌ أيضاً، ودون كيخوت ملحمة سفر أخرى وإلاّ لما أمست أكثر المتون رواجاً منذ أربعة قرون إلى اليوم، وفردوس مِلتون المفقود سفر، وموبيديك ملفل سفر، وذهب مع الريح سفر، والحرب والسلم سفر، وأعمال كنوت هامسون كلها

Twitter: @alqareah

سفر في سفر، والبحث عن الزمن الضائع ضربٌ جديدٌ من سفر، وسير كل الأنبياء ملاحم سفر، والخروج من الفردوس سفر أسفار!

وهو ما قد يعني أن كل سيرة لا تختزل في تجربتها الدنيوية معنى السفر في بُعْده الغيبيّ هي سيرة باطلة مضموناً، برغم أنها قد تبدو كاملة حرفاً. فإذا كانت الرحلة الكبرى هي سفرٌ صوب الحرية، فإن الرحلة إلى الجمهور سفرٌ لممارسة الخطيئة لم أجد تحديداً لهويّتها أصلح من القول بأن رجلاً يعرّي أمام الملأ روحاً، هو أسوأ من إمرأة تعرّي أمام الناس جسداً. ففتنة الجسد إذا كانت تأبى إلاّ أن تتمرّد على سلطة الأخلاق فتعلن عن نفسها بحجّة هويّتها كجمال، فإنّ جمال الروح يفقد صلاحيّته كجمال إن لم يتستّر. ولم أكن لأفهم سرّ القشعريرة التي تنتابني كلّما تلقّيت دعوة للمشاركة في نشاطٍ ثقافيٌ عامّ إلاّ بعد سنوات من تجربة العلاقة مع الجمهور ومع وسائل إعلام الجمهور إلى الحدّ الذي أستطيع أن أعلن فيه اليوم أنّي لم يحدث أن استجبت ولو مرّة لدعوة إلاّ ورجعت من الرحلة نادماً، بل ومجلّلاً بتبكيت ضمير، فلا يشفع الإحساس بأداء الواجب نحو عنقاء الوطن في شراء الخجل الناجم عن الإحساس بالإثم كأنّي بهذا العمل أخون الله مقابل إرضاء وطن الله!

Twitter: @alqareah

4

كانت المحطّة الأولى في نورنبرغ في أحد أيام يناير الشتوية القاسية في 1996.

لا أنكر أن الألمان فعلوا كل ما بالوسع لكي يعزّوا إنساناً يرى منكراً في أن يعرض أمام الناس روحه، لأن العداء الفطري للظهور هو المحنة التي لا تُخفى عادةً. فما لا يغفره الناس هو الحماس في عرض اليقين؛ ربّما لأنهم يظنّون أنّنا نريد أن نقنعهم بآلهةٍ لا ينوون أن يؤمنوا بها، لا نكايةً فينا، ولكن ظنّاً منهم أن هذا سوف يهدّد قناعاتهم، أو بالأصحّ، حريّتهم. والويل لمن أخفق في أن يسوّق أفكاره بذلك البرود في الأعصاب الذي يصلح تقيّة تجيرنا من ردود أفعالهم. وهو ما لن يحسنه مريد الحقيقة الذي لن يبخل بلفظ أنفاس النزع الأخير كي يحمّل يقينه في عبارة تضيق بما بها، فكيف بما نُدِبَتْ إليه، عملاً بوصيّة النفّري؟

فلتخفيف عقدة الزمّ في الوتر المشدود إبتكر دهاة النفس البشرية صنوف الحيَل لنزع الفتيل والتريض على الحوار، لا في بُعْده الفكري فقط، ولكن في بُعْده التقني أيضاً. وها هو العدوس يجد نفسه في مقهى في أوّل مواجهة مع الأغيار بدل أن يجد نفسه في قاعة

Twitter: @alqareah

محاضرات كما هو الحال في عالمنا المهووس بالنزعة الرسمية حتّى لو تعلّق الأمر بشأنٍ حميم كالجدل في الحرية، أو قراءة الأشعار، أو استنطاق الجمال. فالمقهى يؤدّي وظيفة عفوية هنا موحياً بمناخ العلاقة الشخصيّة كضمان لتوطيد أركان التلقائية في الحوار. حوارٌ لابدّ أن ينتهي إلى سؤالٍ أضحى تقليديّاً بالنسبة للعدوس في إبداع المرحلة التي تلت الميلاد الثاني، تردّد بعد ذلك اللقاء مراراً، وهو: «ماذا يريد إبداعك أن يفعل بأمّتك الصحراوية؟». وهو سؤالٌ فرضته نزعة تسييس العقل البشري التي لعبت فيها الأيديولوجيا دور البطولة طوال القرن العشرين ظنّاً من الناس أن كل الطرق سوف تؤدّي عاجلاً أم آجلاً إلى السياسة. إنه الوباء الذي غرّب الإنسان عن حقيقته الوجوديّة، وسفّه فيه كلّ ما متّ للوجدان بصلة. ولم أكن في حاجة لمواهب الكاهن كي أدرك غياب البراءة في سؤال أناسٍ لا يكتفون بأن يكونوا جمهوراً وحسب، ولكنّهم إلى جانب هذا هم جمهورٌ **مؤدلج**؛ لأن وضع السؤال على النحو الذي يخفي في ثناياه الجواب دسيسة من إنتاج الأيديولوجيا. إنه نصف سؤال، ونصف جواب. السؤال مُعلَن والجواب مُستنتَج. إذا كان الشقّ المعلَن يقول: «ماذا يريد أدبك أن يفعل بأمّتك؟»، فإن شقّه الثاني غير المعلَن هو: «هل يريد لهم دولة مثلاً؟»، لأن مفهوم الدولة هو مقياس السعادة في مفهوم السواد الأعظم، لأنه لا يتخيّل وجود أمّة تستطيع أن تحقّق كيان دولة، أو إمبراطوريّة، ثمّ تتخلّى عنها للأغيار قرباناً لمعبودتها الحريّة، كما فعلت أمّة الصحراء الكبرى منذ ما قبل التاريخ وحتّى

Twitter: @alqareah

عهد العصور الوسطى، أي بدايةً من إمبراطوريّة الجرمنت ونهايةً بإمبراطوريّة تمبكتو، مروراً بالإمبراطوريات التي شيّدتها الدياسبورا المهاجرة على مصر القديمة، وامبراطوريّة نوميديا، وامبراطورية مراكش، وعصبها امبراطورية المرابطين التي سنّت ناموساً فريداً، زهديّا بامتياز، لم تعرفه حرفة دنيويّة مجبولة بالآثام كالسياسة من قبل، من خلال مفهوم **الرباط**، علّ هذا البُعْد الزهدي يفلح في كبح روح الجشع الجنوني في طبع هذه الجنيّة.

فعلت أمّة الصحراء كل هذا لتدلّل أن السلطان ليس عملاً مشبوهاً وحسب، ولكنّه صنيعٌ لا يليق إلاّ بالخدم، والحرية وحدها حرفة النبلاء. والأهمّ من أن يتولّى الإنسان أمر دولة، أو امبراطورية، هو أن يصنع في ذاته دولةً، لأنها هنا الإمبراطورية التي لن تنتزعها منّا صروف الدهر لأنها ليست هبة حظّ، ليقين دهاة القوم أنّنا لا نخاطر إلاّ بما ننال، ولكنّنا ننجو بما نخسر: الخسارة تقيّة لأنها قربان، والكسب لعنة، لأنه هبة! فإذا حمل نصّ العدوس بشارة مّا فلن تكون تلك البشارة سوى الوصيّة التي تقرع أجراس خطر زوال ثقافة إنسانية ثريّة لعبت دوراً بطوليّاً في تشكيل الوعي بالكينونة، لأن الإبداع لا يعود إبداعاً إذا تساهل مع قوى الشرّ التي تستميت في قطع دابر الثقافات الأصيلة من خارطة الوجود، ولا تدري أن البقاء قيد هذا الوجود هو رهينٌ ببقاء هذه الثقافات، لأنها روح الوجود كما بيّنّا في بياننا في لغة اللاهوت.

Twitter: @alqareah

5

الدعوة الرسمية لشخص العدوس للحلول ضيفاً في أرباع اللغة المعشوقة كانت مزدوجة: إنقضى شقّها الأوّل في نورنبرغ، وغادرت إلى برلين لتلبية شقّها الثاني في بلاط «المركز الدولي لثقافات العالم» للمشاركة في ندوة «الحوار حول ثقافات المتوسط» حيث كان في انتظاري الروائي الألباني المقيم بباريس إسماعيل كاداريه ليلعب الناطق الرسمي باسم ثقافة هذا البحر الأسطوري من جانبها الشمالي، لألعب كعدوس دور الناطق الرسمي باسم ثقافة شطآنه الجنوبية التي ظلّت بالنسبة للغرب عالماً مجهولاً منذ عصور ما قبل التاريخ كلّما تعلّق الأمر بما وراء هذه الشطآن، لأن ما وراءها كلّه صحراء. هذه الصحراء التي لم تستهوِ الإنسان الأوروبي إلاّ مع مطلع القرن التاسع عشر عندما انطلقت رحلات استكشافها فعليّاً لأول مرّة، وليس مصادفة أن يكون للألمان فيها نصيب الأسد، بل فضل الريادة أمثال هورنمان، وبارت، وناختيجال، وكراوزه، برغم طبيعة الإستكشاف المهمومة بحرف الواقع، في وقتٍ يغيب فيه **البعد الضائع** في هذا الواقع. ويبدو أن الصحراء بوصفها بُعْداً ضائعاً هو سرّ غياب هذا البُعْد في واقع ثقافة جنوب المتوسّط. ويبدو أن حرص العقل

Twitter: @alqareah

الألماني بعناده التقليدي على اكتشاف فحوى هذا البُعْد الضائع في ثقافة جنوب المتوسّط هو ما حفّز القائمين على أمر الثقافة لعقد مثل هذه الندوات لاستجلاء ما غاب عن حركة الإستكشافات الكلاسيكيّة بعد مضيّ قرنين من الزمان. هذا الإحساس هو ما شجّعني لأن أتناول في حواري مع السيّد إسماعيل كاداريه قضيّة هذه الحلقة المفقودة في ثقافة جنوب المتوسّط الذي أَبَحْتُ لنفسي أن أطلق عليه إسم «**معنى البريّة**»، لأن هذا المعنى هو المفتاح السحري الضائع الضروري لفهم إنسانٍ مازال في نظر الغرب لغزاً وهو إنسان جنوب المتوسّط. ولإيجاد لغة مشتركة مع الطرف الآخر كان من الواجب الإحتكام إلى الخطاب الديني حيث تهرع لنا المتون الكلاسيكية بالمفتتح الوارد في سفر الخروج الذي يخاطب فيه إله العبرانيّين الفرعون بالأمر الصارم التالي: «أطلق شعبي ليعبدني في البريّة». وهو أمرٌ لن يكشف عن فحواه ما لم نخضعه لتأمّل عميق، لأن السؤال هو: لماذا لا يستطيع شعب الله أن يعبد ربّه في أرض مصر، أو في أي مكانٍ من أرض الله الواسعة؟ لماذا تكون البريّة بالذّات رهينة العبادة؟ ما هي العبادة أصلاً إذا كانت لا تستقيم إلاّ في البريّة؟

المتن الديني يخبرنا عن حال العبرانيين في مصر فيقول أنهم كانوا عبيداً. فإذا استنطقنا الأمر الإلهيّ الداعي لممارسة العبادة في البريّة فإنّ ذلك لن يعني إلاّ أن العبادة ممارسة للحرية التي لن تقبل إلاّ في حرم حريّة، وهو البريّة. ماهيّة العبادة الحريّة، والبريّة هي معبد هذه الحرية، لأنها هي ذاتها تجسيدٌ للحرية، بوصفها بيت الإله.

إنها الرؤية التي عبّر عنها سليل البرّية (النفّري) في مخاطبة المعبود لمريده بعبارة: «أخرج إلى البريّة الفارغة واقعد وحدك حتّى أراك!». فالبريّة في الحالين شرطٌ جسيم.

في الحال الأوّل شرط **العبادة**، وفي الحال الثاني شرطٌ **للرؤية.**

روبرت موزيل في ملحمة «الإنسان بدون خواصّ» يحدّد موقع هذه الرؤية عندما يقول: «لقد كانت الصحراء دوماً وطن **الرؤى** السماوية». وإذا كان النفّري يصنّف البريّة بـ«الفارغة»، فإنه لا يعني فراغها من **المعنى**، ولكنّه ممّا يروقه أن يسمّيه «**السّوَى**»، أي كل ما يلهينا عن خلوتنا بالله. فالفراغ هنا برهانٌ على حضور الروح الذي لا يتحقّق خارج البريّة.

يجب ان نتوقّف هنا لنلاحظ أن الكتب المقدّسة الثلاثة (أي بما فيها القرآن) لم تستخدم في خطابها مفردة «صحراء» واستبدلتها بكلمة «البريّة» كلّما استدعت الضرورة، ربّما لدلالة «البريّة» كاستعارة من «البرّ» المثقل بحمولة أعظم شأناً من مجرّد صحراء، القرينة للخلاء. فهو من جانب يعني «البيت» فيما إذا استنطقناه في بُعْده البدئي كما يرد في لغة مصر القديمة في تركيبِ الباء فيه تعني الروح، والرّاء للتدليل على القِدمة، لتستوى البُنْيَة في عبارة: «روح القدمة». كما تعني البريّة في جانبها الآخر «الطبيعة» في هويّتها البكر، لترادف بذلك مدلول «روح القدمة»، لأن طبيعة اغتربت عن نفسها تتحوّل روحاً، وهو اغترابٌ لا يتحقّق بدون قدمة في الزمان؛ كما أن روحاً اغتربت عن نفسها تنقلب طبيعةً. وهو ترجمة حرفية لليقين الشائع بأن

Twitter: @alqareah

الزمان ما هو إلاّ المكان إذا زال، وما المكان سوى زمانٍ تجسّد. ولهذا السبب نحتت البدئيّة من كلمة «بيت» هذه مدلول «العدم» برديفٍ آخر هو «الموت» لينطقا معاً ببيان يجمع حزمة المفاهيم في لفظة مهيبة هي: الحريّة!

ولمّا كانت العبارة عمل تحريريّ في حدودها القصوى، فإن ممارستها خارج نطاق الحرية سيصير ضرباً من تجديف. لأن الصلاة لا تصحّ إلاّ في محراب الحريّة، فهنا فقط نضمن حضور الربّ، لأن الربوبية أساساً هي هويّة حرية.

فالعبادة رحلة حجيج إلى بيت الله الحرام تستوجب مراسم إحرام يتجرّد فيها الحاجّ من كل ما له علاقة بوجوده الطبيعيّ بما في ذلك سمّ الخياط؛ وهو ما لا يُنال إلاّ بالحضور في بريّةٍ هي في الواقع حضور في رحاب العدم!

Twitter: @alqareah

6

بعد الحوار انتقلنا من المائدة المستطيلة بسبب المباراة حول ضفّتي المتوسّط إلى المائدة المستديرة لتناول طعام الغداء برعاية رئيس المركز وعدد من مستشاريه الأكاديميّين. هناك وجدتُ نفسي أواجه السيّد كاداريه مرّة أخرى لا لنواصل حوارنا حول ثقافة ضفّتَي المتوسّط، ولكن لنتجادل حول ثقافات الشمال بعد أن اكتشفنا في تلك الجلسة وجود قواسم مشتركة كانت فيها اللغة سبباً. فقد كان الرجل يستخدم في مداخلته اللغة الفرنسية مع ترجمة إلى الألمانية وهو الألباني المقيم في باريس منذ عقود، في حين إستخدم العدوس العربية مع ترجمة إلى الألمانية بالطبع. ولكني اكتشفت عندما واجهني على مائدة الغداء أنه درس أيضاً في معهد غوركي للآداب مطلع الستينيات، أي قبل إلتحاقي بالمعهد بأقل من عقد قليلاً، فخاطبته بالروسية. هنا إستوقفني ليطلب أن أمهله ربع ساعة كي يستجدي الذاكرة ويستعيد العلاقة المفقودة مع اللغة الروسية. وهي محنة عرفها كل مَنْ روّض (أو قوّض) لسانه وطوّعه على كثرة اللغات. ذلك أن اللغة الأحدث عهداً تهيمن في العضلة وتضطهد اللغة التي سبقتها في حملة لإبادتها؛ ولكن اللغة السالفة تخلي مواقعها دون أن تستسلم

Twitter: @alqareah

في الحرب. تتخندق في الذاكرة وتنتظر هناك فتور حماس اللسان إلى المعشوقة الجديدة لتشنّ هجوماً جديداً ينتهي بمعاهدة صلح بين اللغتين. وما حدث مع اللغة السالفة سوف يحدث مع أيّ لغة وافدة. وطبيعي أن يلعب الإستعمال دورالبطولة في الإبقاء على المعاهدة نافذة المفعول كأن اللغات تلقّننا درساً في وجوب إعتناق دين المرونة، لأنه الضمان الوحيد لتوسيع رقعة الحرية ومدّ الحدود في فسحة الوجود.

ولكن إستدعاء اللغة المغتربة من قيعان الذاكرة لم يستغرق المهلة المطلوبة، لأن الرجل إنطلق يحدّثني باللغة التي ظنّها منسيّة مستعيداً ذكريات الزمن الرومانسي الضائع سنوات الدراسة بمعهد غوركي للآداب في وقتٍ كان فيه شبح ستالين مازال مهيمناً على الحياة السوفييتية، ثمّ عرّج على تجربة إستقدام هذا النموذج الستاليني ليحلّ ضيفاً ثقيلاً في بلاده ألبانيا ممّا اضطرّه للفرار إلى فرنسا. كنت قد قرأت حتّى ذلك اليوم جلّ أعمال كاداريه المترجمة إلى العربية، لأن الحظر السوفييتي على أعماله كان مازال قائماً في اللغة الروسيّة برغم مضي سنوات على إنهيار النظام. وكم أدهشني الرجل أن يعلم بترجمة جلّ أعماله، بل ربّما كلّ أعماله إلى العربية، دون موافقته!

هنا ذكّرته بواقع البلدان العربية الذي لم يكن ليختلف في مسألة الحقوق عن واقع الأنظمة الشمولية الذي عرفه في الإتحاد السوفييتي أو في ألبانيا. فالنظام السياسي الذي يستهين بحقوق المواطن لن يستهجن أن تستهين المؤسسات بالقوانين فتهضم حقوق إنسان لا تعترف به أصلاً كما هو الحال مع حقوق المؤلّف.

Twitter: @alqareah

كانت مرافقته الحسناء التي كانت تتولى دور المترجمة بين الفرنسية والألمانية ترمقني بنظرة كراهة أخفقت في إخفائها، لأن إكتشاف لغة مشتركة بيننا أفقدها شطراً من سلطانها لا لأن هذه اللغة إختلست منها حضورها في حضرة الرجل ذي الصيت الكوني فقط، ولكن أيضاً لأنها لغة المستَعْمِر الذي ظنّت انها تخلّصت من هيمنتها لانتمائها بالهوية إلى ألمانيا الشرقية التي لم يمضِ على عودتها من منفاها وراء الستار الحديدي سوى زمن قصير آنذاك، ولا تدري المسكينة أن اللغة ليست برهاناً على وجودٍ وحسب، ولكنها برهان على حريّةٍ أيضاً حتى لو إنتمت إلى هوية إمبراطوريات تقمع الحرية. والدليل هو هذه الحميمية التي إستنزلتها اللغة المشتركة في فسحة حواري مع السيّد كاداريه والتي لم تكن لتقارن بروح حوارٍ مشفوعٍ بحرف ترجمةٍ تتمّ حول مائدة مستطيلة؛ حميميّة يرجع لها الفضل في كسر شوكة الحرف المميت لتتحوّل مائدةً **مستديرة**، بدل مستطيلة!

Twitter: @alqareah

7

هوس العالم بالإستعراض لابدّ أن يبعث في المؤلّف روح البهلوان الذي يبتذل نفسه في حضرة الجمهور كي يسترضي الجمهور. ولفهم بنود هذه الصفقة الخاسرة ليس لنا إلاّ أن نستنطق الطبيعة المعقّدة بين المؤلّف كشخص وبين النصّ كشخصيّة إعتبارية ذات إستقلاليّة تتجاوز الحدود التقليدية المكتسبة من خصوصية النصّ.

فالعقليّة السائدة ترى في حضور الشخص، أو المؤلّف كشخص، حضورٌ للنصّ، في حين أنه غيابٌ للنصّ. ليس هذا وحسب، ولكنه إغترابٌ للنصّ، لأنه اعتداءٌ على حرية النصّ. وهي خطيئة لا تقتصر على الجمهور، ولكن عدوى هذه الرؤية تنتقل لتصيب الموقف النقدي الذي لا يستحي في أن يرى في النصّ الأدبي فاكهةً منتجةً بحرف التجربة الدنيوية، أو بالأصحّ، نتاجاً لسيرة المؤلّف الذاتية، متجاهلةً بذلك البعد الفعلي للعمل الكامن في **الهويّة الغيبيّة**. وهو ما يقود إلى ميتافيزياء النصّ الناطق الرسمي باسمها لا يسكن حرف الوجود في الواقع، ولكنه خطاب اللاواقع، أو كلمة ظلّ الواقع، الذي نستطيع أن نسمّيه غيوباً. وعبقرية النصّ مستعارة من هذا البُعْد

Twitter: @alqareah

الخفيّ بقدر ما هو ثريّ، وربّما لهذا السبب هو ثريّ، ولا تلعب فيه الثقافة سوى دور ثانوي (ثانوي لأنه تقني حسب) أمّا مؤلّفها الحقيقي فهو بُعْدٌ مجهول: مجهولٌ بقدر قيمة النصّ الأدبيّة، أو بمدى ما بثّ فيه البعد الضائع أنفاسه السريّة.

وجهلنا بهذه الأعماق هو ما يدفعنا لاقتراف خطيئة أخرى في حقّ النصّ عندما نعتمد موقف المؤلّف كشخص لتقييم كلمة النصّ، بدل أن نفعل العكس.

من هذه العقليّة يولد المسخ الذي يدفع الناس ليتوهّموا أن المؤلّف كشخص مخوّل أن يقول **خارج النصّ** ما لم يقله في النصّ، أو بالأصحّ، مالم يقله عنه النصّ بالإنابة، في حين يتوجّب أن نحتكم إلى **النصّ** إذا شئنا ان **نعرف** في المؤلّف الشخص، فكيف لا نحتكم إلى جلالة النصّ في حال قرّرنا أن **نقيّم** موقف المؤلّف كشخص؟

والواقع أن التشخيص لا يجب أن يتوقّف عند حدود شخص في مواجهة نصّ، لأن هذا من شأنه أن يهضم حقّ طرف ثالث في المبارزة وهو **المؤلّف** كهوية تختلف تماماً عن حقيقتها كشخص. فالمؤلّف إنسانٌ يحمل سيماء الشخص ما ظلّ غريباً عن واقع النصّ. ولكنه لا يلبث أن يتنكّر لهذا الواقع بمجرّد مثوله في حضرة النصّ المتمثّل في معاندة النصّ. هنا يغترب الشخص عن طبيعته كشخص ليستعير هوية يلعب فيها البُعْد المفقود دور البطولة، فلا يكتفي خلال سيرورة العمل أن يغترب عن العالم وحسب، ولكنه لا يلبث أن

Twitter: @alqareah

يغترب عن نفسه أيضاً حتّى أنّه لا يستعيد هويّته الوجوديّة إلاّ بعد طقوس قد تستغرق طويلاً، برغم أن ذوي الهشاشة الروحية يفضّلون اللّاعودة، وعندما تستحيل، يؤثرون أن يُجَنّوا، فإن لم يكن، فالإنتحار خيارٌ أخير!

وأعتقد أن جريمة العالم إنّما تكمن في الخلط الفظّ بين هذه الأبعاد الثلاثة في الفعل الإبداعي (الشخص ـ المؤلّف ـ النصّ) واتّخاذ الموقف الذي يوحّد الثالوث في هويّة محدّدة بالشخص الذي يكفي أن يستدعيه لمحفل مّا كي يستحضر شخصه البُعْدَين الضائعين الآخرين: المؤلّف والنصّ!

والعالم لم يكن ليجرؤ على هذا الفصل بدون وحي من سيّدة العالم الأيديولوجيا التي لن تخجل من أن تطلق على هذه العملية الجراحية الدموية إسم: **اللعبة!** فكل فعل نبيل لابدّ أن يُسفَّه بفعل الأيديولوجيا ليُنعَت بـ **اللعبة** إمعاناً في الإستهتار الأخلاقي، وتشبّثاً بتلابيب السخرية السوداء. وهكذا يُساق النصّ كبش فداء في مذبح إستعراض يتحوّل فيه المؤلّف بهلواناً يستجدي أناساً غير معنيّين أصلاً به كمؤلّف، فكيف بالنصّ؟ لأن همّهم التسلية، أو بالأصحّ، **التهريج** على هامش يغيب فيه البطل الحقيقي وهو: النصّ.

لا أنسى كيف استخدم أستاذي وصديقي القديم البروفيسور بوغدانوف هذا التعبير في تلك الأمسية الرومانسيّة التي جلسنا فيها لتناول طعام العشاء في مطعم «باكو» بموسكو في وفاة البروفيسور ماشينسكي الذي انتدبته وزارة التعليم العالي السوفييتية ليتولّى

الإشراف على رسالتي للدكتوراة عن دوستويفسكي، ثم خلفه إمام الروح العدميّة بوغدانوف كخلفٍ لسلفه، في وقتٍ بلغ فيه الخلاف بيني وبين سدنة الأيديولوجيا في المعهد الذروة بشأن موضوع الأطروحة، كما بيّنا في الأجزاء السالفة من هذا البيان، وكان أن صارحت بوغدانوف في تلك الليلة بقراري في الإنسحاب، فلم يجد ما يعزّيني به سوى عبارة ضمّنها سخريته المجبولة دوماً بروح العدم: «لقد بدأنا لعبة، ويجب أن نلعبها إلى النهاية».

ولم يدرِ السيّد بوغدانوف أنه، بهذه العبارة، ألهمني التخلّي عن اللعب بدل أن يدفعني إليه، لأني أستطيع أن أتحلّى بالتسامح فأتساهل مع كل شيء لأعترف به لعباً، باستثناء ما آمنت به حتى آنذاك ضماناً وحيداً لوجود الحقيقة في هذا العالم المستهتر بكل ما هو حقيقي، لأن الإبداع وحده يستطيع أن ينقذ العالم، تماماً كالجمال الذي يتحدّث عنه دوستويفسكي نفسه. وكم هو مخيّبٌ للآمال أن أرى في تسعينيات القرن عالماً يتجاهل معبوداً هو النصّ ليحتفي في مسرحيّات هزليّة (يسمّيها مؤتمرات وندوات وفعاليات) بحضور الشخص مستثنياً من اللعبة، لا النصّ وحسب، ولكن مؤلّف النصّ أيضاً!

يمارس عالمنا، في حملته لتغريب القيم، تجديفاً في حقّ شخصيّة النصّ، ويثأر منها عندما يستبدلها بالشخص في شخصيّة المؤلّف، فلا ينجدها إلاّ التاريخ الذي يُفني الشخص والمؤلّف معاً ليعيد لها الإعتبار بوصفها الشاهد الوحيد على حضورها قيد الوجود بعد زوال بُعْدَي الشخص والمؤلف في كيان الثالوث، لتبرهن السياسات الثقافية في

عالم اليوم مرة أخرى على لا أخلاقيّتها وممارستها لإثم يخفق حتى تبكيت الضمير في محو آثاره المهينة. فمراسم الإحتفاء وتقليد الأوسمة، وخلع الجوائز، وإحاطة الشخص في المؤلف بصنوف التكريم، كلّها نهجٌ للنيل من شخصيّة النصّ كمنظومة تتماهى فيها عناصر الثالوث، لحساب وضع يجهض فيه القيمة بفعل التهريج الذي يُستدعى فيه شخص المؤلّف ليؤدّي دور البهلوان. وذلك أن الجائزة تحتفظ بالقيمة في حال يكون الحَكَم فيها النص، أو بالأدقّ، شخص النصّ، وليس الشخص بأيّ حال، فكيف إذا حدث وصار الحَكَم فيها لا الشخص وحسب، ولكن هويّة المؤلّف كشخص، وليس هويّة النصّ، كما يحدث في العالم العربي تخصيصاً؟

فالعالم الذي لا يريد أن يعترف بأسبقيّة النصّ سواء في العلاقة بوجود الشخص أو بوجود المؤلف في الشخص، لا يلبث أن يخونه الزمان الذي إذا كان مالكاً لزمام الأمر في شأن شخص المؤلّف أو في شأن المؤلف الذي يسكن الشخص، بيد أن هذا الزمان لا يملك السلطان على **شخص النصّ**، إلاّ لكي ينصفه ليُعلي شأنه رغم أنف عالمنا المفتون بالعبث وكل ما له صله بالمهزلة. يستخدم العالم في هذه المهمّة تقنيات تعمل على تغليب الشخص بتأليف الأسطورة ترويجاً لهذا البُعْد من دون كل شيء في الثالوث، كأن يتمّ تسليط الضوء على جوانب معيّنة في السيرة الذاتية تصلح لتشكيل صورة للـ Wunder Kind المطلوب، أو إختلاق مواقف بحيل سينمائية، وفعل كل ما بالوسع لصنع نموذج مثيل لنموذج النجم في السينما، لكي تكتمل فصول المؤامرة ضدّ الفحوى التي لا وجود لها خارج النصّ.

8

الجناية على النصّ بحشره في قمقم الشخص عملٌ رهين الوقت، وليس رهين حفّار القبور الذي نسمّيه الزمن. يغترب النصّ بحضور الشخص، في ناموس عالمنا، ليمارس الشخص دور الضرّة في العلاقة مع النصّ إلى أن يقضي الله أمراً كان مفعولاً، فيذهب الشخص إلى غير رجعة ليستعيد النصّ حضوره فيتشخصَن شخصنة تلعب دور البديل لشخصٍ كان بالأمس وليّ أمر النصّ. يرث النصّ شخص المؤلّف ليتبوّأ بعده عرش خلافته على الأرض كأنه ينتقم لنفسه من إضطهاد العالم له طوال بقاء خصمه الشخص على قيد الحياة الدنيا، فلا يهيمن في الواقع إلاّ بغياب الشخص الذي لا يضيره العدم إذا كان غيابه يمهّد السبيل كي يكون له النصّ هو الوريث لإيمانه بعدم وجود عدم مع وجود نصّ. إنه الإيمان ذاته الذي يدفع بمريد النصّ لأن يرمي بنفسه في النار وراء النصّ في تجربة الإمبراطور الروماني لاختبار الصلة بين الشخص في صاحب النصّ مع شخصيّة النصّ.

هذا لن يعني بالطبع أن العالم سوف يتساهل بسهولة في علاقته بالنصّ، ولكن الإعتراف الرسمي بالنصّ رهين غياب شخص مؤلف

Twitter: @alqareah

النصّ عادةً، برغم أنه إعترافٌ خجولٌ يعبر مراحل يخضع فيها النصّ لصنوف التنكيل على يد النقّاد أوّلاً، ثمّ على يد لجان المناهج الدراسيّة ثانياً. النقد يتنادى ليبسّط فيه الفحوى، وكهنة المناهج يصيبون فيه مقتلاً بالمقتطفات. ولا ينجو من هذا القصاص المدبّر سوى النصّ المقدّس، أو النصّ الكلاسيكي الذي عومل من قِبل إنسان الطبيعة القديم معاملة النصّ المقدّس، كما هو الحال مع الإلياذة أو الأوديسة، أو الإنياذة، أو نصّ أفلاطون، أو تاريخ هيرودوت، أو ما شابهها في مراحل متأخّرة كالكوميديا الإلهيّة أو الفردوس المفقود أو نصّ شكسبير، أو نصّ دوستويفسكي، على سبيل المثال. وهو ما يصدق أيضاً على أشعار الأمم أو أمثالها الشعبية كما هو الحال مع «آنهي»، أو الملاحم الشفويّة، وغيرها من السيَر المحكية. ذلك أن سلاح الإنسان الحميم الصلة بالطبيعة هو الذاكرة في حربه ضدّ النسيان في تلك الحقبة التي سبقت إختراع التدوين. ولهذا كان للنصّ حضورٌ في الوجدان يرتقي لمستوى السلطة الدينية ساعده في ذلك غياب عقلية الجمهور على النحو الذي نراه اليوم، لأن مثل هذه النصوص عاشت في الأوطان كـ«بنت بيتها المشيّد على أعمدةٍ سبعة»، لأنها وُلدت من أمّ فقط، ولم تعرف لها الأمم أباً، لأن وجود الأب لأيّ نصّ هو سببٌ كافٍ لاستهدافه بالقتل، وليس مصادفةً أن يكون موضوع أعظم الأعمال الأدبية في العالم تدور حول قتل الأب، كما يروي فرويد، مثل «أوديب» و «هاملت» و«الإخوة كارامازوف»، وهو ما يعني أن حضور شخص المؤلّف (كأب شرعي

Twitter: @alqareah

للنصّ) بجوار النصّ (كإبنٍ شرعيّ هو المؤلّف) خطر لن يزول إلاّ بزوال هذا الأب. وهو ما دلّلت عليه التجربة فعلاً. فلا هوميروس أضحى هوميروس أثناء وجوده على قيد الحياة، ولا أفلاطون أمسى أفلاطون طوال حضوره قيد الوجود، ولا شكسبير هو شكسبير في نظر معاصريه، ولا دوستويفسكي هو دوستويفسكي... إلخ.

والمدهش أن الإعتراف بنصّ هؤلاء يتناسب طردياً مع اغترابهم عن دنيانا. ليس هذا وحسب، ولكن الشهادة على حضور النصّ كبديل عن حضورهم بيننا يتجلّى في تماهي هؤلاء مع أبطال نصوصهم إلى الحدّ الذي يفقدون فيه شخصياتهم، بل وحتّى أسماءهم، لتغدو أسماء هؤلاء الأبطال كناية ضمنية تدلّ عليهم. فيكفي أن نقول «أوليس» لكي نستحضر هوميروس، كما يكفي أن نقول «أناي» لكي نستحضر فرجيل، ويكفي أن نقول راسكولنيكوف أو كيريلوف، أو ستافروغين، أو إيفان كارامازوف، لكي نستحضر دوستويفسكي، ويكفي أن نقول «هاملت» لكي نستحضر شكسبير... إلخ.

هذا يعني أن إنطلاق مارد النصّ من القمقم رهينٌ بتدخّل التاريخ كوسيط لتحرير مكيدة الجمهور الذي سنكتشف أنه لا يريد خيراً بالبُنْيَة المركّبة التي نسمّيها مبدعاً عندما يعتقلها في بُعْد الشخص، أو حتّى في بُعْد المؤلّف، لأن الوجود في الزمان بهتان، ولكن الخلود غنيمة الروح التي لا وجود لها خارج النصّ.

فبعبور المؤلّف كشخص إلى برّ البرزخ في جانبه الآخر، يبطل مفعول الجمهور، كما يبطل مفعول السحر، لأن البُعْد المفقود سوف يستيقظ في النصّ، فيتحقّق بعث النصّ!

Twitter: @alqareah

9

في مطلع 1997 صدرت «التبر» بالألمانية أولاً، ثمّ بالإيطالية والفرنسية والإسبانية على التوالي. وإذا كنتُ لا أنوي تناول حملات الإحتفاء بهذه الرواية في وسائل إعلام هذه الأمم، بَيد أنّي لا أملك إلاّ أن أتوقّف عند ندوة باريس المنعقدة بمبادرة عصبة المستشرقين الأوروبيين (بالتعاون مع كلٍّ من جامعة السوربون ومعهد العالم العربي)، وفعاليات مؤتمر الأدب العالمي المنعقد في «إرلانغن» بألمانيا. ليتواصل في بلاط «المركز الدولي لثقافات العالم» ببرلين. فإذا كنّا قد تناولنا مسألة (أو مأساة) الحضور في حضرة الجمهور، فإن الحضور في حضرة المؤتمرات الأدبية عملٌ لن يختلف في جدواه عن المثول بين يدي الجمهور، لأنه مثولٌ في الواقع في بلاط تلك الفئة التي لا تعشق الأدب إلاّ بقدر ما تتحسّس من أهل الأدب، وهي: **الأدباء**! وإذا كان الأمر كذلك فما الداعي لعقد مثل هذه المؤتمرات؟

يروق البعض أن يبرّر مثل هذه التظاهرات بكلمة تحمل من الوعود بقدر ما تحمل من الغموض وهي: «التواصل»، كما عبّرت لي سيّدة أكاديمية أشرفت منذ أعوام على مؤتمر إشتهر تالياً بإسمِ

Twitter: @alqareah

جليل هو: «مؤتمر المعرفة» الذي دعا إليه أمير دبي، وتلقّيت دعوة لحضوره، وعندما تساءلت عن موضوعه أجابتني تلك السيّدة بسيرة «التواصل» هذه لتكون سبباً في اعتذاري عن قبول الدعوة! والواقع لم يُكذّب حدسي، لأن «المعرفة» التي كانت حُجّة المؤتمر لم تكن المعرفة النبيلة التي لن تكون سوى معرفة المعرفة، أو بالأصحّ، معرفة الحقيقة، كما اتّضح فيما بعد، ولكن لكي يعرف المؤتمرون بعضهم بعضاً، والمبلغ الذي أُعلن عن رصده لدعم الثقافة العربية البائسة، وهو عشرة مليارات دولار، تبخّر بقدرة قادر دون أن تظهر نعمته على سيماء الثقافة العربية، في زمنٍ تُنفق فيه الأموال الأسطورية التي تُجبى من عوائد النفط في العالم العربي على كل المجالات باستثناء مجال وحيد منبوذ بل معادٍ، وهو الثقافة! وأذكر أن أدونيس الذي تنازل وحضر المؤتمر حدّثني كيف سأله سموّ الأمير بلهجة لوم عمّا إذا كان سيواصل ترديد مقولته عن «المال العربي الغبيّ» بعد هذا القرار، فأجابه أنه لم يقل أن المال العربي غبيّ، ولكنه قال أن المال العربي جاهل! وهو تخلّصٌ ذكي من حرج، ولكنّه ليس تنصّلاً من إدانة، لأن لا فرق في الواقع بين أن يكون المال العربي غبيّاً أو أن يكون جاهلاً، لأن الغباء إذا كان قدراً منزّلاً فإنّنا نستطيع أن نلتمس لصاحبه الأعذار، أمّا الجهل فهو ليس قدراً، ولكنّه خيار. والخطايا المقترفة بسببه لا تدعونا لأن نتسامح معها، لأنها عن سبق إصرار!

الخلاصة أن المحافل هي منفى المبدع سواء أكانت جمهوراً أم مؤتمراً. وإذا كان المحفل، في صيغة الجمهور، يختلس من المبدع

Twitter: @alqareah

روحاً، فإن المؤتمرين يقتلون المبدع كرهاً. فهم لا يلتئمون لكي يتبادلوا حبّاً، ولكن ليخفوا بغضاً لسبب بسيط وهو أنّهم لم يعرفوا يوماً بعضهم بعضاً، لأنهم لم يقرأوا بعضهم بعضاً. فالنصّ المخوّل بأن يتولّى دور الوسيط بينهم بُعْدٌ غائب. ولهذا لن نستهجن أن يغتربوا عن بعضهم البعض. ولهذا أيضاً لم يخطيء الإمام الغزالي عندما أعلن أن لا أحد يحسد العلماء كما يحسدهم العلماء! وعلينا أن نتخيّل ما يمكن أن يصيب الإنسان الذي يعرّي روحاً في محفل هؤلاء، لأن عفويّته ستبدو سذاجة، وفطريّته دروشة، وتلقائيّته بلاهة، وانفتاحه خدعة، وأريحيّته غباوة! ولا ملاذ يمكن أن يجيره من سوء المحفل سوى الجمال في المكان، سواء أكان طبيعةً، أم معلَماً من صنع إنسان، كما هو الحال مع المعمار في مدينة كـ إرلانغن التي ماتزال تحتفظ في جدرانها بسيماء الزمن الضائع، برغم جنون الحروب وصرامة الطبيعة الشمالية. هذه السيماء التي استقبلتني في مدخل الفندق بأعمدته الموسومة ببصمة الـ روكوكو: صلدٌ ملفوفٌ بحبكة كالضفائر، يبدو عقدة من عروق شجر تتلوّى حول الجذع الصقيل ككتلة أفاعٍ ثريّة الأبدان. ففي جلّ الأبنية يتآلف هذا الجنس من فنّ المعمار مع سلفه الـ باروكو ليؤلّفا معاً سيمفونية تروي الروح الجمالية للمكان، مستعيرةً من الطبيعة التميمة القادرة على تفتيت الجمود في الكتلة الحجرية وتحويلها مادّةً شعريّة. فالكثافة في تجسيد لفافات العروق، الملتفّة حول سيقان الصلد، إحتيالٌ على الحدّة التقليدية في الجلمود، وكسرٌ لشوكة الصرامة. وبتلات

الزهور، المفتولة من صميم الصخر، تنفي الطبيعة الصخرية في الصخر، وتنتشله من مملكة الجماد لينطق بلسان النبوت، فتزول الحدود المصطنعة بين الكائنات، لأن الخطاب هنا موجّهٌ للركن الثالث في الملحمة وهو الإنسان، لأنه المعنيّ هنا بالوحدة القدسية التي تتغنّى في حضرته بأنشودة الجمال.

فالعدوس المفطور على مشاهدة حجر حمادة «تينغرت»، المخضّب بلون الدمّ كأنّه مستعارٌ من بشرة أهل المكان، كان مفتوناً بهذا العجب منذ المهد. فطبيعة حجر الشمال واقعٌ حجري مطلق يغيب فيه البُعْد الرمليّ الذي كان في العقلية النمطية السائدة رديفاً لمبدأ الصحراء أصلاً. فالوعوثة تغترب حتّى في قيعان الوديان التي احتفرتها سيول الدهر أخاديداً في الواقع الحجري المكابر. قد تُقبل رياح الجنوب بنصيبٍ طائشٍ من رمال القبلي، ولكن هذا النصيب الذي يتشبّث بأصول بعض النباتات في الأحاضيض لا يلبث أن يتبدّد بمشيئة رياحٍ أخرى، ليعود الحجر سلطاناً على برّ الشمال. بسبب هذه الطبيعة الحجرية في واقع صحرائي الشمالية كانت الحياة كلّها حَفراً في الصخر. فالشحّ في النبوت أدّى إلى شحٍّ في الوقود في واقعٍ أشدّ حاجة إلى هذا الكنز إذا ما قورن بواقع الصحاري السفلية، لأن صحراء الشمال الجبلية ليست ارتفاعاً وحسب، ولكنها عارية أيضاً. ليست عراء وحسب، ولكنها الأشدّ صقيعاً أيضاً. وهو ما يعني أنها الأشدّ حاجة إلى الوقود المتمثّل في حطب يغترب من واقع الناس بسبب إغتراب الشجر. ليس كل شجر، ولكن الشجر المحدّد لتأدية

Twitter: @alqareah

وظيفة الوقود كاليبيس الذي ينمو في أراضي الوعوثة عند نزول الأمطار، ولكنه لا يصمد في وجه الجفاف فيتيبّس مع حلول الأصياف. أمّا أشجار السدر أو الطلح أو الرتم أو البطوم التي تنمو في البراري الحجرية في الشمال فلا تُستخدَم في تغذية النار بسبب بطولتها في مقاومة الظمأ فتبقى خضراء دوماً. وليس من شيَم أهل المكان إقتلاع الأشجار الخضراء لاستخدامها في أغراض الحياة اليومية مهما استدعت الضرورة، ويفضّلون السفر إلى أبعد الوديان في الجنوب لأمَدٍ يستغرق أياماً ليستجلبوا حزمة أحطاب على أن يقترفوا خطيئة اجتثاث شجرة واحدة خضراء من النوع المذكور. إنه الوعي البيئيّ الفطري الذي لن يقارَن بالوعي الذي نتلقّاه تلقيناً على النحو السائد اليوم.

هل هو وعيٌ فطريٌّ بالبيئة حقاً؟ إنه في الواقع أبعد من الوعي بالبيئة. إنه الوعي بوحدة الكائنات التي ترى في الطبيعة أمّا كبرى، وما الكائنات فيها سوى إخوة، ينتمون إلى سلالة الأمّ الواحدة الكبرى التي لا شقيقة لها، ولا شريك لها، ولذلك كل ما انتمى إلى جلالتها هو كينونة كاملة، ولذلك هي مقدّسة. وبالمقابل لم تبخل هذه الأمّ الحكيمة على أبنائها، بل كافأتهم على إخلاصهم لناموسها بأن أجارتهم من الزوال برغم كل البلايا، في حين تخلّت عن الأمم التي خانت يوم تشبّثت بتلابيب أمٍّ أخرى ملفّقة سُمّيَت حضارةً، ليصير قدر هذه الأمم الفناء بدل الخلود المأمول!

ولهذ السبب كان الحجر في صحرائي الشمالية سيد الموقف في

Twitter: @alqareah

واقع يندر فيه وجود الشجر. ومن الطبيعي أن ينقلب معبوداً في وجدان الطفولة الهشّ. ففي الفضاء المفتوح، الممتدّ ليتواصل في الآفاق كأنّه تجسيدٌ متعمّد للأبديّة، تنتصب من حين لآخر أنصابٌ حجرية لتكون للقوافل شواهد لسبيل. باستثناء هذه الأنصاب لا وجود لتشكيل حجريّ منافس سوى أضرحة الأسلاف بأسلوبها المعماري المستدير الذي تتراكم فيه أكداس الألواح الحجرية بإتقانٍ هندسيٍّ مهيب يستثير إحساساً دينياً، وربّما عدمياً، في وجدان طفولة في طور التكوين. فلا وجود في صحرائي لبيوتٍ تغري بتأمّلها من رؤية معمارية، لأن البيت في مفوم القوم هو ما لا يُعَوَّل عليه بوصفه قبر الدنيا، بقدر ما القبر بيت الأبدية. وإنها النزعة ذاتها التي انتقلت في ركاب الدياسبورا الكبرى إلى وادي النيل لتؤسّس لمفهوم القبر كبيت الأبدية الذي يجب العناية به مقابل الإستهانة بقرينه قبر الدنيا الفاني. ولهذا لا يبقى لمريد الحجر إلاّ أن يستنطق الصلد، لا كَفَنٍّ مؤهّلٍ لأن يحقّق حضوراً في شكل، ولكن كجسمٍ يؤكّد وجوداً في الطبيعة. أي ككيان يحقّق وضعاً في الحرية. وضعٌ يجود بفضيلتين إحداهما ذات بُعْدٍ وجوديّ وهي الثقة بالنفس، وثانيهتما ذات بُعْدٍ غيبيّ وهي الإيمانُ بالخلود ديناً، لأن الحجر إذا كان من الخلود في شكّ (لأن حلف مبدأ ميتافيزيائي كالزمن مع مبدأ خفيّ كالريح يستطيع أن يبيد فيه الجرم) فأيّ طبيعة في هذا الوجود تستطيع أن تطمع بخلود؟

ففي البريّة يسود معمار إنسان البرّ (الخباء) مقابل معمار الطبيعة (الغار). وبقدر ما يبدو معمار الطبيعة كياناً حاسماً في حضوره، بقدر

ما يبدو معمار إنسان البريّة كيان أشباح، لأنه يتنكّر لناموس المعمار الذي لا يعترف بغير الحجر هويّةً، في حين يبدو الخباء كياناً هشّاً، مخالفاً لطبيعة المعمار، لأنّه عابر، برغم أنه لا يتنصّل من سليقته كهيكل. فالغيران لم تكن بيوتاً لأهل جبل نفوسة وحدهم، ولكن امتدادها صعد ذروة هذا الجبل لنجد لها حضوراً في المفازة السمحاء المعروفة اليوم بـ«القريات» في عمق الحمادة الممهورة بالدمّ. ولكن أمّة الرحيل لم تركن إلى هذه الجدران لتتّخذها بيوتاً، وفضّلت أن تعتنق دين الهجرة الذي يبيح للإنسان أن يحمل معماره على منكبيه لينطلق به تلبيةً لنداء الحريّة، لأنه في الواقع ليس إنساناً، ولكنه الطّيف، أو الملاك، الذي يتنكّر في جسد إنسان. فالخباء، كبيت محمول، أيضاً بُنْيَة معمارية بما هو تقنية، أو حبكة فنّ سواء أكان تلفيقاً من جلود الحيوانات، أو نسيجاً من أوبار الإبل أو أصواف الغنم.

ففي بيئة ثقافية تنطق بلسان لغة اللاهوت، كما هو الحال مع أمّة الصحراء الكبرى، لا يتّخذ البيت المنقول شكلاً مستديراً كما في بيئة صحاري آسيا الصغرى أو الهنود الحمر، ولكنه تكوينٌ مثلّث الأضلاع تيمّناً برمز الربّة تانيت. وهو ما يعني أنه يستعير سيماء المَعْبَد. وهي النزعة التي حملتها الدياسبورا الكبرى في شقّها الذي استجار من الجفاف بوادي النيل ليستنزل هذه الروح الدينية ضيفاً يرطن بلغة الحجر في معمار الأهرامات. فالهرَم تكوينٌ معماريٌّ ديني حرَص الكهنة أن يبدو هيكلاً مثلّثاً من كل الزوايا، تأكيداً على هويّته

Twitter: @alqareah

الدينية كمعمار. وهي نزعة لم تكن حكراً على شقّ الدياسبورا التي عرفت طريقها إلى النيل، ولكنها أدركت الضفّة الأخرى للمتوسّط لتغدو السمة التي ميّزت معمار أمم هذا الحوض (سيّما إسبانيا) من خلال الواجهة المثلّثة في الأبنية، وفي سلاسل الأسوار المسنّنة على شكل مثلثلات أيضاً كأنها تأكيد على الشعار الذي يستحضر ألوهة مجهولة الهوية.

أمّا الإستدارة، في معمار أضرحة الصحراء الكبرى، فهو استعارة من مفهوم الربوبية الذي اعتنقته جلّ الشعوب واعتمدته في المعمار من خلال الهَوَس بالقِبَاب لا لأنه يستوعب كل الأشكال الهندسية (كما يقول أرسطو)، ولكن لأنه الرمز الدال على الألوهة في لغة التكوين. فالدائرة تعني حرف الراء، وحرف الراء يعني الربوبية في كلٍّ من لغة مصر القديمة ولغة أمّة الصحراء الكبرى أيضاً. كل ما هنالك أنه يرد في اللغة الأخيرة **كُرَوياً**، في حين يرد في أبجدية لغة مصر القديمة **بيضَوياً**. ولكنه يظلّ في الصيغتين الشكل المكبّر للنقطة التي نصّبتها الديانات الصوفية تجسيداً لمبدأ بلا بداية، وبلا نهاية، مركزه في كل مكان، وفي اللامكان. ولهذا نلاحظ كيف وحّدت الديانة المصرية بين هذين القطبين (المثلث والمستدير) الذي يبدو في النقوش صولجاناً محمولاً للتدليل على هوية حامله الألوهيّة، كأنّ الفزع الذي يستثيره فينا الجرم المثلّث بصرامة أضلاعه، وقسوة أركانه، تشتريه فتنة الإستدارة بعبقرية الخلود، لأن ما يتدحرج وحده المعصوم من الكسر. فما يُرعب في المثلّث هو: **الطبيعة**، وما يعزّي في الدائرة هو: **الروح**، لأنها وعدٌ بالخلود!

Twitter: @alqareah

فهَوَس إنسان البريّة بالتميمة هو ما يدفعه لبثّ شجونه في بيت لا يكتفي بأن يؤدّي وظيفة التقيّة من الحرّ والقرّ والرياح، ولكنه يتحوّل بفضل المرونة في تلقّي الوسم الإلهيّ إلى فردوس يحقّق السلام الروحي دون أن يفقد الفردوس الأسمى وهو الحرية: حرية لا وجود لها في حدود المعمار المحصور بتلك الزوايا الكريهة التي لم تكن في تاريخ العمارة عدواناً سافراً ضدّ الروح الجمالية وحسب، ولكنها كانت بمثابة وصمة الدنس في المنظور الديني أيضاً. وكل المذاهب الهندسية في فنّ العمران في الأزمنة الحديثة إنّما كانت بمثابة ثورات حقيقية للإحتيال على هذا الدنس، ومحاولات بطولية لاستعادة الفردوس المفقود في المعمار. والسنيور غاودي نموذج لهذه الحملة في مطلع القرن العشرين الذي أفلح في تجريد حرف المعمار من لعنة الزاوية، لا على مستوى الكيان الأعزل الذي نسمّيه بنياناً وحسب، ولكن على مستوى بُنْيَة العمران في مدينة برمّتها كما هو الحال في برشلونة التي لم تصنّف كأجمل مدينة في عالمنا إلاّ بفضل هذه التقنية الجمالية التي حرّرت الكيان المعماري كمظهر، كما طهّرته كجوهر. فالمقصورة التي كانت يوماً تحفة تحيي جوف المسارح، انتقلت من محيط الداخل لتحتلّ شرفات البيوت التي كانت قبلها تجسيداً حرفياً لتابوتٍ كئيبٍ باعثٍ على يأس. لم تتوقّف حملة إحياء الكيان عند هذا الحدّ، ولكنّها استخدمت الألوان الوردية المسالمة المجدوحة بإيماءات رومانسيّة محايدة لئلاّ تصيب الإنسجام في السياق بجراح، مستنزلةً في الحجر سكينةً تنفي فيه هويّة الحجر،

Twitter: @alqareah

لتبعث فيه هوية القصيدة، وربّما هويّة المعزوفة الموسيقية، وهي تحقق معجزة التحوّل جسداً، في سيرة تتخلّى فيها الأركان عن طغيانها، فتتوارى زوايا الدنس من المشهد خجلاً، على نحوٍ لا يستأثر فيه الهيكل بالذخيرة المستترة منفرداً، ولكن هويّة المدينة، ذات الأربعة مليون نسمة، تتحوّل متحفاً خرافياً حميماً غنيّاً بالمعروضات، لأنّ كلّ كيانٍ معماريّ فيه هو مَعْلَم أثريّ مشفوع بحسٍّ صوفيّ. هذا الحسّ الصوفي الذي كان مستودع إلهام في أسلوب غاودي المعماري، سيّما البُعْد المستعار من تقنية الزخرف المستعارة من معمار شمال إفريقيا الصحراء الكبرى تحديداً، كما هو مبيّن في واجهات المعالم الأثريّة بالأندلس.

Twitter: @alqareah

10

لم أعلم قبل ذلك التاريخ سرّ هوس الألمان ببدعة إسمها التمثيل.

أقول بدعة لأنّي لا أملك الحقّ أن أسمّي التمثيل فنّاً إذا كان يعتمد الأكذوبة منهجاً لتسويق سلعة. وهو ما سنحاول تناوله بعد قليل ببعض التفصيل. فما برهنت عليه التجربة هو افتتان الروح الألمانية بهذه اللعبة برغم إخفاقها الذريع في إتقانها. وهو إخفاقٌ تاريخيٌّ فيما أرى، لأنه استوقفني قبل أن أعرف واقع هذه الأمّة الفذّة عن كثب. وتأويلي الشخصي له إنّما يكمن في طبيعة هذه السلالة وتكوينها الوجداني، وهو ما لعب فيه المحيط البيئيّ دور البطولة. هذا المحيط الذي ميّز أمم الطبيعة الشمالية القاسية، بمناخها البارد، وواقعها الصارم، عن أمم الجنوب بمناخها الدافيء، وواقعها المرح، كأنّ أمّنا الطبيعة تأبى إلاّ أن تمارس صلاحيّاتها هنا أيضاً، فتبثّ مشيئتها وصيّةً مطلسمة مخفيّةً في الجينات. فالحضور في الشموس، وهيمنة الدفء عبر الفصول، أمرٌ يشجّع على التحرّر من قمقم البيت، ويدفع لاستعمال الجسد. أي ممارسة اللعب. والتوق إلى اللعب، كما نعلم، أفيون الكائن الحيّ إجمالاً، وليس حكراً على الحيوان

Twitter: @alqareah

المسمّى إنساناً؛ لأنه التعويذة الأكثر فعالية في مداواة داء وجودي خبيث هو: **الملل!**

وطغيان هذا السلطان هو ما دعا إمام الحكمة أفلاطون لأن يحثّ على اللهو في وصيّته القائلة بوجوب أن يحيا الإنسان في دنياه لاعباً (لاهياً)، لأن اللعب هو الحرز الوحيد القادر على أن يجيرنا من الموت **سأماً!**

ولهذا السبب صارت اليونان القديمة مهداً للمسرح بوصفه **خشبة لعب** قبل كل أوطان الأرض، لأن الإحساس التراجيدي بالملل، ككابوسٍ وجوديّ، إنّما وُلد هناك كوليدٍ شرعيّ لتأمّل الموت، أي **ميلاد الفلسفة!**

فالتراجيديا لم تولد من روح الموسيقى (كما يؤكّد نيتشة)، ولكنها وُلدت من رحم الإحساس بالملل، لأن الموسيقى إذا كانت سليلة الظمأ إلى الله، فإن الملل هو الشبح الذي نبّه إلى هيمنة الموت. من هنا كانت ضرورة اختراع ترياق لمواجهة هذا البعبع، فلم يجد المصاب سوى اللعب ترياقاً. ولكن المأساة أن اللعب ما لبث أن تحوّل حِرفة. وتحوّله حِرفة هو ما استدعى وجود شروط لممارسته. وأول هذه الشروط هو: **الموهبة**. وهي موهبة لن تكون سوى القدرة على التنكّر بتقمّص واقع **مفترض**، أو بالاصحّ، إستعارة **وجود** مفترض. أي أنه، في الحقيقة، الإجتراء على الحقيقة. فالنجاح في هذه الحرفة يقاس بمدى إنكار وجود حقيقي، واستبداله بوجود آخر مفتعل، وهو ما يسمّى في أدبيّات الحرفة بالإتقان. الإتقان بقطع

Twitter: @alqareah

النظر عن فحوى الموضوع بالطبع: موضوع زيّفت فيه الأيّام الغاية أيضاً لتصبح المتعة الجمالية له غايةً، ثمّ أمثولة النصّ غاية ثانية، كل ذلك للنَّيْل من الغاية الأصليّة وتغريبها عن الواقع وهي الأحتيال على وجودٍ يسري فيه الملل كرسول مفوّض من قبل الموت.

فالتمثيل، كأسلوب لعب، هو موقف من الحقيقة، بقدر ما هو موقف من الموت. والمفارقة المخجلة أخلاقيّاً هي أن حسن الأداء فيه لا يُقاس بمدى قبول هذه الحقيقة، ولكن بمدى رفض هذه الحقيقة، أي بمدى إتقان التزوير، والعمل على رفض هذه الحقيقة البديلة للحقيقة الحقيقيّة المرفوضة لا لشيء إلاّ لأنها لا تلوّح بالخلود في وجه المخلوق الوحيد الذي لا وجود في قاموسه للعدم. وتلك مأثرة قد تُحسب له لا عليه في كل الأحوال. وهي خصلة حقّ لإنسان جنوب الكرة الأرضية أن يتباهى بها، وهو الذي أنعمت عليه الطبيعة بمناخٍ متسامح، في حين بخلت به على إنسان الشمال الذي لم يجنِ من قسوة الأجواء سوى الكآبة التي لن يجدي في مداواتها ترياق كاللعب، سيّما في أسلوبه المرح المتمثّل في احتراف الزور!

ولتبديد ليل الكآبة، المخيّم أبداً في بيئة الشمال، استجار هذا النموذج في حربه مع الملل بالفلسفة اساساً. والواقع يبرهن أن احتراف الفلسفة هو ما أوجد الولع بالموسيقى ليتحوّل هذان الماردان غنيمة كادت تصير حكراً على نموذج الشمال الذي حقّ لنا أن نخلع عليه لقب «نموذج الكآبة» الذي لن يكون سوى «نموذج الحقيقة» في الواقع، لأن الروح فيه تستنكر الزيف، ولهذا السبب لن يضيرها أن تفقد موهبة لا أخلاقية كالتمثيل!

Twitter: @alqareah

وقد لاحظت أثناء وجودي الطويل في بلدٍ مجاور لألمانيا كبولندا كم يبدو الممثّل الألماني مضحكاً وهو يحاول أن يؤدّي دوراً تمثيلياً. يحدث ذلك لأنه يحاول أن يغتصب لنفسه أمراً ترفضه طبيعته فيبدو كقدّيس يكافح كي يقترف خطيئةً. إنه عمل يفضح قدر إنسان الكآبة الذي فرضت عليه الطبيعة أن يقف في مواجهة الأبدية ليحدّق في وجه الموت، فلن يوفّق مهما حاول أن يستعير مواهب قرينه الجنوبي الذي لن يعجزه أن يتنكّر لحقيقته الفانية فيتقلّد العرش ليوهم الملأ بعدم وجود فرق بين الإنسان والإله، كما آمن قبلها بعدم وجود فرق بين الموت والحياة، لأن الإنسان إله حتّى لو زال، والإله إنسان برغم الخلود.

ولا أؤمن بوجود اغتراب أقسى على الإنسان من اغترابه عن طبيعته. فإذا أصرّ هذا الإنسان على غيّه وتمادى في مخالفة ناموس هذه الطبيعة استجابةً لنداء أوهامه فإن التراجيديا سوف تولد في هذه الحال من رحم المهزلة. وها هي رؤيتي القديمة في جنس الألمان تتحقق بالتجربة عندما أبَى هؤلاء إلاّ أن يأتوا لي بممثل ليقرأ على الجمهور فصولاً من أعمالي كلّما دعوني في ندوة.

حدث ذلك في سويسرا مراراً، وفي ألمانيا مرات أكثر، كأنّ الروح الألمانية ترفض الإعتراف بهزيمتها في فنّ التمثيل، كما رفضت هزائمها في كل المجالات بما في ذلك الحروب، دون أن تدري أن هزيمتها في مجال كالتمثيل هو فضيلتها التي يجب أن تتباهى بها لا أن تستميت في طلبها. فماذا كانت النتيجة في تجربة العدوس؟

Twitter: @alqareah

النتيجة كانت فظيعة في كل مرة. لقد كان السيد هارتموت فيندريخ يتولّى الترجمة في الندوات إلى جانب تلاوة النصوص، ولا أقول قراءة النصوص، لأن قراءاته كانت بروح وجدانية تهب النصّ لحناً غنائياً يستعير نزعته الشعرية من الأصل. ولكن حُسن الأداء لم يشفِ غليل القائمين على المؤسسات الثقافية في البلدان الثلاثة الناطقة بالألمانية فأبوا إلاّ أن يتحفونا في كل مرة بممثّلٍ ينفقون في سبيل استجلابه أموالاً طائلة ظنّاً منهم أن مواهبه ستكون شفيعاً لهم لدى الجمهور. ولكن النتيجة في كل مرة كانت كارثية لسببٍ بسيط وهو اصطناع الزيف الذي لم يحسنوه يوماً بالمقارنة مع جلّ الشعوب، لتأتي القراءة هزيلةً، ركيكةً، ليست بلا روح فقط، ولكن بلا حدٍّ أدنى من الإنفعال أيضاً.

وقد ارتكب سَدَنة الثقافة في المركز الدولي لثقافات العالم ببرلين هذا الخطأ عندما استقدموا في تلك المرّة ممثّلاً مسرحيّاً ذائع الصيت ليسوّق مزامير العدوس على طريقته في حضرة الجمهور، فلم تنتهِ التجربة هذه المرّة بالفشل وحسب، ولكنها تحوّلت مشاجرة حقيقية. فما أن انتهى الممثّل من قراءته لفصولٍ لا أذكر الآن عمّا إذا كانت من «التبر» أم من «نزيف الحجر» حتّى فزّت سيّدة من القاعة لتصرخ في وجه الرجل بأعلى صوت: «كيف تقرأ نصّاً كهذا بهذه الطريقة؟». ويبدو أن الجمهور كان ينتظر هذه الإشارة فوجدها فرصة للتعبير عن ردّة فعله علناً. قامت سيّدة أخرى توبّخ الرجل بلهجة قاسية لتتعالى أصوات الإستنكار في مختلف أركان القاعة إلى الحدّ الذي أيقنت فيه كم كان الرجل محظوظاً لأن غياب الطماطم والبيض الفاسد من

Twitter: @alqareah

المكان جنّبه المصير الأسوأ في تلك التجربة، تماماً كما أيقنت بالتجربة أن حضور الممثلين، ومن بعدهم الصحفيين، كان دوماً بليّة على النصّ، لأن رسالة هؤلاء كانت على الدوام إماتة الروح في نصٍّ هو بمثابة شخص، بقدر ما الحقيقة روح النصّ، لأن عداوة هذين النموذجين لشخص النصّ هي العداوة المسبقة للحقيقة: للحقيقة كحمولة تسكن النصّ، لا تستحي تلك الفئة في أن تطرحها قرباناً في سبيل اللعب، كأنّ قدر الحقيقة أن تكون الضحيّة الأبدية في شركٍ إسمه النشاط البشريّ. هذه الروح المسكونة بالحقيقة هي المستهدفة من قبل هواة اللعب، فتُرجَم على أيديهم ظنّاً منهم أنهم سينالون شخصها عندما ينالون شخص مَن أبدعها، ولا يدرون أن النصّ يمثّل الشخص، ولكن الشخص لا يمثّل النصّ!

11

في عالمنا يتظافر كل شيء كي يحوّل الأدب إلى مهزلة؛ كأنّ الأدب ليس رديفاً للإخلاق، لا فحوى وحسب، ولكن لفظاً أيضاً، كما هو الحال في لغة ثرية ذات أصول بدئية كالعربية. أقول مهزلة لأن ماذا يمكن أن نسمّي أحداث نبيلة كمعارض الكتب التي تأبى روح العصر أن تقلبها إلى سيرك، أو مناسبة معرفية كالمؤتمرات الأدبية التي تتحوّل بنزعة الإستهتار إلى مهرجانات، الأدباء فيها ليسوا فرساناً كما يجب أن يكون، ولكنهم يلعبون دور البهلوانات؟

فالإستعراض هو أفيون العصر، كما الحكمة طريد العصر، بدليل أننا لا نهرع لنحيّي كاهنة الأزمنة هذه إلاّ وأسأنا لها من حيث أردنا أن نحسن لها. والعلّة دوماً في حرف الإستعراض الناجم عن روح الدعاية فيغترب النصّ لهذا السبب لأنه يُختزل في الشخص، وتُعامَل الحقيقة التي تسكن بطون الكتب سلعة تجارية في معارض الكتب، كما تتحوّل القيمة دميةً نفعيّةً تتقاذفها أيدي هواة ليسوا معنيّين بالفحوى، هم أصحاب دور النشر، الذين لا يأبهون إذا لعبوا دور الحمار الذي يحمل أسفاراً، سندهم في هذه الحملة تلك الثقافة في عالمنا الشقيّ، متنكّرين في أجرام أعدى أعداء الثقافة، حتّى إذا

Twitter: @alqareah

أشرفوا بحكم عملهم على مناسبة ثقافية للإحتفاء بجلالة الكتاب (كما هو الحال في المعارض) عاملوا الأمر بروح الروتين الإداري الذي لا يرى فرقاً بين المؤتمر الأدبي وبين مؤتمر للتوكيلات التجارية، لأن القائمين على أمر الشأن الثقافي متعهّدو مقاولات وليسوا بذوي اختصاص.

هذه النزعة في عالم اليوم تجعل من المسألة الثقافية مسرحية هزلية بفصول مختلفة، بدل أن تكون همّاً وجوديّاً؛ لأن الثقافة لم تكن لتكون استثناءً في عقيدة عالمنا التي آلت على نفسها أن تضحّي بالمضمون في سبيل أن تنقذ الشكل، بدل أن يكون العكس هو الناموس. فنحن لا نحطّ من شأن الكتاب عندما نمارس في حقّه القمع فقط، كما هو الحال في ظنّ أنظمة الإستبداد، ولكنّنا نحطّ من شأنه أيضاً عندما نمارس في حقّه مراسم الإحتفال، لأن الإحتفال في حقيقته ابتذال.

ففي 1998 أُختيرت سويسرا ضيف الشرف في معرض فرانكفورت الدولي للكتاب وهو يحتفي بيوبيله الذهبي بعد مرور نصف قرن على انطلاقته ليغدو خلال هذه المهلة التظاهرة الأعظم شأناً على مستوى العالم. وكان من الطبيعي أن تحظى سويسرا بالذّات، لا سواها، بشرف الضيافة في هذه المناسبة الإستثنائية بالذات، رغم أنف الحساسية التقليدية بين البلدين. حساسية كانت مفاجأة بالنسبة لي، لأني ظننت، كما تظنّ الأغلبية، أن سويسرا وألمانيا وطن واحد، بهوية واحدة، ولغة واحدة، وثقافة واحدة، سيّما جناحها الناطق بالألمانية التي تشكّل أغلبية الأمّة السويسرية.

Twitter: @alqareah

ولكن الواقع خيّب ظنّي. فالعلاقة بين الشعبين مجبولة بالشكوك، بل ومزمومة في بعض الأحيان. وتشاء الصُّدَف أن أكون شاهداً على استفتاء مصوّر أجرته إحدى المحطّات السويسرية اتّهمت فيه الأغلبيّة جيرانهم الألمان بخطيئة أخلاقيّة كالوقاحة. ويبدو أن عفوية الألمان قد ساهمت في تكوين هذا اليقين لدى السويسريين الذين يتّهمهم الألمان بالمقابل بالروح المحافظة. ويقال أن المرحلة النازية في ألمانيا قد لعبت دور البطولة في تعميق هذه الحساسية لتستعير بُعْداً سياسياً أيضاً، سيّما في الأعوام الأخيرة حيث نجد ألمانيا تتخذ في المحافل الدولية المواقف الأكثر تطرّفاً ضدّ سويسرا عكس شقيقتهما الأخرى (النمسا) التي كثيراً ما قامت بدور الوسيط بين القطبين المزمومين، في حين يرجع البعض سرّ الحساسيّة إلى الغيرة من مبدأ الحياد الذي صار علّة الرخاء السويسري. فالحياد، في حال تحوّل ديناً، لا يوحي بكونه موقف فرجة وحسب، ولكنه يستنزل في مريده سيماء قداسة. والقدّيس ليس محسوداً فقط، ولكن مجرّد حضوره قيد الوجود هو استفزازٌ لنا، لأنه حقّق ما أعجزنا أن نحقّقه، ولهذا فهو آثم في نظرنا، وجديرٌ بالقصاص لذات السبب. ولن يبدو هذا التأويل تشخيصاً نفسياً شخصيّاً إلاّ لطبيعته كجرثومة تسكن مجاهل النفس البشرية تستطيع أن تستيقظ لتستعير بعداً مرضيّاً جمعيّاً لا يلبث أن يستقيم بمرور الزمن في ما نسمّيه مفهوماً. ولكن العلاقة المزمومة لم تكن لتدرك الحدّ الذي سيجعل الألمان يحرمون سويسرا شرف أن تكون هي لا سواها ضيف الشرف في يوبيل معرض فرانكفورت

Twitter: @alqareah

الخمسيني، لأن إن لم تكن سويسرا، فأيّ بلد في العالم أحقّ بهذا الشرف؟

في بداية ذلك العام تلقّيت خطاباً من السيّد كريستوف فيتالي رئيس دائرة الثقافة بمؤسسات «بروهيلفيتسيا» السويسرية التي تتولّى دور وزارة الثقافة يدعوني فيها للمشاركة في المعرض بأسلوب لم يكن ليخلو من تفصيل اقتضته طبيعة البُنْيَة الثقافية المركّبة للأمّة السويسرية التي كانت دوماً علّة فخر في الخطاب السويسري الرسمي. ولم تكن تقاليد التهذيب السويسري لتسمح للسيد فينتالي بتوجيه دعوة دون الإسهاب في الإيضاح كي يجنّب الطرف المدعو الحاجة إلى الإستفهام فيقول أن القائمين على الأمر لم يكونوا ليتجاهلوا بوجودي في بلادهم حضور ما أسماه بـ«اللغة الخامسة»، إلى جانب لغات سويسرا الأربع المعتمدة رسمياً (الألمانية والفرنسية والإيطالية والروت رومانيش)، لأنها اللغة التي ستختزل رمزياً مجموع اللغات الأجنبية التي يستخدمها الأدباء الأجانب الذين يقيمون في سويسرا، ورأت اللجنة المكلّفة بالتحضير للمعرض ضرورة مشاركتها كعضو رسمي من خلال شخص العدوس. إنها الترجمة الصريحة والعملية لنزعة الإحتفاء بالآخر، لا مجرّد الإعتراف بالآخر، التي حقّ لسويسرا أن تتباهى بها في محافل الأمم، لنقرأ فيها درساً جديراً بأن يُحتذَى، سيّما في عالمنا العربي الذي يفعل العكس، فيتباهى بقمع الهويّات الأخرى بدل أن يعترف بها ويرى فيها غنيمة تثري مسيرة ثقافته الأمّ.

ترأس الوفد الرسمي السويسري بأركانه الخمسة السيّد رئيس الجمهورية الذي كان السيّد كوتّي آنذاك، لينزلوا ضيوف شرف على إحتفالية وطن الراين في عيدها الذهبي.

كنّا في تلك الرحلة خمسة فرسان كل أديب منّا جاء سفيراً بلغة الهوية الثقافية التي انتمى لها، وقدر العدوس وحده أن يلعب دور الرسول الذي وجب عليه أن يمثّل لغات هويّات لم ينتمِ لها. وحتّى اللغة التي استخدمها للتعبير عن محنة وجوده لم يمثّلها هنا حرفاً، ولكن رمزاً. ففي سويسرا يحيا أدباء يعبّرون بكل اللغات، وعليه أن يمثّل هؤلاء جميعاً ليترجم مصطلح «اللغة الخامسة» في حرف الواقع السويسري الذي يأبى إلاّ أن يتباهى بحضور كل هذه الألسن ضمن هويّته الثقافية، مؤكّداً بهذا على ثراء هذه الهوية، وليس مجرّد التسامح في شأن هذه الثقافات. فهل هو مجد الشخص في العدوس أن يقع إختيار اللجنة الثقافية السياسية السويسرية المشتركة (المكلّفة بالتحضير لهذه التظاهرة الثقافية العالمية في مناسبة إستثنائية كاليوبيل الخمسيني) على العدوس بالذّات كي يختزل كل الأدباء الأجانب المقيمين بسويسرا ليكون رسولهم إلى فرانكفورت؟

كلاّ بالطبع. ذاك كان مجد شخص النصّ، وليس مجد الشخص في العدوس. وهو شهادة بمجد النصّ مرّتين لا مرّة واحدة إذا علمنا أن اختياره للحضور في محفل الأمم الثقافي ذاك تزامن مع ذروة محنة هوية العدوس الوطنية حيث كانت ليبيا إسماً محضوراً بقرار محفل الأمم لا سياسياً وحسب، ولكن ثقافياً أيضاً. ليس هذا

وحسب، ولكن هناك عنصر آخر سوف يشهد بمجد النصّ للمرّة الثالثة إذا أيقنّا بحقيقة النصّ المغتربة. فهو إذا تأمّلناه مليّاً فلن يعجزنا أن نكتشف فيه هويّة النصّ الأصليّة التي لا تسكن حرف النصّ، ولكنّها تتخفّى بعيداً في روح النصّ. هذه الروح التي تسكن اللغة الأمّ، وما الحسّ الوجداني المهيمن في نصّ اللغة المكتسبة سوى ترجمة لها.

إنه اغترابٌ آخر داخل حزمة الإغترابات الأخرى في سيرة عابر الدُّجَى الأبديّ. ولكن مرارة الإغتراب هيّنة (لأننا لم نوجد إلاّ لنغترب) إذا قورنت بنوع آخر من الإغتراب صيّرته العقلية العربية الرسميّة عرفاً باستهانتها بكل ما له قيمة ثقافية مقابل إكبار الباطل الكامن في حرف الشعار السياسي. إنه الموقف الأيديولوجي من الوجود الذي لا يتجلّى في التجربة المحليّة إلاّ ليهيمن على تجربة سفراء العرب في الواقع الثقافي الدولي. فأن تحظى ثقافة هؤلاء بشرف تمثيل الثقافات الأجنبية في بلد كسويسرا ليحملها في عنقه أمانةً لتكون له سفيراً آخر وهو يتبوّأ مكانة ضيف الشرف في تظاهرة عالمية كمعرض فرانكفورت لا في دورة عادية، ولكن في يوبيله الذهبي، لهو حدثٌ حقّ للعرب أن يتباهوا به بين الأمم. ولكن عبدة الشعار السياسي الزائف لا يقيمون وزناً لمثل هذه الأحداث، لأنهم لا يدركون الفرق بين المجد الشخصي والمجد الوطني. فكلّ ما يحققه الأشخاص من أمجاد هو في يقينهم عمل يخصّ أشخاص هؤلاء، وليس هوية هؤلاء التي هي وطن هؤلاء. فالجوائز الدولية،

Twitter: @alqareah

أو الأوسمة، أو الدعوات الشرفية، أو المشاركات في فعاليات المَحافل الدولية، كلّها أعمال ذات بعد شخصي، ولا شأن لهم بها، ولا يدري هؤلاء أن هذا الشخص الذي يستخفّون به هو ماردٌ مركّب من هويّات عدّة. فهو قبل كل شيء قيمة في ذاته. فإلى جانب كونه قيمة وطنية كمواطن، فهو قيمة إنسانية كفرد. فإذا أبدع في مجالٍ مّا، فهذا الإبداع لا يظلّ ملكاً شخصيّاً، ولكنّه سيغدو قيمة وطنيّة. فإذا كان استثناءً فهو سيعبر الحدود حتماً ليغدو قيمة إنسانية، وبالتالي، مُلكاً للإنسانية.

ولكن الروح العدمية، المبثوثة في حرف أيديولوجيا تتّخذ الشعار السياسي المزوّر معبوداً، تأبَى إلاّ أن تخون هذا الناموس، فتنكر القيمة مقابل الصلاة في معبد البهتان الفاني. ولذا لم يدهشني أن يغيب الحضور الرسمي العربي يوم افتتاح تظاهرة فرانكفورت في عام حظوا فيه بشرف الضيافة دون مقابل، في حين لم يغب حضور سفراء أمم لم تطمع في نيل نصيب من فحوى الحدث. وإذا غاب السفراء العرب فلن أطمع بالطبع في أن أحظى بحضور سفير الوطن الذي أحمل هويّته، لأنه الوطن الذي عوّدني أن ينكرني، لا في مثل هذه المناسبات وحسب، ولكنه الوطن الذي لم يتردّد في أن ينكر وجودي أيضاً!

وقد دلّل العالم العربي على هذه الروح العدمية إزاء كل ما هو جدّي أو مجدي ما أن واتته الفرصة ليكون ضيف الشرف في معرض فرانكفورت بعد ذلك التاريخ بستة أعوام، أي في 2004، لنكون،

Twitter: @alqareah

كأدباء، شهود عيان على مدى استهتار أنظمتنا السياسية بكل ما له علاقة بأمرٍ جلل كالحقل الثقافي.

لا أنسى كيف أبلغني أصدقائي في الأوساط الثقافية والإعلامية سواء في ألمانيا أو سويسرا لينقلوا لي هذه البشارة منذ صدور القرار الذي سبق موعد المناسبة بعام كامل ليقين هؤلاء بأن ضيافة الشرف في المعرض ستكون فرصة للمعنيين بالشأن الثقافي في العالم العربي لكي يعيدوا الإعتبار لصوتهم الضائع ويدلّلوا على أصالتهم بدل البكاء على الأطلال، لأن الفرصة لن تتكرّر. ولكن أولياء أمر المؤسسات الثقافية في عالمنا الشقيّ ما لبثوا أن اقترفوا في حقّ هذه الثقافة خطيئة لن تغتفرها الأجيال عندما وضعوا مسؤولية القيام بهذا العمل في عنق أفشل منظّمة عربية وأكثرها استهانة بكل ما متّ للثقافة بصلة وهي الجامعة العربية التي لم يحدث أن تولّت في تاريخها أمراً دون أن يلحقه الفشل كأنّ في أعطافها تسكن اللعنة. وكان من الطبيعي أن تبدأ مسيرة الفشل بالإستهتار بأخطر ما في الوجود على الإطلاق وهو الوقت. ركنت هذه الجامعة إلى سبات عميق كعادتها، ولم تستيقظ من غفلتها إلاّ في آخر لحظة لتكتشف ان ما تبقّى من الوقت لن يسعفها في تحضير ما استوجب فلجأت إلى **اللملمة** كعادة المؤسسات العربية في مثل هذه المواقف. سوف تتحجّج الجامعة العربية في الدفاع عن نفسها بالأسطوانة التقليدية عن الروتين الإداري، لأن الساسة العرب لم يردّوا على مخاطباتها في الوقت المناسب. وهذه نصف الحقيقة بالطبع، لأن الجامعة تعاملت مع

Twitter: @alqareah

الحدث أساساً بروح بيروقراطية فلم تكلّف نفسها عناء متابعة مخاطباتها كالعادة، ولذا فالجرم إثمٌ مشترك حتّى إذا صحّ. فالذريعة الأبدية بالطبع هي تحصيل التمويل اللازم لتغذية العجلة. ولكن وضع الخطط لا يحتاج إلى التمويل، وكذلك التنسيق المبكّر مع الفعاليات الثقافية المختلفة، لأن الدعوات الموجّهة للفعاليات الثقافية مثالاً عمل لن يحتاج إلى التمويل المزعوم. هذا التمويل الذي وُصف بالمبالغة مراراً، ولم يكن ليتناسب في أرقامه الفلكية المطلوبة مع الواقع المزري الذي نتج عنه، لأن سرطان الفساد من الطبيعي أن يسري في شريانه أيضاً.

فقد تقرر أن تشارك كل دولة عربية بوفد ثقافي رسمي تكون للدولة بموجبه سلطة إختيار العناصر الأدبية المشاركة فيه، في حين أخذت إدارة الجامعة على عاتقها توجيه الدعوة للأدباء العرب ذوي الصيت الدولي. وقد تلقّيت اتّصالاً تلفونيّاً من رئيس اللجنة التحضيرية المكلّف من قبل السيّد أمين عام الجامعة العربية ليوجّه الدعوة الشخصيّة للمشاركة في الفعاليات قبيل الموعد المحدّد بزمنٍ قصير، تلته بعدها إتصالات من المؤسسة الألمانية المكلّفة من الجامعة بتولّي الشئون التقنيّة ومقرّها فرانكفورت لتبلغني رسميّاً بالجدول المتعلّق بمشاركتي الشخصيّة البالغ عددها أربع ندوات.

لم يفتني بالطبع أن أنبّه إلى مسألة في غاية الأهمية في مثل هذه المناسبات وهي الترجمة التي كانت في تجربتي نقطة ضعف القوى المشرفة على الندوات الأدبية سواء من لغة المؤلّف أو إلى لغة

Twitter: @alqareah

المؤلّف، سيّما في الأحوال التي تشهد حضور الجمهور المختلط بألسنته المختلفة. وهي محنة نتجت عن المفهوم المغلوط للترجمة. فليس كل عليم بلغة مّا يصلح مترجم لغة. وليس كل مترجمٍ للغةٍ يصلح مترجماً في أي موضوع في هذه اللغة. فما يجهله الكثيرون هو وجود لغات عديدة في كل لغة. ففي اللغة يسكن بُعْد الخطاب اليومي في أي لغة، تماماً كما يسكن كل لغة بُعْدٌ آخر هو الخطاب الثقافي المختلف تماماً عن الخطاب اليومي. وداخل الخطاب الثقافي تسكن لغات أخرى تبدأ بالخطاب الإعلامي أو الأيديولوجي ولا تنتهي بالخطاب الفكري الذي يتضمّن بدوره الخطاب الفلسفي أو الوجودي أو الديني، أو الميثولوجي، أو الأدبي.. إلخ، لأن إتقان هذه اللغات الكامنة في صلب اللغة التي نتخيّل أننا نحسنها لن يقتصر على امتلاك حزمة المصطلحات التقنية التي هي خصوصيّة في كل لغة، ولكن الإتقان سيظلّ رهين إستيعاب روح هذه اللغة الماثلة في خزنة ذخيرتها الثرية والعصيّة. والإستهانة بهذه التركيبة كثيراً ما تسبّب في كوارث حقيقيّة أصابت النصوص المترجمة بأبلغ الشرور، كما كانت سبباً في سوء فهم لا يُغتفر في الحالات التي أُريد لها أن تكون حواراً بين الحضارات أو تبادلاً للثقافات. وقد كنت شخصيّاً ضحيّة هذا الجهل بحقيقة اللغة في الندوات الكثيرة التي دُعيت لها في بلدان أوروبا، ولم تكن التجربة في معرض فرانكفورت سوى حلقة أخرى في هذه السلسلة. لا أنوي أن أروي فصولاً من مفارقات تلك الرحلة لتكون نموذجاً للفوضى التي رافقت كل فعاليات تلك التظاهرة،

Twitter: @alqareah

ولكن ما حدث في مفتتح الفعاليات وحده يكفي للتعبير عن تلك البلبلة. فقد كان من المقرّر أن يترأّس الدكتور جابر عصفور جلسة ندوتي الأولى ليتولّى تقديمي للجمهور. وبالفعل إلتقيت صديقي جابر الذي عبّر لي عن صدمته أيضاً بالفوضى، ومكثنا في مقرّ الندوة طويلاً في انتظار وصول فارس الترجمة الموعود. وكم دهشنا عندما فوجئنا بوصول فتاة مغربية قالت أنها جامعية ومكلّفة من قِبَل اللجنة في آخر لحظة بتولّي مهمّة الترجمة. وقد أيقنت أننا إنما نشهد مهزلة ما أن بدأ الدكتور جابر كلمة التقديم لتتولّى الصبيّة المسكينة الترجمة إلى الألمانيّة على ذلك النحو الفظيع ممّا اضطرّني للتدخّل مراراً لأصحّح ما أفسدته روح الهواية في لسان التلميذة الشقيّة! وعندما جاء دوري وجدتُ نفسي أمام أحد أمرين: إمّا أن أقنع بدوري في المهزلة فأحتمل القيام بمهمّة مزدوجة من خلال خطاب بلغة، والرقابة على الترجمة إلى اللغة الأخرى، لإخضاع النصّ للتصحيح مع كل جملة، أو الإنسحاب من المشهد! وقد آثرت الخيار الأول إكباراً للحضور واحتراماً للعزيز جابر عصفور، دون أن أتراجع عن الخيار الثاني أيضاً ليكون لا الإنسحاب من تلك الندوة وحسب، ولكن الإنسحاب من ندواتي الأخرى الباقية، بل والإنسحاب من فرانكفورت في الحال!

12

ما كشفته لي تجربة عضويّة الوفد السويسري الرسمي إلى معرض فرانكفورت في عيد ميلاده الذهبي (1998) هو الشوط الذي قطعه إنسان هذا الزمان في اغترابه عن اللغة التي كانت يوماً تاج اللغات، ورأس المال الذي تتباهى به الألسن، يقيناً من الدهاة بأنه إذا أخفق في أن يكون لسان الله فهو حتماً الظلّ في خطاب الله، أي البُعد الممكن في خطاب **المبهم**، بحيث يلعب دور الترجمان القابل لأن يُفهم داخل بُنْيَة الخطاب المطلسم: اللغة التي تشهد غياب المجاز، وتهيمن فيها، بالمقابل، روح الحرف. وهو أمرٌ إذا كان يمكن أن يُغتفر في واقع يعاني من طغيان الأيديولوجيا، كما هو الحال مع واقع شرق أوروبا، بيد أننا لا نملك إلاّ أن نستنكر وجوده في واقع غرب أوروبا، سيّما بالنسبة لإنسانٍ نشأ في بيئة ثقافية الإستعارة فيها هي بيان الحياة اليومية (كحال المجتمع الصحراوي)، وفي وقتٍ كان فيه هذا الإنسان يستميت كي يستعيد هذه الروح التي أضاعها طوال سنوات إغترابه عن واقعه الثقافي هذا. ومن الطبيعي أن تكون هذه المنظومة السحرية هي ذخيرة إنسان يعاند الأدب، لأنها الناموس المعتمد في عالم الآداب بطبيعتها، كأنها هي التعويض الغيبيّ الذي سنّه الأوائل ليغالبوا به جمود الطبيعة ويهوّنوا من وطأة التصحّر. ففي

Twitter: @alqareah

الإجتماع التحضيري الذي دعا إليه رئيس اللجنة السويسرية للثقافة في زيوريخ مع أعضاء الفريق الثقافي الخمسة قبيل انطلاق فعاليات المعرض ببضعة أشهر، تقرّر تقديم النصوص المزمع قراءتها يوم الإفتتاح مسبقاً لمناقشتها. وكان على ضيف سويسرا، المنتدب من قبل سويسرا ليكون ضيفها المنتدب إلى تظاهرة فرانكفورت، أن يتبنّى في كلمته الخطاب المعبّر عن هذه الوضعيّة الإستثنائيّة لشخصه في واقعٍ ينتمي إليه بهوية العدوس، ولا ينتمي إليه كهوية ثقافية. وهو ما استوجب أن يراه من واقع يختلف عن واقع زملائه، وهو موقف المشاهد. والإدلاء بالشهادة يستلزم البحث عن أكثر الأبعاد نموذجية في واقع الإنسان السويسري الذي ميّز هذا الإنسان كمواطن عن أخيه الإنسان في أيّ مكان. وهو ما لن يكون بالطبع شيئاً آخر سوى: **الحياد**. لأن هذا الحياد سوف يكون معجزة حقيقية في واقع إنساني تتنازعه الأقطاب، وتتلاعب به الأحلاف، وتتقاذفه الحروب، منذ قرون وقرون، قبل أن ينتهي به المطاف إلى ما نسميه اليوم بالعولمة التي تنفي أي حياد بحكم القوانين التي سنتها لنفسها، لتزيد بهذا من اغتراب كيانٍ وطنيّ كسويسرا عن واقع العالم وعن عقلية العالم، بل وليتضاعف إنكار العالم لها بسبب موقف الإصرار على الحياد.

ولما كان العدوس مخلوقاً ملفقاً من طينة لا تدين بدين الحرف، سواء بحكم التكوين، أو بحكم هوسها بباطن الوجود البشري، لا بظاهر الوجود البشري، فلا مجير له للتعبير عن دين الحياد هذا سوى الإستعارة. ولا وجود لاستعارة أصلح لترجمة دين الحياد سوى نموذج **الناسك**. فأيُّ إبداعٍ يمكن أن يكون جديراً بهذا الإسم الجليل

إذا لم يتسلّح بسلطان الإستعارة؟ وأي استعارة يمكن أن تفوز بهذا الإسم الجليل إذا تنكّرت لروح الحلم، وجرّدت من رحمتها حميم الأحلام الشعر، أو قرينها الأخر: الرومانسيّة؟

ولكن محنة إنسان هذا الزمان تكمن في ظمأه إلى المجاز بشروط الإعجاز. أي نيل الشعر دون التخلّي عن معبوده الحرف. وأوّل حرف في أبجدية هذا الحرف هي الوضوح. أي تبسيط الأمر وتقديم الغنيمة على طبق من ذهب دون دفع قرابين بالمقابل، بل بنحر الإستعارة قرباناً! وهو ما يعني أن إنساننا يريد فوزاً بالفردوس أكثر من أيّ وقت مضى، ولكن بالمجّان كما لم يحدث من قبل. ولذا لم يدهشني أن يعبّر لي القائم بأمر اللجنة عن خشيته من ألاّ يُفهَم نصّي بسبب **الغموض** على حدّ تعبيره. كأنّ هذا الغموض لم يكن سرّ الأدب، ولم يكن مبدع النبوّة التي كانت بيان الأرباب. كأنّ الغموض لم يكن يقين عرّافات معبد دلفى في ترجمة وصايا الإله التي لا تتنزّل إلاّ رمزاً عصيّاً. وليس للعدوس أمام هذا الإنحطاط إلاّ أن يوجّه أصابع الإتّهام إلى جنيّة العصر، بل وجنيّة كل العصور: **الأيديولوجيا!**

لم أجد مفراً من التنازل عن قوانين الأدب في سبيل التصالح مع جمهور تظاهرة رسالتها أن تعلي شأن الأدب، فحرّرتُ نصّاً آخر لأبرهن بهذا النص الجديد أن الطبع يغلب التطبع، لأن السيد فيندريخ الذي قام بترجمة النص إلى الألمانية صارحني بغموضه أيضاً. وكان على العدوس أن يعاني من أسطورة الغموض هذه في كل أعمال ما بعد الميلاد الثاني إلى الحد الذي صارت فيه عبارة

Twitter: @alqareah

الأدب الصعب لعنة في عنق ما أكتب لا في محافل الجمهور فقط، ولكن في الأوساط الأكاديمية العالمية أيضاً: فكم مرة تلقّيت فيها مخاطبات الدارسين الذين يريدون تناول أعمالي في أطروحات علمية لينبئوني كيف يصارحهم المشرفون عن استعصاء هذه الأعمال، كأن العسر الذي يسوّقونه حجّةً لتغريب الأدب عن حقيقته، ليس سوى ذريعة لتسويق روح التقرير الذي لعبت الأيديولوجيا في صنعه كنموذج للقيام بدور البطولة. فالإستعصاء المزعوم هنا هو مؤامرة الأيديولوجيا لتسفيه الأدب وهي التي لم تترك مجالاً إنسانياً إلا وحوّلته إلى سفسفة!

ولم أكن لأشكّ يوماً في حسن سيرتي ما دامت الأيديولوجيا هي خصمي، لأن التاريخ الذي برهن أن خرافة الإستعصاء في الأدب التي يتشدق بها أدعياء الأدب، هي شهادة إعتراف في حق هذا الأدب، بل ولا نغالي إذا قلنا أنها الشهادة على قبول الأدب في حرم التاريخ الكلاسيكي للأدب. ولم أكن لألوم المشرفين على فعاليات ثقافية تُقرأ فيها المزامير على جمهور همّهُ ليس حضور الله، أو الحقيقة، في النص المقروء، ولكن همّه أن يسمع نكتة المهرّج في الخطاب، أو أن يرى على المسرح، رقصة البهلوان!

فالمنشود، بعقلية إنسان عالمنا، ليس الحقيقة، ولكن الهزل. ليس المعنى، ولكن التسلية. والبطل في المهزلة ليس النص، ولكنه الدُّمْيَة!

Twitter: @alqareah

13

هذا الحصاد هو كل ما يمكن أن نجنيه من وراء الندوات أو اللقاءات أو المؤتمرات أو ما شابه من الفعاليات التي لا تنال من نصّ الأدب كإبداع وحسب، ولكنها تنال من الأدب في بُعده كأخلاق أيضاً. فهناك لا نجد حضوراً لمعنيّين حقيقيين، ولكننا نجد حضوراً لفضوليين. وسوف يكون صاحب الشأن محظوظاً فيما إذا اكتفى أهل الفضول بهوية الفضول ولم يكونوا ممسوسين، لأنهم آنذاك سوف يسيئون حتماً، كما حدث دوماً في مثل هذه المؤتمرات التي تتحوّل بفضل هذا المسّ إلى مؤامرات! فجهل محفل الفضوليّين بالنصّ لابدّ أن يحوّل الشخص في المؤلّف إلى بديلٍ للنصّ. بديل للنصّ الغائب ليتحوّل الشخص بدل النصّ إلى الموضوع قيد الدرس.

وكي يستر أهل الفضول عورة جهلهم بالنصّ لا نضمن أن تستيقظ فيهم الأهواء، في حمّى بحثهم عن النصّ في الشخص، فيبادروا برجم الشخص ليبوح لهم بالنصّ، ظنّاً منهم أن الحقيقة تسكن الشخص، وليس النصّ الذي أنكروه، لأن الوقت لم يسعفهم كي يقرأوه.

ولذا ليس على شخص المؤلّف إلاّ أن يقبل بدور كبش الفداء

الذي يشفع غياب النصّ لينال الثأر المدسوس في جدل لا يعود له نصّ المؤلف موضوعاً، ولكن شخص المؤلف هو موضوعه. فليس المجتمع وحده مَنْ يستنكر النجاح، ولكن شطر المجتمع المسمّى جمهوراً أيضاً لا يغفر للمبدع إبداعاً، ولا يتردّد في أن يناصبه العداء لأنه يرى في القدرة على التعبير مزيّة سحريّة تميّزه عن الأغيار وترفعه عن السواد الأعظم درجات، والقصاص وحده يستطيع أن يعيده إلى صوابه بإسقاطه من عليائه!

إنه التشخيص النفسي لداء القطيع الأبدي في الموقف من الصفوة. القطيع الذي يستعير هنا دور ملهمته الدنيا التي لم يخطيء الحسن البصري عندما وصفها فقال أنها تقتل المقبل عليها إذا لاقته، ولا ينجو من شرّها المدبر عنها أيضاً، فتجرحه إذا أدركته!

14

ولكن أذى الجمهور يبقى أهون من أذى الصفوة. وتجربة العدوس أقوى برهان على الواقع الذي كان فيه مَن يمكن وصفهم بذوي القربى فرسان سوء. فإذا كانت ندوة باريس (المنظّمة من قبل جامعة السوربون بالتعاون مع معهد العالم العربي من جهة ومع منظمة المستشرقين الأوروبيين من جهة أخرى المنعقدة في 97 حول الأعمال الروائية لمريد السُّرَى) بمثابة دورة علمية يلتئم فيها ذوو الإختصاص حول المائدة المستديرة لمناقشة ظاهرة أدبية محدّدة، بعيداً عن محفل الهواة سواء كهويّة جمهور أم كهويّة تنصّب نفسها على الجمهور معبوداً كما هو الحال مع الصفوة، وهو ما يهب الحلقة خصوصيّةً، فإن مؤتمر القاهرة للرواية العربية المنعقد في 1998 لم يكن ليفي بشروط الورشة العلمية، ولا بشروط المهرجان الأدبي الذي يستدعي حضور الجمهور، دون أن يعني هذا نَيلاً مِن حسن نوايا مَن هندس هذه الفعالية التي أُريدَ لها أن تحتفي بالزخم الروائي العربي الذي بلغ ذروته مع نهايات القرن العشرين، وهو ما أهّل الفعالية للصمود لتغدو مع الأيام تقليداً بفضل عناد شخصية أدبية مثل جابر عصفور، لأن نقد التجربة لن يكون عدلاً إذا لم نفِ الرجل

Twitter: @alqareah

حقّه في الصبر للملمة شتات أعند أمم الدنيا وهي الأدباء، متحدّياً ظروف مصر الإقتصادية والسياسية.

فالسؤال حول جدوى التظاهرة الأدبية يبقى قائماً، سيّما إذا تأمّلنا ماهيّة التظاهر كاستعارة من المظهر الذي لن يعني بدوره سوى اعتناق النزعة **الحرفية** المستعارة أيضاً من **التحريف**. فهي سيرة أقصى ما تفيد به الأدب هو أن تحتفي بالأدب الذي يرفض الإحتفاء بطبيعته، لأن الإحتفاء خيانة لدين المشاهدة، والإنكار الصريح لبنود العهد المبرم مع البعد المفقود الذي كان له الفضل في تحقيق البعث، لأن كل تجربة إبداع هي جدالٌ بين موت وبعث. ولهذا لا نملك إلاّ أن نستهجن احتراف مثل هذه التظاهرات التي تحوّلت في الأعوام الأخيرة مناسبات وُجد لها متعهدون، بل ومدمنون، يطلبونها فيما إذا لم يُدعوا لها، كأنها حفلات الزفاف التي تُوجَّه فيها الدعوات للمساهمة في الفرح برقصة أو أهزوجة أو ملحة!

فالإبداع ضيفٌ بتول، مجلّلٌ بقدسيّة ذات بعد ديني، ولهذا لا يحتمل الإستعراض، ولن نستنكر أن نراه يغترب فراراً من شَرَكِ إسمه الحرف. أمّا ذريعة التواصل التي تتغنّى بها مثل هذه المحافل فتتحقّق بالنماذج التي يقودنا إليها نداء الحدس الذي لا يخطيء، لا النماذج المشبوهة التي توهب لنا على موائد الزيف بالمجّان، أمثال أولئك الذين تنسج لهم الآلة الدعائية الرخيصة أسماءً خرافية دون وجه حقّ، فإذا إلتقيناهم فُجعنا فيهم، كما فُجع الأوائل في المعيدي الذي يقال أن صيته أفضل من رؤيته، لأنه الشبح المكرور في مهزلة

الأزمنة، فلم يدهشني أن يطالعني في شخص بإسم حنّا مينا في مؤتمر القاهرة الأول للرواية عام 1998. ويشاء الحظّ أن يلقّنني الدرس بشأن عبث مثل هذه المحافل في أول تجربة لي مع أشباح الأدب العربي بعد عزوفٍ إستمرّ أعواماً طويلة، فاقتصّ منّي الغيب لأكون ضحيّة أول مواجهة مع أبطال المسّ جزاء خيانتي للعهد مع العزلة أوّلاً، ولنزولي لمستنقع الهوس بقلبٍ عارٍ ثانياً. عريّ القلب كان دوماً نقطة ضعفي من حيث ظننت أنه سرّ قوّة، كما هو الحال في أيّ واقع أخلاقيّ، ولا أقول مثالي، لأنه يجرّدني من ذلك القناع الذي كان لأهل الزور حصناً، فلا أتبدّى أعزلاً وحسب، ولكن أبلهاً أيضاً أمام اللؤماء الذين لا يكتفون بأن يستهينوا، ولكن لن يتردّدوا في أن يطعنوا، لأن العفوية هو ما لا وجود له في شرعهم. وهو ما أعجزني دائماً عن الدفاع عن نفسي لأني لا أتخيّل أن يكون العقاب المجّاني هو ثمن البراءة، فلا أملك إلاّ أن أفقد صوابي لأرتكب أفعالاً تبدو في نظر الأغيار عدواناً، لأن العُرف الغبيّ السائد ينتصر عادةً للنتيجة على حساب السبب. وهو عرفٌ مستعارٌ من ناموس الحرب الذي يجعل من الطرف المسالم الذي يمارس حقّ الدفاع عن النفس طرفاً خاسراً مقابل الطرف المعتدي، ولا مفرّ لمن ينحاز لموقف الدفاع إلاّ أن يموت إذا شاء أن ينجو من القصاص أو قرّر أن يبرهن للعدالة الأرضيّة على صواب موقفه. وهو ما يعني أن العدالة في دنيانا ملوّثة ببليّة غيبيّة لن تكون غير الإثم بدليل أنّها لا تنصف من اختاروا الوقوف موقف الدفاع إلاّ وهم أموات!

15

الموضوع الأول المطروح في الجدل هو الشهادات عن التجربة الروائية. وأذكر أن جابر عصفور إستمهلني كي نترافق لحضور الندوة في المقرّ الواقع آنذاك خارج مجمّع المجلس الأعلى للثقافة لنصل مع تأخيرٍ كان كافياً لاختناق القاعة بالجموع ففاضت بهم ليتزاحموا في الممرات بسبب ضيق المكان لأجد نفسي أعزلاً ووحيداً في مواجهة محفل يناصبني في سواده الأعظم روح عداءٍ مجانيّ على الرغم من وجود أقليّة تبادلني تعاطفاً يبدو خجولاً وخفيّاً. فالإحساس بحضور الكراهة هو ما لم يخذلني يوماً، ربّما لأنه فضيلة عراء الروح كما يبدو. فعداوة الجمهور ستتبدّى مزحة إذا قورنت بعبارة أناسٍ ظننتهم ذوي قربى كالأدباء. وكنت أكذّب نفسي في كل مرّة لأنتحل لمسلكهم الأعذار، في حين يفعلون المستحيل ليبرهنوا على صواب حدَسي. وإذا كانوا يخفون كراهيّتهم لبعضهم البعض وراء الأقنعة، بيد أنّي لاحظت كيف لا يبذلون جهداً في إخفاء كراهتهم لشخصي. وهو ما قد يعني أنها من القوّة بحيث يخفقون في إخفائها حتّى أنهم لا يجدون حَرَجاً في أن يعلنوها جهاراً. وعبثاً حاولت أن أهتدي إلى العلّة فلم أجد غير الإنطباع الذي يمكن أن يوحي به كل إنسان

Twitter: @alqareah

تقمّصته روح العَدْو ليكون جديراً بلقب العدوس. ففي عالمٍ لا مكان فيه للفطرة، ويعادي العفوية بسليقته، لابدّ أن يتراءى المهاجر للناس أبلهاً، بل ودرويشاً لينتهره هذا ويركله ذاك، لأن رأسماله الحبّ، ودينه الحرية، في واقع عالم يعتنق دين السلطة، ويتّخذ من الملكيّة رأس المال. فإذا أضفنا إلى البُعْد الإغترابي الجديد وَسْم البساطة الذي يجلّل سيماء صاحب السُّرَى، فهذا مبرّر كافٍ لنزع ورقة التوت ليتطوّع هذا النموذج بالعدوان بروح مَن يمارس بطولةً. وها هو المعيدي يُبعَث شبحاً من التاريخ ليتجسّد في شخص حنّا مينا ناسفاً صيته بسيرة حضوره. فما أن انتهيتُ من قراءة الشهادة عن تجربتي الروائية حتّى فزّ الرجل كَمَن لدغته حيّة ليصرخ في وجهي بعبارة لم يكن لي أن انساها لأنها ترجمة لطائفة من المفارقات الحقد المبيّت ليس أوّلها، كما الجمود الأيديولوجي ليس آخرها، لأن غياب الحسّ الأخلاقي هو عصبها: «**وما علاقة هذا بقضايانا؟**»، فلا نملك إلاّ أن نتساءل جواباً على سؤاله العبثي عن الداعي لغضبته إلى الحدّ الذي أفقده وقاره، بل وأفقده أبسط قواعد الأدب، فلم يستأذن رئيس الجلسة، كما تقتضي الأعراف في مثل هذه المواقف، ليحتجّ بطريقة صبيانية على نصّ لم يكن مطروحاً للنقاش أصلاً لأن الشهادات الروائية هي البوح التجريبي في بُعْده الحميمي، حتى لا نقول الشخصيّ، سيّما في موضوع كـ«الرواية والخطيئة» الذي عَنوَن الشهادة التي شاء السيّد مينا أن ينال منها لا لشيء إلاّ لأنها لم تتناول **قضاياه**. وهو ما يدعونا لأن نتساءل عن ماهية هذه **القضايا** التي يريد

Twitter: @alqareah

هذا الرجل أن يفرضها على شخص العدوس لكي تكون فحوى تجربته الروائية غصباً بالطبع، لا طوعاً، أي فرضاً لتجربته هو أو أمثاله من عبيد الأيديولوجيا وإسقاطها على تجربتي، لا وَحْياً ينبثق من واقع التجربة الذاتية تلقائياً. أي أن سؤال الرجل فضح روح القمع الجنوني في واقع الثقافة العربية المستلهم بالطبع من واقع القمع الإجتماعي والسياسي في بُعْده التراكمي التاريخي. سؤالٌ إختزل محنة ثقافية لا يتردّد أحد أقطابها في أن يصاب بالمسّ أمام محفل أدباء العالم ليعلن بدون خجل ضرورة **إستنساخ** تجربته هو لا لشيء إلاّ لأنها ليست تجربة مريد يعتنق دين الآخر أراد أن يعبّر عن تجربته الوجودية بروح مختلفة، ورؤية مختلفة، وبمنطق مختلف، وعقلية مختلفة، فاستفزّ مريد الحرف بوحي من معبودته الأيديولوجيا، ليفقد صوابه تنديداً **بالإختلاف** أساساً قبل أن يكون السبب تجاهل ما أسماه هو بـ«قضايانا» التي كانت في الواقع قضاياه لأنّي لم أكن معنيّاً بها يوماً لأنّي لا أغتصب الواقع السياسي الحرفي لأنصبه في أدبي ناطقاً بإسم الوجود، كما هو شائع في الأدب العربي الحديث، ولكنّي أستجير بقوانين الإبداع الكلاسيكية فأتشبّث بتلابيب العروة الوثقى في هذا المجال وهي الأسطورة. هذا هو ذنبي الأوّل في رؤية عبيد الحرف الأيديولوجي أمثال حنّا الذين اعتادوا أن يعادوا كل ما هو مختلف مسبقاً. أي دون أن يكلّفوا أنفسهم عناء قراءة ولو نصّ واحد لفرسان الواقع الأدبي الجدد يكون مدخلاً ولو بسيطاً لتقييم. ولكن هيهات أن يكلّف هؤلاء أنفسهم هذا العناء لأنّ همّهم ليس الحقيقة، ولكن

الإساءة المجانيّة التي ستستعير بُعْداً لا سبيل للتسامح معه إذا تعلّق الأمر بجنسٍ آخر من الإختلاف وهو: **الهوية الثقافية المختلفة** التي لا تخضع للتأويل بوصفها الرافد الذي يثري نهر الثقافة العربية، ولكنّها تُعامل كشقّ لعصا الطاعة على هذه الثقافة، وما تتوهّم هذه العقليّة أنه سينتج عن ذلك من خطر يهدّد وجود الأمّة. وهي نزعة لم تتخيّل يوماً أنها قد حشرت هذه الثقافة في خانة **العِرق** دون أن تدري. ولن نغالي إذا قلنا أن عبيد الأيديولوجيا هم فرسان هذه النزعة بأجنحتهم العقائدية الثلاثة ليستوي في الحرب ضدّ هويّة الأقليّات الثقافية اليمين واليسار والوسط. أي الجناح الديني والقومي والماركسي.

ففي الواقع العربي فقط تختلف هذه الأقطاب الثلاثة في كل شيء، ولكنها تتفق في أمرٍ واحد هو إضطهاد الأقليات الثقافية وتجريدها من أبسط حقوقها الوجودية كالإعتراف باللغة التي سيكون إنكارها بمثابة إنكار لوجود الهوية طالما آمنّا مع من آمن بوحدة الوجود واللغة. وهو ما يكشف حقيقة العقائد التي تعتنقها الصفوة العربية، لأنه يفضح فيها معدن الزيف الذي لابدّ أن يحقّق فيه الطبع الغلبة على التطبّع، ليضع مسألة الإنتماء إلى الحداثة على المحكّ. ولا يشفع للمنتمي إلى هويّة ثقافية أخرى حتّى إغترابه اللغوي في حال إستعار اللسان العربي كسفير للبرهنة على حضوره قيد الوجود، لأن مجرد الإنتماء إلى هوية ثقافية أخرى هو في عرف الواقع الثقافي العربي خيانة مّا كفيلة بأن تضع أمثال العدوس لا في خانة الإستفهام وحسب، ولكن في موقع الإتّهام أيضاً. إتّهامٌ تسكت عنه فئة تأدّباً،

في حين يعجز فئة أخرى السكوت فتفصح عنه لا مباشرةً، ولكن إحتيالاً عندما تسقطه على أعمال روائية لم تقرأها كما فعل السيّد مينا في تلك الجلسة، أو كما فعل من والاه في مناسبات أخرى، لأن العنصر (العِرْق) طاغية جبان، ولا يستأسد إلاّ إذا انتحل لنفسه الأقنعة!

فكلّ الأقطاب الثلاثة التي سمّمت بدن واقعنا العربي تتشدّق بالحرية، ولكن بشرط ألاّ تبيح للأقليّة بنيل الحقّ في إستخدام لغتها أو ممارسة ثقافتها. التيّار القومي يبرّر هذا القمع بخطورة هويّة الأقليّة على هوية الأغلبية المهدّدة في أدبيّاته دوماً بغولٍ مجهول. والتيّار الماركسي يكتم أنفاس الأقلية بمشيئة الإرادة التي يرى فيها الخلاص للبشرية. والتيّار الديني الإسلامي يرى في الأقلية عقبة في طريق النظام الفاضل الأشمل الذي لا فضل فيه لعربي على أعجمي إلاّ بالتقوى، دون أن يفوته التذكير بتعويذة «خير أمّة أخرجت للناس» بوصفها أمّة الفرقان. وهكذا تبقى الأقليّة في كل التيارات الفكرية العربية بعبعاً يهدّد وحدة الأمّة، لأن **العنصر** هو الشفرة التي تسكن قيعان الباطن، ويفشل أي تدخّل جراحي ثقافي في استئصالها مهما تشدّق بالحريات أو اعتنق من أيديولوجيات. وإذا كان يقين العالم من حولنا يقضي بالإنتماء إلى اللغة التي نستخدمها في الخطاب الأدبي، إلاّ أن نموذجاً كالعدوس لن يكون له شرف الإنتماء إلى العربية لأن العرق هنا هو المقياس وليس اللغة. هذا في حين لن يكون أمازيغياً أيضاً في عرف العالم لأنه يكتب خطاباً باللغة العربية.

ولهذا فهو عملياً طريد كل الثقافات، وهو لهذا أيضاً يستحقّ العداء المجانيّ من كل الأطراف!

فالولاء لسيرة العنصر على هذا النحو المحموم لا نجد له مثيلاً إلاّ في واقع الإنسان العربي على نحوٍ تحوّل فيه هاجساً يتمرّد على حقيقته كشفرة منسيّة تسكن الأعماق، ليستعير بُعْداً أسطوريّاً يستنزل روحاً قدسيّة في الأرومة العرقية المفقودة ليحقّق تعويضاً نفسيّاً يؤدّي وظيفة الدفاع عن النفس ضدّ أخطار مفترضة بهدف بعث الماضي واستحضار المجد الضائع في عالمٍ تتناحر في ساحته الأعراق. وأمثال حنّا مينا هم النموذج الذي يُسوّق هذه المعزوفة في حياة إنسان يستميت كي يستحضر هذا الماضي معينهم في ذلك عبوديّتهم لأيديولوجيا ظلّت تطعم البشرية أوهاماً عشرات الأعوام قبل أن تفلس على ذلك النحو الذي ترجمته تجربة الإمبراطورية السوفييتية فاستيقظ العالم في الوقت المناسب، في حين ظلّ عبيد الأيديولوجيا أمثال السيّد مينا على إخلاصهم للوهم لأن استكبارهم الكاذب، المتشبّث بتلابيب الماضي، يرفض الإعتراف بوقوع الزلزلة إلى يوم الناس هذا.

والجدير بالدهشة حقّاً هو أنّ مَن يتعصّب لهذا العَصَب على هذا النحو المرضي، ليس الطرف المعني بالعَصَب، ولكن المتطفلين على هذا **العِرْق**، أي ليس العرب العاربة، ولكن العرب المستعربة، كأنّ هؤلاء يتبرّأون من هويّتهم الأصليّة، السابقة على عصر الفتوحات، بوصفها تهمة. ويبدو أن هذه النزعة مستحضرة من عهد الغزوات عندما كانت الثقافة المحليّة توصم بـ«الوثنيّة» في مفهوم

الديانة الغازية. وهو ما يهب ظاهرة ألتنصّل منها بُعْداً دينياً بوصفها استجابة لروح القمع المبثوثة في أدبيات الدين الجديد في سعيه الحثيث نحو تحقيق الهيمنة. والإستهانة بالثقافة الأصلية يغدو نوعاً من المكوس المدفوعة لاسترضاء كهنة الدّين الغازي، فلا تغترب من الواقع الوثنيّة، كخصم عقائدي معادٍ، ولكن تغترب معها العناصر الثقافية التي تحملها بما في ذلك اللغة نفسها دون إعتبار لحقيقة اللغة التي لم تكن يوماً مجرّد أداة خطاب، ولكنّها رسول وجود. والدليل؟

أصحاب الشأن، أي العرب العاربة، بالمقارنة مع الدخلاء على ثقافة العرب، أي العرب المستعربة الذين لن نستطيع أن نعفيهم من مسئولية التعصّب لعَصَب العروبة على هذا النحو الشوفيني الذي يلغي الآخر من واقعه الوجودي، مادامت اللغة العربية هي البرهان على وجود. فدراما الهوية الثقافية قامت بالإعتقاد الشائع الذي يرى في الإعتراف بلسان الأقلية تهديداً موجّهاً ضدّ العِرق الوافد الذي يعطي لنفسه الحقّ لا في أن يهيمن وحسب، ولكن في أن ينفي أيضاً لا بوصفه لسان الأغلبية وحسب، ولكن عملاً بوصيّة «الويل للمهزومين!» أساساً، فلا يملك ضعاف النفوس في ثقافة الأقلية إلاّ أن ينكروا ثقافتهم ليستجيروا بثقافة الأغلبية، ربّما يقيناً منهم بأننا لا ننجو عادةً إلاّ بما نخشى، كما لا نهلك إلاّ بما نهوى!

والتجربة برهنت كيف يتعصّب صاحب الهويّة الثقافية الأصلية (في ظلّ قمع هويّة الأغلبية الثقافية) للهوية الثقافية **الدينية** فراراً من مواجهة تحدّيات هويّة الأقليّة الثقافيّة، لأن الدّين هنا يلعب دور

Twitter: @alqareah

العروة الثقافية الوثقى، أو التميمة القادرة على تحصين الفرد الضائع والأعزل من بطش جلّاد الأغلبيّة. إنه التنفيس عن الجور الثقافي المكبوت الذي يكشف عن حقيقته في إعتناق التطرّف الديني لا إرواءً للظمأ إلى الدّين، ولكن ترجمةً لمدى عمق القهر في مجال الهويّة الثقافية. أي أن الدين هنا لا يعود مجرّد ملاذ، ولكنه يصير تعويضاً. أو فلنقل ثأراً. ثأر من هويّة لا يملك للإنتقام منها سبيلاً وهي الهوية الثقافية المهيمنة، فيستعير بُعْداً مرَضيّاً، عندما يستجير بالدّين الذي اعتدنا أن نسمّيه **تطرّفاً دينياً**. وهو ما يعني أن القمع الثقافي من قبل الأغلبية لثقافة الأقليات لعب دوراً مركزيّاً في إشعال حريق الغلوّ الدينيّ في عالمنا من خلال تقنين قمع الهويات الثقافية للأقليّة التي لم تجد لنفسها متنفّساً إلاّ بأن تشفي غليلها في الدين. وكلّما كان كتم صوت الهوية الثقافية أقوى، كلّما كان التعصّب للدين الدخيل أعظم.

16

أمثال السيّد «مينا» عيّنة تمثّل شريحة مَرَضيّة في الأدب العربي المعاصر لابدّ أن تعترض سبيل كلّ نزيل محافل، ولا نوردها هنا إلاّ على سبيل المثال، لأن سرد تجارب موجعة مع نماذج هذه الملّة قد يهدينا دروساً شيّقة في تأمّل كيمياء الكراهة، ولكنّه لن يعدم أن يكون مضيعةً للوقت عملاً بوصيّة دوستويفسكي بأنّنا لن نبلغ الهدف أبداً فيما إذا توقّفنا في كلّ مرّة لنلقم الكلاب التي تعترض سبيلنا حجارةً!

فما يعني الذاكرة في هذا النزيف المميت ليس الأشخاص، ولكن **النموذج** الذي يمثّله هؤلاء الأشخاص. المهم ليس الحرف في الواقعة، ولكن سيرورة الواقعة عندما تتحوّل ظاهرةً، لأن عملاً كهذا هو من صميم رسالة الإبداع المفتونة دوماً بالنموذج الذي لا يستقيم في الأسطورة إلاّ في حال لم نبخله حقّه في طور النموذج بما أنه السليل الشرعي للجدل المحموم القائم بين الخصوصية والعمومية. فهذا النموذج المدسوس هو الذي التقطه دوستويفسكي من الواقع الروسي في مرحلة المخاض ليبدع لنا منه رواية مرجعيّة في الأدب العالمي هي «الممسوسون»، كما التقط سرفانتس من واقع الفروسيّة المحتضر نموذج «دون كيخوت» لتصير الرواية الأكثر شعبيّةً لتعبيرها

عن جرثومة الهزل كشفرة أخرى في طبيْعة الجنس البشري. وما هَوَس دنيانا بالتهريج سوى تلبية لنداء هذه الطبيعة التي تسكننا فلا تكشفها لنا علوم النفس بقدر ما تكشفها لنا عبقرية الآداب. ولكن هَوَس الإنسان بالتهريج يهون فيما إذا قُورن بطلسم آخر يسكن مجاهل الإنسان وهو الموقف المعادي لأخيه الإنسان على النحو الذي فاجأني به السيد مينا في ذلك اليوم بمبرّرٍ مضحك وهو أنّي لم أخضع لمشيئته فأتناول في تجربتي الروائية «قضاياه» على النحو الذي يريد! لم يكتفِ بذلك ولكنّه تطاول على دوستويفسكي أيضاً في هجمته المسعورة على شخصي عندما إستنكر استشهادي به مراراً في تلك الشهادة الرؤيوية (التي لم يفهمها كما قيل لي وكما برهن بمنطقه الخالي من المنطق) ليقطع دابره من الوجود قائلاً أنه لا يجب أن يعني لنا اليوم شيئاً لأنه «ذهب بلا رجعة» على حدّ تعبيره الحرفيّ، كأنّ هذا القدّيس أذنب في حقّه لأنه علّم شخصي معنى «الهَمّ الكينوني» بوصفه وصفة الترياق التي آمنت بها مبكّراً، لأنها الضمان في مدى قيمة أيّ نصّ أدبي إنساني حقيقي.

لقد صُدمت في تلك التجربة لأنّي نسيت أنّ ما نسمّيه أدباء هم أعدى أعداء الأدباء وأقلّهم تحلّياً بروح الأدب رغم أنف المفهوم الأخلاقي لهذا اللقب.

كان المناخ مشحوناً ولا يوحي بما يدلّ على وجود نيّة للبحث عن الحقيقة التي يجب أن تكون غاية كل لقاء من هذا القبيل. وكان موقف مقرّر الجلسة سلبيّاً فلم أجد مفرّاً من التدخّل من باب حقّ

Twitter: @alqareah

الدفاع عن النفس، ولكن السيّد مينا لم يُتح لي الفرصة فهبّ واقفاً لينسحب من الجلسة إستنكاراً لجرأتي على الردّ، كأنّ الواجب يقضي أن أسمع تقريع أمثاله صاغراً لا لشيء إلاّ لأن صيته الأدبي شهادة براءة تُبيح له أن يعبث كما يشاء ويوزّع الإهانات كما يشاء وإلاّ ما جدوى الصِّيت إذا لم ينَل به على العباد سلطةً مطلقة، ولا يدري أنه بهذا يتصرّف كأطغى طاغية: طاغية يفوق طغاة الأمّة الذين اعتاد هو وأمثاله أن يصدّعوا رؤوسنا بذمّهم في أدبيّاتهم ولا أقول آدابهم، لأن للآداب مواصفات أخرى تختلف تماماً عن ما يسوّقونه لنا بوصفهم أدباء؟

لم يكن الإنسحاب من القاعة دليلاً على وهن حجّة الرجل أو على غياب منطقه فقط، ولكنّه البرهان على غياب النيّة المسبق في الإستماع إلى مرافعة الطرف الآخر. وهو ما يعني لي عدم الإعتراف بحقّه في أن يترافع دفاعاً عن نفسه. وهي خطيئة مستعارة من العقيدة الفاشيّة التي ألفناها في مسلك المؤدلَجين العرب. وعلى الرغم من هذه الحقيقة إلاّ أن الرأي العام المسمّم بروح هذه الأدلجة على مرّ عقود، وربّما قرون، أبَى إلاّ أن ينتصر للجلاّد على حساب الضحيّة. فقد فوجئتُ في اليوم التالي بمقالة في جريدة المؤتمر تحوي تبرئة ضمنيّة للطرف المعتدي وتدين بالمقابل الطرف الآخر. والواضح أن الصحفي لم يحضر الواقعة، ولم يتَحَرَّ الحقيقة من الطرفين المعنيَّين، ولكنه استعار من شائعات أناسٍ غير معنيّين بالحقيقة، لأن **الإساءة أفيون الدهماء**. ومن الطبيعي أن ينحازوا لجانب صاحب الصّيت حتّى

Twitter: @alqareah

لو كان صيته مزعوماً أو مزوّراً، ليلصقوا بشخصي تهمة تقول أنّي هاجمت معبودهم حنّا مينا في صيغة أضحت بالتنقّل من لسان إلى لسان مسلّمة!

فما أكّدته لي إحدى الروائيات العربيات أن الموقف كان مؤامرة من صنع أحد أقطاب الأدب العربي الذي شاهدَتْ كيف مَرَّرَ ورقة إلى السيّد مينا أثناء إنشغالي بقراءة شهادتي، مستغلاًّ سُكره الشديد الذي أكّده الجميع تالياً، ليحرّضه برجمي بما لم يجرؤ هو أن يرجمني به كعادة كل جبناء هذا العالم الجبان. فالولع بالمشروبات الروحيّة مؤهّل بوهيمي. والبوهيميّة كانت إلى وقتٍ قريب دين الأدب العربي الحديث. وهو دينٌ إعتنقه الأدب العربي على سبيل الإعارة أيضاً مثله مثل تقاليع كثيرة أخرى مستقدمة من خارج البيئة تيمّناً بالحداثة. ولم أكن لأصدّق ما تردّد عن غياب الرجل عن الوعي طوال فعاليات ذلك المؤتمر لو لم يبرهن صلاح فضل على الأمر بالدليل يوم دعاني مع نخبة من الأدباء لتناول طعام العشاء ببيته العامر وكان السيّد مينا من بين المدعوّين، حيث انبرى يتغنّى بالموضوع الأبدي «شأن الأمّة» على عادة كل عبيد الأيديولوجيا المفلسة التي أفرزتها مرحلة الخمسينيات والستينيات. وعندما أعيته الحيلة إلتفت نحوي ليستفهم عن هويّتي كأنّي لست الإنسان الذي كان بالأمس ضحيّة هوسه العقائدي. ولكن مضيفه الفاضل صلاح فضل قرأ (بتسامحه وحسن نواياه) في استفهام الرجل الدليل عن غيابه عن الوعي يوم المداخلة، بسبب مفعول الكحول! وهو ما أكده جابر

عصفور أيضاً بعد ذلك التاريخ بما يزيد على العقد من الزمن، في جلسة جمعتنا مع كبكبة الأدباء بفندق إنتركونتيننتال بأبي ظبي أثناء حضور أحد المؤتمرات ليروي سيرة إساءات السيد مينا لشخصه لا لشيء إلاّ لأنه «حرمه» الفوز بجائزة الرواية العربية التي ظنّ أنه الأحقّ بها من عبد الرحمن منيف الذي نالها!

فالجوائز الأدبية أضحت في الواقع الثقافي أيضاً لعنة بدل أن تلعب دور الحافز في إثراء المنافسة الأدبية كما هو المأمول. وها هي تشحن هذا الواقع بالبغضاء بدل أن تُحيي فيه روح المنافسة في ارتياد آفاق أبعد منالاً. وعلّ الخلل يعود إلى فساد القياس الذي واكب مسيرة هذه الجوائز فأدّى إلى الإحتفاء بالشخص على حساب القطب الذي هو النصّ. فليس الإستحقاق هو الحَكَم، ولكن الحَكم خضع لضوابط لا علاقة لها بالأدب مثل الموقف الأيديولوجي أو السياسي لمؤلّف النصّ، أو بُعْد العلاقة، أو الحضور الإعلامي في الأوساط الأدبية، أو الصّيت الذي غالباً ما يكون مزيّفاً، أو حتى الموقع الذي يفصل عن القبر!

هذه النزعة في تحكيم الجوائز الأدبية جرّدت **القيمة** من العمل الإبداعي سواء القيَمة الأدبية أو الإنسانية لتخلع خلعتها على شبح العمل المتمثّل في شخص مؤلّف العمل. ولهذا لن أتردّد في أن أقول أن الجائزة التي تُمنح عن إستحقاق هي جائزة النصّ المستحَقّ التي يضعها هذا النصّ تاجاً على رأس هذه الجائزة! أمّا الجائزة التي تُمنح عن غير إستحقاق فهي العار الذي يتوّج جبين الجائزة، وجبين الفائز

بالجائزة أيضاً. وهو حكمٌ لن يقتصر على الجوائز الأدبية العربية وحدها، ولكنه يشمل الجوائز الأدبية على مستوى العالم. وهو حكمٌ كفيلٌ بأن يُعيد القيمة الرمزية الضائعة لفكرة الجوائز، ويغسل عنها وصمة الغنيمة التي إعتنقتها في الآونة الأخيرة. فاغتراب القيمة الأدبية في الجوائز غرّب فيها القيمة الأخلاقية على نحوٍ يكاد يجعلها عنواناً لغياب النزاهة، بدل أن يكون عنواناً لحضور الكفاءة!

وعلّ موقف السيد مينا من فوز منيف بالجائزة قرينٌ لموقف يوسف إدريس من فوز نجيب محفوظ بجائزة نوبل عام 1988. وهو ما يعني أن الجوائز الأدبية سمّمت الأوساط الأدبية لتلعب في العلاقات دوراً سلبياً بدل أن تكون لنا بمثابة قرون إستشعار نحو عملٍ أدبيّ جدير بأن يُقرأ. فالنصّ الأدبي الفائز هو قيمة من نصيب كل مريد أدب (حتى لا نقول كل مريد حقيقة)، لأن النصّ الذي اكتسب قيمة إنسانية هو نصٌّ ينتمي لحسّ أيّ مبدعٍ حقيقي، وهو نصّي بقدر ما هو نصّ مبدعه مادام البعدين الجمالي والإنساني هما الفحوى فيه. ويبدو أن غياب هذا الجنس من النصوص في عصرنا هو رذيلة المعايير التي تعتنقها لجان جوائز هذا الزمان عندما تعلي العلاقات أو المجاملات أو المواقف الأيديولوجية أو السياسية المسبقة على حساب القيمة الأدبيّة الحقيقة في النصّ. ولذا صارت الجوائز الأدبية نوعاً من إرواء الظمأ لاستكبار يخفي حنيناً إلى السلطة، وليس دليلاً على حضور قيمة في النصّ تستهدف الحقيقة أو تتغنّى بالبُعْد المفقود في وجودٍ يهيمن عليه شبح العدم.

فما يأبى عالمنا أن يعترف به للمبدع هو القيمة التي هي رهينة النصّ، فيخلعها على هبة طارئة ودخيلة على النصّ كالجائزة الأدبيّة التي لم تكتمل لتنال القيمة لولا فوز النصّ بها الذي لن يعني في هذه الحال فوزاً للنصّ قدر ما يعني فوز الجائزة بالنصّ إلى الحدّ الذي نستطيع أن نجزم فيه على قلب المفهوم رأساً على عقب فنقول جائزة نوبل الفائزة بوليام فوكنر، بدل أن نقول وليام فوكنر الفائز بجائزة نوبل!

ويقيننا بصواب هذا الرأي سوف يتضاعف ما أن نتأمّل ماهيّة الجائزة، أي جائزة. فهذه البدعة نشأت إمّا لتشييد كيان لمجدٍ مفقود كما هو الحال مع جائزة مثل نوبل التي لم تكن مجرّد نفي تهمة، ولكنها كانت طلباً لغفران ينزّهها عن خطيئة في حقّ الجنس البشري باختراع سلاح إبادة شاملة. أي أنها إعترافٌ بالإثم والتماسٌ خجولٌ لشراء هذا الإثم بثمنٍ بخس هو الجائزة! من هذا المنطلق فإن قبول عبقرية ألوهية مثل فوكنر بنيل جائزة كهذه هو قبولٌ بممارسة دور العرّاب الذي يعمّد، بل وقبولٌ بدور القدّيس المخوّل وحده بتبرئة ساحة الطرف الآثم من هذه الجريمة الشنيعة في حقّ الإنسانيّة. أي أن فوكنر هنا هو الشفيع للسيد نوبل لدى بلاط العروة الوثقى، وليس العكس كما تعتقد أغلبيّتنا اليوم. والدليل يهبه لنا الإحتمال الأول في حال تأسيس الجوائز ترجمةً لنيّة في اكتساب قيمة مفقودة، أي كتعويض، كما هو الحال مع جوائز سادة هذا العالم وهم على قيد الحياة، فيكون قبولها لا مسحاً لوصمة عار كما هو الحال مع نموذج

الإستغفار، ولكن دعماً لهيمنة وصمة العار باعتبار أي حكم هو سلطة، وكل سلطة هي ممارسة لخطيئة. وهو ما لن ينفي وجودَ بُعْدٍ ثالث في سيرة الجوائز يتمثّل في الرغبة في أداء الدَّيْن نحو أناس ضحّوا في سبيل الواجب ثم انسحبوا من عالمنا، فلا نملك تقديراً لبطولاتهم إلاّ أن نخلّد ذكراهم بجوائز تحمل أسماءهم تعبيراً عن وفائنا لهم. وأعتقد جازماً بأن هذا النوع من الجوائز هو الأجدر بأن نهديه أسماءنا ونفخر بشرف الشفيع المخوّل بتزكيتهم لدى بلاط الملكوت!

هذا التحليل يكشف مدى المهزلة التي يعيشها المبدع في عالمٍ يُحسد فيه على جائزة هي حطام دنيا بقدر ما هو سفيرٌ لها لدى العالمين، بل وشفيعٌ لها لدى ربّ العالمين، لا لأنه مقياس الأشياء وحسب، ولكن لأنه غاية الأشياء أيضاً. وفوق هذا وذاك هو القيمة التي تنفخ الأنفاس في جائزة هي حطام دنيا لتحيي فيها العظام وهي رميم! ولكن أنّى لمن ينبحون حولنا أن يدركوا هذا أمثال السيد كريستوف مورغلي زعيم اليمين السويسري (SVP) الذي هاله أن أُمنَح جائزة الدولة الكبرى على مجمل الأعمال المترجمة إلى الألمانية في 2005 ممّا أفقده صوابه فخان التقاليد الأخلاقية السويسرية بشنّه حملة مسعورة على شخصي (لا على نصّي بالطبع) في مقالٍ إفتتاحي بصحيفة «فيلت فوخي»، ليهاجم لجنة الجوائز بالدولة أيضاً، لأكون كبش فداء لعداء هذا الحزب لكل ما له صلة بالأجانب، ناسياً أن الفصل في الأمر كان قدس الأقداس الذي نصّبته الأمّة السويسرية

Twitter: @alqareah

ليكون لها معبوداً منذ القدم على نيل الجوائز الأدبية أسوةً بأقرانهم السويسريين مادام الإستحقاق هو الحكم.

وعندما أقول أن غاية الحملة هي شخصي، لا نصّي، فأعني جهل هذا الرجل بهذا النصّ، لأنه لم يكلّف نفسه عناء قراءة كتاب واحد من مؤلّفاتي المنشورة بلغته الألمانية والتي تربو على العشرة كتب حتّى ذلك الوقت فيمنح هجومه روحاً نقديّة علّها تبرّر بعضاً من سُعاره الجنوني في حملة ظاهرها الحرص على أموال سويسرا وباطنها كراهية كل ما متّ للأجانب بصلة. ولا يدري هذا الإنسان البائس أنّي الكاتب الوحيد تقريباً الذي لم ينزل ساحة هذا البلد (الذي يراه كل فرد فردوساً أرضيّاً) متطفّلاً أو لاجئاً، ليحيا عالةً على دافعي الضرائب السويسريين، بل دخلتُه مرفوع الرأس، كنتُ فيه أحد دافعي هذه الضرائب منذ ما قبل حصولي على الإقامة الإستثنائية، إلى اليوم الذي قرعت فيه الغيوب أجراس الهجرة، فحملتُ آلامي لأنزل ساحة أرضٍ أخرى! وأستطيع بهذه المناسبة أن أعبّر عن امتناني للعناية الإلهيّة التي حرّرتني من وزر أن أكون مديناً ماديّاً لكل البلدان التي حللتُ فيها ضيفاً سواء روسيا أو بولونيا أو سويسرا أو حتّى بلدي ليبيا، لأنّي عشت بعرق جبيني قبل أن أبلغ سنّ الرشد في أمّ الواحات سبها بجنوب ليبيا، ولم أكن لأوفّق في استكمال دراستي بموسكو بموجب منحة إتّحاد الكتّاب السوفييت المتواضعة لولا دعم ما وفّرتُه من عملي بجريدة «فزّان» منذ 1965، ثم عملي كمراسل للصحافة الليبية والعربية طوال سبعينيات القرن الماضي، إلى أن تمّ

تعييني مجدّداً بمعهد الإنماء العربي وانتدابي للعمل بالخارج مع النصف الثاني من سبعينيات القرن. وهو ما لن يُعدّ فضيلة تستحقّ التذكير لو لم يضطرّني السيّد مورغلي في حملته الجائرة ظنّاً منه أن نيلي للجائزة يعرّض أموال سويسرا للنهب، ولا يدري أنّي أدفع لخزينة هذا البلد أموالاً تزيد أضعافاً عن قيمة الجائزة، علاوة على ما في هذه العقلية النفعية من إنحطاط لم يكن ليليق بزعيم حزب يعتبر نفسه منظّراً بل ومفكّراً، لأن قياس الجوائز لم يكن يوماً مالياً إلاّ في نظر أمثاله من ضعاف النفوس! وها هي الأيام تبرهن لي على هذه الحقيقة في شأن هذا الرجل. فقد تمّ تعيين السيّد مورغلي مديراً لمعهد ذي صلة بالشئون الطبيّة في هذه الفترة. وفي 2012 فوجيء المجتمع السويسري بفضيحة مالية لم يكن مصادفة أن يكون السيّد مورغلي بطلها وهو الذي نصّب نفسه رسولاً للنزاهة طوال أعوام! وهو ما ضاعف من خيبة أمل الرأي العام السويسري لتصدر لجنة التحقيق التي عيّنها البرلمان قرارها بتجريد السيد مورغلي من صلاحيّاته وطرده من مؤسسة الشئون الطبية!

لم أردّ على السيّد مورغلي في هجومه العبثيّ على شخصي في قضيّة تتعلّق بنصّي لا بشخصي، وفضّلت أن أحكّم الحقيقة لتكون القاضي بيننا كما فعلت مع أهل جورٍ كثيرين، فما كان من الحقيقة إلاّ أن أنصفتني هذه المرّة أيضاً، كما لم تخذلني في كلّ مرّة!

17

الكراهة المجّانية في حقّ نموذج كالعدوس موقفٌ مسبق مستعار من ثقافة الأيديولوجيا السائدة في واقع الإنسان العربي. أيديولوجيا مستعارة بدورها من عقلية شوفينية لم تعترف في تاريخها بوجود الآخر، فكيف بوجود ثقافة الآخر؟ وما يدعو للتأمل حقاً هو هذا الإجتماع على إنكار هوية الأقلية من قبل أركان الأيديولوجيات السائدة الثلاثة: القومية والدينية والأمميّة. فهذا الثالوث يمكن أن يختلف في كل شيء، ولكنه يتّفق في مبدأ واحد هو: قمع هوية الأقلية الثقافية، والعمل على قطع دابرها من خارطة الوجود. وعبثاً نحاول أن نبحث عن مبرّر أخلاقي أو حتّى منطقي لتفسير هذا العداء ما لم نتمكّن من إستجلاء جذور هذه النزعة في منبتها كمكوّن ثقافي شرب من آبار العقلية الموروثة، أي البُعْد النفسي الذي يسكن مجاهل اللاوعي. ففي حين يجاهر فرسان المعتقد القومي بالعداء لثقافة الأقلية بحجّة خطرها على وحدة الأمّة القومية، لا يتردّد كهنة التيّار الديني العربي في إنكارها بوصفها خطراً على وحدة الأمّة في **بُعْدها الديني**، أي الإسلاميّة. أمّا التيّار اللّاديني فيعلن على الهوية

الثقافية للأقلية الحرب أيضاً بمبرّر مماثل هو خطرها على وحدة الأمّة في **بُعدها الأممي!**

ولكن الكلمة الأخيرة في العقدة تبقى خبيئةً في الأرومة التي أفرزت كل هذه الأيديولوجيات الشقيّة، وهو **البُعْد العروبي** في تكوين المثقّف العربي بحيث تتحوّل قناعاته الأيديولوجية مجرّد أقنعة جوفاء مستعارة من خارج، ولا تمسّ فيه الصميم المبلبل بالإنتماء إلى معبودٍ وحيدٍ هو العِرق، وكلّ المعبودات الأخرى هي مجرّد أيقونات دخيلة، تُستعار من باب التمويه حسب، في حين يبقى الوفاء للعِرْق هو قدس الأقداس الذي لا يُعْلَى عليه. وهو ما يعني زيف كل المعتقدات الأيديولوجيّة التي يحاول المثقّف العربي أن يقنعنا بها فيخفق لسببٍ بسيطٍ وهو إستحالة أن تقنع أناساً بدينٍ لا تؤمن به، بدليلٍ لم تبخل به الفئة المؤدلجة في الواقع الثقافي العربي من خلال تذبذبها المخجل بتنقّلها من أيديولوجيا إلى أخرى، مما يبرهن على ضعف إيمانها بأيديولوجيا تروّج لها في البداية كدين مبين، ولا تستحي في النهاية أن تتنصّل منها لتستبدلها بأيديولوجيا أخرى إستبدال الثوب!

هذه العقلية لن يضيرها أن ترى في كلِ من انتمى إلى لغة أخرى عدوّاً حتّى لو أثبت حسن نواياه نحو الثقافة العربية واستخدم هذه اللغة بالذّات في خطابه إلى العالم، ضارباً بعرض الحائط المنطق القائل بأن اللغة هي الوجود، ومن إستخدم لغة قومٍ في خطابٍ هو وجود فقد إنتمى إلى هويّة القوم حتّى لو إنتمى عرقياً إلى هوية أخرى

Twitter: @alqareah

سواء أكانت أقليّة أم أغلبيّة. فهذا الفريق في واقع الثقافة العربية وحده يصرّ أن يقلب المنطق فيرى في نموذج كالعَدوس مشبوهاً وجديراً بالكراهة بسبب الإنتماء العرقي، فلا تشفع له وثيقة لا يأتيها الباطل كالنصّ الأدبي المكتوب بالعربية، في حين يحتفي بالنموذج الآخر الذي إغترب عن لغته العربية، وكتب بلغة أجنبيّة، ويعترف بما كتب كأدبٍ عربيّ لا لشيء إلا لأن الإنتماء العرقيّ لهذا النموذج عربي! وهو ما يعدّ إهانة لناموس الوجود قبل أن يكون تعدّياً على ناموس الآداب أو اللغات!

ولهذا من الطبيعي أن يفقد نموذج هذه العقلية صوابه لأن مجرّد حضور نموذج كالعدوس هو إستفزاز لكبريائه العرقيّة، وتحدٍّ لقناعاته الفاشيّة، فلا يجد ما ينفّس به عن المكبوت سوى إختلاق مواقف لا أخلاقيّة، كثيراً ما تبدو صبيانيّة، ينكرها عليهم أغيار راهنوا على مباركتهم، قبل أن ينكرها عليهم إنسان صار إزدواج اللغة في حياته مفارقة درامية، ففي الوقت الذي عانى فيه هذا الإنسان الإضطهاد بسبب الإنتماء العرقي من قبل أهل اللغة التي اعتمدها كخطاب، نجده يعاني الإغتراب في محافل الأغراب بسبب لغة هذا الخطاب بالذّات كما هو الحال مع نموذج مثل السيّد كريستوف مورغلي المعادي لكلّ ما متّ بصلة للأجنبي، سيّما إذا كان هذا الأجنبيّ يمتّ بصِلة للعالم العربي. ولكنّه قدر العدوس الذي لم يحدث أن يمّم صوب وجهةٍ إلاّ ووجد نفسه بين المطرقة والسندان!

Twitter: @alqareah

18

لا يكفي أن نتغنّى بوصيّة المسيح فنقول: «لا كرامة لنبيٍّ في وطنه»، ولكن الصواب أن نضيف فنقول: «لا كرامة لنبيٍّ في زمنه أيضاً إلى جانب وطنه» كأنّ طبيعة الوجود كصفقة مبرمة بين مكانٍ وزمان، تأبى إلاّ أن تعبّر عن نفسها هنا أيضاً. ويجب في المستهلّ أن نلاحظ أن جريح المكان (المسيح) لم يطلق حكمه على أيّ وطن، ولكنه وضع الأمر رهين وطن المعني تحديداً وهو النبيّ من خلال ضمير المفرد الغائب، ليؤكّد بذلك على حقيقة تستدعي تأمّلنا. فما ينفي الكرامة عن الأنبياء ليس المكان، ولكن الحضور في ذلك المكان الذي نشرّفه دوماً عندما نخلع عليه لقباً جليلاً كالوطن، بدليل أن الأنبياء ينتزعون الإعتراف بنبوّتهم ما أن يستبدلوا المكان، ويتنكّروا لذلك المكان الذي أنكرهم لا لشيء إلاّ لأنه مجبولٌ بهويّة ميتافيزيقية نسمّيها وطناً.

وما يُقال عن المكان الذي ينوء بمفهوم الوطن، يقال أيضاً عن قرينه في صفقة الوجود المدعو زماناً. فبقدر ما يكون الزمان بالمطلق حليف النبيّ في شأن إعلاء شأن نبوّته، يكون الزمان عدوّ هذه النبوّة في واقع الحضور في البعد المحدّد. أي الحضور في الآنيّة. الأنيّة

كبرهان على الحضور على خارطة الوجود. وهو ما يقابله الحضور في هذا المكان، وليس في أيّ مكانٍ آخر. وكلمة «هذا» هنا تعني تحديد الحيّز الأرضيّ ذي السجيّة الغيبيّة الذي اعتدنا أن نسمّيه وطناً. هذا يعني أن انتصار الحقيقة المبثوثة في فحوى النبوّة مشروطٌ بالغياب عن مكاننا الميتافيزيقي الذي يروقنا أن نتباهى بالإنتماء إليه من دون كل أمكنة هذا العالم. وبالرغم من ذلك يضطهدنا كما لا يضطهدنا أيّ ركنٍ في هذا العالم. يضطهدنا بسبب حضورنا فيه، في حين لا يتردّد في أن يتغنّى بمآثرنا بغيابنا عنه. وهو مسلكٌ يحاكيه فيه حميمه الزمان أيضاً، فيتنكّر لنا في حضورنا فيه، ولكن يتذكّرنا ما أن نختفي منه. وهو ما يعني أن الوجود (المجسّد في حرف الصفقة بين هذين القطبين) هو في الواقع من يجاهر بالعداء لجناب النبوّة، وبالتالي، لجلالة الحقيقة! وبالطبع فإن الإنسان، بوصفه فحوى هذا الوجود، هو الجلّاد في ملحمة البطش بهذه الحقيقة.

ولكن ما غاب عن الجلاد هو أن الحقيقة عنقاء تبعث نفسها من رمادها باغترابها عن هذين القطبين المعاديين المجسّدين لظاهرة الوجود لأنهما مريدا البعد الفاني الذي نسمّيه في معجمنا «حاضراً»، في حين لا تعترف إلاّ بالأبدية معبوداً.

قدر الحقيقة إذاً، إغتراب. قدر الحقيقة اغترابٌ سواء استقامت في حرف نبوّة، أو استعارت في الفحوى هويّة إبداع. لأن أيّ إبداع من حقّنا أن نخلع عليه لقب إبداع إذا اعتنق التسلية ديناً، على سبيل المثال، وتنكّر لمعبودة الأزمنة وربّة أجيال الخليقة: الحقيقة؟

فهنا أيضاً يرابط الجلاد ليسفّه كل متن مجبول بروح المعبودة،

فلا يتردّد في أن يستنزل حكم الإعدام لا في حقّ المتن وحده، ولكن في حقّ صاحب المتن أيضاً بالطبع.

فليس صحيحاً أن الغباء وحده داءٌ بلا ترياق في دنيا الأنام، ولكن الحسد أيضاً داءٌ بلا ترياق. وإذا كان الطبّ قد أفلح في تشخيص كل أمراض الجنس البشري، فلا شكّ أن الداء الوحيد الذي أخفق في تشخيصه هو الحسد. وهو فشلٌ نصّب الحسد سلطاناً غيبيّاً في الواقع، ليصير في واقع الناس طاغية بلا منازع، بالقدر ذاته الذي صار فيه طاغية بلا منازع في نفوس المصابين به. ولم يكن الداء ليكون بتلك السطوة التي ألفناها في مفعوله لو لم يهرع الحضور ليكون له عوناً في البطش بضحاياه. أعني الحضور ببعديه المكاني ثم الزماني. المكاني محدّداً بفخٍّ عظيم هو الوطن، والزماني محدّداً بفخٍّ لا يقلّ وحشيّةً هو الآنيّة، أي الحاضر. الحاضر الذي نتوهّم أننا نملكه ليغدو لنا زماناً، فإذا به هو الذي يملكنا لنكون في براثنه دميةً. ولولا ملكيّته لنا لما استطاع أن يستدرجنا لنجد أنفسنا بين يدي أهل الحسد أسرى في كل مرة نحقّق فيها حلماً أو أمنيةً لنطلق على هذا التوفيق إسماً خطراً يبدو في عرف الحاسدين خطيئةً لا تُغتفر، وهو: **النجاح!**

يكون النجاح في تحقيق أي شأنٍ دنيوي مبرّراً كافياً لنيْل قصاص أهل الحسد، فكيف إذا كان هذا النجاح في شأنٍ رساليّ كالوحي، سواء أكان وَحْياً بنبوّة، أو اصطفاءً بعبقريّة؟

هذا المستوى هو ما يفقد أهل الحسد الصواب فيدفعهم لاقتراف

أبشع الآثام في حقّ حمَلَة هذا الوزر بدايةً بتلفيق الأكاذيب ونهايةً بتتويجهم بأكاليل الشوك، تمهيداً لتثبيت أبدانهم على الصليب، ظنّاً منهم أن كتم أنفاسهم سوف يسهم في كتم أنفاس أفكارهم، ولا يدرون أن تلك الأفكار لا تحيا حقّاً إلاّ بهلاك أصحاب الأفكار، بل قيمتها رهينة بمدى غزارة الدم الذي يسفح في سبيلها، ومؤهّل خلودها مشروطٌ بمدى ثراء الشرور المستنزلة على رأس حاملها.

فالتجربة التي برهنت كم يبدو مريد الحقيقة عاجزاً عن الدفاع عن نفسه أمام سطوة شرّ كالحسد لسببٍ بسيط وهو حاجة كل خصام لحيثيات تثبت البراءة، وصاحب الحقيقة وحده لا يملك لتبرئة ساحته دليلاً، يقيناً منه أن الحقيقة التي تسري في مسلكه الأخلاقي، كما تجري في شرايين دمه، تكفي في المرافعة برهاناً، ولكن هيهات! فحضور صاحبها قيد الوجود يشلّ منطقها، لأن عضلة اللسان لا تصلح في حملة الدفاع موكّلاً، لوجودها خارج صلاحيّات اللسان بطبيعتها. ولهذا السبب لا تصلح في سحق العصابة المعادية إلاّ بعد سفح دماء القربان. فكما حضور الروح رهين غياب الجسد، كذلك انتصار الحقيقة رهين غياب حامل الحقيقة، لأنه بمثابة الجسد لفكرة هي فيه روح هذا الجسد، فلا تسطع شمس الفكرة الحبيسة إلاّ بتحرّرها من جسدٍ كان لها قمقماً، لتنطلق لحظتها الفكرة بمرافعتها، لتترجم حُجّتها في ذلك الواقع الحميم، المسكون بالسلام، لأن الزمن الذي غيّب الجسد في المريد، قد استطاع أن يبيد في الواقع الجديد، الشرّ الكامن في محفل أهل الحسد، لأنه غيّبهم أيضاً، كما

غيّب مَن اتخذوه خصماً، مع فارق جسيم وهو أن المحسود الذي كان بالطبيعة فانياً، قد صار بالحقيقة خالداً، في حين صار الحاسدون الذين كانوا بالدنيا سطوةً، قد استحالوا بالفناء يباباً.

وهو ما يعني أن العدالة **رهينة الحرية**. رهينة حرية في حدودها القصوى. رهينة حرية الموت، لأن الموت وحده ينصفنا في عراكنا مع طغيان الجسد، فيميت من أراد بنا الموت، في حين يحيينا بإحياء رسالتنا، في وقتٍ أراد فيه الأعداء موتنا.

Twitter: @alqareah

19

في الجانب الآخر من هذا المستنقع ينتصب كيان محفل آخر يعجّ بفرسانٍ من طينة أخرى حقّ للواقع الثقافي العربي أن يصنّفهم رسلاً له لا لدى محافل العالم الثقافية وحسب، ولكن لدى محافل الأجيال الثقافية الإنسانية بجناحيها السابق واللاحق، ليعيدوا بذلك الروح الضائعة للأدب العربي الكلاسيكي. وكم كان الواقع الثقافي العربي سيكون يتيماً وموحشاً فيما لو غابت فيه هذه الكبكبة الثريّة التي قُدّر لي أن ألتقيها عبر طوافي الطويل في صحراء هذا الوجود، ليكون لي أغلبهم خلّان روحٍ عزّوني في مراسم حدادٍ هي حميم كل تجربة إرتحال في حال طال بها الحال. ويبدو أن تنصّلي من مقامي وراء تخوم الستار الحديدي بخروجي من روسيا إلى سويسرا هو ما كان له الفضل في الحلول في رحاب هذا المحفل النبيل كأنّ هذا الخروج كان بمثابة ميلادٍ ثانٍ إلى جانب الميلاد الروحي الذي لا أملّ من أن أتغنّى به كبعثٍ من عدم فأنعته طوال الرحلة بـ «الميلاد الثاني». وها هي طلائع الفرسان تستقبلني في أول نزولي المشرق بعد غياب دام طويلاً، تحديداً في عمّان ثم في بيروت، في غزوة الإشراف على طباعة الجزء الأول من «السَّحَرَة» بالمؤسسة العربية للدراسات

Twitter: @alqareah

لصاحبها ماهر كيالي الذي احتفى بشخصي، وأحاطني بمراسم سخاء كان الحبّ طعومها قبل أن تكون لها مأدبة العشاء في بيته تاجاً. في الفندق زارني سعدي يوسف الذي كان يشرف على تدقيق الرواية ليفاجئني على مائدة العشاء برأي عابر في الرواية ولم يدرِ أنه استطاع بحسّ الشاعر أن يلخّص فحوى غابت عن دهاة النقد عندما وصفها بـ«**الحسيّة**»، لأن ميلاد الدين في طور التكوين الصحراوي تجربة رهينة عبور ظلمات الطبيعة الأمّ، وبطولة الإنسان في استجلاء اليقين الروحي مغامرة تتلمّس طريقها عبر **الحسّ**، لأن الحسّ في هذا البُعد البكر هو اللغة الوحيدة المشتركة في ظلّ حميمية العلاقة مع الطبيعة.

في تلك المرّة زارتني المبدعة الرائعة منى السعودي أيضاً، ودعتني إلى مأدبة لتناول طعام الغداء في بيتها العامر برفقة كيالي وسعدي، لتقودني لمشاهدة متحفها بفصول جديدة من سيرة الفتنة التي تحوّل بموجبها الصلد إلى ملحمة شعرية بفضل السّحر الذي يسكن يديها. كانت منى قد إتصلت بي على عنوان سفارة سويسرا إبّان مرحلة الإستشفاء من مرض إسمه الدنيا أثناء عزلتي في جبال الألب لتترك لي خبراً لدى السكرتاريا في زمن هيمنة «التبر» التي كانت سفيري لدى جلّ الذين اتّصلوا بي من سَدَنة المحفل وفي طليعتهم أدونيس الذي اتصل بي من باريس بعد عودتي من رحلة المشرق بأيام، ولكنّي لم أسعد بلقائه إلاّ بعد إثنى عشر عاماً من ذلك التاريخ، أي في 2005 عندما كنّا أضياف مؤتمر أدبي بكولونيا بألمانيا، لتتواصل لقاءاتنا تالياً في دبي وفي الدانمارك على هامش

Twitter: @alqareah

مؤتمرات أدبية. وهو الشخصية الرائدة في الشعر، والتنويرية في الفكر، والإنسانية في علاقته كإنسان بأخيه الإنسان، الذي لابدّ أن يكون حضور قامة بهذه الخصال في عالمنا المسمّم بروح الأيديولوجيات، والمسيّس حتّى النخاع، عزاء، وأيُّ عزاء، مثله في ذلك مثل سعيد الغانمي الذي عرفته من خلال دراساته عن أعمالي قبل أن ألتقيه شخصياً مصادفةً في عمّان 1999عندما كان يتأهّب للخروج من منفاه القديم في طرابلس وعمّان ليُوغل في فراره إلى أستراليا هذه المرّة. كما حدث مع أهرامات عرفناها وعايشناها ثم فقدناها كدرويش هذا الزمان الطيّب صالح، أو العلّامة محمود أمين العالم، أو عميد النقد العربي شكري عيّاد، أو القرين في العَدْو وفي السُّرَى محمود درويش، أو المغترب في بغداد زمن الحصار جبرا إبراهيم جبرا، أو قرينه في اغترابه عبد الرحمن منيف، أو رائد التجديد في الشعر العربي عبد الوهاب البيّاتي، رموزٌ أبت الأقدار إلاّ أن تخرجني من خلوة استشفائي في جبال الألب السويسري لألتقيهم قبل أن يرتحلوا دون أن يخطر ببالي بالطبع أن حضوري في حضراتهم هو بمثابة اللقاء بقصد الوداع. فجيلي الذي وعَى دنيا هؤلاء فرسانها وحده لن يتخيّل أن هؤلاء يمكن أن يخذلوا فينسلّوا فجأةً، لأن الإنطباع الخادع الذي خلّفوه بصمةً في روح الجيل هو أنهم خالدون! وعلينا أن نتخيّل مدى الإحساس بالضياع الذي سيخلّفه غياب مثل هذه الكوكبة في واقع ثقافي شحيح مشوّه بالسّفساف والأدلجَة، سيّما في حال كان هذا الغياب جماعيّاً، وإلى

جانب هذا مفاجئاً، كأنّه هجرة مدبّرة بسلطة قدريّة لإجبارنا على لعب دور الشهود في مسرحية عنوانها: الإفلاس! فنحن عندما نألف وجودهم لا نتصوّر أن يوماً يأتي لنفقدهم. ولذا فهم لا يأخذون معهم زمانهم عندما ينسحبون من دنيانا، ولكنهم يأخذون معهم زماننا أيضاً. لا يكتفون بأن يأخذوا معهم قيمهم عندما يهجروننا، ولكنّهم يختلسون قيمنا أيضاً لندرك بعد فوات الأوان أن قيمنا التي راهنّا عليها هي في الواقع مجرّد ظل لقيَمهم، لنكتشف أن ليس الأمكنة وحدها هي التي تفسد بمقامنا فيها، ولكن الأزمنة أيضاً تفسد كلّما ابتعدت عن روح التكوين في تدفّقها لتجرف في ركابها القيم أيضاً، لأنها أبعد في المسافة من الأرومة، وهو سبب بكائيّاتنا الأبديّة على الأطلال، ليقيننا بأننا ننعى بالبكائيّات **الأصالة!**

20

ليس لي أن أنسى فرساناً آخرين جمعتني بهم الملتقيات الأدبية عبر العالم، أو تعرّفتُ على أشخاصهم بعد أن كنتُ قد عرفت إبداعاتهم قبل أن ألتقيهم شخصيّاً ليكونوا لي في اغترابي عزاءً، وفي طريقي رفاقاً، ولصُحُفي قُضاةً، أمثال أساتذة النقد العربي الحداثي، كصلاح فضل، وجابر عصفور، وصبري حافظ، وعبد الله إبراهيم، ورائد التنوير المربّي توفيق بكّار الذي التقيته أول مرّة في ندوة باريس حول أعمالي مطلع 97 ليكون منصفاً وحيداً لنصّ (الفخّ) الذي أنصف طبيعة نحن لها أبناء قبل أن تغدو البيئة قضية الساعة في أوروبا والعالم. كما حقّ لي أن اتغنّى بحميميّة أُناسٍ تغنّى الناس بأناشيدهم أمثال طاهر بن جلّون الذي التقيته لأول مرّة على مائدة عشاء بدعوة من السفير الفرنسي التي أقامها ببيته في طرابلس منذ خمسة عشر عاماً مضتْ، ليتواصل اللقاء في جلسة أكثر رومانسية بحضور السفيرين الروسي والفرنسي بالمطعم الواقع في رحاب أعرق معالم طرابلس التاريخية وهو نصب الإمبراطور ماركوس أوريليوس ذي الألفي عام، المشرف مباشرةً على شاطيء بحر ليبيا. مناخ الحضور في مثل هذا المقام لابدّ أن يوقظ في نفس العدوس ذكرى

لقاء رمز آخر من رموز الثقافة المغربية المعاصرة وهو محمد بنّيس الذي شاركني قبل ذلك التاريخ بعدّة أعوام مؤتمراً حول ثقافة المتوسّط في حاضرة متوسطيّة أخرى، ذات روح لا تقلّ رومانسية عن قرينتها طرابلس، وهي برشلونة، لتكون ساحة الرملة الموسّمة ببصمات أنطونيو غاودي التي صنعت من هذه المدينة أسطورة الزمان لتحتلّ مركز الصدارة كمدينة هي الأجمل في العالم، بفضل لمسات هذه الروح المعمارية العبقرية. ثمّ التقيته مرّة أخرى في أبي ظبي ثم مؤتمر الأدب العالمي بدبي وهو يتغنّى بـ (قابيل أين أخوك هابيل؟) منتصراً على ناموس الشعراء الذين قلّما يعترفون بمتونٍ لا تنطق شعراً، تماماً كما تغنّى عند لقاءنا الأول في 99 ببرشلونة بشعريّة لوحات فنّان تشكيلي لم أعد أذكر إسمه كأنّه بهذه الروح يؤسطر للشعر في كياناتٍ تبدو معادية للشعر.

هذه ليست مجرّد أسماء تعترض سبيل إنسانٍ إحترف العَدْوَ في دروب هذا العالم، ولكنها رموزٌ، بل هي في الواقع منارات تضيء السبيل، والتأكيد على حضورها في السيرة ليس تلبية لنداء واجب فحسب، ولكنه إعلاءٌ لشأن حقيقةٍ كان الأدعياء سينالون منها فيما لو خلت من فرسان الزمان هؤلاء، برغم أنّي لا أنوي أن أدنّس صُحُفي بذكر الأدعياء كي لا ألوّث بسيَرهم أخياراً لا ينتمون إلى معدنهم، فكيف بشرف الإنتماء إلى صنعتهم؟

فليس الوفاء وحده ما يدفعنا لتحيّة أخيارٍ قاسمونا زمناً ضائعاً لم يكن ليستعير المعنى لو لم يكونوا هم فيه بمثابة الفحوى. ذلك أن

Twitter: @alqareah

السرد في حال السيرة لا يستهدف في الأساس إستبعاد شبح الموت الذي يقرَع الأبواب، ولا يستهدف إفزاع الشبح الأسوا من الموت وهو الشيخوخة، كما لا يستهدف إسترجاع الزمن الضائع الغير قابل للإسترجاع، ولكن لتحقيق غاية واحدة هي محاولة الوقوف على حقيقة الخيبات التي نُمنى بها عادةً في مسيرنا، فنختنق بمرارة ما نسمّيه باطل أباطيل، لأن الإعتراف بوجود القيمة في أناسٍ نعتبرهم شُركاء صلاة في معبد الجلجلة ليس مديحاً في حقّ الفضيلة بقدر ما هو بحثٌ عن مسكّنٍ لأوجاعٍ لا حيلة لتجنّبها.

21

كنت أقضي إجازة صيف 1994 في جزيرة قبرص عندما بلغني نبأ رحيل سعيد المحروق بعد عناء مع المرض الناجم عن حادث سير كان قد تعرّض له منذ 1979 لتكون مشيئة الأقدار بمثابة فيصل الخلاص للصراع الطويل مع آلام الجسد، كما آلام الوجود في الدنيا، بقد ما كان رحيل الرجل خسارة للحركة الثقافية جرّاء فقد مبدع إختنق بكلمته قبل الأوان، ولم تمهله الأقدار كي يدلي بشهادته الوجودية إلى النهاية.

أذكر أن الشاعر فرج العشّة هو من أبلغني بالخبر في تلك الرحلة حيث كان مايزال يصدر مجلة «شهرزاد» في الجزيرة مع الشاعرة فاطمة محمود، قبل أن يحدّثني في اليوم نفسه عن خبرٍ لم يكن ليقلّ سوءً وهو دخول صادق النيهوم في مرحلة الغيبوبة في مسيرة صراعه الطويل مع سرطان الرئة..

في ذلك اليوم تقاسمنا همّنا الشخصي، وهمّ الحركة الثقافية الوطنية الشقيّة التي كتب عليها ألاّ تنعم في تاريخها برموزها الذين لا يرتادون ساحتها ليقولوا فيها كلمتهم، ولكن ليرتحلوا حاملين همّهم

Twitter: @alqareah

غصّةً في حلوقهم، لتجهض بذلك رسالتهم. وفي هذا تكمن تراجيديّتهم، وتراجيديا وطنهم أيضاً.

وكان صادق قد أجرى عملية جراحية على الدّاء في جنيف قبل تاريخ الإستفحال بما يربو على الخمس سنوات. وكان قد أخبرني في أحد لقاءاتنا بعدها كيف وعده الأطباء بالشفاء الكامل في حال لم ينشط الورم خلال مدّة أقصاها خمسة أعوام. في هذه المهلة أقلع صادق عن التدخين، بل وراقه أن يشنّ حملة شرسة في أوساط أصدقائه ضدّ هذه العادة الكريهة بروح سخريته المعهودة. وبالفعل تعافى الرجل خلال هذا الأمد إلى حدٍّ أيقنّا فيه أنه نجا من براثن شبح الزمان الخبيث هذا نهائياً. ولم ندر، كما لم يدرِ صاحب الشأن صادق، أن فسحة الأمل تلك لم تكن في السجال سوى هدنة سرعان ما نقضها ذلك الجلّاد الذي لم يؤمن يوماً بهدنة، ولم يلتزم بعهد. وها هو يباغت الرجل بعدما اطمأن إلى نهاية الأمد الذي حدّده الأطبّاء فينقضّ إنقضاض الغدر لينهش البدن بنهم الوحش الذي جاع أعواماً. إختفى صادق من حياتنا فجأة وأقامت رفيقته أوديت حضراً صارماً على الهاتف، ففقدنا الإتصال به أشهراً دون أن يخطر ببالي أن صادق في ذلك الوقت كان يحتضر!

كنت قد غادرت لقضاء الإجازة في قبرص قبل أن أتلقّى من فرج الخبر الفاجع، لأعود إلى سويسرا لأستفهم من الزملاء عن حقيقة الوضع، ولكن أحداً لم يفدني بالخبر اليقين.

جددتُ محاولاتي في الإتصال مراراً قبل أن يجيب صادق في

Twitter: @alqareah

أحد الأيام على اتصالي شخصياً. أخبرني عن غيبته في المستشفى، ولكنه أخفى عنّي سيرة غيبوبته بالطبع. فهو إنسانٌ متكتّمٌ في شأن المرض بالذات، ربّما لعدم إعترافه بوجود هذا الصنف اللئيم في دنياه بوصفه سفير الموت كعادة الكثيرين. وأذكر أنه أخفى عنّي سيرة التدخّل الجراحي الأول، ولم يحطني به علماً إلاّ صديقنا المشترك سالم الشيباني. وعندما فاتحته بما أفادني الشيباني رجم الرجل بعبارات لاذعة قائلاً أن العملية الجراحية كانت إحترازية وليست وَرَماً بالمفهوم الشائع، والشيباني ككل الليبيّين يستهويه التهويل!

طمأنني في تلك المكالمة عن وضعه الصحّي وأكّد أنه اجتاز مرحلة الخطر، وسوف نلتقي في القريب. ولكن اللقاء لم يُكتب له أن يتمّ أبداً، كأنّ تلك المكالمة كانت بمثابة كلمة الوداع الأخير. فقد إتصل بي زميلي القنصل ببيرن عبد الواحد الجطلاوي بعد أيام من ذلك التاريخ لينعي لي صديق الزمان صادق النيهوم، لأبدأ مع جثمانه تلك الرحلة الأوليسية كأنّي أختزل بها رحلتي مع شخصه الفذّ التي بدأت يوم تقدّم منّي بعد انتهائي من محاضرتي عن فلكلور الطوارق في مؤتمر الأدباء عام 1968 مبدياً رغبته في تعلّم لغة الطوارق، لتنتهي في رحاب الألب عام 1994 في بُعْدها الحرفي، لأن بعدها الروحي، وكذلك الوجودي، هو ما لا سلطان للزمان عليه، لأنه القيمة الخالدة التي يقف حتّى الموت أمامها عاجزاً!

لقد تزامن رحيل هذا الإنسان النبيل مع هيمنة الحصار على الوطن، ممّا حوّل رحلتي مع رفاته لاستيداعه مثواه الأخير دروباً

Twitter: @alqareah

ملتوية أصلح ما يمكن أن توصَف به أنها رحلة مصغّرة من تجربته الإغترابية الكبرى منذ خرج من معشوقته بنغازي في بداية ستينيات القرن الماضي ليعيش منافٍ لم تكن لتختلف عن المنافي التي ارتادها العدوس عبر جحيم هذا العالم، وهو ما وطّد قواسمنا الروحية المشتركة لتكون حجر الزاوية في علاقة نقيّة سلخت من العمر القصير ما يزيد على الربع قرن، أمهلتني الأقدار لتناول نصيبٍ من فصولها في المداخلة المزمومة المعنوَنة بـ«أوليس الذي لم تنتظره بنيلوب» المنشورة في مجلّد «وطني صحراءٌ كبرى» كمساهمة في الندوة المكرّسة لتجربة النيهوم المنعقدة ببني غازي في 2009 التي كان لي شرف حضورها كضيف شرف.

فما نكتشفه أخيراً أن كلّنا على دين أوليس.

كلّنا ننطلق من عقالنا يوماً لنهجر الوطن الذي لم يقنعنا بأنه جدير بأن يكون لنا وطناً. نخرق الأرض، ونبلغ الجبال طولاً بحثاً عن الوطن الذي يسكننا، لا الوطن الذي نسكنه، رامين بذلك قفّاز التحدّي في وجه الحرف المميت الذي ورثناه عن أسلافنا، لأننا لم نشأ أن نعبد ما يعبدون، حتّى إذا هُزمنا في حملتنا، فلن نلوم إلاّ أنفسنا، ليقيننا بأنها ليست هزيمة تلك الهزيمة التي نجنيها جرّاء توغّلنا في اليمّ أكثر ممّا ينبغي!

22

إنزاح كابوس الحصار في العام الذي لفظ فيه القرن العشرين أنفاس النزع الأخير ليشهد واقع الوطن ميلاد الوعد بالتغيير، مبثوثاً في حرف توريث مترجماً في حركة «الغد» بعد أن ضاقت بالنظام السبل، واختنقت التجربة بإفلاس صريح، لتأتي تلك الدعوة بمثابة طوق النجاة لإنقاذ النظام من غرقٍ محقّق. فالتغيير حلم أجيال الجنس البشري. ويستعير بُعداً غيبيّاً فيما إذا تأمّلناه وجوديّاً. وتجربة الخروج من الفردوس ما هي إلاّ الصيغة الدينية في ترجمة هذا الحنين إلى الحرية. الحرية كغاية كل تغيير، حتّى إذا بلغ حدوداً قصوى إستعار مفهوماً عدمياً. ولكن آدم لا يبالي مادام الخيار هو الأب الشرعي للمغامرة. وكان من الطبيعي أن ترث السلالة هذا الفايروس في الجينات ليصير لها طبيعة أولى تسكن شفرة التكوين. إنها وسوسة الروح في هاجس هو دوماً **حاجة ماسّة** تبحث عن مبرّر لترجمة نفسها في إرادة. وعندما يتهيّأ الظرف، وتتحقق الفرصة، بحرف نظام إستبدادي مثالاً، يستيقظ المارد النائم في الجينات ليعلن عن نفسه بالتحوّل **ضرورة**. ضرورة تتعطّش لأن تستقيم في واقعة تجريبية. وهو ما لا يتأتّى بدون عنف بالطبع. وهو البُعد في تجربة الحنين

الميتافيزيقي إلى التغيير، الذي نسمّيه تمرّداً أو انتفاضاً أو ثورةً. وهي تجربة لا تتحقّق بدون مكوس سخيّة. إنه العنف المقدّس الذي يحترف إقتراف الكبائر وفي مقدّمتها القتل في طقس مهول مجبول بمسوح الدين، تغترب فيه المفاهيم، فيفوز القتلة بلقب الأبطال، وينال فيه القتيل لقب الشهيد. ذلك أن كل طرف في هذا الخصام يستثمر المصطلح الديني في خطابه إصراراً من القطبين على احتكار الحقيقة، فيسخّر الدين (المعادي بطبيعته للقتل) في أبشع أعمال القتل!

هذا البعبع شبحٌ جاثم على كل واقع إنساني تهيمن فيه العلاقة. وكي يجنّب الإنسان نفسه ويلات المذبحة في واقع محموم بالتوق إلى التغيير كهذا الواقع فليس له إلاّ البحث عن سبيل حكيم لتحقيق الحلم بحدّ أدنى في التكلفة. أي السبيل السلمي في تحقيق التغيير.

ولكن المأزق في حال نظام كالسائد في ليبيا هو استحالة الإعتراف بوجود سبيل سلمي للتغيير لسببين أساسيين أولهما: عدم إعتراف النظام بوجود سلطة أصلاً، أو عدم إعتراف النظام بوجود نظام. وثانيهما: عدم إعترافه بمبدأ الوراثة بوصفها حجر الزاوية في النظام الملكي، وهو الذي لم يكن ليكتسب شرعية لوجوده لولا العداوة للملكية بسبب مبدأ الوراثة بالذات، كما تتغنّى أدبيّاته الثورية آناء الليل وأطراف النهار.

ولكن إمام الحكمة الذي يعرّي كل ما استخفى، ويكشف لنا كم نحن خُطاة في ما أيقنّا، وهو الزمان، كفيلٌ بأن يعيدنا إلى صوابنا

يوماً طوعاً، فإن لم يكن فبناموس باطل الأباطيل. وها هي السبل تضيق بالسيد أبي منيار فلا يجد مخرجاً للإحتفاظ بالسلطة حتّى وهو في القبر سوى تسويق السليل البكر ليتولّى الأمر بالإنابة مستخدماً صيغة مغرية مثل «جيل الغد» للإحتيال على اللغة في إخفاء النوايا كعادته في التعامل مع المسلّمات.

ولكن مشكلة جوهرية واجهت تنفيذ هذه الصفقة بين الأب والإبن على أرض الواقع. فالأب لم يكن ينوي أن يتخلّى للإبن عن زمام الأمر بالمجّان. فالثمن المستوجب (غير المعلن) هو إستلام **الإرث كاملاً.** أي زمام الأمر مشفوعاً بأختام تلك البصمة التي لا ينوي الأب أن يتنازل عنها حتّى وهو في القبر، لأنها في يقينه الضمان الوحيد لخلوده! أي توريث النظام مجبولاً بتلك النظرية التي يراها الأب طوق نجاة في بحر الفناء، ويراها الإبن لعنة كفيلة بنسف وجوده، لأن ارتياد المستقبل بأفكار الأب العدمية التي غيّبت الوطن عقوداً كاملة هو مغامرة محكومة بالخطر مسبقاً. ولهذا السبب نرى الأب ينصّب نفسه رقيباً على أدبيّات الوراثة منذ البداية، ولم يتنازل عن هذا الدور إلاّ في الميعاد الذي أرادته الأقدار أَجَلاً لنهاية. وهو ما حدث بسبب عناد الأب التقليدي الذي وضع الخاتمة للمشروع التوريثي قبل أن يبدأ فعلياً، لأن ليس الإبن وحده من يريد أن يتمرّد على مهزلة الأدبيات العبثية السائدة، ولكن مشيئة الواقع نفسها ترفض الزحف إلى الأمام بعبءٍ كهذا.

إنها الصفقة الخالدة، الخاسرة بالطبع، ذات الطبيعة

Twitter: @alqareah

الميفستوفلية، التي لن نضمن أنها ستفلح إذا ارتضينا التنازل فيها عن الروح مقابل الفوز بغنيمة البهتان. وكان لابدّ أن تنتهي بتمرّد الإبن على مشيئة الأب في محاولة إسترداد الروح الضائعة التي كانت واقعة الزجّ بالصحفيّين في السجن مجرّد حجّة أخيرة لفسخ بنود العهد المبرم بين العقليّتين المنتميتين إلى جيلين مختلفين يأبى فيها الخلف تبنّي روح السلف حتّى لو كان الثمن دمية شاء لها التوريث أن تتحوّل مملكةً، ولكن أنانية الإنسان،كمخلوقٍ فانٍ، لم تُفشل الصفقة وحسب، بل صارت السبب في نسف الكيان العبثي من أساسه!

23

مع نهاية العقد الأول من هذا القرن تسابقت رموز الثقافة الرائدة إلى الرحيل في هجرةٍ جماعية لم يشهد لها تاريخنا الحديث مثيلاً حقّ لنا أن نسمّيها «الدياسبورا الغيبيّة»، لأنها لم تيمّم صوب وطنٍ أرضيّ في خروجها إلى المنفى، ولكنها اختارت الإنطلاق نحو الأفق الأبعد منالاً، والأكثر أماناً، لتدفن اغترابها في مجاهل الملاذ الأخير، لأنه وطن الحرية الأخير. ففي وقتٍ قصير غادر خليفة الفاخري، ليلحق به محمد أحمد الزوي، ثم محمد الشلطامي، ثم حسن عريبي، ثم علي صدقي عبد القادر الذي سنجني على تاريخ الحركة الثقافية الوطنية إن لم نفِه حقّه بوقفة بوصفه نموذجاً على الرغم من حقّ كل من ذكرت أن نتوقّف إكباراً لذكراهم ووفاءً لغيابٍ خلّف لنا خواءً وجوديّاً أيضاً إلى جانب الخواء الثقافي. ذلك أن إنساناً مثل علي صدقي عبد القادر لا يختزل في شخصه تاريخ الحركة الثقافية الحديثة فقط، ولكنه يختزل روح جيل ما بعد الحرب العالمية الثانية الوطني في أحلامه بغدٍ أفضل، وفي خيبة أمله في هذا الغد الأفضل أيضاً. فهو إلى جانب هوسه بالشعر، كان مهووساً بالحياة أيضاً، ولم يكن ليفوز بلقب «شاعر الشباب» إلاّ بسبب موقفه

المعادي للعدم، وعدم إعترافه بالموت قدراً. ولا أنسى كيف ارتكبت في حقّه مرّة خطأً قاتلاً عندما قدّمته إلى أحد الأدباء العرب مستخدماً وصف «القديم»، فلم يتأخّر عن مواجهتي بهذا الزلل في أول فرصة بالطبع، فقلت له أنّي لم أجد ما أعبّر به عن الأصالة سوى كلمة «قديم» المرادفة للعراقة أيضاً، فقَبِلَ عذري كما توقّعت لأن عبقريّته إنّما كانت تكمن في روحه المسكونة بالطفولة، وهي خصلة ذهبية في هذا الزمان المسمّم بالنفع، لأن دينها الغفران، ولا وجود في قاموسها لمكر أو كراهة. والدليل هو موقفه المتسامح حتى مع خصنمه التاريخي علي مصطفى المصراتي. وهي سيرة تعود إلى الستينيات عندما كان المصراتي رئيساً للجنة الفنون والآداب في العهد الملكي، وربما إلى تاريخ أقدم عهداً، وهي معروفة في الأوساط الثقافية الوطنية إلى حدٍّ صارت فيه أسطورة تجري على كل لسان، دون أن يعرف لها أحد السبب على وجه التحديد. وأذكر أنني كنت ألتقيه دوماً في شارع الإستقلال وبرفقتي جيلاني طريبشان في ستينيات القرن الماضي، فيرحّب بنا ببشاشته المعهودة دون أن ينسى بالطبع أن يعرّج على سيرة المصراتي ليرميه بدعابة كأنْ يصفه مثلاً بـ«الطبّال والزكّار» معاً، مترجماً بهذين الوصفين رأيه في موقف المصراتي الإنتهازي من حكم الملك إدريس السنوسي بعد أن كان معارضاً له بوصفه سكرتير زعيم المعارضة الليبية بعد الإستقلال بشير السعداوي. و«الطبّال» هو ضارب الطبل، أمّا «الزكّار» فتعني في اللهجة الليبية عازف «الزكرة» أي المزمار!

Twitter: @alqareah

كان الرجل يعبّر عن اشمئزازه من الخطاب الإعلامي المبتذل المجسّد لتيّار النفاق السياسي السائد آنذاك. وهو ما كانت فطرة الرجل كشاعر ترفضه. وهو عفافٌ لم يقتصر على مسلك الرجل، ولكن على مظهره أيضاً. فهو الإنسان الأكثر أناقة في شوارع طرابلس كلّها، وقد حافظ على هذه الأناقة طوال حياته، أي حتّى عندما بلغ من العمر عتيّاً، تماماً كما لم يتنازل عن أناقة الروح أيضاً. فهو الإنسان الذي تباهى دوماً باحتراف الحلم، تماماً كما تباهى بعشقه للتمرّد، إلى حدّ عنوَن فيه أحد دواوينه في الخمسينيات بـ«أحلام وثورة».

وهو ما دعاه لأن يطلق إسم معبوده الحلم على إبنته «أحلام» بوصفها ديوان الجسد، بعد ديوان الروح وهو الشعر، كأنّه يريد أن يؤكّد مفهوماً آخر للحلم أكبر من مفهومنا التقليدي. إنه الحلم الذي يسكنه هو، والثورة التي تسكنه هي هاجس آخر يختلف عن الحركة البلهاء التي قام بها العسكر وأطلقوا عليها إسم ثورة، بدليل خيبة الأمل التي حملتها في أعطافها متمثلةً في روح العداء المسعور والغامض الذي عاملت به الثقافة وأهل الثقافة منذ الأيام الأولى. ولا أنسى كيف قام هذا الإنسان الفذّ في يناير 1973 عند انعقاد مؤتمر الأدباء ببنغازي ليواجه زعيم الحركة غاضباً، راجفاً، محموماً، يكاد يلفظ مع كل كلمة قلبه، وهو يستنكر في كلمته هذه الروح المعادية من قبل السلطة الجديدة لكلّ ما متّ بصلةٍ للحقل الأنبل بين كل الحقول وهو الثقافة.

كان هذا الإنسان نزيهاً، ولهذا السبب كان شجاعاً، لأن النزهاء وحدهم لا يعوّلون على شيء، وليس لديهم ما يفقدون. ولكن ما لا

Twitter: @alqareah

يتساهل بشأنه هو الحلم، ثمّ الثورة، وهو ثنائي لن يعني في الترجمة الأمينة سوى الشعر، وحبّ معبودٍ هو الوطن. ولهذا سخّر جلّ أشعاره للتغنّي بهذا الوطن الذي أحبّ، ومناجاة رموزه البيئية سواء في أحلام يقظته المبثوثة في الأشعار، أو في الثورة المنتظرة في أحلام المنام. لأن ما هي الثورة التي تسكننا إن لم تكن الأعجوبة التي تحقّق لنا الحرية؟! إنها الثورة الحقيقية التي ستبدو معها الثورات السياسية نفايةً حقيقية، لأنها الثورة الروحية التي تستبدل الواقع الحرفي الركيك بالواقع الرمزي الأجمل، ولو لم يكن الأجمل لما كان هذا الواقع الرمزي موضوع الشعر منذ الأزل.

ولهذا لا أستطيع أن أتخيّل الإهانة التي ألحقها به سهيل إدريس عندما طالبه في أحد المؤتمرات الأدبية العربية بالتفرّغ لمهنته المحاماة والإقلاع عن الأشعار. كما لا أشكّ أن سبب خصومته مع المصراتي إنّما ترجع إلى آراء الأخير السلبية حول أشعاره. وهو ما لم يكن ليغتفره لأحد، لأنه لم يكن ليتخيّل وجوداً بدون شعر.

كما لم يُقِم يوماً اعتباراً لآراء النقّاد في شعره، تماماً كما لم يُقِم وزناً لآراء الناس في شخصه. ذلك أن شخصه ذاته كان ترجمة متقنة لقصيدة شعرية، بل لملحمة شعرية. ملحمة الإنسان بدون خصال؟ فليكن! لأن الإنسان بدون خصال هو التضحية بالمزايا الأرضية واستعارة لماهيّة الهوية الغيبيّة. أي أن الإنسان بدون خصال هو الإنسان بروح ملاك، بل هو الملاك مجسّداً في بدن إنسان!

وأشهد، كما سيشهد كلّ مَن عرفه، أنّه عاش بيننا طفلاً نقيّاً، وهجرنا طفلاً نقيّاً، وإلاّ لما كان له الزمن عدوّاً إلى حدٍّ لم يعترف له

بوجود إلى آخر لحظة من عمره المديد الذي أشرف فيه على المائة عام. وهو الهاجس الذي حمله في سؤاله لي في الندوة التي نظّمتها صحيفة «أويا» فطاف المدينة بسيارة أجرة ثلاث ساعات قبل أن يهتدي إلى المكان مُهدهداً في قلبه سؤال الكينونة الموجّه لي مستفهماً بالحرف: «كيف استطعت أن تروّض الزمن؟»، فلم أجد ما أجيبه به سوى كلمة واحدة هي: الإنضباط!

كان سؤالاً ملغّماً بازدواجيّة خفيّة بالطبع، لأننا، من وجهٍ، لا نستطيع أن نقهر هذا البعبع بدون تعويذة قدسية هي العمل: العمل في بُعْده الرسالي بالطبع، لا المهني! وهو عملٌ لن نستطيع أن نفلح في إنجازه بدون تميمة أخرى هي: **الإنضباط.** أمّا الشقّ الثاني المخفي في السؤال فهو العلاقة مع الموت. أي إغتراب ذخيرة الوجود فينا وهي: **الذاكرة!** ولا ترياق يجيرنا في هذه الحال ما لم نستجر بالروح كبرهان على الخلود، بدليل أننا لا نفقد الإحساس بالغفران روحياً مهما خذلنا الزمن الذي يصيب فينا البدن بالوهن. وصديقي عبد القادر انتصر على الزمن أيضاً بدليل أنه استهان بهذا العدوّ فمات طفلاً رغم أنف المائة عام. غادرنا هذا الإنسان الجميل بعد أن لقّننا بسيرته درساً في الشجاعة، وفي الحب، وفي الإحتفاظ بروح الطفولة، ولم يطلب مقابل كل هذه الكنوز (عندما حلّت ساعة الرحيل) سوى أن يُدفن في مقبرة «شهداء الهاني» المتوّجة بتراب معشوقته طرابلس!

والواقع أن أمثاله وحدهم ليسوا في حاجةٍ لأن يحلّوا في الختام أضيافاً في بلاط مقابر الشهداء كي يبرهنوا للأجيال على انتمائهم لقوافل هؤلاء.

Twitter: @alqareah

24

ليس المجتمعات وحدها مَن يتألّم زمن هيمنة الإستبداد، ولكن الطبيعة أيضاً تتألّم. فما نسمّيه «التسيّب» في لغة الإدارة، أو الإهمال، بلغة المجتمع، ما هو في الواقع سوى مرض خبيث آخر ناتج عن إغتراب القيم الأخلاقية في ظلّ السلطة الإستبدادية، لابدّ أن يفيض على المجتمع البيئيّ الذي نسكنه كما يسكننا، كأنّ رموز الواقع الوجودي كلّها منذورة لنيل نصيبها من اللعنة. والعدوس الذي حالفه الحظّ ليكون شاهداً على الإستهتار بالمحيط البيئي في كلٍّ من الإتحاد السوفييتي، ثم في بولندا، وحده لن يجهل سبب العداء الذي يعتنقه إنسان الواقع الإستبدادي لأمّة الطبيعة ولرموزها المختلفة. فعندما تختنق الحرية، ثم تلفظ الأحلام أنفاس النزع الأخير، في واقع يحتكر الحقيقة، لن نستهجن أن نرى إنسان واقع كهذا يتنكّر لحقيقة الطبيعة أيضاً، بعد أن يكون قد تنكّر لطبيعته الأخلاقية، فيكفّ عن رؤية البُعْد الأمومي في الطبيعة، ليبدأ معاملتها كغنيمة. فالروح العدوانية، في واقع السلطة الشمولية، ظاهرة عامّة. وتبلغ مسيرة هذه الروح ذروتها ما أن تبلغ مرحلة العدوان ضدّ عناصر الطبيعة ورموزها البيئية، كحملات تحويل مجاري الأنهار، أو

Twitter: @alqareah

تجفيف البحيرات، أو تسميم قيعان البحور، أو استنزاف المياه الجوفية بالمشاريع الزراعية الوهمية، أو تلويث الأهوية، على سبيل المثال.

لقد قام الرومان بحفر قنوات في جوف الأرض تمتدّ من أعالي المناطق الجبلية في ليبيا إلى الأحاضيض لتقطع في رحلتها مئات الأميال قبل أن تبلغ الأراضي الصالحة للزراعة حرصاً على عدم ضياع قطرة مطر واحدة في وقتٍ لم تكن فيه هذه البلاد على الحال التي نراها بها اليوم من التصحّر وندرة الغيوث، في حين شجّع النظام الموبوء بروح الأيديولوجيا على الإستهانة لا بمياه الأمطار وحسب، على الرغم من ندرتها المأساوية، ولكن على الإستهانة بمخزون المياه الجوفية أيضاً. هذا المخزون الذي كان لأمّة السلف (الحكيمة في تعاملها مع الطبيعة) الرصيد الإستراتيجي المقدّس الذي يعدّ المساس به إثماً لا يختلف عن المعصية، لأن العبث به في يقين القوم لا يختلف عن الكفر بالله بما أنه كفرّ بنعمة الله وإلاّ لما جعلها سبباً في خلق كل شيءٍ حيّ.

فلم يكتفِ جشع النموذج المؤدلج من العدوان على حرمة الأرض باستخراج الزفت المسمّى نفطاً، ولكنه أبَى إلاّ أن يمضي شوطاً أرذل في استباحة هذا الحرم فيغوص في الأعماق مسافات أبعد كي يستخرج آخر نصيب من مخزون الحياة الذي ادّخرته الأم للأجيال، لا لكي يحقق إنجازاً له جدوى، ولكن لكي يتباهى أمام الأمم ببناء أطول نهر إصطناعي عبر البيئة الأكثر تصحّراً والأكثر

Twitter: @alqareah

حاجةً للمياه في العالم. أذكر أن كبرى صحف سويسرا (Neur Zuercher Zeitung) اختارتني لأروي سيرة البيئة في العالم العربي في ملف خاص عن محنة البيئة في العالم بوصفي أكثر كتّاب العالم الذين كانت البيئة هاجس أعمالهم الإبداعية، فتناولت ليبيا نموذجاً لهذا المصاب، فما أن نُشر المقال حتى تلقّيتُ اتصالات من مختلف الصحف الأوروبية تطلب الإذن لترجمة المقال لإعادة نشره بصحفها. وهو دليل على الإحساس بعمق المأساة البيئية في عالم يغيب فيه مفهوم البيئة بسبب حضوره في متاهة معادية للبيئة وهي: **الأيديولوجيا**. فحيثما هيمنت هذه الجنيّة الرذيلة فهناك ترتع السعالي التي تنتهك حرم الطبيعة، وتنمو نباتات الشرّ التي تفتك بالبيئة. وقد بلغت الدروَشة بالعدوس حدّاً جعله يطلب مقابلة الإنسان الذي نصّبته الأقدار ليكون وليّاً على أمر الليبيين السيد أبي منيار لكي أنبّه لخطورة وضع البيئة الشقيّة في بلدٍ شحيح الطبيعة مهدّد بفقد شروط الحدّ الأدنى للحياة، بسبب الإستخفاف بهذا الجانب المركزي في ملحمة الوجود. ولم يخطر ببالي أن الرجل سوف يشكّ في سلامة قواي العقلية، لأنه لم يعتد أن يقتطع من وقته هذا النصيب الوفير وهو يجلس مستمعاً لإنسانٍ حسبه أحد رموز الحركة الثقافية الوطنية وهو يترافع عن ضحيّة لا وجود لها في قاموسه كالطبيعة، سارداً مأساة البيئة في واقعٍ لم يعِ بعد معنىً لهذه العنقاء، في زمنٍ لم يكن فيه الناس يطلبون مقابلته إلاّ في شئون دنيوية تتعلّق غالباً بقضاء الحوائج أو اكتساب الغنائم. وأذكر أنّي ذكّرته في ذلك اللقاء بعبارة له ترجع

Twitter: @alqareah

إلى منتصف السبعينيات ورد فيها أنه لن يسمح لنفسه كوليّ أمر أن يبيع الماء للمواطنين لأعقّب قائلاً أن عليه أن يوفّر الماء للمواطنين بمقابل لا لتجني خزانة الدولة أموالاً جرّاء هذا الإجراء، ولكن لتجير هذه الثروة التي لا تقدّر بثمن (سيّما في بلد صحرواي كليبيا) من الإستهانة بها، لأن طبع الإنسان أن يعبث بكل ما ناله بالمجّان. فإذا كان الإنسان المسلّح بقدرٍ أعظم من الوعي هذا حاله كما في أوروبا مثلاً، فماذا سنقول عن إنساننا الحديث العهد بالعمران والفاقد لأرضية التقليد في هذا المجال؟

لقد وجدتُ نفسي مضطرّاً يومئذٍ أن أضرب له المثل ببلد مثل سويسرا التي تزوّد جبالها أوروبا كلها بحاجتها من هذا الكنز النفيس، وبرغم ذلك تجبر مواطنيها على دفع مبالغ خيالية سنويّاً ثمناً للمياه، لا لتجني منها أرباحاً، ولكن لتقمع روح الإستهتار في نفوس مواطنيها برغم روح الإنضباط التي تميّز الإنسان السويسري. وهو ما يعني أنها تؤدّي رسالة تربوية أخلاقية في الأساس عندما ترفع تسعيرة لتر الماء برغم سخاء الطبيعة في بلدٍ مُقامٍ على أكبر البحيرات وأنقى الأنهار. فإذا كان هذا حال إنسان نموذجي في وطن نموذجي مثل سويسرا فماذا نقول عن حال إنسان نموذجي في تلقّي هبة المجّان في بلد نموذجي في دفع كل شيء كحسنات؟ لا أشكّ أن الماء سوف يكون في وضعٍ كهذا رأس الضحايا. وكيْ أبرهن على ما أقول سردت على الرجل سيرة المواطن الذي وجدته يزيل الرمال التي اكتسحت الرصيف بسيول المياه السخية المتدفّقة من خرطومٍ ثخين. وعندما حاولت أن أُفهمه بخطأ ما يفعل اتّهمني بالجنون، لأنه لم

Twitter: @alqareah

يتخيّل وجود إنسان يمكن أن يرى في تدفّق المياه نزيفاً لا يختلف عن نزيف الدمّ. وأين يحدث هذا؟ يحدث هذا في الحاضرة التي كانت تحتضر بالأمس بسبب غياب المياه. وها هي اليوم تستهين بسرّ البقاء قيد الحياة ما أن أنجدتها الصحراء بآخر قطرة تنام في جوفها منذ ملايين السنين مضحّيةً بأجيال أهلها المهدّدين بالظمأ بعد أن تسبّبت بدعة النهر الإصطناعي في جفاف نخيلهم وزروعهم بسبب الإستنزاف الجنوني للمياه المجانية المستعارة من الصحراء لتتدفّق في البحر!

لقد حذّرت السيد أبي منيار في ذلك اليوم من نشوب حرب أهلية في ليبيا قريباً إذا لم تقنّن مأساة المياه، لأن سكّان الدواخل سيضطرون لاجتياح السواحل بعد نضوب مخزون المياه، وسوف يضطر أهل السواحل للدفاع عن سواحلهم، لأنها لم تكن لتسع هجرة سكانية جماعية.

وبدل أن يتّخذ الرجل موقفاً صارماً حيال أمر ذي علاقة بمصير أجيال الوطن وجدت الرجل يقفز على الواقع ليتحدّث عن المشكلة المائية في بقية البلدان كأنّ وجودها في بقيّة الأوطان ضمان أمان، وهي القشّة التي يلجأ إليها عبدة الأيديولوجيا لتخذير الذّات وتوهّم السلام النفسي كلّما دقّ الواقع أجراس الخطر.

أدركت بعد فوات الأوان كم أخطأت لأنّي نسيت أن الرجل لم يعد يملك من أمر ما يحدث في ليبيا شيئا، وهو أعجز الناس من أن يغيّر ما أصاب الواقع في عهده من بلايا.

فالرجل لم يعد وليّاً للأمر إلاّ بالإسم، فإذا أحسنّا الظنّ فنستطيع أن نقول أنه ولي أمر في مجال واحد حسب هو الأمن. ليس كل أمن، ولكن أمنه الشخصي تحديداً، وهو مصير ينتهي إليه عادةً كل من استدرجته الأقدار ليعتنق إحتكار الحقيقة ديناً!

25

وعلى الرغم من اغتراب نموذج كهذا عن نفسه، بسبب هويّته كنموذج بالذات، بيد أن الواجب يتسنّى أن نعترف له ببعض الخصال التي لاحظت شخصياً كيف تتمرّد على القناع المزيّف الذي يتّخذه ترساً للدفاع عن النفس لتوقظ فيه الحسّ العفوي المفقود فيتجلّى فيه الإنسان المفقود. إنها الروح البريّة تصحو من سباتها العميق في تلك اللحظات التي تغيب فيها مراسم البهتان ليحتضر في الوجدان الإستنفار التقليدي الملازم لكل مخلوقٍ قرّر يوماً، أو ألزمته الظروف لأن يجد نفسه في وضع يرى فيه كل الناس أعداءً. وهو قدر قرين كل من رأى في نفسه الكفاءة كي يتحدّى الكلّ فيحترف خطيئة احتكار الحقيقة. وقد عرفنا بالتجربة كيف يستيقظ هذا النموذج من غيبوبته المميتة مستعيداً الروح الفطرية على نحوٍ مدهش يدعونا لأن نتساءل عمّا إذا لم يكن من نشاهد إنساناً آخر تماماً يسكن ذلك الإنسان. حدث هذا مع بعابع كل الأزمنة بدايةً بـ قيروش أو حفيده داريوش، مروراً بـ كيروز، وصُولاً، ويوليوس قيصر، ونيرون، ونهايةً بـ بطرس الأكبر، وستالين، وحتى هتلر.

إنها لحظة العجب التي يسود فيها السلام فجأة بسبب إنتفاء علّة

الخصام القائم أبداً بين النموذج والعالم، لأن العالم هنا هو العدوّ الخالد، وعدم وجود فرصة صلح مع عدوّ إذا كان هذا العدوّ مختزلاً في العالم هو ما يولّد الإحساس بالإستنفار الأبدي، لأن العالم ليس عدوّاً حرفياً يمكن قهره بحملة أو بمكيدة، ولكنه العدوّ الذي يستعير بُعْداً غيبياً، ولا سبيل لتحقيق غلبة ضدّ عدوٍّ غيبيّ. هنا تكمن مأساة كل من أخذ على عاتقه الإستحواذ على صلاحيات الربّ ليكون قاضي العدالة على الأرض.

ولكن ما الذي يستدعي «لحظة العجب» التي تطيح بالقناع المستخدم للدفاع عن النفس في حال نموذجنا، كما أطاحت بعرش فاوست ليسقط ميّتاً؟

الجواب: السرّ في التخلّي. تخلّي الطرف المقابل الذي يواجه النموذج المستبدّ بالحقيقة، متّخذاً من السلطة حجّةً، لأن هذا الطرف المعادي هو من يختزل العالم وعداوة العالم في نظر النموذج. والتخلّي هنا هو الترياق لمداواة جنون النموذج، لأننا جرّبنا أننا لا نملك إلاّ أن نسخر من أنفسنا عندما لا يستجيب عدوّنا لعداوتنا (التي هي إسقاطٌ لآثامنا في الواقع)، فتستيقظ فينا القوّة النائمة التي نسمّيها ضميراً لتتحوّل سخريتنا خجلاً من أنفسنا مهيِّئةً المناخ المناسب لميلاد «لحظة العجب» التي نستعيد فيها السلام مع أنفسنا. فالواقع أننا كلّنا مسكونون بقدرٍ مّا بروح هذا النموذج الذي نستنكره دوماً ونصبّ على رأسه لعناتنا!

ففي مسرحية «العادلون» يطرح ألبير كامو ملامح لهذا النموذج

متمثّلاً في رئيس جهاز الشرطة في روسيا القيصرية الذي يبدو جلاد العدالةَ في نظر الثوّار الروس آنذاك فيستهدفونه بمحاولات الإغتيال، ولكنّهم سيراجعون موقفهم فيما لو أتيحت لهم فرصة مشاهدته وهو ينزع قناع الجلاد مع بزّته العسكرية ليحلّ فيه إنسان آخر لم يكونوا ليتخيّلوه ما أن يجد نفسه في محيط العائلة التي يعامل أفرادها لا بحميمية إنسانية وحسب، ولكن بروح شاعر!

وقد لاحظت التحوّل الذي طرأ على السيد أبي منيار نحو شخصي منذ أدرك حقيقة موقفي المبدئي من ظاهرة وجودية كالسلطة التي لا أرفضها في بُعْدها كنظام سياسي محدّد فقط، ولكني أرفضها من حيث المبدأ الذي نصّبها عدوّاً خالداً للحرية. الحرية في بعدها الكينوني أيضاً لا السياسي وحده. أي عكس الرؤية المبتذلة المطروحة في حرف تقارير أجهزة أمنية جاهلة تسبّبت في إلحاق الأذى بأبرياء كثيرين بسبب هذه الجهالة بالذّات. وأعتقد أنه ازداد يقيناً بهذا الموقف بعد رفضي القطعي لعرضه بتولّي إحدى الحقائب الوزارية على ذلك النحو العاصف في 1995 وقد آثر أن يركن إلى الهدنة لا إكراماً لي، ولكن لموقفي الفطري من سياسة هي في عرفي لعنة، وهي في عرفه معبود، وهو ما قرأ فيه، كمريد سلطة، نوعاً من أمان من شأنه أن يكون سبباً في تحقيق «لحظة العجب» السالفة الذكر، دون أن ينسى بالطبع أن شعرة شمشون إنسان مثلي هي في الواقع في مكانٍ آخر خارج الواقع الحرفي، في **النصّ** تحديداً، ولكنها أقل ضرراً ما ظلّت تترفّع عن الرأي المباشر، وتتخذ من

Twitter: @alqareah

بطون الكتب وطناً؛ هذا الوطن الذي يستطيع أن يبطل مفعوله بالمصادرة، كما يبطل مفعوله برهان آخر هو عزوف الناس عن القراءة أصلاً. وقد استخدم هاتين التعويذتين في حجب موقف العدوس مستعيناً بأمرٍ آخر تناوله كثيراً في جلساته الخاصة وهو **غموض النصّ** بالنسبة للعوام المترجم في عبارة «عسر النص» التي تناولناها في مكانٍ آخر.

هذه الروح هي في ظنّي ما جعل الرجل يتسامح مع شخصي دوماً فاحتمل هذه المرة أيضاً شطحاتي الدرويشية التي واجهته بها، لأني لم أتنازل عن سجيّتي يوماً، وقلت له مالم يكن ليجرؤ حتى أعضاء مجلس الثورة على قوله له، وسيرة نصيحتي له بأن ينزع إسمه الذي اعتمدته الدولة كملصق دعائي بمناسبة وبلا مناسبة هو برهانٌ آخر على ذلك.

لم أكن لأدري بالطبع حينها أن دعوة كهذه لن تعني في الواقع سوى مطالبته بأن ينزع القناع الذي لم يعد يملك لنزعه سبيلاً لأنه لم يعد قطعة مفصولةً كما هو الحال مع أيّ قناع نتّخذه على سبيل اللهو في حفلة تنكّر، ولكنه قناعٌ بهويّة غيبيّة له خصوصيّة تتجلّى في قدرته على تلبّس السيماء ليغدو جزأً لا يتجزّأ من الشخصية التي تحمل السيماء، بل ويملك السلطة في التسلّل إلى ما هو أبعد من السيماء، ليستولي على الضمير في رحلته إلى الأعماق، فيزيّف الروح أيضاً. والتمرّد على هذه الطبيعة يستوجب وجود مواهب من جنسٍ خاصّ قلّما عرفنا لها مثيلاً في أوساط المنتمين لهذا النموذج. ويجب أن

نعترف لشخص أبي منيار بالقدرة على استحضار هذه الموهبة أحياناً بتبنّي تقنية أكثر أصالة من تلك التقليعات الفلكلورية التي اعتمدها في الأعوام الأخيرة ليبرهن على احتفائه بجذوره البدوية، كما هو الحال مع التشبّث بالخيمة التي دأب على حملها معه كجواز مرور ليصرّ على نصب أعوادها أينما حلّ في زياراته الرسمية لمختلف بلدان هذا العالم. فالموهبة المعنيّة ذات بُعْد آخر سيبدو أكثر أصالة فيما إذا تأمّلناه ليبدو أشبه بيقظة ضمير. ضمير لم يفقد روح الفطرة نهائياً رغم أنف سطوة القناع التي لا تُقهر. إنه التجلّي الذي لا يفلح في التباهي بالأصالة مالم تنطفيء الأضواء على مسرح الواقع، لينتفي وجود الحاجة إلى الإستمرار في ممارسة الدور التمثيلي بسبب غياب شاهد العيان المتمثّل في الجمهور، لأن كل أهل السلطان ما هم سوى هواة تمثيل يلعبون دوراً لم يحدث أن أحسنوا إتقانه يوماً، ولكنهم رغم ذلك لم يملكوا إلاّ أن يمارسوه دوماً. وربّما كانوا سيفلحون مرّةً فيما لو تخلّوا عن القناع وواجهوا الجمهور بوجوههم عاريةً ليكتشفوا أن الحياة برمّتها ما هي سوى مسرحيّة هزليّة، أعظم ممثّليها هم أولئك الذين يلعبون فيها الدور على سجيّتهم، بدل أن ينتحلوا لأنفسهم دوراً داخل الدور لتغدو حياتهم مسرحيّة داخل مسرحيّة: مسرحيّة أشدّ هزليّةً من هزليّة المسرحيّة الأصليّة!

وها هو السيّد أبو منيار يستجير بتلابيب البساطة طلباً لاسترداد الهوية البدوية المفقودة. فعل ذلك مراراً كلّما استقبلني ليبرهن لنفسه، قبل أن يبرهن لي أن شعرة معاوية التي تربطه بماضيه الصحراوي لم

Twitter: @alqareah

تنقطع، لأن الإنتماء إلى هوية الزمن الضائع هو ما لا سبيل لممارسته على سبيل الإعارة أو الإفتعال، كما هو الحال مع بدعة كالقناع، أو بقية مستلزمات الظهور على المسرح أمام الجمهور. ففي مثل هذه الخلوات، المجبولة بروح التجلّي، فقط يتبخّر شبح القناع، وتصحو في روح الإنسان المستباح الذخيرة المفقودة التي اغتربت بفعل نزيف الضمير جرّاء طعنات لا سبيل لتلافيها في واقعٍ يهيمن عليه سلطان القناع. في مثل تلك اللحظات تتفتّح في روح هذا النموذج زهرة. زهرة هي ثمرة حنين. حنينٌ حميم. يحتضر الواقع المزموم، المبلبل بالعُصاب، المشحون بالتحدّي، الملآن بالوساوس، المفروض بحرف القناع المتستّر على الطاغوت، فتغترب القيمة، ويفرّ الإنسان من حقيقته كإنسان، ليفرّ الله أيضاً بفرار الإنسان من حقيقته كإنسان! ولكن الخلاص كثيراً ما كان وسيبقى رهين الحضور في رحاب الخلوة. رهين الإخلاص في حضور الخلوة، لأنها نقيض الحضور على المسرح بطبيعتها، بدليل أنها تشترط كنس كل ما له علاقة بالمسرح، والإكتفاء بالصمت حيث يعلو الخطاب الوحيد المخوّل بالإنابة عن صوت الإله وهو: **صوت الضمير**. الضمير المكتوم الذي سيتحرّر منذ الآن لينطق بالوصيّة بالإنابة عن الألوهة بوصفه وحده ترجمان الإله. إنه مناخ يصلح إستراحة محارِب مثخن بالجراح كما هو الحال مع نموذجنا الشقيّ. إنه الوضع الذي يبثّ الروح في الحرف الميّت بمشيئة القناع، ليستيقظ في بطل المسرح ذلك البُعْد الضالّ الذي عبّر عنه ألبير كامو في نموذج الجنرال الذي رأى فيه

الثوريّون الروس طاغية مارس في حقّهم القمع، ولم يكن لهم أن يتخيّلوا يوماً كم هو هذا الطاغية المزعوم إنساناً إنسانيّاً ما أن يخلو لعائلته في لحظات الصفاء، ليتحوّل فجأة إلى شاعر ملهم لم يكن له أن يخطيء يوم ردّد وصيّة كُتب لها أن تكون نبوءةً تالياً عندما قال: «كلّنا نبدأ بطلب العدالة، ولكننا ننتهي بتنظيم جهاز للشرطة!».

أذكر الآن كيف أمر السيّد أبو منيار سكرتيره بأن يقدّم لي كوباً من حليب النوق يوم استقبلني في سرت عام 1987 لأعلن له قراري باستحالة الإستمرار في العمل مع الإدارة الليبية (وهو القرار الذي لم أتراجع عنه منذ ذلك التاريخ برغم كل الإغراءات إلى هذا اليوم). كوبٌ قرأتُ فيه رسالة رمزيّة تريد أن تؤكّد هويّة لا ينوي إنكارها، بل ويفاخر بها، فلا يجود بها على كلّ أضيافه، ولكن على الأخيار فقط الذين ينتمون إلى الهويّة الصحراوية ذاتها، لأنهم وحدهم يدركون كم هو هبة مقدّسة حليب النوق هذا! أي أنه وثيقة أعظم شأناً من مجرّد حليب، لأنه في عرف القبائل **عهد**. ولكن برهان الضيافة تزامن مع محنتي الصحيّة التي تُحرّم تناول كل ما متّ بصلة للحليب أو مشتقّات الحليب، ممّا حرمني من متعة تناول هذا السائل الذي فطمت عليه وكان لي يوماً نقطة ضعف. فتجاهلت الكوب، وهو مالم يغب عن مضيفي، فاستفهم عن السبب. ممّا اضطرّني أن أتناول رشفةً كي لا أتورّط في سرد سيرة إستثقلتها دوماً كالظرف الصحّي. وإذا كنت قد نجوت في تلك المرّة برشفة المجاملة، فإن الحيلة لم تهرع لنجدتي في مرّة تالية دعاني فيها الرجل لتناول طعام الغذاء في بيت صديقي القديم إبراهيم بجاد بزويّة براك في 1995، فامتنعتُ عن

تناول طعوم كنت أعلم ما ستسبّبه لي من متاعب صحيّة في زمن حربي الضروس ضدّ طغيان الجسد. ممّا أدهش الحضور ليتدخّل السيّد أبو منيار ليلحّ بحماس صاحب الدعوة الذي يرى في امتناع الضيف عن تناول طعام المضيف إهانة في عُرف القوم لن يبرّرها أيّ ظرف، ولكنّي وجدتُ نفسي مضطرّاً لأن أخيّب ظنّه في وقتٍ علّمتني فيه التجربة أن أعامل مفعول بعض صنوف الطعوم كسموم حقيقية. وكان الرجل أن تسامح معي في تلك المرّة أيضاً، لا اعترافاً منه بحجج الظروف الصحيّة بالطبع، ولكن تلبيةً لنداء الإعتقاد السائد بغرابة أطوار الأدباء، فتساهل في حقّهم مراراً، حتى أنه كثيراً ما غفر لهم حماقات ما كان ليغتفرها لأغيارٍ سواهم.

نزعة من هذا القبيل، المترجمة لصحوة وجدانية، التي تكرّرت في مناسبات أخرى، جديرة بالتأمّل من إنسانٍ إحترف الأقنعة، ولم يجد حرجاً في تقمّص مسوح البهلوان في المحافل الدولية، ويتبدّى على خشبة المسرح متنكّراً في فزّاعة البُعْبُع، إلى حدٍّ لن يصدّق فيه مَن لم يلتقه عن كثب، أنه يمكن أن يخفي عفويّة، بل أريحيّة، تجعله يولي إهتماماً شخصيّاً بمراسم ضيافة حميمية كبديل عن مراسم الضيافة الرسمية، على النحو الذي أشرف فيه بنفسه على إخراج المناخ الذي أحاط به لقائي الأخير في تلك الأمسية الشتوية بالحقل الواقع بطريق المطار، لأجد نفسي معه في مدخل خيمة، تواجه موقداً فخماً، لنارٍ سخيّة اللّهب، غنيّة بالحطب، يعزف رذاذ المطر المتساقط في أتونها لحناً شجنيّاً يستنطق خزنة الذاكرة فتجود بكنوزها المنسيّة، لتختزل الزمن الضائع عندما كانت الصحراء لمريد الترحال

Twitter: @alqareah

وطناً قائماً، قبل أن تحيله حمّى الركض وراء الحلم في متاهة هذا العالم المعادي فردوساً مفقوداً. ولم تكن أجواء إستعادة الفردوس لتكتمل بالطبع دون وجود رموز الفردوس الضائع. وها هي الأغنام تجثم في العتمة على ميسرة الخباء ليعلو في الفضاء ثغاء الجداء الوليدة للتوّ. ليس هذا وحسب، ولكن المجد بلغ الذروة باكتشافي لحضور الإبل في أرض الحقل الأمامية المسربلة بغيهب ذلك المساء الرومانسي، لتتبدّى الحيران الوليدة وهي تحوم حول النوق المثقلة بحليب الأمومة، لأفاجأ بصاحب الشأن يستضيفني بما لم أذق له طعماً منذ خروجي الأول من وطن الرؤى السماوية، وهو: **اللّبأ!** ليكون هذا الطعام الأسطوري بمثابة فاتح الشهيّة قبل تناول طعام العشاء؛ كأنّ السيّد أبو منيار يأبى إلاّ أن يلقي في وجهي بقفّاز التحدّي لا بإتقان الطقس وحسب، ولكن بالإبتكار في محتوى الطقس أيضاً، لأن وجود اللبأ، بشروط تحقيقه شبه المستحيلة في واقع العمران، هو حقّاً بمثابة الأعجوبة التي ستقهر إستكبار ضيفٍ مستهترٍ بآداب الضيافة كما هو الحال مع نموذج غريب الأطوار كعدوس السُّرَى!

ما أدهشني بالطبع هو هذا الإصرار من السيد أبي منيار على تسويق شخصه على نحوٍ أراد فيه أن يكون كما لم يرد له أحد أن يكون. تسويق نفسه كسجيّة طبيعيّة ذات روح عفويّة، لا علاقة لها نهائياً بالعالم الذي وجدت نفسها فيه سجينةً منذ احترفت عملاً شرّيراً كالأيديولوجيا، لتغترب بهذا الإحتراف عن الطبيعة، وبالتالي عن حقيقتها الوجودية.

والخلاصة أنّي أقنعته في إحدى الجلسات بوجوب تأسيس جائزة للآداب إسوةً ببقية الدول، لأن الجوائز في عالمنا لم تعد مجرّد حيلة لتشجيع المواهب، ولكنها استعارت أبعاداً رمزية ليس أقلّها شأناً أن تلعب دور الرسول الثقافي للأوطان التي تبادر بسَنّ هذا التشريع ليصبح بمرور الزمن تقليداً يحتفي بالرموز الوطنية، بل ويتجاوز أحياناً حدود الوطن ليحتفي برموز الأوطان الأخرى ليقين الأجيال أننا إنما نحتفي بالأوطان ذاتها عندما نحتفي برموز الأوطان، ونعلي شأن أوطاننا عندما نحتفي برموز الأوطان الأخرى، لأننا إنّما نخلع تيجان الأمجاد على أوطاننا عندما نخلع جوائزنا على رموز الأوطان الأخرى التي حققت إنجازاً ثقافياً أو علمياً هو يقيناً غنيمة للإنسانية بأسرها. وهو ما يعني، إنطلاقاً من هذا المفهوم، أننا إنّما نكرّم في الواقع أنفسنا عندما نكرّم رموز أوطان الإنسانية، ونزكّي رموزنا الوطنية للعالم عندما نخلع عليها آي التكريم، إيماناً منّا بوحدة الوجود، وبمسئوليتنا الأخلاقية كرعاة لهذا الوجود.

ولكن بلايا عالمنا ليست في إقناع أصحاب القرار، ولكن البليّة في ضعاف النفوس الموكلين بتنفيذ الأفكار، سيّما في البُعْد الثالث لعالمنا، الواقع فعلياً خارج التخوم الجغرافية لعالمنا، حيث تهيمن روح الخدم التي تزيّف كل فكرة نبيلة وتسممها باللعنة عند التنفيذ، لأنها ليست معنيّة بالبُعد الرمزي في الأفكار، ولكنها معنيّة بما من شأنه أن يرضي وليّ نعمتها، فلا تتردّد في أن تطرحها قرباناً على مذبح استرضاء الحاكم.

لم يبخل الرجل بالموافقة. كل ما طلبه هو التنسيق مع وزير

Twitter: @alqareah

الثقافة في هذا الشأن لوضع المقترح موضع التنفيذ. إجتمعت مع الوزير وأعددت مذكرة بالخصوص إقترحتُ فيها تسمية الجائزة حرفيّاً بـ«الجائزة العربية الإفريقية للآداب»، ولكن روح الخدم أبت إلاّ أن ترفقها بمذكّرة أخرى مقترحةً إسماً آخر يحمل بصمة الولاء التقليدي المبتذل، كما علمت فيما بعد، ليصدر قرار الجائزة من رئاسة الحكومة بهذا الختم. وهو ما يعني أن روح الخدم في الوزير لم تعلن عن نفسها إلاّ مشفوعة بالمكيدة التي لعب فيها الجُبن دور البطولة. أدهشني موقف إنسان عرفته منذ زمن كأحد المنتمين إلى الحقل الثقافي، ولم يكن ليخيب ظنّي لو لم أجهل فيه الطموح إلى السلطة الذي لم يكن ليتحقّق بدون التنازل عن المباديء كما اتّضح بتلك المناورة الخبيثة التي لم تكن لتمرّ لولا حسن ظنّي به، فلم أجد مفرّاً من الإتصال بأمين سرّ صاحب الأمر لأعرف حقيقة الأمر، ولكن صاحب الأمر عاد ففوّضني على لسان أمين سرّه بكلّ ما متّ للجائزة بصلة بما في ذلك الإسم.

بعدها بدأت دوّامة الروتين الإداري ذي الروح الكافكاوية التي لم أكن لأطمع في أن أكسبها كما برهنت تجاربي الموجعة القديمة مع مرارتها، لأن الحجّة دوماً في المتناول، وهي هذه المرّة صدور قرار الحكومة بالإسم المقترح من قبل الجهة المعنية وهي وزارة الثقافة! وعبثاً حاولت أن أُفهم القائمين على الأمر، بمن فيهم الوزير المختصّ، بمعنى ما فعلوا، لأنهم لا يجنون بذلك على الفكرة النبيلة الكامنة وراء إعتماد الجائزة وحسب، ولكنهم يجنون أيضاً على صاحب الإسم الذي نصّبوه عنواناً للجائزة، ليس فقط لأن الأدباء ملّة

Twitter: @alqareah

مفرطة الحساسية إزاء كل ماله صلة بالساسة، ولكن لأنهم لن يحسنوا الظنّ أبداً بجائزة تحمل إسم إنسان على قيد الحياة حتّى لو اعترف به العالم قدّيساً، فكيف إذا كان قد نصّب نفسه خصماً لكل العالم؟

عبثاً قرأت على هؤلاء مزاميري عن الوطن، وعن الواجب في إعلاء شأن الوطن، بدل إختزال معبود الأجيال هذا في شخص شخصيّةٍ، الحكم عليها من صلاحيّات الغيوب مالم يقضِ الله فيه أمراً كان مفعولاً! ذلك أن معشر الوزراء، أو من يحسبون أنفسهم وزراء، كانوا معنيّين بما يكفل لهم البقاء في مناصبهم، لا بما من شأنه أن يعلي شأن الوطن، لأن المنصب في ناموسهم صار هو الوطن. كل ما فعله هذا الفريق هو عرضهم بأن أترأس الجائزة، لأنهم لم يعتادوا أن يقترح أحد شيئاً دون أن يجني من ورائه نفعاً مباشراً، وكم أدهشهم أن أرفض العرض بالروح نفسها التي رفضت بها عرض السيد وزير الثقافة المذكور بتعييني مستشاراً بالوزارة في يومٍ سابق، لأنني لم أكن لأقبل مناصب هي بمثابة ظلّ باهت إذا قورنتْ بالمنصب الذي كان وليّ نعمتهم قد عرضه على شخصي منذ سنوات سبقت ذلك التاريخ، فلم أتردّد في رفضه أيضاً، لأعلن ذلك على الملأ في أكبر وسائل الإعلام العربية المرئية متعمّداً إستخدام تعبير «رفض» بدل تعبير «إعتذار»، كما جرت العادة، دون أن يعترض صاحب العرض أو يحتجّ على أسلوب الرفض.

آنذاك فقط أدركت أن التحصّن بحسن النوايا في الذهاب إلى واقع موبوء مجازفة حقيقية ذكّرت بسيرة «طيران فوق عشّ الوقواق» لـ كين كيسي التي تحوّلت عملاً سينمائياً فذّاً يحكي قصّة صحفي تسلّل

إلى مشفىً للأمراض العقلية بقصد تحرير سبق صحفي من داخل ذلك المعتقل، فإذا بالنظام القمعي السائد هناك يُفقده صوابه أيضاً إلى الحدّ الذي دعا النزيل الهندي الأحمر لأن يكتم أنفاسه شفقةً عليه من المصير المهول الذي سيئول إليه فيما لو بقي على قيد الحياة!

ولكني لم أجد هناك حكيماً ينتشلني من جحيم المناخ الذي وجدت نفسي فيه، لأن الدخول إلى عالم هؤلاء الخدم ليس كالخروج منه، فقرّرت تبرئة ذمّتي بالإنسحاب بعد أن شهدت إحتضار الروح الرسالية في الفكرة بفضل مكيدة السفلة. أبلغت السيد مدير مكتب أبي منيار الذي إقترح إبلاغ الرجل شخصياً في ذلك اللقاء الذي فاتحته فيه بما لم يجرؤ أحد أن يفاتحه فيه وهو ضرورة تحرير الجائزة من الإسم الذي ألصقه به محفل الوزراء إذا شاء أن تُمنح الجائزة فلا تُجابه بالرفض في أول تجربة. وكم أدهشني أن يوافقني، بل أضاف في حديثه عن الأدباء قائلاً بالحرف: «إنهم سوف يقولون في حيثيات الرفض أنّي سفتول، وسيّء السمعة!». وهو ما يعني أنه أعلم الناس بينه وبين نفسه أنه سفتول (وهي كلمة عاميّة تعني نذل)، وأنه سيّء السمعة أيضاً، ولا يرى حرجاً في أن يعلن ذلك على الملأ! قال ما قال بيقين إنسان لا يخشى ما يقال عنه، وبروح إنسانٍ لا ينوي بالمقابل أن يتنازل لا عن «سفتلته» ولا عن سوء سمعته. وأعتقد أن في هذا تكمن شجاعته التي يجب في هذا المقام أن نعترف له بها.

تلك التجربة بيّنت لي أن أولئك الذين يخافهم الناس ليسوا

Twitter: @alqareah

مخيفون كما يتخيّلهم الناس إلاّ لأنّ الذين يواجهونهم ليسوا شجعاناً بما يكفي كي يكتشفوا الحقيقة التي تصنع منهم بعبعاً دون وجه حقّ، ولكنهم لا يتردّدون في أن يمزّقوا القناع ليكشفوا عن هويّتهم ما أن يواجهوا أناساً يعاملونهم كأنداد، لا لخصال بطوليّة، ولكن لمجرّد أنّهم لا يملكون ما يفقدون. من شأن موقف كهذا أن يستفزّ الإنسان الذي اعتاد أن يستجير بقوقعته، المستمريء لهذا الوضع، فيتمرّد على نفسه ليكشف بنفحة حرية مفاجئة، عن طبيعته المقنّعة. وهو ما يفضح سليقة القناع كسلاح دفاع. دفاع عن نفسٍ ترتعد خوفاً من المبدأ الذي تريد أن تخيفه، ولكن موقف النّدية يهب الفحوى التي تستجير بالقناع نوعاً من أمان، لأن الإحساس بالنّدية لا يتأتّى بدون لحظة التجلّي المجبولة بشحنة قدسيّة هي بالطبع شحنة حرية. ولهذا لا يتسحي مريد القناع أن يتعرّى ليثور على القناع، لأن الحقيقة التي تسطع خطفاً، محمولةً على جناح الحرية، هي فتحٌ شعري يبهر حتى الطغاة، فيتفتّحون!

ماذا يعني أن يتفتّحوا هنا؟ أن يتفتّحوا يعني أن **يعترفوا**. يعترفوا بحقيقتهم التي حرصوا على إخفائها خلف القناع. إنها فرصة لارتياد الأعراف للإغتسال من الخطيئة التي تمثّلها السلطة. أي أنه حنينٌ للعودة إلى فطرة هي يقيناً حلمٌ أصيل. حلمٌ باسترداد سجيّة هي فردوسٌ ضاع بصنيع المعبود الدخيل المعادي للمعبود الأصيل الذي سيغترب في هوية الضحية بعد أن اختلست القوّة الخفيّة فحواه باستلاب صلاحياته غصباً وغدراً. وهكذا يغدو الإعتراف في لحظة التجلّي تكفيراً عن منكر، ولكنه، بمنطق ميتافيزيقا السلطة، لا يصمد

طويلاً أمام طغيان القناع الذي لا يلبث أن يستيقظ ليستعيد الموقع المفقود.

إنه الفصل المجهول في سيرة الجائزة الشقيّة الذي كان بالوسع أن يجيرها من المصير الذي آلت إليه فيما لو استيقظ ضمير القائمين على أمرها كما استيقظ هذا اللغز في وجدان وليّ أمرها في ومضة الحرية الخاطفة التي قُتلت بنصل العبودية الذي يسكن خدماً يحسبهم الناس أهلاً للمسئولية.

والواقع أن هذه النتيجة لم تدهشني بقدر ما أحيت قناعتي القديمة بعدم جدوى القيام بأيّ عمل وطني في واقعٍ محكومٍ بالأيديولوجيا لم يعدم فيه زمام الأمر ملكاً لمن ظنّ نفسه وليّ أمر، ولكن الخدم هم من يتولّى فيه زمام الأمر منذ زمنٍ بعيد. وهو داءٌ مصاحب لكلّ نظامٍ شموليّ، ولم يكن أمام المِلل الحالمة أمثالي إلاّ أن ينسحبوا من المسرح ليعودوا إلى موقع المشاهد كما كانوا دوماً لأنه مكانهم الوحيد المناسب في واقعٍ كهذا. ولكن هل تكفي تبرئة الذمّة والإنسحاب من المهزلة؟

كلا بالطبع. فاللعنة لابدّ أن تلاحق كل مريد إستفزّ المارد الذي يسكن الخفاء.

ظننتُ أنّي تحرّرت بعد أن أبلغتُ كل ذي علاقة بتنصّلي من كل ما متّ بصلة لهذه الدوّامة المحكومة بالفشل سلفاً، ولكن هيهات. غادرت إلى سويسرا، ومنها إلى إسبانيا لقضاء الإجازة الصيفية لأفاجأ بعد عودتي إلى سويسرا مطلع الخريف بفصلٍ جديدٍ من سيرة كيديّة

تأبى إلاّ أن تتشبّث بتلابيبي منذ خروجي من فردوسي الصحراوي ونزولي أحاضيض الواقع العمراني اللئيم يروي كيف قام العدوس بترأس جائزة بإسم الإنسان الذي لم يجد حرجاً في أن يخلع على نفسه لقب «السفتول السيّء السمعة» لتمنح للروائي الإسباني غويتسولو الذي رفضها! والمثير بالطبع هو روح الحقد الذي صاغت به وسائل الإعلام العربية مكيدتها المدبّرة كأنّ مصاباً جللاً زلزل الواقع الثقافي العربي المفلس فانبرت رموز هذا الواقع تتسابق لصبّ الزيت على النار لتؤكّد بذلك، لا إفلاسها فقط، ولكن إنحطاطها الأخلاقي أيضاً، دون أن تكلّف نفسها التحقّق من الواقعة في اعتمادها على الشائعة كحجّة كعادة هذه الفئة عندما يكون الهدف ليس الحقيقة، ولكن الإساءة؛ كأنّ الجوائز الأدبية العربية آنذاك لم تكن ممهورة بأسماء رؤساء هذه البلدان وملوكها وأمرائها، أو كأنّ رفض جائزة (حتى لو كان صحيحاً) كارثة لم يسبق لها مثيل في تاريخ الحركة الأدبية العالمية في تلك الحملة المسعورة التي تتجاهل كيف رفض سارتر أعلى جوائز هذا العالم شأناً وهي جائزة نوبل. وبلغ الحقد بأحد الأدباء الممسوسين بأن ألّف نصّاً قصصياً روائياً يروي فيه تفاصيل مختلقة من الألف إلى الياء كيف اتصلت بالسيد غويتسولو في مقرّ إقامته بمراكش لأعرض عليه الجائزة المزعومة دون أن يكلّف هذا الإنسان نفسه عناء التحقّق من الإفتراء الذي يسوّقه للناس. كحقيقة واقعة. وعبثاً بالطبع سيحاول المتّهم تبرئة نفسه من التهمة الموجّهة له إذا كان العالم قد إستصدر الحكم ضدّه غيابياً

بصيغة نافذة غير قابلة للنقض، لأن القاضي هنا هو الرأي العام، أي السواد الأبله الذي يقبل ما يقرأه أو يسمعه أو يراه في وسائل الإعلام لا كواقع فحسب، ولكن كمسلّمة أيضاً. ولهذا كان من الطبيعي ألاّ يلتفت هؤلاء لما ورد في البيان الذي أصدرتُهُ لشرح ملابسات هذه السيرة الملعونة، لأن ما يهمّ القائمين على هذه الوسائل الإعلامية اللاأخلاقية ليس الحقيقة، ولكن الفضيحة لسببٍ بسيط وهو أنها لا تجني أرباحاً أو صيتاً من الحقيقة، ولكنها تجني مجدها كلّه من الفضيحة، أي من الأكذوبة. ولهذا من الطبيعي أن تتجاهل بيان الضحية لأن ما يرد فيه شأنه أن يهدّد مصداقيّتها، بل وينسف وجودها أيضاً على الرغم من علمها بوجود القوانين القادرة على إجبارها على التصحيح، ولكنها تراهن على جوادٍ آخر برهنت التجربة على فعاليّته وهو الوقت. فاستدعاء هذا القاضي (القانون) ليكون حكماً في النزاع يستدعي التضحية بوقتٍ نفيسٍ قد يستغرق دهراً في إصدار الحكم. والضحية إذا حملتْ هوية المبدع فإن حرصها على الوقت يفوق حرصها على الصيت، لأن الوقت في عُرفها **قيمة**، في حين أن الصيت في عرفها **نفاية!**

وخلاصة ما حدث هو قيام أحد أعضاء اللجنة المقترحة بالإتصال على نحوٍ شخصيّ بالسيّد غويتسولو، كما أُبلغتُ تالياً، ليفاتحه في ترشيحه للجائزة الوليدة، ولم يعرض عليه فوزاً بالجائزة لسببٍ بسيطٍ وهو أنه لا يملك هذا القرار، كما لم يفوّضه لا رئيس الجائزة «محمد المدني الحضيري» ولا بقيّة أعضاء اللجنة الذين لم يكتملوا

Twitter: @alqareah

بعد. ويبدو أن السيد غويتسولو أساء فهم الرجل، أو ربّما فهم الأمر كما يجب أن يُفهم، ولكنه قرّر أن يستثمر الأمر في صفقة أعظم نفعاً كثيراً ما لجأ إليها البعض في مثل هذه المواقف ليقينهم بأنهم سوف يكسبون بالرفض أكثر بكثير ممّا سيكسبون بالقبول. وهي الحيلة التي لجأ لها سارتر نفسه عند رفضه لجائزة نوبل واعترف بها حرفياً عندما سُئل، على الرغم من أنه ندم على هذا الرفض تالياً إلى حدّ أنه قدّم إلتماساً إلى الأكاديمية السويدية متسائلاً عمّا إذا كان بالإمكان إستلام قيمة الجائزة ليُقابَل بالرفض!

وهو ما يعني أن رفض الجوائز الأدبية يُخفي دوماً أهدافاً سرّية أبعد من مجرّد الإستعراض الفجّ في حصد أصوات الصيت، وبرغم احترامي لقامة أدبيّة مثل غويتسولو، بيد أن أحد مقرّبيه أبلغني أنه لم يلجأ إلى هذا الأسلوب إلاّ ليجني أسهماً أغلى قيمة لأن الرفض سيدعم موقفه من الحصول على جائزة نوبل بدليل أنه لم يقم بتوجيه خطاب للجنة الجائزة ليعتذر عن القبول، ولكنه سارع لكتابة مقال في كبرى الصحف الإسبانية معلناً رفضه لجائزة لا يملك دليلاً رسمياً أو أدبياً يثبت نيله لها!

ويبدو أنه لم يتخيّل القيامة التي أحدثتها مقالته في العالم العربي حيث زجّ بإسمي زوراً ليكون ذلك ذريعة مرض الوسط الثقافي العربي كي يسيئوا لشخصي، مما جعله يصدر بياناً في الصحف الإسبانية يعتذر فيه لشخصي، ولكن الصحافة العربية الصفراء لم تُعِر بيانه اهتماماً لا لشيء إلاّ لأنه برّأ ساحتي أوّلاً، وكشف حقيقة نواياها ثانياً. ولم يمضِ وقت طويل على هذا الإعتذار حتّى ألحقه ببيانٍ ثانٍ

إمعاناً في إيضاح ملابسات الإتصال الهاتفي المشبوه الذي تلقّاه مكذّباً ما أوردته وسائل الإعلام العربية من إتصالي به أو علاقتي بالجائزة المذكورة. ولكن وسائل الإعلام العربية تجاهلت هذا البيان أيضاً، لأن بُغْض كَتبَة هذه الوسائل للحقيقة كان أقوى من قوّة تجعلها تتنازل عن كبريائها فتصحّح الأكذوبة التي سوّقتها لقرّائها كحقيقة. ذلك أن العالم الملوّث بالدَّنَس لا يطيق البراءة حتى أنه لا يعترف لنا بالإنتماء إليه ما لم يلفّق لنا تهمة تكون لنا بمثابة وصمة مثيلة لبصمة الربّ على جبين قابيل مع فارق كبير، لأن علامة الربّ إذا كان هدفها أن تجير القاتل قابيل من الموت، فإن علامة العالم هدفها أن تحرّض على قتل مريد البراءة!

أمّا تقليعة رفض الجوائز ففيها يكمن بُعْدٌ لا أخلاقي خفيّ، ربّما لأنها نوعٌ من طلب لبطولة مزوّرة باقتراف إثم هو رفضٌ لإحسانٍ لا يبدو في حقيقته الأبعد مجرّد إنكار لإحسان مَنْ أحسن، ولكنه كُفرٌ بنعمة ربّ المحسن بقطع النظر عن هوية المحسن.

إنه ضربٌ من ثأر منكر يتنامى في روح شرّ الفناها في أناسٍ لا يهنأ لهم بال عادةً مالم يوجّهوا الطعن المميت اليوم لمن أجارهم من الموت بالأمس؟

Twitter: @alqareah

26

في 2006 إندلعت في الصحراء الكبرى الهبّة الثانية لاستعادة الهوية التي لم نكن لنصفها بالمفقودة إلاّ بسبب المكيدة المبيّتة في حقّها من قبل العالم منذ تاريخ ما قبل التاريخ، لا لشيء إلاّ لأن أهلها رفضوا أن يكونوا عبيداً كبقية الأمم. لأن ما هو القبول بقدر الإستقرار، أو ما نسمّيه خطأً: حضارة، إن لم يكن قبولاً بالهوية العبودية؟ وما هو البديل الحقيقي لهذا المصير البائس إن لم يكن الفرار ثمّ الفرار، إلى أبعد أرض والتي لم تكن سوى الصحراء الكبرى وإلاّ لما سمّيت صحراءً كبرى إلاّ بوصفها التجسيد الحرفيّ الوحيد في المتناول لأنبل هبة في الوجود وهي الحرية؟ فقدر هذه الأمّة أن تكون في حال الدفاع عن النفس منذ الأزل، لا لشيء إلاّ لأنها رفضت الهوان ولم ترتضِ، في فرارها الأبدي، سوى الحرية ديناً. ولا ننوي هنا تناول الأسباب المناخية التي لعبت دور البطولة في تشريد أمّة التكوين هذه (كما بيّنا في موسوعتنا عن البيان في لغة اللاهوت) لتفتتح مسيرة أوّل دياسبورا في التاريخ، كما لا ننوي تناول أزمنة ما قبل التاريخ التي شهدت بطولات القوم في الدفاع عن غنيمتهم الألوهية (الحرية)، سواء على النحو الذي يرويه أبو التاريخ هيرودوت، في سيرة إيدكران مثالاً، أو سواء على النحو

Twitter: @alqareah

الذي يرويه خلفه الروماني تيتوس ليبيوس عن كفاح مسّينسّا في سبيل إستعادة حاضرة القوم الساحلية نوميديا من براثن الإمبراطورية البونيقية، سواء ما يورده سالوستي عن كفاح حفيد مسّينسّا يوغرتن ضدّ هيمنة الإمبراطورية الرومانية، سواء ما يورده الإخباريّون العرب في مراحل تاريخية تالية عن تضحيات القوم لصدّ حملات الغزو العربي التي لم تكن لتفلح لو لم تُسوّق نفسها في سيرة المسوغ الديني الذي عرفناه باسم الفتوحات. ولكن ما لا نملك الحقّ في تجاهله، عند تناول سيرة الصحوة زمن نهايات القرن العشرين، هو سيرة التصفيات العرقيّة التي إقترفتها فرنسا في حقّ شعب الطوارق منذ نهايات القرن التاسع عشر وطوال القرن العشرين مروراً بحملات الإبادة الجماعية، إلى تفجير القنابل الذرّية في وطنهم الصحراوي الشقيّ طوال الخمسينيات وحتى الستينيات، وانتهاءً بجريمة تقسيم وطنهم التاريخي هذا بين دول إختلقتها اختلاقاً خصّيصاً لهذا الغرض، لا لشيء إلاّ لأنهم إختاروا أن يموتوا أحراراً، كما عاشوا دوماً، على القبول بالعبودية على غرار الأمم المجاورة. أي أن كل ما تعرّضوا له على يد الإستعمار الفرنسي كان بمثابة جزاء على رفض الإذعان لمشيئة الدخلاء في وقتٍ إستسلمت لهم فيه بقيّة الأمم.

لم يتوقّف حقد الإستعمار الفرنسي على كل الجرائم التي اقترفتها في حقّ هذه الأمّة الأبيّة، ولكنها أنابت ورثتها من بعد لمواصلة حملات التنكيل ضدّ ضحيّتها التاريخية التي لم يكفها محو هوية الضحية التي صنعتها لها فرنسا الإستعمارية، ولكن لإصرار هذه القوّة الشرّيرة على بقائها ضحيّةً أبديّة!

ولهذا لن يدهشنا أن يقوم هؤلاء الورثة بفعل كل ما بالوسع لكي تستمرّ فصول الشرّ في المسرحية العدمية بكل إخلاص سواء في شقّهم الشمالي (العربي)، سواء في جناحهم الجنوبي (الإفريقي). ولسنا في حاجة لمواهب الكهنة لكي ندرك سرّ هذا الحلف المعادي لهوية السلالة الصحراوية، لأن فرنسا لم تكن لتضع ضحيّتها بين شقّي هذه الرحى لولا علمها القديم بحقيقة هذين النموذجين (العربي والإفريقي) الذي انتحلته من خلال تجربتها في معايشتهما طوال قرن من الزمان. إنها حقيقة عداء الجنس العربي (المستعرب بالذات) المُحكَم ضدّ هويّة أهل الصحراء الثقافية الخبيئة في اللغة المختلفة، ثم حقيقة الجنس الإفريقي المعادي لجنس أهل الصحراء بسبب العنصر، اللون تحديداً. بهذا الشَرَك ضمنت فرنسا المناخ الملائم لاستمرار مكيدتها ضدّ ضحيّتها لتضمن قطع دابر هذه الملّة في أقرب مهلة، وبأقل الخسائر، وبِيَد عملاء تدري كم سيتقنون عملهم، لا بالمجّان فقط، ولكن مع صكّ لتبرئة ذمّتها من المذبحة أيضاً!

لم يكن ليخطر ببال الأبرياء أن يستيقظوا في أحد الأيام ليجدوا أن وطنهم الصحراوي العظيم قد تعرّض في الليل لأبشع مؤامرة إختلاس عبر التاريخ لتقوم قوى الشرّ بتمزيقه إلى أربع قطع كما تمزّق الذبيحة تماماً، لتوزّع حصصاً على كيانات مختلقة وملفّقة لم يكن لها على الخارطة الجغرافية وجود قبل ذلك اليوم المشئوم من عام 1963 لتورث هذا الوطن المسكين، المسكون بروح التكوين، لعملاء هذه الجنيّة الملعونة مطلقةً عليها أسماء مثل مالي أو النيجر أو الجزائر (التي استقطعت هذا الإسم المزيّف من إسم جزيرة في البحر

لتمحو هوية الإسم الأصلي الدّال على هوية القوم في إسم «نوميديا») من باب التمويه للإختلاء بالغنيمة المغتصبة!

ومن الطبيعي أن تقوم دولة ذات تقاليد إستعمارية كفرنسا بإحالة ملف المكيدة التاريخية ضدّ أمّة صنّفتها معادية إلى ورثتها ليتولّوا أمر هذا الملف بالإنابة، سيّما إذا كان هؤلاء الورثة هم تلاميذ مدرستها الذين تدرّبوا على يدها وشربوا من آبارها المسمومة كما هو الحال مع عسكر مالي أو النيجر، أو الجزائر الذين تربّعوا على عرش الوطن المغتصب الممنوح لهم كهديّة في استقلالٍ لم ينل من ماهية هذا المفهوم سوى بالإسم، في حين ظلّت عقليّة سيّد الأمس هي العقيدة المعتمدة من قبل أخلاف السيّد في كلّ ما متّ بصلة لتسيير شئون الدولة الوليدة، كأنّ قدر أمّة الصحراء الكبرى أن تكون ضحيّة كل أمم الدنيا بدايةً بالفينيقيين ونهايةً بأمم الإستعمار الحديث مروراً بأمم اليونان والرومان والعرب والأفارقة لا لشيء إلاّ لأنهم اختاروا لأنفسهم هوية ربّ أربابٍ إختلف عن كل أرباب العباد، وهي **الحرية**، وإلاّ لما استجاروا في فرارهم الخالد بواقع أرضيّ ذي جدران من عدم، ليصير لهم فردوساً من دون كل الأمم.

وهكذا فوجئت أمّة التكوين بمن كانوا لها بالأمس حلفاء في عراكها المميت مع المستعمر، أو توهّمت أنهم حلفاء، يناصبونها بعد الإستقلال العداء على نحوٍ فاق في وحشيّته حتى وحشيّة المستعمر نفسه. عداءٌ لا سبيل لتفسيره إلاّ بالإحتكام إلى علم النفس في الواقع. فالإنسان الذي خرج للتوّ من معطف واقع ينصّب فيه إنسانٌ نفسه سيّداً على أخيه الإنسان ليمارس في حقّه صنوف القمع

Twitter: @alqareah

سوف يكون في حاجة حتماً لتدخّل جراحي لاستئصال أورام التشوّه سواء على المستوى النفسي أو المعنوي أو الإجتماعي أو الثقافي أو حتى الوجودي. ولن يعدم هذا النموذج أن يذهب به الدّاء حدّاً يجعله يرى في صاحب الهوية المختلفة عدوّاً جديداً ليُسقط عليه حقده المستعار من تجربة المستعمر. هذا من ناحية. ولكن في واقعٍ كهذا تنشأ تراجيديا في حاجة إلى تشخيص نفسي أعمق. فالإنسان الذي كوفيء على إخلاصه في عبوديّته بكنزٍ لا يُصدَّق، كما هو الحال مع الحصول بدون وجه حقّ على وطنٍ حقيقي إلى جانب الوطن الأم، لابدّ أن يفقد هذا النموذج صوابه فيفعل كل ما بوسعه لكي يبرهن لنفسه أوّلاً، وللسيّد ثانياً، وللعالم ثالثاً، أنه جدير باللقية!

في هذه النقطة تتّخذ فصول المهزلة المنعطف الأخطر، لأن ارتكاب الكبائر يغدو هنا جائزاً، لأنه مباركٌ من السيّد، ومن العالم الذي مايزال على قناعته بوجود هذا السيّد كوصيّ على تركته، وعلى كل ما متّ لهذه التركة بصلة.

ففي 1962 أعلن إستقلال نوميديا (الجزائر) من قبل السلطات الفرنسية، ولكنه كان الإستقلال الحرفي، ولكن فعلياً لم ينل هذا الوطن استقلاله إلى هذا اليوم!

ركب جند المستعمر البحر حقّاً، ولكنهم لم يفعلوا، قبل أن يحسنوا إخفاء دسيستهم الخبيثة في عقلية من ظنّوا أنهم حققوا استقلالاً، لتتولّى أمرهم بالإنابة عنهم!

غادر الجنرالات ليخلفهم تلاميذهم الجنرالات. وكان من الطبيعي

Twitter: @alqareah

أن يبدأ الطابور الأخير في تنفيذ مشيئة أولياء نعمتهم بروحٍ أكثر شرّاً ليدلّلوا عن كفاءاتهم في إدارة شئون البلاد أوّلاً، وليبرهنوا عن إستحقاقهم للُّقية المجّانية ثانياً.

ولن نستطيع تفسير قيام أحمد بن بلّة بوضع البنود الأولى في برنامج منكر كالتصفية العرقية لشعب الطوارق لو لم نفهم طبيعة دور الرجل الذي عمل جنديا في جيش فرنسا، واستُوْدع السجن لا لمعاقبته على دوره في حركة التمرّد، كما سوّقته الدعاية، ولكن لتهيئته لتولّي دور أحسن خلف لأبشع سلف! وما تغنّي هذا النموذج بمعزوفة التقدّم أو المشروع القومي إلاّ لتسويق النغمة الجديدة في سيمفونيّة الإستعمار الجديد، لتكون هذه النغمة حقنة الترياق في أفيون الشعوب المقهورة. وهو نفس الدور الذي أسندته فرنسا إلى نموذج مماثل في بلد مجاور هو مالي متمثّلاً في شخصٍ ملتبس وهو موديبوكيتا. ولم يكن مصادفةً أن يكون هذا الأخير أقوى حليف للسيّد بن بلّة في التنكيل بالأمّة التي كانت بالأمس الساعد الأقوى في حرب التحرير ضدّ فرنسا التي يدّعي عداوتها حرفاً، ولكنه يتبنّى سياستها جوهراً.

لم يقنع هذان الرجلان باغتنام الأراضي المستقطعة من وطن الطوارق التاريخي، ولكنهم قرّروا وضع مؤامرة التصفية العرقية لأصحاب الأرض موضع التنفيذ بأسرع مما توقعت فرنسا نفسها، كأنّ هذا العمل البشع هو بند أول في برنامج الخطّة الخمسية الأولى لتتويج الإستقلال، ولكن ظرفاً طرأ أجَّلَ الحملة وهو نشوب حرب الحدود بين الجزائر والمغرب. ولكن الأجل لم يدم طويلاً لأن قيام

هذه الحرب ما لبث أن تحوّل حجّة وَجَبَ استثمارها.(بوحي من دهاة السادة بالطبع) لإنجاز المهمّة. وها هو موديبوكيتا يقوم بدور الوسيط في النزاع بين الشقيقتين لا لإحلال السلام بينهما في الواقع، ولكن لتحييد طرف خطر في المعادلة وهو المغرب الذي لم يكن ليتساهل في شأن المساس بمصير الأمّة التي كان لها الفضل تاريخياً في صنع مجدها من خلال دولة المرابطين وتأسيس امبراطورية مراكش.

كان توقيع معاهدة الصلح بين هاتين الجارتين (المغرب ونوميديا) بمثابة صكّ الغفران، أو صكّ على بياض، لمجرم مالي موديبوكيتا كي يباشر تنفيذ مخطّط الإبادة ضدّ شعب الطوارق الأعزل، وهي الحملة التي عُرفت في التاريخ المخزي لإنسان العصر الحديث بـ«أحداث 1963»، والتي راح ضحيّتها عشرات ألوف الأبرياء من سكّان الصحراء الكبرى الأصليّين أمام مرأى ومسمع من عالم لا يستحي أن يتشدّق بالتحضّر. وكيف لا إذا كانت فرنسا تكفل التغطية السياسية للجريمة سواء في أوروبا أو في العالم سيّما بعد أن فازت (دون وجه حق) بالضلع الرابع في مجلس الأمن الدولي ممّا يخوّلها استعمال حقّ الفيتو ضدّ كل ما يخالف هواها؟ أقول «دون وجه حقّ» لأن فرنسا هي الدولة الوحيدة التي حازت هذا الشرف في هذا المجلس السيّء السمعة دون مؤهّل حقيقي وهي التي لم تلعب أيّ دور في قهر ألمانيا النازية التي وُزّعت الغنيمة على أساسها بعد الحرب، بل كانت الدولة الوحيدة التي ضربت مثلاً في الجبن باستسلامها دون حرب في ما عُرف بـ«الحرب الغريبة»، لتبرهن أن مؤهّلاتها البطولية مستعارة من وحشيّتها ضدّ المستضعفين والعُزّل

فحسب (أمثال أمّة الصحراء الكبرى)، ولكنها تنقلب خرافةً ما أن تواجه عدوّاً حقيقيّاً مثل ألمانيا النازية!

نهم دول جوار الصحراء لم يشبع من الهِبَة المجانية (والأسطورية في الواقع) التي تلقّتها أمم لم تحلم بكيان مستقلّ أصلاً، فإذا بها تتلقّى الإستقلال مشفوعاً بأوطان اخرى إلى جانب الوطن المأمول، ولكن شهيّتها تفتّحت أكثر لتتسابق في انتهاش المزيد من هذه الأراضي السخيّة، سيّما بعد أن استمرأت ثروات هذه الأرض النبيلة التي صارت ركيزة إقتصاد هذه الدويلات الملفّقة بيد المستعمر. فكل رصيد دولة مثل نوميديا من الثروة النفطية مستعارٌ من حقول ما سمّي بهتاناً بـ«حاسي مسعود» الواقع في قلب صحراء آزجر وآهجّار في حين تبخل هذه الدولة على المكان الذي أطعمها من جوع وآمنها من خوف حتى بالإسم الأصلي وهو إيجليه (التي تعني في الترجمة الخنفساء) فتستعير له إسماً ملفّقاً هو «حاسي مسعود» من باب محو الهوية الثقافية للمكان بدعوى سياسة التعريب التي لم تكن إلاّ لتعريب أمازيغ الصحراء وأقرانهم أمازيغ السواحل، وليس لتعريب الشقّ العربي للشعب الجزائري واستعادته من غربته في مجاهل الهوية الفرنسية ليبقى بالنتيجة على وفائه لفرنسا لساناً ووجداناً بعد ما يزيد على النصف قرن من بداية سياسة التعريب المزعومة، لأن المستهدف أساساً لم يكن هوية السيّد الغابر، ولكن هوية الأقليّة العرقية الأصليّة!

فهل شبعت وريثة فرنسا في المنطقة بعد أن تآمرت مع موديبوكيتا المالي، وهوماني ديوري النيجري، لقتل أهل الصحراء الكبرى في

1963، فلم تكتفِ بكلّ ما فعلت ولكنها زجّت في سجونها بزعماء الطوارق قبل أن تسلّمهم للسفّاح موديبوكيتا كي يحكم عليهم بالإعدام؟ فهل إكتفت حكومة مالي المختَلقَة بقطع دابر الذين كان لهم الفضل في تأسيس دولة مالي (تمبكتو) في القرون الوسطى، ونشر الإيمان بالإله الواحد الأحد في كل القارّة السوداء لتنعم بعائدات مناجم الذهب وبما تعد به الخلوات من نفط ومعادن أخرى؟ هل توقّفت القبيلة التي شاءوا لها أن تكون عَصَب دويلة النيجر (الفلاّن) عند حدّ إلغاء الإنتماء إلى إسم «آير» المهيب، واكتفت بنهب اليورانيوم من بطن أرض أشقياء التاريخ البشري مقتسماً مع شركات فرنسا الإستعمارية؟

ليست نوميديا (أو ما يُعرف اليوم بإسم الجزائر) الكيان الوحيد الذي تنكّر لأهل الصحراء الذين كانوا حجر الزاوية في ملحمة تحريرها من فرنسا لأنهم الطرف الوحيد الذي لم يستسلم لتهيمن هذه الجنّية (فرنسا) منذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر حتّى عشيّة الإستقلال، ولكن المغرب أيضاً تنكّرت للأمّة التي كان لها الفضل في قيامها كإمبراطورية كبرى في القرون الوسطى لتستعير حتّى إسمها المعاصر في اللغات الأجنبية (مرّاكش) من هوية تلك الإمبراطورية، وها هي تتخلّى عنهم بموجب الصفقة الدنيئة مع الجزائر للوسيط المجرم موديبوكيتا ليكون هذا الموقف وصمة عار على جبين ساستها إلى الأبد.

ولكن لماذا ندين موقف المغرب أو حتى الجزائر من قضيّة الصحراء الكبرى إذا كان العالم كلّه هو عدوّ الصحراء الأوّل الذي لم

Twitter: @alqareah

يرَ في هذه القارّة سوى كونها فراغاً خاوياً، وما أهله سوى قبيلة من الأشباح!

هذه الروح المعادية لهذا الواقع الصحراوي بوصفه مجالاً ميتافيزيقياً، وليس جغرافياً، هي التي كوّنت هذا المفهوم اللاّأخلاقي في العلاقة مع وطن يراه العالم وهمياً، ويبدو من وجهة نظر الوجود ألوهيّاً لا لأنه وطن تكوين وحسب، ولكن لأنه وطن الله، وإلاّ لما اختارته الغيوب ليكون وطن تكوين.

هذه العقلية العدمية العالمية في العلاقة مع فردوس الصحراء تأبى إلاّ أن تسوّق هذا الفردوس جحيماً إنطلاقاً من مفهوم يرى في العمران **عمارةً للأرض**، وفي روح العالم، الذي نسمّيه صحراءً، عَدَماً مجسّداً. أمّا سكّانه فلن يكونوا سوى الأشباح بالطبع. وهذه الرؤيا كافية لمطاردتهم في الفلوات لاصطيادهم بالأعيرة النارية كالطرائد تماماً، كما فعلت سلطات مالي والنيجر في 1963 وما تلاها من حملات، في حين كانت الجزائر لعصبة الصيادين تلك بمثابة الكلاب على الحدود تعترض الطرائد الشقيّة الهاربة من فوهات البنادق لتردّها على أعقابها لتقع فريسةً في شراك الجلاّدين!

وما يسّر سقوط أبناء الصحراء لقمةً سائغة في أفواه شراذم الأبالسة طوال تلك السنوات ليس سكوت العالم على عمليات الإبادة (بفضل التعمية الفرنسية) وحسب، ولكن لسرٍّ آخر، يبدو غيبيّاً، يجهله العالم، وهو العلاقة مع روح الوطن وكل الأوطان وهي: **المياه!**

علاقة سليل الصحراء الكبرى بالماء ذات بُعْدٍ ديني. نوعٌ من الحسّ الصوفيّ الذي يحرّم تحريماً صارماً هجر الأوطان إلى ماوراء المياه. فالتخوم، في عرف الصحراء الكبرى المعترف بها كحدود للأوطان ليست السدود أو الصلد أو أي علامة من هذا القبيل، ولكن الحدود المقدّسة هي المياه. وهي مقدّسة بسبب قداسة الماء أصلاً. ولذا نجد إبن هذه القارّة الصحراوية يتنقّل بحريّة في كل هذا المجال الهائل ولا يتوقّف ليرتدّ على عقبيه إلاّ عندما يعترضه حاجز مقدّس سواء أكان في صيغة نهر أو بحر. ولهذا نجد أن الطوارق هي الأمّة الوحيدة التي لا تهاجر خارج وطنها أبداً. وهو ما أثبتته التجربة عبر التاريخ. هذا الإنسان يقبل الموت جوعاً، أو يهلك بحملات الإبادة الجماعية التي تعرّض لها منذ ما قبل التاريخ، ومازالت مستمرّة، ولكنه لا يجتاز التخوم الواقعة مابين نهر النيجر جنوباً، ونهر النيل شرقاً، وبحر ليبيا شمالاً، والأقيانوس غرباً. والبرهان هو ما نشهده اليوم من عبور كل أمم العالم عبر أراضيهم (الصحراء الكبرى) إلى سواحل الشمال الإفريقي في الهجرة الجماعية العالمية المعاصرة التي صارت قضيّة الساعة، دون أن نجد بين هؤلاء إنساناً واحداً من أهل المكان المتّخَذ جسر عبور(كما هو الصحراء الكبرى) برغم أنهم أفقر من كل هذه الأمم العابرة، برغم أنهم الطرف الأحوج للهجرة لا بسبب المجاعات أو الأوبئة وحسب، ولكن بسبب حملات الإبادة التي مازالت تتواصل لقطع دابرهم من الوجود إلى هذا اليوم.

إنهم يتشبّثون بتلابيب العدم (كما يرى الأغراب هذا الوطن المدهش)، ويفضّلون أن يُفنوا عن آخرهم على أن يتخلّوا عن الوطن الجريح أبداً، لأن الطبيعة اصطفته من بين كل الأوطان عندما صحّرته على هذا النحو الذي جعل منه **روحاً مجسّدة**، من دون كل الأوطان، ثمّ حصّنته بطوق آخر مجبول بالروح أيضاً وهو الماء، لأن الماء أيضاً روح مجسّدة، الماء أيضاً حرية تستطيع أن تتبخّر، أن تحتجب، ثم تتجسّد تماماً مثل الصحراء. فبأي حقّ يقترف السليل الخطيئة فيدوس على الروح ليعبرها إلى المجهول الذي يخفي العبودية؟

27

أليس مفارقة جديرة بالتأمّل أن نرى أفواج الجلادين (من مالي والنيجر) يعبرون رحاب الصحراء الكبرى في طلبهم للفردوس المفقود في ما وراء الحدود، في حين تأويهم الضحية في عدمها الأبدي وتقدّم لهم العون كي يجتازوا إلى الفردوس الموعود؟

لقد كانت الصحراء الكبرى عبر التاريخ الحدّ الطبيعي الفاصل بين شمال أفريقيا وجنوبها، ولو لم تقم فرنسا الإستعمارية بانتهاك هذه الحدود الطبيعية بتجريد الطوارق من وطنهم وتقديمهم لقمة سائغة لدخلاء الجوار، لما تباكى العالم اليوم على كارثة صنعها بيده كما هو الحال مع الظاهرة الفتّاكة المثلثة الأضلاع: الهجرة اللاشرعية، الإرهاب، تجارة المخدّرات، التي أضحت الصحراء في العقود الأخيرة مسرحاً لها.

وهو ما يعني أن أوروبا إنّما جَنَتْ على نفسها من حيث لم تدرِ عندما غضّت الطرف عن ممارسات فرنسا الطائشة واللاإنسانية ضدّ أهل الصحراء، فلم تكتفِ بجريمتها، ولكنها أورثت سياسة الإبادة لعملائها وخدمها الذين تركتهم وراءها حرّاساً على مكيدتها. وها

نحن نشهد كيف ينقلب السحر على الساحر لتجني هذه الأمم اليوم، ما استزرعت بالأمس.

ففي الأزمنة التي كان فيها الطوارق فرسان الصحراء الكبرى لم يكن مخلوق ليجرؤ على عبور مجاهيل هذه القارّة الهائلة دون فرمان من سادتها. وليس على عالم اليوم إلاّ أن يعيد النظر في مؤامراته القديمة بإعادة الإعتبار لأهل المكان الأصليّين إذا شاء أن يستأصل الورم الخبيث المثلّث الأضلاع الذي لم يكن ليُبتَلى به أصلاً لو لم يقترف الإثم في حقّ أهل المكان من خلال إحداث التغيير في طبيعة المكان الديموغرافية. ذلك أن الطبيعة إذا كانت لا تغفر الإنتهاكات في حقّ المحيط البيئيّ، فإنّ الوجود لا يغتفر الإنتهاك في حقّ الواقع الديموغرافي. لأن المساس بهذه المباديء هو مساسٌ بنظام الكون. والقصاص، كما علّمتنا التجربة، رهين المساس بنظام الكون. لهذه العلّة تحذّر الفلسفة الطاوية (الداوية) من مغبّة تهجير الناس من أماكنهم.

28

خاض الطوارق حرباً ضدّ الإستعار الفرنسي طوال ما يربو على القرن دفاعاً عن وطنهم وهويّتهم دون أن يخطر ببال أبطال هذه الملحمة الوطنيّة أن يأتي الإستقلال باستعمارٍ أدهى متنكّراً في قناع الخليفة لهذا الإستعمار، لأن نهمه لنهب ثروات القوم أكبر، وحقده على هويّتهم الثقافية أشرس بسبب الطبيعة الميتافيزيقية الكامنة في مبدأ الخلافة حيث يستبسل الموصي في تنفيذ حرف الوصيّة ليحقّق التفوّق على صاحب الوصيّة نفسه إنطلاقاً من الحاجة الوجودية في البرهنة على الإستحقاق. يكفي أن نستعرض تدابير حكومات ما يسمّى الجزائر المتعاقبة منذ الإستقلال المتّخذة لمحو هوية القوم لندرك كم كانت فرنسا الغازية أرحم بما لا يقاس في كل ما يتعلّق بقضيّتهم. وها هي أوّل حكومة تتساهل في شأن التجارب النووية الفرنسية في وطن الصحراء بموافقتها على مواصلة هذا الجرم في البنود السرّية لإتفاقيّة الإستقلال حتّى 1965، أي لأمد إستغرق قرابة الأربعة أعوام بعد نيل الإستقلال في 1962. تلك كانت أول هدية من السيّد بن بلّة للشعب الذي حمل على عاتقه وزر المقاومة في وقتٍ

لم تحلم فيه أجيال الشمال بالخلاص من كابوس الإحتلال مجرّد حلم.

ولكن تلك الهدية لم تكن كافية، لأن الحلف مع قتلة جمهورية مالي لم يعد مستبطناً كما هو الحال مع مؤامرة القنابل الذريّة، والرغبة المحمومة في تصفية القوم جسدياً غلبت الشعارات التي تتشدّق بحقّ تقرير المصير أو حريّة الشعوب التي ما انفكّ السيّد بن بلّة يتغنّى بها بوصفه العضو البارز في جوقة بهلوانات تلك المرحلة!

ولكن كل هذه الجرائم في حقّ أمازيغ تينيري لم يشفِ غليل الجنرالات الذين تعاقبوا على حكم الشمال، وها هم مهندسو سياسة العنصر يضعون لهم الخطط الأخبث في سبيل تنفيذ المكيدة التاريخية المتمثّلة في حرف حملات توطين أعراب الشمال في أراضيهم تحديداً في حاضرة آهجّار تامنغست، وحاضرتي آزجر إليزي وجانت، وذلك بضخّ الأموال السخيّة من موارد هذه الأرض نفسها وهي نفط إيجليه الواقع في أرضهم، لمحو هويّتهم بضخّ أسراب الأعراب والأغراب، وتغذية هذه الحملات التغريبية بعوائد ثرواتهم هم لا سواهم! وهي السياسة التي مازالت تتواصل بحماس منقطع النظير إلى اليوم، لأنها المكيدة الأخبث في حقّ هذه القضيّة لأنها تستعين في التنفيذ بالصبر، وتستعين في المدى البعيد بالزمن. إنها السياسة المستعارة من قاموس الإستعمار الفرنسي بالذات في فرنَسَة شعب الشمال النوميدي منذ احتلاله في الثلث الأوّل من القرن التاسع عشر، ولكن دهاة المكيدة لم يتساءلوا عن المصير الذي انتهت إليه

Twitter: @alqareah

هذه السياسة عندما استعاروها بحذافيرها على الرغم من استماتتهم في استثمار كل ما من شأنه أن يعزّز متن مكيدتهم وهم الذين لم يستحوا من إستثمار حتّى الإرهاب لتوطيد أركان نواياهم. فما أن استشرى هذا الداء في جسد النظام الجزائري المريض حتّى هبّ الدهاة ليفعلوا كل ما بالوسع لإلحاقه بالصحراء ليكون وصمة تلحق الضرر بالقضية الكبرى لشعب الصحراء، لتضرب بذلك أكثر من عصفور بحجر واحد. فهي كسبت ما يسمّى بالمجتمع الدولي بدعوى محاربتها للإرهاب على الرغم من علم هذا المجتمع بحقيقة هذه الحرب التي جنّدت فيها السلطات عناصر الجيش ليكونوا عملاءها هدفهم الأساسي هو التشويش على أبطال أزواد وتشويه صورتهم أمام العالم بربطهم بوباء العصر المتمثّل في الإرهاب. وهو ما لم يكن لينطلي على خرافة المجتمع الدولي لولا نفاق هذا المجتمع الدولي الذي لا يخفي استعداده لأن يغضّ الطرف عن كل أمر مادام يريحه ولم يتكشّف أمام الرأي العام ليتحوّل فضيحة! فنفاق السلطات الجزائرية مستعارٌ من سلطان النفاق الدولي بدليل أن الكل يعلم بوجود المكيدة على الرغم من تظاهر الكل بالجهل بحقيقة المكيدة مالم تحدث زلزلة تميط اللثام عن المستور. وحتّى لو حدثت القارعة فإن الأمر قابل للسيطرة، لأن إسكات الجعجعةِ في وسائل الإعلام صار مهنة عالم هذا الزمان وإلاّ ما جدوى بيانات الإستنكار إذا لم تستطع إخماد الفتيل في المهد، لأن الضمير صار هشّاً إلى حدّ لم يعد في حاجة إلاّ لكلمة تنديد كتعويذة شافية!

فلنتناول موقف حكومات شمال نوميديا من إصرار ثوّار أزواد على نيل الحكم الذاتي مقابل التخلّي عن مبدأ لا بديل له وهو الإستقلال لنقف على حقيقة النفاق في سياسة هذه الحكومات. وهو مطلب الحدّ الأدنى الذي دفعت الأمّة في سبيله تضحيات جسيمة إستمرّت عقوداً من النزيف. تضحيات لم تكن لترضى سوى بالإستقلال الكامل عن بدعة الكيان المفتعل المسمّى مالي. ولكن ضغوط حكومة الأشباح التي أقنعت العالم بأحقيّتها في احتكار هذا الملف الملتبس هي التي أجبرت ثوّار أزواد على القبول بالحدّ الأدنى مستخدمةً صنوف الترغيب والترهيب لا إكراماً لدويلة مالي، ولكن فزعاً من أن ينتقل الحريق الآتي لا محالة إلى أعطافها هي. ولكن أشباح المكيدة لم تُقنع أبطال الهويّة بالحدّ الأدنى، المتمثّل في الحكم الذاتي، إلاّ لتنسف هذا الحدّ الأدنى تالياً، فتناور في سلسلة مفاوضات تستغرق أعواماً لكسب الوقت، لتنتهي أخيراً بأن تبخل عليهم بهذا الحدّ الأدنى أيضاً فتستبدله بحزمة لفظية مائعة تعود بهم في كل مرّة إلى نقطة الصفر التي انطلقوا منها. والأعجب من كل شيء أن تتمّ هذه المهزلة بمباركة ما يسمّى بالمجتمع الدولي الذي يفوّض هذا الخصم لقضيّة الطوارق ليكونوا الحَكَم في المهزلة!

وليس أدلّ على نفاق حكومة الأشباح هذه من موقفها من قضيّة الصحراء الغربية وهي التي استخدمت كل عبقريّتها في حبك الكيد كي تؤكّد حقّ هذا الكيان في الإنفصال عن المغرب منذ الإستقلال عن إسبانيا في بداية سبعينيات القرن الماضي، في حين تستخدم

طائفة الأشباح هذه كل عبقريّتها في منع الطوارق من الإستقلال عن كيان كان لهم الفضل يوماً في وجوده على الخارطة.

فأين يكمن المبرّر الأخلاقي في هذه الإزدواجية؟

هل يكفي أن تكون المغرب خصماً للأشباح التي تكتم أنفاس نوميديا لكي تُمارس سياسة كهذه أمام ملأٍ لا يستحي أن يكنّ للبهلوان آي الإكبار بوصفه الراعي للسلم العالمي والمناضل العنيد ضدّ الإرهاب؟

والمأساة أن موقف المغرب لا يقلّ لا أخلاقيّةً عن موقف خصمها في قضية الصحراء الغربية لتصير لها في السياسة الخارجية كعب أخيلوس بدل أن تكون لها بمثابة شعرة شمشون. فالخوف من فقدان المصداقية في شأن قضيّة الصحراء صار سبب تخاذلهما في شأن قضيّة أهل الصحراء الذين كانوا بالإنتماء مواطنيها بوصفهم الهوية التي أسّست مجد إمبراطورية مراكش في القرون الوسطى، كأنّ الكل قد يتخاصم، وقد يتقاتل، ولكن ما يتّفق فيه الجميع هو الوقوف صفّاً واحداً ضدّ قيام سلالة التكوين باستعادة هويّتها المفقودة. فهم ينكرون على هذا السليل أن يطالب بحكم ذاتي، أو بتحقيق كيان ثقافي أو سياسي ككل بقيّة أمم الأرض، وينسون أنهم هم لا سواهم من بخل عليهم بالهوية وباستخدام برهان الوجود المتمثّل في حرف البيان، ولم يكن هذا المارد ليستيقظ من سبات عزلته في قمقم الصحراء الكبرى ليستجير بالسلاح لو لم تغتصب هويّته فتَسامح، وصودرت أرضه فتجاهل، ولكنه لم يكن ليتساهل

Twitter: @alqareah

مع إختلاس فردوسه الوحيد الذي كان له منذ الأزل شهادة وجود، لأنه عنوان الوجود، وهو: **الحرية** التي لم يكن ليتنازل عنها ليستبدل إستعباد الأمس المعلن في حرف الإحتلال الأجنبي باستعباد اليوم المخفي خلف قناع الإحتلال «الأخوي» الذي لم يكن ليكون أسوأ من الإحتلال الأجنبيّ إلاّ بسبب هذه الأخوّة المزعومة التي برهنت التجربة بأنها لم تكن إلاّ إفيوناً لتخدير ضحيّة قدّر لها أن تعتنق مبدأ الأخوّة هذا من طرف واحد.

29

والواقع أن مأساة هذه الأمّة لم تبدأ بحملات الغزو العربي لشمال إفريقيا، ولكن جذورها تعود إلى أزمنة ما قبل التاريخ. أي إلى الغزوات الإستيطانية القديمة التي ابتلي بها شمال الصحراء بدايةً بالفينيقية ونهايةً بغزوات الإستعمار الحديث، مروراً بالغزو الإستيطاني اليوناني، ثم الروماني، ثم العربي الإسلامي، ثم الإسباني، ثم العثماني، ثم الفرنسي، ثم الإيطالي، ثم غزو أنظمة شمولية، تخلع على نفسها لقب الوطنية، خلفت إستعماراً أجنبياً، لتستعير من هذا الإستعمار الأجنبي روحه العنصرية في قمع هوية الآخر، بل وتتزايد عليه في نزعة الكراهية بدعوى أنها تهدّد وجود الوحدة القومية. بل وتذهب في استفظاعها والتشنيع بها شوطاً أبعد عندما تصفها بأنها بدعة من صنع الإستعمار، بدل أن تعترف بالواقع فتقول في أدبياتها التحريضيّة الرسمية أن هذه الهوية الشقيّة إنّما كانت ضحيّة هذا الإستعمار، ولم تكن يوماً حصان طروادة لأي استعمار!

يرد ذكر أهل الصحراء لأوّل مرّة في متون ما قبل التاريخ سواء في أسفار العهد القديم، أو في متون مصر القديمة، أو في المصادر اليونانية بدايةً بالإلياذة، ثم تاريخ هيرودوت، سواء تحت إسم

Twitter: @alqareah

«الليبيّون»، أو من خلال أسماء بعض القبائل الواردة في آثار مصر القديمة مثل «التمحو» التي إذا علمنا كيف كان حرف الواو يُستبدل في اللغات بحرف القاف، علمنا أنها «تمحق»، التي هي «تمهق» ذاتها التي يطلقها القوم على أنفسهم، لأن الحاء الساميّة ترجمة للهاء الحامية، كما بينّا بالتفصيل في أجزاء بياننا في لغة اللاهوت، التي تتعاقب مع حرف آخر هو الزاي، لتغدو «تمزق»، كما في لسان الشمال، أو في جنوب الصحراء منطقة «آير» تحديداً. ليس هذا وحسب، ولكن هذا الحرف يتعاقب مع الشين في ألسنة الشقّ الذي يستوطن غرب الصحراء، تينبكتو وما حولها تحديداً، ليصبح «تمشق». ولمّا كان القاف حرف يتعاقب مع حرف الغين عند جلّ القبائل الإفريقية، بما في ذلك السودان، فمن الطبيعي أن يتحوّل في بعض الألسن إلى «أماشغ»، أو «أمازغ»، أو «أماهغ»، كما هو حال هذه الأمّة، كأنّ هذا التنوّع في النطق بإسم الهوية ترجمة حرفية للتعبير عن شتاتها من جانب، والتعبير عن غموضها واغترابها عن حقيقتها من جانب آخر! وهو اغتراب أصيل، بل يكاد يستعير بُعْداً غيبياً لا يختلف عن إغتراب آدم عن فردوس الله المفقود، بدليل أنهم مازالوا يتلبّسون المجهول إلى اليوم، فينكرهم العالم، بل ولا تتردّد في إنكارهم حتى الأمم التي تشاركهم هذا الوطن الشاسع الملقّب بإسم «الصحراء الكبرى». وهو قدر رافقهم منذ عصور ما قبل التاريخ. فهم كانوا لغزاً بالنسبة لأهل مصر القديمة على الرغم من علاقتهم الحميمة بمصر، لا لأنهم كانوا نواة جيوشها وحسب،

ولكن بحكم الإنتماء، لأن المصريين هم شقّ الدياسبورا الكبرى المنبثقة عن القبيلة الأمّ عندما استبدّ الجفاف بالوطن ليتحوّل صحراء كبرى. قدرُ الإغتراب صاحَبَهم في علاقتهم بالأمم التي حلّت في ديارهم أيضاً كما هو الحال مع اليونانيين، ثم الرومان، ثم بقية الأمم التالية، بما في ذلك الأمم التي تجاورهم إلى يومنا هذا سواء أكانوا من الجنوب الإفريقي أو من الشمال العربي.

وهذه ليست المفارقة الوحيدة التي ستستوقفنا عندما نتأمّل هذه الأمّة في مسيرة طويلة ودموية دفاعاً عن النفس أوّلاً، وتأكيداً لحقّ البقاء ثانياً. مسيرة لم تكن لتفلح لولا المبدأ الذي يصلح حجر زاوية للمقدّمة الوجدانية في ميتافيزيقا الهجرة كما هو مدوّن في معالجتنا المعنوَنَة بـ«أهل السُّرَى» المنشورة في غير هذا المكان.

Twitter: @alqareah

30

مع مطلع الثمانينيات تدهور الوضع في الصحراء الكبرى من جديد بما بشّر بمخاض جديد في واقعٍ ظنّ فيه الجلّادون التقليديّون أنهم قد أفلحوا في وأد روح الهوس بالمعبودة الأزليّة (الحرية) فيه إلى الأبد بفعل المكيدة القديمة المحبوكة بأصابع عدوّ الطوارق الأبديّ: فرنسا بعون عملائها في القارّة الذين لن يكونوا بالطبع سوى عبيد الأمس في مالي والنيجر والجزائر وتشاد! إنهم محفل الأرواح الشرّيرة الذي استخدمته فرنسا الإستعمارية دوماً لكي ينوبوا عنها في وضع نواياها الخبيثة موضع التنفيذ بعد أن برهنت التجربة أن أفضل حلفاء اليوم هم عبيد الأمس (!)، وهو ما سيعني أن كل ما يقال عن استقلال القارة الإفريقية عن فرنسا مجرّد هراء، وليست مصطلحات مثل «مناطق النفوذ» السائدة في أدبيّات هذا الزمان سوى قناع للتستّر على الحقيقة القائلة بأن إفريقيا مازالت في الواقع قارّة مستعمرة بالمعنى الكلاسيكي، أي الحرفي، لا الرمزي. وهو واقعٌ يعترف به العالم لفرنسا إعترافاً صريحاً من خلال منظّمة الأمم المتّحدة التي تفوّض فرنسا فعلياً بالتدخّل المباشر في شئون هذه القارّة كلّما استدعى الأمر وهدّدت الأحداث بالخروج عن السيطرة، كما حدث

Twitter: @alqareah

مراراً، وليس التدخّل في مالي عام 2012 المدعوم بقرار أممي سوى التتويج الرسمي لهذه المؤامرة.

وكان من الطبيعي أن يكون هذا العرّاب أوّل من يهرع لكتم أنفاس أي تململ في هذه القارّة الصحراوية، سيّما بعدما غدت خزنةً لكنوزٍ لا غنى عنها كاليورانيوم الذي تستخرجه شركاتها من أعماق وطن هذه الأمة الشقيّة ليكون أهمّ موارد هذه السعلاة على الإطلاق، لأنه أهّلَهَا لأن تكون أكبر مصدّر للطاقة على مستوى العالم. وليس على مصّاص الدماء هنا إلاّ أن يأمر، وليس للأذناب إلاّ أن تستجيب كما في كل مرّة. وكان من الطبيعي أن يتنادى فريق العملاء هذا لعقد مؤتمر للحيلولة دون انفجار الوضع في انتفاضة، أو حتّى ثورة، أي محاولة وأد الشرر في المهد، لتشهد واحة «جانت» (التابعة لسلطنة آزجر عبر التاريخ، ولكن أبت فرنسا إلاّ أن تنتزعها من «آزجر» لتلحقها بممتلكاتها في نوميديا قبيل منح الإستقلال بأمدٍ قصير) هذا اللقاء المشبوه في عام 1989 على مستوى رؤساء الدول بالطبع ليضم إلى جانب الرباعي التقليدي ليبيا أيضاً لسوء حظّ المحفل هذه المرّة، حيث أقبل السيد أبو منيار على المؤتمر حاملاً في عبّه مفاجأة كعادته في مثل هذه المحافل تمثّلت حرفاً في احتجابه بلثام القوم الأزرق، ونصّت جوهراً على قمع رئيس مالي الذي دعا المجلس لأن يمهله شهراً واحداً فقط لتصفية عرق الطوارق من الصحراء، فما كان من السيّد أبي منيار إلاّ أن تصدّى له بعبارة تناقلتها وسائل الإعلام العالمية آنذاك تقول حرفياً: «لن أسمح لأحد هنا بأن يتحدّث عن التصفية، لأننا جئنا للبحث عن حلّ لمشكلة، لا لقطع دابر قومٍ من

Twitter: @alqareah

المنطقة». وهو موقفٌ من أبي منيار مكمّل في الواقع للنداء الذي وجّهه مطلع 1980 للقوم لكي يعودوا لوطنهم الأصلي ليبيا ليحيوا في وطنهم بسلام بعد النكبات التي تعرّضوا لها والمجاعات التي عانوها في الجنوب المتاخم لأدغال القارّة.

وهو موقفٌ يستطيع البعض أن يقرأ فيه تلبية لنداء غرابة الأطوار، ولكن بعضاً آخر يستطيع أن يرى فيه إستجارة لنداء الهوس بتلك الحرية التي حاول دوماً أن يجود بها على شعوب الأمم الأخرى دون أن يتخيّل أنه قد بخل بها على شعبه!

ولكن سوء الحظّ الذي رافق وجود هذه السلالة في هذا الوطن القاسي مالبث أن تدخّل هنا أيضاً فتتزامن ثورتهم عندما اندلعت في كل من مالي والنيجر مطلع 1992 مع تنفيذ بنود الكابوس الذي استنزله محفل الأمم على ليبيا بإسم الحصار في هذا العام بالذّات، أدّى إلى شلّ سلطان الدعم التقليدي الذي اعتادت ليبيا أن تهرع به لنجدة حركات التحرّر الوطني عبر العالم في مثل هذه الأحوال، فتضطرّ لأن تتخلّى عن القوم لاسترضاء الغرب علّ التوبة عن مثل هذه الأعمال تشفع للنظام في ليبيا عن الآثام المقترفة في حقّ هذا الغرب، ليعود إلى حظيرة ما يسمّى بأسرة المجتمع الدولي. وبدل أن تجد ثورة أيتام هذا الزمان، بل ويتامى كل الأزمنة، في ليبيا السند، كما كانت مع ثورات تلك المرحلة، لم يجد النظام في ليبيا مفرّاً من الرضوخ للضغوط الغربية ليلعب هذه المرّة دور يهوذا الأسخريوطي ليكسب رضى هذا الغرب على حساب قضية عادلة لشعبٍ عانى حملات التطهير العرقي طويلاً. ذلك أن طبيعة الأشياء هي التي

Twitter: @alqareah

قضت بأن تضحّي الأنظمة السياسية حتّى بالمبادىء في حال تعرّض وجود النظام السياسي لخطر حقيقي، في وقتٍ إنتهز فيه هذا الغرب الفرصة لابتزاز خصمٍ عانده طويلاً بذريعة صارت في تلك الأعوام قميص عثمان ليلوّح به في وجه كل من سوّلت له النفس أن يتمرّد على مشيئته وهو دعم الإرهاب الدولي.

فالإحتكام إلى السلاح عملٌ صيّرته أيديولوجيا الزمان تهمة بعد أن صوّرته وسائل الإعلام بعبعاً لن يعني سوى ممارسة الإرهاب حتى لو كان عملاً لإحقاق الحقّ أو للدفاع عن النفس ضد جور؛ لأن الحقيقة لا تملك إلاّ أن تغترب في عالمٍ تكرّس فيه القيم الأخلاقية لإعلاء شأن النفع فلا يعود كافياً أن ينال المستضعف صفة الضحيّة، ولكن على الضحية أن ترتضي قدر الضحية مرتين، لا مرة. فنحن لسنا مثاليين للدرجة التي تدفعنا لأن ننكر على عالم اليوم أنانيّته التي جعلته دوماً حريصاً على النفع، ولكننا لسنا في وضعٍ يسمح لنا بأن نحسن به الظنّ أيضاً إذا تشدّق بحقوق الإنسان، أو إذا ادّعى حرصاً على توق الأقليات الثقافية للتأكيد على هويّتها المقموعة، لأن التجربة هي التي برهنت لنا مراراً كيف يغضّ ما يسمّى بالمجتمع الدولي الطرف عن انتهاكات فظيعة في شأن هذه الأقليات في حال إقترف هذه الخطايا طرف يتمتّع بامتياز خاصٍ كحقّ النقض في محفل الأمم كأمريكا أو فرنسا مثالاً. وتفويض هذا المحفل لفرنسا بفعل ما تراه مناسباً في كل ماله علاقة بالقارّة الإفريقية ليس عملاً لا أخلاقياً وحسب، ولكنه إضفاءٌ للشرعية على حملات إستعمارية، واعترافٌ

مخجلٌ بهذه العقلية العدوانية البائدة في هويّتها الكلاسيكية المستعارة من مجاهل القرن التاسع عشر. وهو عملٌ منكرٌ بكلّ المقاييس ومهما كانت الذرائع المستخدمة في تسويقه كفزّاعة محاربة الإرهاب مثلاً. ذلك أن المجتمع الدولي المجسّد في محفل الأمم إنّما يُشرعن العدوان حرفياً عندما يقوم بتفويض دولة كبرى ذات نوايا خفية للقيام بحملة إبادة حقيقية ضدّ الأبرياء، كما حدث في مالي عام 2012، لمجرّد أن إرهابيّين إستزرعتهم دولة مجاورة خصّيصاً للتشويش على حقّهم في تقرير المصير تسلّلوا إلى صفوفهم ليفسدوا عليهم هذا الحقّ، لأن السؤال الذي يجب أن نطرحه في وجه هذا التوجّه من قبل محفل الأمم هو: هل نملك الحقّ في أن نخسف الأرض بأمّة كاملة إذا اندسّت في صفوفها حفنة أشرار؟

الكتب المقدّسة في سيرة لوط تجيب بلا بالطبع!

لقد نبّهتُ في بياني الموجّه للأمين العام للمحفل عن طريق بعثته في جنيف إلى خطورة هذا القرار، لأن العناصر الإرهابية سوف تتبخّر كما عوّدتنا دائماً ليدفع الأبرياء الثمن. وهو ما حدث تالياً حرفياً بشهادات المنظّمات الحقوقية العالمية، لأن الحملة لم تكن بهدف القضاء على الإرهابيين إلاّ في العلن، أمّا في الخفاء فهي مؤامرة على هويّة أناس يسعون منذ آلاف السنين لأن يكونوا في أرضهم أحراراً، ولا يريدون من العالم إلاّ أن يتركهم وشأنهم، ويدع لهم وطنهم المسروق من أركانه الأربعة في سلام! مؤامرة بعدّة أضلاع لم تكن

فرنسا فيها سوى رأس الحربة، والشركاء فيها هي حكومات مالي المتعاقبة، وحكومات النيجر المتعاقبة، وحكومات الجزائر المتعاقبة!

وعندما أقول أن فرنسا في هذه المعادلة ذات نوايا خفية، فإنّني لن أستثني الحلف الثلاثي التاريخي ضدّ أمّة الملثّمين المكوّن من الجزائر ومالي والنيجر، لأن هذه الدول الثلاث دأبت على محو هويّة الأمّة باستماتة مدهشة منذ نيلها الإستقلال عن فرنسا. والسبب؟ السبب ببساطة إستعماري، بل وإستيطاني أيضاً. إستعماري للهيمنة على أرضٍ لم تمتلكها هذه الدول الملفّقة أساساً التي لم تملك من مؤهّلات تكوين دولة شيئاً، سيّما مالي والنيجر تحديداً، لأنها تاريخيّاً مجرّد قبائل تستوطن الأدغال. وهو إستيطاني لأن اكتشاف الثروات الطبيعية الهائلة الدفينة في باطن الصحراء الكبرى لابدّ أن يسيّل لعاب عالمٍ جشع لم يشبعه ما وهبته الأرض طوعاً فقرّر أن يأخذ ما أخفته عنه غصباً، وفي سبيل تحقيق عملية الغصب لن يتردّد في أن يقطع دابر إنسان هذه الأرض الذي من الطبيعي أن يعترض طريقه في حمّى دفاعه عن أرضٍ هي في كل الأعراف عِرض! وعلّ من المدهش أن نلاحظ أن حقد دولة كفرنسا على أهل الصحراء الكبرى ثمرة قدر توارثته الحكومات الفرنسية المتعاقبة أيضاً. ولا تبدو نزعة التعاقب هذه في العداء المتوارث خلفاً عن سلف الموجّه ضدّ أهل هذه القارّة الشقيّة لعنة غيبيّة إلاّ لمن جهل أبرز خصلة في واقع هذه المنطقة التي لن تكون لمريد ينشد الحرية سوى العزلة.. العزلة في حدودها القصوى، وفي بُعدها الأقسى أيضاً. هذه العزلة هي التي

Twitter: @alqareah

يسّرت للمعتدي **الإختلاء** بضحيّته منذ حملاته الأولى في النصف الثاني من القرن التاسع عشر. إختلاء حقق للجلاد، منذ ذلك التاريخ حتى اليوم، **الحصانة من القصاص**. ونحن نعلم ماذا يعني الإحساس بالحصانة من العقاب. هذا الإحساس الآثم هو ما يدعو إلى التمادي في اقتراف الجرم في حقّ أهل المكان، بل واستمراء ممارسة هذا الجرم إلى درجة الإحتراف! إحترافٌ يحيل التنكيل سيرة مستمرّة تتواصل لتستقيم في النهاية في مكيدة تتحوّل بالتقادم قاعدة في عرف المعتدي، والإستثناء هو الخلل! أمّا مبدأ التوريث فيغدو، بالتقليد، عملاً من إختصاص الأجهزة الأمنية، تحديداً الشطر السرّي في الأجهزة الأمنيّة، وذلك بهدف تنزيهه ليصبح في سياسة الدولة قدس أقداس. أي ما يسمّى في معجم الساسة بـ**السيادة**. وهو مصطلحٌ إجرامي إبتدعته هذه المؤسسة للتستّر على نشاطاتها المشبوهة، اللاأخلاقية في الواقع، بل والإجرامية، وحجبها عن البعبع الوحيد الذي تتجنّبه مثل هذه العصابات وهو: الرأي العام.

فلكي تضمن الأجهزة السرية كتم أنفاس القوانين في أفعالها الخارجة عن القانون لا تكتفي بوصمه بختم «**سرّي للغاية**» وحسب، ولكنها تطبعه ببصمة السيادة كي يمسي منزّهاً عن الطعن بحيث يعجز حتى أرباب الدولة أنفسهم الذين يصيرون أسرى هذه الأجهزة، ويتّخذون قراراتهم المصيرية بناءً على التقارير الخاضعة لمشيئة هذه الأجهزة، لتغدو سياسة البلاد بأسرها، بما في ذلك قرارات إعلان الحرب، أو الركون إلى السلم، في قبضة تلك الروح الخفيّة المعادية

Twitter: @alqareah

لكل ما متّ للضمير بصلة. ولهذا السرّ يتعاقب الرؤساء على عرش الحكم، ولكن سياسة السلف لا تتغيّر جوهريّاً على يد الخلف. وفرنسا دولة رائدة في هذا المجال بسبب ماضيها الإمبريالي الذي يرجع بتاريخه إلى العهد النابليوني. وهو ما يعني أن نظام الحكم لن يحقّق ثورة في المفهوم الأمني سواء تقلّد منصب الرئيس زعيم اليسار أو منافسه زعيم اليمين، أو زعماء الوسط، لأن محاولة المسّ بهذا الإرث القدسي سوف يعتبر خرقاً للتحريم المعتمد بحرف سلطة معصومة ومنزّهة عن الخطأ وفوق القانون وهي المساس بمبدأ السيادة.

في واقع كهذا من البديهي أن تبقى قضيّة الصحراء الكبرى أسيرة هذا التحريم، لأنّ تاريخانيّتها تجعلها أهلاً لأن تبقى غنيمة هذه الأجهزة الرهيبة، بحيث لا يجرؤ أيّ رئيس أو أية حكومة على كسر الإحتكار وزحزحة هذا الملف من الدائرة الغيبيّة حيث استودعته أيادي كهنة الأزمنة!

Twitter: @alqareah

31

في 2006 قاد العقيد إبراهيم بهانغا إنتفاضة جديدة لاستعادة وطن القوم التاريخي الواقع شمال نهر كوكو، أو ما يعرف بنهر النيجر، أي آضاغ وآير. ولكن القوى التقليدية المعادية تكأكأت لخنق الإنتفاضة في المهد مستعينةً بالنظام في ليبيا أيضاً هذه المرة، مستغلّةً حاجة هذا النظام لتأهيل نفسه للعودة إلى حضيرة المجتمع الدولي بعد خروجه للتوّ من قمقم حصارٍ إستغرق سبع سنوات بسبب أزمة لوكربي. وكان على السيد أبي منيار أن يقوم بلعب دور الوسيط في إقناع زعيم الثوّار بالتخلّي عن السلاح لا ليبرّيء ساحته من تهمة الإرهاب فقط، ولكن ليثبت حسن النوايا في العلاقة مع رؤساء الإتحاد الإفريقي الذين وقفوا معه زمن الحصار وعوّل عليهم في توطيد أركان هذا الكيان السياسي الجديد الذي كان له الفضل في تأسيسه. وهكذا وجدت هذه الثورة نفسها في دائرة مغلقة بعد أن أغلقت ليبيا في وجهها الباب الوحيد الذي كان لها متنفّساً في كل محاولات الخلاص منذ مذابح 1963. ولكن الزعيم بهانغا حاول بإخلاص أن يتمرّد على سوء الحظّ الذي جعل من السياسة الإقليمية والدولية بمثابة لعنة تعترض سبيل القوم نحو الحرية في كل مرّة

Twitter: @alqareah

ليذهب نزيف التضحيات السخيّ أدراج الرياح. وإذا كناّ نأسف عادةً لما يصاحب الثورات من قرابين، لأن الخيبات التي تنتهي إليها الثورات عندما تنتصر لا تعوّض الثمن الباهظ الذي دُفع فيها، بَيد أننا لا نملك إلاّ أن نحزن أكثر لإخفاق الثورات، لأن النكبة آنئذٍ ليست نكبة الأحياء، ولكنها نكبة الأموات، إذْ لا وجود لمأساة يمكن أن تساوي هزيمة الشهداء. والشهداء يُهزمون فقط في حال غياب الثأر. هذا الثأر الذي لا يتحقّق بسبب فشل الثورة كمشروع أخلاقي لاستعادة قيمة إنسانية مغتربة كالعدالة، مما سيدفع السماء لأن تنوح أسفاً على ضياع الحقيقة في عالمٍ بائس ينصّب فيه باطل الأباطيل نفسه وصيّاً على الوجود بلا منازع.

لقد إلتقيت هذا الرجل النبيل، المنتمي لقبائل «فوغاس» النبيلة الممتدّة من غرب ليبيا إلى أزواد، المجبول بروح أسلافه العظماء الذين لم يعبدوا في دنياهم قيمة كما عبدوا الحرية.

إلتقيته مرّة واحدة لأهدي له وصيّة واحدة أخشى اليوم أنها قد دفعت به أشباراً أخرى نحو قدر الشهيد. قلت له: «أن ليس على مَنْ إمتشق السلاح في سبيل أداء الواجب أن يستسلم للضغوط مهما عظم شأن هذه الضغوط. ذلك أن الواجب وحده لا يعترف بحسابات الربح والخسارة. الواجب وحده لا يقيم وزناً للمعادلات أو المناورات التي يحترفها الساسة، لأن نداء الواجب فوق كل اعتبار، لأننا عندما نستجيب له فإننا إنّما نستجيب لنداء الله. وأعلم أيضاً أنّ مَن لبّى النداء واستجار بالجبل ممتشقاً سلاحه، فهو بهذا الإيمان،

Twitter: @alqareah

هو القوّة التي لا تُقهر التي سيخشاها أقوى أقوياء هذا العالم، وهو وحده من يملك الحقّ عندئذٍ في أن يملي شروطه.. لأن من إمتشق السلاح فقد إمتشق صليبه. ومن إمتشق صليبه إمتشق تابوته، إمتشق موته؛ ومن إختار أن يمتشق الموت وحده أقوى من الموت! والأقوى من الموت هو الأحقّ بأنّ يُملي الشروط!».

كنت قادماً للتوّ في ذلك اليوم من غار إغترابي الذي حملته في قلبي وطفتُ به العالم خلال نصف قرن، ونزلت حضيض عالمٍ لم أنتمِ له يوماً، وكنت ملتزماً بأن أرتاده في كل مرّة في طريق حجّي إلى ربوع صحرائي الكبرى. أي إلى ذلك البلاط القدسي الذي لم أخطيء عندما خلعت عليه لقب «وطن التكوين»، لأني برهنت على أحقيّة فوزه باللقب من خلال بياني في لغة اللاهوت. وكان من الطبيعي أن تنتصر نزعة التخلّي في الوصيّة لأن وجودي بين الناس في مثل هذه المراسم الجليلة لم يكن حضوراً بين الناس، ولكنه عبورٌ لحضيض الناس. إنه عَدْوُ العدوسِ في مجاهيل ليل السُّرَى لتأدية فروض الصلوات في محراب حبل السرّة. حبل السرّة الذي هجرته، ولكنه لم يهجرني. ظننت أنّي هجرته مكاناً عندما غادرته، ولكنه تشبّث بتلابيبي ليتسلّل إلى قلبي، ليصير هاجساً في ترحالي، فلا أسكن لمكان ما لم يفزّ ليكون هو فحوى هذا المكان. ليكون الفحوى التي تشحن المعنى في كل الأمكنة التي حللتها من مشارق الأرض إلى مغاربها. إنها ليست مجرّد علاقة وجدانية العلاقة مع الأوطان، ولكن عليّ أن أعاند أوطان الأغراب عبر العالم كي أدرك

Twitter: @alqareah

أخيراً أن علاقتنا بالأوطان أكثر من علاقة وجدانية، لأنها في تجربتي إستعارت أبعاداً غيبيّة. بهذه الروح الغيبيةّ، المهووسة بوطن الرؤى السماوية كمعبود، خاطبتُ ذلك الفارس النبيل، المسكون بالحلم الجميل، إبراهيم بهانغا في ذلك اليوم، يقيناً منّي بأن المعشوقة التي تجسّد لكلينا النموذج لأحجية الحرية، كما هو الحال مع الصحراء، هي قاسمنا المشترك الأعظم، هي همّنا المشترك الأعظم. هي معبودنا المشترك الأعظم! ولهذا السبب خاطبتُه كحميم قديم، وقلت له ما ظننتُ أنه حقّ، في وقتٍ كان فيه شقيقي موسى يجدّف في التيّار المضاد مكلّفاً من الدولة لإقناع الرجل بالتخلّي عن المقاومة وإلقاء السلاح. وهو ما يعني أن سوء الحظّ قد سخّر أعوانه للوقوف في وجه الرجل. وبرغم قسوة الوصيّة، بيد أن عزائي هو أنّي كنت الوحيد في تلك الظروف العصيبة الذي لم يخنه. وقد اعترف بذلك لكل مَن عرف، بل جعل وصيّتي له تعويذةً تباهى بها أينما حلّ، كما بلغني تالياً. وهو ما يعني أنها لم تكن لتستهويه إلى هذا الحدّ لو لم تسكنه عميقاً في الباطن، وكل ما فعلتُه أنّي استطعت أن أستنطقها فيه، لأبوح بها له!

لقد صمد الرجل في وجه الضغوط ببسالة طوال سنوات، وحتّى عندما خذلته الأقدار وفرضت عليه الهدنة فرضاً، إنحنى للعاصفة، ولكنه لم يستسلم. والدليل أنه عاد واستجار بالوصيّة ما أن أتاحت له أحداث فبراير 2011 فرصة التخلّص من كابوس الضغوط، ففرّ برجاله ليتحصّن بجبال أزواد من جديد ليبعث حلمه في الواقع من جديد.

ولكن قوى الغدر، المتمثّلة في سليلة الخيانة المجاورة التي كانت للأمّة دوماً خنجراً مغروساً في الظهر، مالبثت أن اعترضت سبيل البطل لتوجّه له طعنةً في الظهر!

إستشهد بهانغا بمكيدة الغدر، ولكن إستشهاده لم يمنع رجاله من سحق أقوى جيوش إفريقيا، وهو جيش مالي، في ثلاثة أسابيع، ليعلنوا قيام دولتهم على أرضهم ممّا أصاب جنرالات الجزائر بالهلع خوفاً من أن ينتقل الحريق إليهم وهم الذين لم يبخلوا بالمؤامرات على هذه الأمّة منذ وصولهم إلى الحكم في 1962 ليستبعدوا وطناً تلقّوه هبة من فرنسا على سبيل الإرث ليمارسوا في حقّه دور المستعمر الأسوأ من دور المستعمر الأصل، لأن إذا كانت غاية فرنسا من إخضاع الصحراء الكبرى الإستيلاء على الثروات، فإن غاية الجنرالات هي محو هويّة أهل المكان الأصليّين إلى جانب نهب الثروات. وها هم الجنرالات يتسابقون لإحباط قيام دولة الطوارق بكل الدسائس فيسخّرون عميلهم القديم الإرهابي مختار بالمختار، الضابط في جيشهم، لسرقة تضحيات الطوارق والتشويش على حركتهم الوطنية لإيهام الرأي العام العالمي بخرافة علاقتهم بذلك الإرهاب الذي لم تستزرعه الإستخبارات العسكرية الجزائرية في الصحراء الكبرى إلاّ ليؤدّي هذا الدور: محو هويّة أمّة الملثّمين وتأخير قيام دولتهم في وطنهم بأيّ ثمن حتى يستمر إستئثار سلطات الشمال بثرواتهم أطول أمد، وإن أمكن، فإلى الأبد!

32

مفارقة أخرى في شأن العزلة التي إذا كانت مكوساً تُدفع في سبيل الحرية، في يقين الذاكرة التاريخية للقوم، بَيد أنها مالبثت أن انقلبت شَرَكاً إستغلّته القوى المعادية في الإيقاع بالهوية، وفي كل التدابير المتّخذة في سبيل محو الذاكرة الثقافية، بل وتمّ إستخدامها في حملات التصفية العرقية التي لم تتوقّف منذ ما قبل التاريخ ضدّ وطن التكوين الشقيّ هذا، وكل ما قامت به فرنسا الإستعمارية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، بحقّ أمّة هذا الوطن، ما هو في الواقع سوى إحياء للمكيدة المبكّرة المقترفة بيد إمبراطوريّات عالم ما قبل تاريخ العالم كالبونيقيّين واليونانيّين والرومان. وقد جرى إستغلال عزلة الصحراء الطبيعية أبشع إستغلال في كل هذه الغزوات الإستيطانية الممنهجة. ومن الطبيعي أن تواصل إمبراطورية إستعمارية كفرنسا هذا التقليد، لا في المراحل التاريخية الأولى وحسب، ولكن حتى في واقع عالم اليوم الذي لم يعد يحتمل، بل ولا يعترف، بسياسات **التعتيم الإعلامي** في زمن تهيمن عليه وسائل الإعلام مثل زماننا هذا. هذه الوسائل التي تستطيع أن تبرّر قيام مُريد حقيقة إذا أشهر سلاحاً لرفع ظلم، أو انتفض ليستردّ حقّاً فترفعه في نظر الرأي

Twitter: @alqareah

العام عندما تصفه بالثائر، ولكنها توجّه طعنة في الظهر في حال المغلوبين على أمرهم كأيتام الصحراء عندما تصفهم في حملتهم في إسترداد وطنهم المسروق بالمتمرّدين لا الثوّار! إنه التسفيه المهين والمبيّت للقضيّة العادلة، والتزوير المبرمج عن سابق إصرار لإرادة شعب.

فرنسا أيضاً حبكت هذا القمقم بإحكام، وعوّلت عليه بصرامة في تنفيذ كل مخطّطاتها لتبقى حملات الإبادة العرقية الشاملة التي اقترفتها في حقّ هذه الأمّة مجهولةً منذ غزواتها الأولى لتكون لها عزلة القارّة، كمنفى منافٍ، أقوى حليف. ومن المدهش أن يرث عنها حلفاؤها الجدد (الذين لم يكونوا سوى خدمها بالأمس) في مالي والنيجر والجزائر هذه السياسة، بل ويلتزم بها هذا الثالوث حرفياً، هذا إن لم نقل بدائياً، بعد أن أضحى حجب أتفه معلومة في واقعنا اليوم عملاً مستحيلاً، فكيف بحجب عمليات التصفية، وحملات الإبادة الجماعية، التي تعرّض لها القوم في النصف الثاني من القرن الماضي، سيّما في مالي والنيجر، بمباركة فرنسية وتضامن عالمي ضمني مترجم في حرف الصمت المطبق كشهادة على وفاة الضمير الإنساني؟

لقد فضح إنسانٌ نزيه بوحي من واجبه الأخلاقي، وبموجب ضميره الحيّ، مثل العلاّمة الإنتربولوجي جيريمي كينان الذي عاش مع طوارق آهقار منذ عام 1960 سيرة هذا المخطّط الشرّير في مؤلّفاته الكثيرة، ليحطّم قمقم التعتيم، فيجني الإضطهاد مقابل هذه البطولة من عالمٍ يتشدّق بحقوق الإنسان، ويتغنّى بحقّ تقرير المصير،

Twitter: @alqareah

وبالإلتزام بقرارات محفل الأمم التي نصّت في قانون الجمعية العامة الصادر في 2007 المؤلف من 42 مادّة، على حقّ الأقليّات الثقافية والدينية والعرقية في ممارسة شعائرها، وتدريس لغاتها، وتمكين أجيالها من الحياة بحرية في أراضيها، بل وحقّها في تكوين دولة مستقلة ذات سيادة في هذه الأراضي. قانون موقّع من قبل كل الدول الأعضاء في هذا المحفل الذي كثيراً ما ظلّت قراراته مجرّد حبر باهت على ورق أصفر إذا حدث وخالف في أحد البنود مشيئة الدول الكبرى المهيمنة على عالمنا، التي تأبى أن تستوعب دروس القدر الذي آلى على نفسه أن يقتصّ مِن كل مَن سوّلت له نفسه أن يستهين بناموسه فيعبث بقوانين خليفته في الأرض: **الطبيعة!** والدليل لهذه الدول لم يتأخّر. فمنذ تحالفت قوى العدوان لتغييب فرسان المكان، بقطع دابر أهل المكان من خارطة المكان، كما هو الحال مع أمّة الصحراء، تحوّلت قارّة العراء هذه مسرحاً فسيحاً لتسويق ثلاث رذائل مالبثت أن أضحت الوباء المميت في حياة إنسان هذا الزمان وهي: **تسويق البشر**، أو ما يعرف بتجارة البشر، أو الهجرة اللاّ شرعية؛ **وتسويق القتل**، أو ما يسمّى في لغة وسائل الإعلام إرهاباً؛ **وتسويق الإنتحار**، أو ما اعتدنا أن ننعته بتهريب المخدّرات. وها هي الصحراء التي أبت العقلية الإستعمارية الكلاسيكية إلاّ أن تبخل بها على أهلها، فتعمل المستحيل كي تمسح وجودهم من رحابها، تحتضن هذه الأوبئة الثلاثة لتنتقل إلى أوطان الإستعمار نفسها، لنشهد الوضع المأساوي الناجم عن الفراغ الذي أحدثته جريمة

زعزعة إستقرار أمّة، بحيث يضطرّ الناس إلى النزوح عن الأمكنة التي كانت لهم مسقط رأس، الأمر الذي لا يكتفي بأن يكون بمثابة إخلال بالبنية الديموغرافية في خرائط جغرافية، ولكنه كفيلٌ بإحداث خلل في منظومة الكون ذاتها.

وهكذا نجد أنفسنا اليوم شهود عيان على الكيفية التي ينقلب بها السحر على الساحر، ليكون الخفاء الذي لا تخفى عليه خافية هو المخوّل باستصدار الحكم، مبرهناً بذلك على وجوب التكفير عن كل خطيئة أقتُرِفَتْ في حقّ صاحب حقّ أُستُضعِفَ، لأن الخلاص من ثالوث الأوبئة المميت سيبقى رهين مدى إستعداد الجُناة لأن يردّوا الإعتبار للمكوّن الثقافي والبيئي الذي كان بالأمس حارساً على هذا الفردوس، إلى أن اقتحم حرم هذه الخلوة شبح الجشع الذي لا يشبع ليغرّب سليل الوطن عن واقعه الوطني والطبيعي والوجوديّ بحرف العقلية الإستعمارية الحرفية التي لم تخجل من تبنّي هذه النزعة الحرفية في زمنٍ لم يعد يعترف باستعمارٍ يعتنق النزعة الحرفيّة!

لم تقنع فرنسا بتشريد أهل هذه الصحراء النبيلة، ولم تكتفِ بالتصرّف في وطنهم بتقديمه هبة مجانيّة لدخلاء لا يستحقّونه فوزّعته بين هؤلاء حصصاً بالتساوي، ولكنها أبت إلاّ أن تجعله مسرحاً لتجاربها النووية لتقتل الأرض أيضاً، وكل كائنات الأرض، بعد أن انتهت من إماتة أهل الأرض. تجارب إستمرّت منذ منتصف الخمسينيات من القرن الماضي، ولم تتوقّف إلاّ بعد منتصف الستينيات، أي أنها تواصلت في ظلّ حكم جنرالات الجزائر حتى

بعد الإستقلال، ممّا يقطع بسريان مفعول الملاحق السريّة في اتفاقيات الإستقلال حتى بعد نيل الإستقلال بزمن طويل. ولمّا كانت الطبيعة البشرية هي التي قضت بألاّ يتعافى المخلوق البشري من مرض مالم يعترف هذا المخلوق بمرضه، فليس لفرنسا اليوم كي تكفّر عن سيّآتها في حقّ الوطن (الذي ليس ككل الأوطان، لأنه وطن التكوين) إلاّ أن تعترف بخطاياها أوّلاً، ثمّ تقرّ بدفع التعويضات على الأضرار الجسيمة التي ألحقتها بالصحراء، ثم تعيد في الخطوة التالية النظر في سياستها ذات النزعة الكلاسيكية المخجلة إزاء هذه القارّة. وهو مالن يتحقّق بدون كسر إحتكار الدوائر الأمنية الإستخباراتية لهذا الملف الذي ظلّ أسير أدراجها منذ القرن التاسع عشر حتى اليوم. ذلك أن التجربة برهنت كم هي عقليّة عقيمة وخطيرة هذه النظرة الأمنية إذا تأمّلنا الدور السلبي الذي تقود إليه لا فيما يتعلّق بمجال معقّد مثل العلاقات الدولية فقط، ولكن بسبب الأضرار التي تلحقها بسياسة الدولة الداخلية أيضاً، إلى الحدّ الذي نستطيع أن نقول فيه أن النقمة على هذه الأجهزة في واقع المجتمع كان دوماً علّة قيام الثورات ضدّ سياسات الأنظمة القائمة. لأن التغنّي بالديمقراطية سيكون مزحة مثيرة للسخرية في واقع سياسي تتمتّع فيه دوائر معيّنة بالحصانة حتى لو كانت الذريعة في هيمنة هذه الحصانة هي خرافة قدس الأقداس المسمّاة في أدبيّات السياسة: سيادةً!

33

ما لم أتخيّله يوماً هو أن يكون للدرك الأسفل المسمّى في معجمنا الأخلاقي إنحطاطاً، منازل، ومستويات، ودرجات. ولكن يبدو أن دوستويفسكي لم يخطيء عندما نبّه إلى ما يمكن أن يؤدّي إليه إنكار الله في وجودنا الدنيوي الشقيّ. وها هي الحالة الليبيّة الأخيرة ترجمنا بالدليل تلو الدليل في هذا السبيل: سبيل الإنحدار من عرش القيمة المنيع، إلى أسافل جحيم الغنيمة الوضيع.

ففي عالم تهيمن عليه روح الطاغوت، المهووس بالسلطة، لابدّ ان تلفظ العدالة أنفاس النزع الأخير، فتغترب بذلك القيمة، لأن لا حضور للقيمة في واقع تغيب فيه الحقيقة. ومن المهمّ أن نلاحظ الكيفية التي تدهورت بها هذه القيمة، دون أن تكون المراحل كشاهد عيان على هذه السيرة مجال اهتمامنا هنا.

وهو ما يعني أن التنكّر لناموس الهجرة الذي اعتنقته كل ليبيا تقريباً طوال القرون الماضية قد لعب دور البطولة في هذا الإغتراب، ليغدو غياب القيمة بمثابة الدَّيْن المستوجب الدفع ثمناً لخيار تمثّل في حدث جلل كالإستقرار. وكان بالإمكان إحتمال وزر هذا الأمر الجلل لولا القطيعة مع اللقية التي لا تقدّر بثمن في حال التخلّي عن

Twitter: @alqareah

الترحال وهي: **الروح الميثولوجية!** وهي سيرة لابدّ أن تنتهي بعبادة صنم رجيم في رحاب الحبس الجديد وهو: **الأيديولوجيا**، كبديل لطيّبة الذكر الميثولوجيا. ذلك أن الإنسان هو المخلوق الأرضي الوحيد الذي لا يهنأ له بال مالم يعبد في حياته وثناً يكون له تعويضاً عن غياب الله من خارطة الوجود كظاهرة تجريبيّة.

فالأيديولوجيا هنا هي تلك السعلاة التي لم تكن لتصير في الواقع الجديد قطباً لولا الحاجة لتلك البدعة التي صارت ضرورة لا سبيل لتجاهلها، والناتجة عن واقع جماعي يتلاحم فيه الإنسان مع أخيه الإنسان في حيّزٍ ملزوزٍ كبيت النحل، ألاَ وهي: السياسة!

فهل بوسع إنسانٍ سجينٍ كهذا أن يجد مفرّاً من تسليم زمام أمره لسلطانٍ هو إبليس بكل المقاييس كي يحقّق العهد الذي سيكفل له الحدّ الأدنى من حريّة هي، منذ الإستسلام لمارد المكان، فردوسٌ مفقود؟

كلاّ، بالطبع. فهنا، في هذا المفترق، تبدأ مسيرة رحلة من جنس آخر. رحلة في الوجهة المضادّة. رحلة من رحاب القيمة المجبولة بروح الناموس الميثولوجي المدجّج بألف جناح، نحو الحضيض الملطّخ بأحطّ أنواع الدنس. فإذا تدخّل سلطان لا يقهر كالزمان، فإن فرص الخلاص تتضاءل كل يوم أمام طريد هذا الفردوس في واقعه الجديد الذي تستأسد فيه روح جديدة هي منذ الآن شريعة هذا الواقع الجديد، وهي: الغنيمة! الغنيمة كنتاج طبيعي، **لأن النفع** يصير هو عملة التعامل اليومي. نفعٌ لا يتحقّق بدون تسييس حرفيّ للواقع

المتلاطم بأهواء سوادٍ انقلب بقدرة قادر سواداً أعظم، ونزعة التسييس مبدأ لا يمكن تسويقه بدون تزكية، بدون حجّة، بدون منطق، فتنتهز الأيديولوجيا الفرصة. تهرع الأيديولوجيا لنجدة مريد النفع، وتقدّم له صولجان السلطان على طبق من ذهب. وكلّما تمكّنت الأيديولوجيا من قطع شوط أبعد في تدجين إنسان الإستقرار، كلّما اختنق صوت الميثولوجيا في حياة هذا الإنسان، على أن يتحوّل مع الوقت مِسْخاً يتغنّى بالطاغوت ربّاً، وبربيبته الأيديولوجيا ديناً.

بغياب الميثولوجيا من الوجدان، ينحسر سلطان القيمة، فيتضعضع الإحساس بالجمال، ويكفّ الضمير عن التغنّي بالعدالة، وتجفّ الينابيع الخفيّة التي تحرّض على ممارسة الحرية التي كانت عزاء إنسان أعزل ووحيد في بحثه عن الله، في وجودٍ هو بغياب الله، يقيناً، صحراء!

فما لم يتخيّله الإنسان الذي استجار بما نسمّيه عمراناً أو حضارةً، هو أن يجد نفسه طريد فردوس بعد أن كان يمنّي نفسه (عندما اختار الإعتصام بالدور القابعة وراء الحصون الواقعة وراء الأسوار) أنه يغتنم الفردوس، كما لم يتخيّل أنه بهذا العشّ سيجد نفسه طريح منافي، وطريداً من رحاب الرحمن، مغرّداً خارج سرب الملائكة الذين لا يرتضون بغير الميثولوجيا ديانةً، بعد أن كان في سعيه عبر دروب الحرية يحمل في أعطافه بيته، فلا يكتفي بالبيت، ولكنه يحمل في قلبه الوطن أيضاً.

بسبب هذا اليقين المتخفّي خلف قناع الإستقرار ظلّت القبائل

الليبية القديمة تحرص على ترك مسافة لا تقلّ عن مسيرة خمسة أيام بين شرك السواحل الذي يغوي بالإستيطان، وبين الدواخل التي تستدرج إلى الترحّل. ولم تتنازل لتنزل الأحاضيض إلاّ في تلك المراحل التي أعقبت إنهيار الإمبراطورية الرومانية، لتبدأ بعض العوائل في ارتياد السواحل لتحيا استقراراً ظلّ قلقاً ومشوّشاً، ولم يكن إستقراراً أصيلاً إلاّ في المراحل التاريخية التي سبقت غزوات الفتح الإسلامي بأمدٍ قصير، فلا تتأصّل نزعة الإنتماء إلى هويّة الجدران إلاّ في زمن الإحتلال العثماني منذ ما يزيد على الخمسة قرون مضت.

فالنزعة السائدة لأزمانٍ طويلة لابدّ أن تعتنق وصايا مريدي الهجرة الأسلاف القائلة بإمكان إرتياد ما وراء الأسوار لقضاء الحوائج، ولكنها تحذّر بصريح العبارة إحتراف المقام في الواقع المتحصّن بالأسوار. ذلك أن طبيعة الأشياء هي التي قضت بأن تكون سليقة البريّة طاردة، في مقابل أن تكتسب سليقة العمران جاذبيةً، لأن كل مبدأ نبيل عسير المنال، في حين يبدو كل مبدأ وضيع أيسر منالاً، لأن كل ما هو مرذول في المتناول، أمّا العفاف فأبعد منالاً. ولهذا السبب صار العمران في طريق الفريق المهاجر شَرَكاً يستدرج بصنوف الإغواء، في وقتٍ كانت فيه البريّة دوماً خشبة صراع الفرد مع النفس على نحوٍ أكثر تراجيدية من صراع هذا الفرد معّ العالم، مادام النصر الحقيقي هو النصر ضدّ هذه النفس كما تتّفق كل الثقافات.

ولهذا السبب أيضاً نستطيع أن نستصدر في حق القطبين الحكم

القائل بأن إنساناً هاجر طويلاً ثم استقرّ سيغدو أرذل نفساً من قرينه الذي استقرّ طويلاً ثم قهر ضعفه فهاجر، لأن إسم الموقف الأول إذا كان سقطة، فإن موقف النموذج الثاني بَعْثٌ من سقطة!

وهو ما يعني أن الإنزلاق في سلّم الهاوية محكومٌ ببساطٍ خبيث الإستسلام فيه أقوى من المقاومة، والخمول أفتن من الإستنفار، والإسترخاء أحبّ من الإنضباط، والترف أعظم سلطاناً من التحليق في سماوات التخلّي. وكل ما يعين في قتل القيَم التي تتغنّى بها الميثولوجيا نسيجٌ محبوكٌ بإتقان في واقع العمران المعادي لكل ما متّ بصلة للناموس الإلهي إلى الحدّ الذي يدعو قدّيساً مثل أوغسطين لأن يخلع لقباً مهيباً مثل «القبيلة الإلهية» على الفريق الراحل، في مقابل «القبيلة الدنيوية» على الفريق القارّ، لأن الهَوَس بالترف من الطبيعي أن يؤدّي إلى احتراف النفع. والنفع ورمٌ لا يكتفي بأن يكون آفة للقيمة، ولكنه الطاغوت الذي لا يتردّد في أن يميت الضمير ذاته في حملته المسعورة نحو الهاوية.

فالتخلّي عن الهجرة والإنطلاق صوب الجدران دوماً هزيمة منكرة، لأن اللجوء إلى العمران هو حرف أول في أبجدية كل إنحطاط. والبراهين تهديها لنا تجربة الجنس البشري بالمجّان. فها هو جيش هانيبال الأسطوري يُهزَم لأول مرّة في تاريخه بعد بياته الشتوي المشئوم في مدينة «كابويا» لتكون تجربة المقام داخل جدران العمران لبضعة أشهر فقط سبباً في وضع النهاية لبطولات هذا الجيش الذي لم يحرز نصراً بعدها أبداً. وها هم العرب يُهزمون في رحاب الأندلس بعد أن ارتووا من مياه الإستقرار المسمومة. في حين لم

يفلح أقوى جيش في العالم وهو جيش قيروش أن ينال من إرادة أمّة السكتيّين المستجيرة بالرحيل، فأنزلت به الهزيمة، بدل أن يستنزل بها الهزيمة كما فعل بكل أمم العالم القديم، بل استطاعت أن تستنزل القصاص بحقّ قيروش الأسطوري شخصياً لتلقّن البشرية الدرس الذي يقول أن البطولة الحقيقية التي لا تقهر ليست في الجيوش، ولكنها في الشجاعة المستعارة من الحرية. فمريد الحرية وحده المخلوق الذي لا يقهر. والحرية سليلة التخلّي، ولكنها في عداء مع المِلْكيّة.

هذا هو سرّ ثراء التجربة الوجودية البريّة، فيما إذا قورنت بقرينتها العمرانية، لأن ما لن ينكره أحد هو ذخيرتها الروحية المستوحاة من سليقة ميثولوجية نصّبت كل أهل الترحال ملّةً شعرية، الملاحم في سيرتها هي رأس مال الذاكرة الأخلاقية الذي لا يكتفي بأن يكون في الركب عزاءً، ولكنه يختزل الفحوى في رسالة تؤكّد على البُعْد الغيبيّ لمبدأ الرحيل بدليل أن كل الأعمال الملحمية تحرّض على هذه المغامرة، لتكون بذلك بمثابة الرسول الذي مهّد لميلاد كل الرسالات الكبرى التي بشّرت بالثورة على قبيلة قابيل التي ركنت إلى الأرض، وارتضت الذلّ ديناً.

فالإغتراب عن القيمة في واقع العمران وليد النزعة النفعية. بل وليد منطق الإستقرار الذي يربّي الأجيال على عبادة وثن النفع لينتهي الأمر بالجميع إلى اتّخاذ الملكيّة ربّاً من دون كل الأرباب بوصفها الظمأ الذي لا يرتوي أبداً. والممالك عندما تحبك خطط الإيقاع بأهل الرحيل لتدفع بهم إلى حبوس العبودية أفواجاً، فإنّما تعتمد في

Twitter: @alqareah

مكيدتها على إغرائهم بفردوس مزوّر هو الملكيّة، مقابل التخلّي عن فردوس حقيقي هو الحرية. وكلّ ما سوى هذا الكنز فهو دُمَى غايتها دعم هذا الحطام، ومملكة ليبيا التي شهدت النور في مطلع خمسينيات القرن الماضي لم تكن لتكون في القاعدة استثناءً. وها هي تعتمد السياسة اللئيمة المعنونَة في أدبيات تلك المرحلة بـ«خطط توطين البدو» لترصد في سبيل وضعها موضع التنفيذ كل الأموال في عهدٍ حرج كانت فيه هذه الدولة الوليدة هي الأفقر على مستوى العالم. ولكن الفقر لم يحُل دون أن تنفق القسط الأكبر من الأموال التي تسوّلتها من مختلف الدول على خطط إستدراج أبناء القبيلة الإلهية (كما يلقّبها القدّيس أوغسطين) لجرّهم إلى حضيض القبيلة الأرضيّة، إيماناً من الكهنة القائمين على أمر الممالك بأن الملكوت الأرضيّ لن تقوم له قائمة ما لم تكن له فلول ملكوت الربّ، التائهة في البراري، بمثابة قربان!

فالمِلْكيّة اشتقاقٌ من المُلْك، كما المملكة إشتقاقٌ من المُلْك، أي أنهما يشتركان في الطبيعة الظامئة إلى امتلاك الأرض، لا لخلافة الله في الأرض، ولكن للإستيلاء على صلاحيات ربّ السماوات والأرض. ولن يهنأ لأصحاب الممالك بال ما لم يمتلكوا أهل الأرض أيضاً إلى جانب كوكب الأرض. وما سياسات التوطين سوى استجلاب المزيد من الرعايا وحصرهم وراء الأسوار ليكونوا رعايا، أي عبيداً، بعد أن كانوا أحراراً في تنقّلهم وهم يتغنّون بقيمهم في الأشعار.

وقد استمرّت حمّى توطين أشقياء الأمّة طوال العهد الملكي إلى أن لفظ هذا النظام أنفاس النزع الأخير على يد العسكر الذين ورثوا هذه النزعة، ليعملوا على تنفيذها بحماس أكبر، تجلّى في سياسة المشاريع الزراعية التي التهمت ميزانيات كاملة طوال السنوات التالية بوسيط نهم هو الشركات الأجنبية. ذلك أن مُلك الممالك لن يكتمل ما لم يتحوّل كل ما تحت قبّة السماء ملكيّةً. أمّا مُلك العسكر، المسلّحون بما هو أسوأ من الأسلحة وهو الأيديولوجيا، فإن ملكهم لن يكتمل ما لم يتحوّل كل ما تحت السماء إلى عبيد. ولهذا السبب كانت الحمّى في التهام حرية الفئة الوحيدة الباقية قيد الحرية أشدّ وطأة في حقّ القوم، وأسوأ مفعولاً في حقّ الهويّة التي يعتنقها القوم.

هذا الوضع من الطبيعي أن تغيب على الأغلبية نواياه الخفية، على الرغم من أنه لم يغب عن إنسانٍ مثل صادق النيهوم الذي صارَحني مبكّراً بخطورة هذه السياسة واصفاً إيّاها بالفخّ المدبّر لإنهاء حرية أمّة لم تفرّ إلى أبعد الصحاري وأقساها طبيعةً إلاّ للإحتفاظ بهذه الحرية المهدّدة من أنظمة تسعى لتحويل الكل إلى قطيعٍ مطيع بدعوى تلبية نداء الحداثة، والإستجابة لضرورة تمليها مشيئة العصر التي حثّت الجميع على المشاركة في المأدبة المترفة التي تنتظرهم بدخول بوّابة هذا النعيم المنتظر، دون أن يتخيّلوا بالطبع أنهم إنما ينساقون وراء ذلك الزائر المريب الذي تقول أسطورة القوم أنه سيأتي يوماً ممتطياً ظهر الأتان، مدجّجاً بالكنوز التي تعمي الأبصار، داعياً إلى السير في ركابه للمشاركة في الوليمة الخرافية، فيتسابق خلفه

Twitter: @alqareah

ضعاف النفوس ليجدوا أنفسهم على بساطٍ وثير لا يلبث أن يقوم اللئيم بسحبه من تحتهم ليتهاووا في بئرٍ بلا قاع!

من حقّ شاهد العيان على عهود الوطن الثلاثة أن يدلي بتصريح الإدانة من موقع مَنافيه الكثيرة عن الكيفية التي تدحرجت بها الجوهرة الأخلاقية الحاوية لوصايا الأسلاف، لتندفع من شعاف القمم بسرعة جنونية عبر السفوح، حتّى تنحطّ في الحضيض، لتتلطّخ بالنفايات، فلا نعجب أن نرى، في واقعٍ كهذا، المسوخ المتنكّرة في أقنعة فرسان، لا تكتفي بقتل الوطن في سبيل الإستحواذ على الغنيمة، ولكنها تأبى إلاّ أن تقتل الوطن بعد إغتيال سليل الوطن، وإلاّ ماذا نسمّي أن يقوم من يدّعي أنه جاء لينقذ الوطن برفض الإمتثال لإرادة أبناء هذا الوطن، فينصّب نفسه بسلطان السلاح نائباً في برلمانٍ منتهي الصلاحية رغم أنف الوطن ومواطن هذا الوطن؟ وماذا نسمّي أن يفرّ البرلمان كبديل إلى أقصى الشرق لينجو بنفسه من بطش العصابات المسلّحة التي مكّنها دعيٌّ آخر جاءت به الحظوظ العمياء رئيساً لأسوأ حكومة عرفها تاريخ الحكومات ليصرف في عام ميزانية فلكية تعادل ميزانيات هذا الوطن الشقيّ والثريّ في آنٍ منذ الإستقلال ليبرهن الرقم الخرافي (الذي لم يُصرَف منه سنتاً واحداً على الشأن العام) على إنجاز أكبر عملية سطو في تاريخ المال العام؟ وإلاّ ماذا نسمّي أن يستميت رئيسا البرلمانَين في العداء، فيرفضان كل وساطات العالم في سبيل إتفاق ينهي نزيف الوطن المثخن بالجراح، حتى إذا توصّلت بعثة محفل الأمم إلى اتّفاق يستثني هذين الطرفين من

القسمة، يفاجأ العالم بهما وهما يهرعان إلى بلد محايد ليتعانقا ويتحاضنا خوفاً على فقدان سلطتيهما على الرغم من فقدانهما كليهما للشرعية، بعد أن انتهت ولاية البرلمان الثاني أيضاً منذ زمن؟ ماذا نسمّي أيضاً قتال سفراء هذا البلد البائس لدى الدول الأجنبية الذي نشب بين مَنْ انتهت مدّته فيرفض أن يسلّم المهام للزميل المعيّن كبديل، تيمّناً بالبرلمانين المذكورين، كأنّ السفارة ملكيّة شخصيّة مُنحت له بفرمان غير قابل للنقض على سبيل الهبة، فيكون السفير لدى دولة كسويسرا النموذج الأسوأ في سيرة هذا العار، لأنه رفض قرار وزير خارجيّته ليهرع إلى السلطات السويسرية مدّعياً تبعيّته للطرف المضادّ، ليضمن بقاءه في المنصب، ولم يرضخ أو يستسلم حتّى للقدر عندما ابتلاه الأخير بالشلل ليجد نفسه في كرسيٍّ متحرّك عيّن له أربعة دبلوماسيين للتنقّل به والوقوف على خدمته، ثم أضاف لهذا الموقف المخزي صرعةً جنونيّة أخرى عندما خذله القدر وعطّل فيه اليدين بعد القدمين، فما كان منه إلاّ أن استدعى قريباً له في إفريقيا ليقوم بدور القلم الذي يوقّع المراسلات بالإنابة عنه بعد أن أعجزه الشلل حتّى عن التوقيع؟

ماذا يمكن أن نسمّي كل هذه الحصيلة إن لم تكن ترجمة أمينة لأدنى درك في سلّم الإنحطاط الأخلاقي الذي ابتليت به ليبيا يوم أراد لها شرفاؤها الخلاص، فإذا بالأشباح التي لفظها المجهول تقتل أحلامها، وتستنزل في حقّها القصاص؟

Twitter: @alqareah

34

في سنوات الدراسة بمعهد غوركي كنّا نجتمع في بيت اتّحاد الأدباء الواقع بالقرب من موقع المعهد بشارع غوركي، لتناول طعام الغداء بعد الخروج من المعهد، وقد يتواصل اللقاء في العشاء سيّما في فصل الشتاء، حيث تختنق النهارات، وتظلم دنيا الشمال اعتباراً من الساعة الثالثة ظهراً، وقد ننتقل من هناك إلى أحد المطاعم في شارع كالينين، في حال طاب لأحدنا أن يختلق حُجّة للسهر كأن يخترع عيد ميلاد، أو أية مناسبة تصلح مبرّراً لما يسمّيه البروفيسور غالانوف نائب عميد المعهد «حرق الحياة» للتعبير عن طيش الشباب واستهتاره بكلّ ما يتعلّق بأنفس هبة دشّنتنا بها الطبيعة وهي الجسد.

في مثل هذه السهرات التي يحتدّ فيها الجدل حول الأدب التي يهرع فيها الأب الروحي دوستويفسكي ليكون الشريك الأبدي الثالث في كل حلقة تتكوّن من طرفين، يروق بعضنا أن ينتهز الفرصة ليستجدي مفتاحاً يصلح لزحزحة موقف استغلق في نصّ قصصيّ أو روائيّ، أو مسرحيّ أو حتى شعريّ. وأذكر في إحدى هذه الجلسات أن صديقي الروائي الداغستاني راسيم وجّه لي سؤالاً حول موقف في نصّ كان يعانده ولم يجد له حلاً، ممّا دفعه لأن يتوقّف منذ أسابيع

Twitter: @alqareah

في انتظار أن تجود عليه ربّات الإلهام بالقبس الذي سيبدّد الظلمة ويحرّر الأسير من الشرك. وهو وضع كان لنا جميعاً نقطة ضعف في زمن البدايات، لأن التجربة لم تعلّمنا بعد السرّ الأول في أبجدية أي عمل سردي الذي يقول أن إتقان فكّ طلسم العقدة، في النصّ، رهين إتقان عقد العقدة. وكلّما كنّا أكثر شجاعة في الجود بالعقد، كلّما انفتحت في مسيرتنا الأبواب وعثرنا على مفاتيح حلّ العقد أكثر. ولكن تلك مبارزة تتطلّب بطولة لا نملكها في بداية عهدنا بعالم مازال في تجربتنا تحدّياً، بل ومغامرة خطرة حصدت أرواح مريدين كثيرين قضوا نحبهم انتحاراً. والسيد راسم الذي وقع في الفخّ الذي نسج خيوطه، ولم يقرأ له حساباً في خطّة مسبقة لابدّ أن يجني في نهاية الشوط يأساً، لأن الوصية تقول أن البندقية التي نقول في بداية السرد أنها معلّقة على الجدار، لابدّ أن نبرّر وجودها بأن تطلق رصاصة في نهاية النصّ، وإلاّ لن نضمن أن نتلقّى نحن هذه الرصاصة إن لم نفعل!

والسيد راسم كان يواجه فوهة هذه البندقية إن لم يجد سبيلاً يجعل الرصاصة تنطلق في الإتجاه الصحيح، أي بعيداً في الإتجاه المعاكس. وها هو يجاهد في سبيل النجاة عندما وجّه لي سؤاله الذي يقول: «ما هي الجملة الأولى، في رأيك، التي يجب أن ينطق بها إبنٌ ضالّ بعد عشرين عاماً من الغياب عند مثوله في حضرة الأب؟!».

لقد تخيّلت موقف ذلك الإبن بوضوح لدرجة أنّي رأيت نفسي

Twitter: @alqareah

مكانه. وكان عليّ أن أعترف لصديقي راسم بحقّه في أن يقلق، بل وأن ييأس. ذلك أن المنطق لا يعجز، وعضلة مسمومة كاللسان لا تخون مواهبها الشيطانية فتتعطّل إلاّ في حالين: حال يغترب فيه الإنسان عن أخيه الإنسان، وحال تكون فيه الفحوى ملغّمةً بأمرٍ جلل أعظم شأناً من الكلم. وأعتقد أن حضور الإبن في حضرة الأب بعد ضلال عقدين من الزمن إنّما يجبّ في جوفه كلا هذين البُعدين. فالغياب إذا كان سببه الضلال لا يعود الزمن عامل فراق بين هذين القطبين الوجوديّين الخالدين كما هو الحال مع الإبن والأب الحاملين لبُعدين جدليين قضت الطبيعة بأن يكون أحدهما أداة نفي للبعد الآخر، بالقدر نفسه الذي قضت فيه بأن يكون له في الأرض خليفة. وهو ما يضيف للقاء الطرفين بُعداً دراميا مبثوثاً لا في الضلال بصفته خلافاً حول مسألة ذات صلة بحطام الدنيا مثلاً، ولكنه بهويّة الضلال كتمرّد على سلطة أب هو بكل المقاييس ربّ. أي بوصفه تجديفاً في حقّ مبدأ يريد أن ينتزع صلاحياته تلبيةً لناموس الطبيعة التي قضت له بالخلافة. وهو ما يعني أن الضلال في هذه الحال جرم أخلاقي، بل خطيئة دينيّة، من جانب، ولكنه حقّ مشروع إذا حكّمنا في المرافعة ناموس الطبيعة. أي أن الصراع منذ الآن سيستعير صيغة أكثر درامية تتكلّم فيه الكينونة بلغتين مختلفين: لغة الأب، الناطق بلغة الرب، الذي يملك، ولكنه لا يحكم، لأنه سليل حرية؛ ولغة الإبن، الناطق بلسان الطبيعة كأمّ رسالتها أن ترث الأرض فتحكم بالإنابة عن الربّ

في كل ما يتعلّق بشئون الأرض. فأي حلّ ينتظر روائيّ سجن نفسه بحسن نيّة وراء قضبان هذه الأحجية؟

هل يجدي أن يهيمن بين القطبين الصمت؟ الصمت لن يجدي طويلاً لأن العقدة تستدعي حلاً جذرياً بفحوى ذات شقّين: غيبيّ وأرضيّ. فالإبن لا يعود إلى رحاب الأب ليستغفر الأب مهما تظاهر بذلك، ولكنه في الواقع يعود لينتزع تاج العرش. يعود ليستعير الصلاحية. يعود كي يستعيد الصولجان. أي أنها ليست عودة التائب الذي يستجدي الغفران، ولكنها في العقل الباطن ترجمة لتحدٍّ، ونيّة مستترة لتنفيذ جريمة قتل الأب!

في هذا الموقف المزموم من الطبيعي أن تخذل اللسان فروسيّته المعهودة فيفقد القدرة على الخطاب، لأن القطبين سيتكلّمان لغتين مختلفتين فيما لو قرّرا أن يتبارزا بلغة الواقع الأرضيّ الذي يرفضان الإعتراف به، من هنا لا حيلة لتخفيف حدّة التوتّر إلاّ بتدخّل ذلك الوسيط الواقع في بُعْدٍ بين السماء والأرض، كأنه رسول صلح بين سلطانين: الروح والجسد، الربّ والطبيعة، كما هو الحال مع ذلك المبدأ الذي تجاهلناه زمن طيشنا، فيمهلنا برغم أنه لا يهملنا، ألاَ وهو: **المناخ!**

لقد اقترحت على زميلي الداغستاني في حل ورطته الروائية أن يلتجيء إلى المناخ، لأن الأجواء، أو حال الطقس، هي الجملة التي نردّدها في حياتنا اليومية كأنها تعويذة لطرد الأرواح الشريرة، فتتبوّأ عرش ألسنتنا، دون أن نعي حقيقتها، دون أن نتأمل فحوى رسالتها،

Twitter: @alqareah

مثلها مثل الهواء الذي لا نستطيع أن نستغني عنه لحظة واحدة، وبرغم ذلك ننكر وجوده، ولا نعترف به سلطانا، ولا حتى شريكاً، في حياتنا. فحال المناخ، أو الخوض في أحوال الطقس، هو قارب النجاة في حال تقابل التنّينَين المتربّصَين ببعضهما البعض والمكافحين في سبيل إخفاء النوايا ضدّ بعضهما البعض.

وأذكر الآن كم هلّل السيد راسم لهذه اللقية، حتى أنه فزّ ليعانقني مكافأةً لي على الإنجاز، دون أن أدري آنذاك أنّي لم أكن لأفلح في اكتشاف كلمة السرّ التي صرعت تنّين طيبة لو لم يكن لي جناب المناخ هاجساً منسيّاً، ولكنه ما لبث أن انتزع لنفسه دوراً بطولياً في سيرة السُّرَى تالياً، فأمهلني شوطاً، ولكنه ذكّرني بحضوره في حياتي في عودتي الثانية إلى بيئة الشمال التي يحتلّ فيها هذا المارد عرش السيادة في ألسنة الناس. فهو إذا كان النبوءة في الحوار الملغّم بين الأب والإبن، فإنه لن يتردّد في أن يخذل العدوس في سيرورة السُّرى، مستعيناً بحليفه الزمن في الحملة لتغريب الروح عن واقعها البيئيّ. فالإنسان بالفطرة حيوانٌ شيمته التطرّف. يكفي أن نترصّد مسلكه في حمّى استسلامه لملاحقة طرائده الدنيوية كي نكتشف مدى اغترابه هن محيطه ككائن طبيعي. وتكتسب الظاهرة بعداً مركّباً في حال السرى في ليل الوجود لأن الإغواء في هذه الحال يتضاعف ليستدرج بحميمية لا تقارن إلاّ بالغيبوبة الوجدية التي ترافق الإنقياد وراء الطائر الذهبي الذي تروي أسطورة الطوارق كيف يغري الصغار بألوان ريشه ووعده اللعوب كي يقودهم إلى التيه. ذلك أننا لا نحتمل أن نحيا دنيانا إذا غابت من دنيانا الدمية. وأولئك الذين ينوون إماطة

Twitter: @alqareah

اللثام عن فحوى الكينونة أمثال العدوس ليس لهم إلاّ أن يحيوا سيرة السلف الأول، فيتسلّلوا إلى البستان ليلاً ليقطفوا من شجرته فاكهة التحريم، لتكون لهم في مغامرتهم الإغترابية دمية تصلح تعويذة ضدّ أهوال السبيل. ولكن الخطر في سلطان السيرورة الوقتية على الذاكرة، بحيث تمحو الدوّامة الدنيوية بصمة الهويّة الطبيعية المبثوثة في قيعان الذاكرة، لتخلي المجال لطريدة تستعير منذ الآن هوية معبود، كي تستبيح الوضع وتهيمن على الموقف. هنا يضطرب الكيان بالإغتراب عن الأمّ، ويغدو الحلم هو الفرار في طلب الأب المفقود الذي يسكن البعد المفقود. يختلّ الإنسجام، لأننا ننكر حقيقتنا ككائنات هي قبل كل شيء طبيعية، في حمّى رقصتنا الجنونية لاكتساب هوية ثقافية. ولا نستيقظ من غفلتنا إلاّ بعد أن ينفذ صبر أمّنا الطبيعة فتستصدر في حقّنا حكم القصاص.

نكتشف بعد فوات الأوان أننا توغّلنا في بحر الشيخ سانتياغو أكثر مما ينبغي، لأن قراءة الخير والشرّ استهوتنا، ونسينا لغة كتاب الطبيعة، بدل أن نقيم التوازن بين العالمين، كما يقضي ناموس الأشياء. ففي العودة الثانية إلى موسكو اضطرّ العدوس أن يصلح ما أفسدته مغامرته الأولى عندما استدرجته دمية مغرية إسمها المعرفة، ليعود من رحلة أوليس تلك مثخناً، مثل شيخ همنغواي تماماً. يعود مريد السرى مثخناً بجراح الجسد أيضاً إلى جانب جروح الروح، ليكتشف أن كل حرفٍ في واقع دنيا الباطل يميتُ، إلاّ حرف الطبيعة فهو وحده كالروح لأنه يحيي.

فناموس الصفقة هو الذي حتّم أن تستدرجنا هذه الجنيّة بفنون

Twitter: @alqareah

الإغواء، لا لتلقّننا درساً، ولكن لتجيرنا من درس. لترحمنا، لتحمّمنا، لتحرّرنا، ولتحصّننا أيضاً بصفتها الملاذ الأكثر أماناً في شَرَك الوجود. تهدهدنا، فتوقظنا من غفوتنا، لتبعثنا في العَوْد الجديد، إيماناً منها بأننا لا نحيا خالدين فيها أبداً مالم تباركنا في بطنها، مثل البذار، فتنفخ فينا من روحها، لتلفظنا من جديد، تلبيةً لنداء سليقتها التي قد تتحوّل، ولكن هيهات أن تفنى.

من هنا كان التحدي يولد في كل مرة استجابة لوجوب القرار الشجاع الذي نلغي بموجبه حضوراً في المكان، لنحمل مكاننا معنا فراراً من واقع بيئيّ لا يتردّد في إنكارنا بحكم شفرات النشأة الجنوبية الأولى، والويل ثم الويل لمن أخفق في قتل الحنين إلى الأمكنة وغنائم الأمكنة، لأن ذلك سيعني شطب حضور بجرّة قلم. إسقاط وجود من الحساب. استنزال نصل على الرقبة. قبول بقدَر الضحيّة. السعي طوعاً إلى المقصلة. أسماء مختلفة لفحوى تلهج بحكم مستصدر من الطبيعة مبثوث في حرف أحجية غيبيّة لا أدري لماذا نسمّيها مناخاً. لأن المناخ هنا مجرّد رسول في الأنشودة: أنشودة حوريات الصمت الناطقات بإسم أرجوحة التكوين الأولى في حفل انتصارها على سلطان الغمر لتكون لنا يابسة لولاها لما كان الوجود. أنشودة بنبرتين: نبرة شجيّة لاستدراج السليل الضالّ لأحضان الأمّ الصحراوية التي أنكرها في حمّى استسلامه لحملة السُّرَى، ونبرة أخرى أشجى تترنّم بنداء الحرية. حرية خرج مريد السرى في طلبها ذات يوم ظنّاً منه أنها لقية تسكن في مكانٍ مّا من أرض الله الواسعة، ومالم يخطر له على بال أن هذا الطلسم الفتّان إذا سكن المدى

Twitter: @alqareah

يوماً، فلن يكون سوى المدى الذي تنكّر له يوم انطلق في مباراة السرى، لأننا معجونون من طينة أوطاننا، لا من طينة أية أوطان أخرى. وعندما نسكنها فهي أيضاً تسكننا. وعندما تسكننا فإن الحرية أيضاً تسكننا. وعندما تسكننا الحرية، فإن حميمتها الحقيقة أيضاً ستسكننا. والدليل الذي يتوجّع بوخز مهماز المناخ، ما هو إلاّ ترجمة لخطاب الأرض الذي تتغنّى به حوريات السكون الصحراوي بصمت يفوق كلّ صوت. صمت ينطلق بنداء الحرية في حدودها القصوى.

ذلك أن الثقافة إذا كانت تقنّن مبدأ كينوني رهيب كالحرية، فإن الطبيعة، كمبدأ أوميّ، لا تعترف بمفهوم للحرية غير حريّة الأبعاد القصوى، أي: **الموت!**

Twitter: @alqareah

35

كما لا نضع عادةً أيّ اعتبار للموت في مقتبل العمر، ليقينٍ غيبيّ خفيّ بأننا نحيا إلى الأبد، كذلك لا نحسب حساباً لبليّة إسمها المرض، ليقيننا بأن العافية حقٌّ مكتسب بالطبيعة، والمرض في معادلة وجودنا ليس سوى ضيفٍ طارىء بلا وجه حقّ في أن يقيم. ذلك أن غياب الإعتراف بالموت، إذا كان ترجمةً لتلك المرحلة من العمر التي نسمّيها شباباً، فإنّ إنكار المرض يصير في حياتنا طبيعة ثانية، بحيث يستقيم الوجود في سيرة شعرية رومانسية لا نلبث أن نخلع عليها لقب الحرية. حرية تدفع بنا في أحضان متاهة تبدأ بترويض الأحلام، فنغرق طويلاً في حرب تحقيق الأحلام لنكتشف بعد فوات الأوان كم كنّا بلهاء، لأن الوَجْد بالأحلام أفيون يقود بعيداً، وأرذل ما يستطيع أن يفعله بنا في لهاثنا خلف الإغواء هو أن يغرّبنا عن الطبيعة الأمّ. أقول بعد فوات الأوان، لأن التجربة الدنيوية ناكرة إحسان دائماً، بدليل أنها لا تحقق لنا أحلامنا، أو نصيباً من أحلامنا على الأقل، بدون كشف حساب. وعلّ أوّل بند في كشف هذا الحساب هو القيمة المفقودة في الوقت المفقود الذي أنفقناه في

Twitter: @alqareah

رحلة هي سباق محموم في الواقع، لأننا في كل الأحوال، وعلى الرغم من كل التضحيات، أو ما نكتشف فجأة أنه تضحيات، لم يحقّق لنا أنفس ما في الوجود وهو: **السعادة (!)** لسبب بسيط وهو أننا فقدنا بالمقابل أنفس ما في الوجود وهو: **الوقت**، وليس الوقت وحسب، ولكنّنا جنينا في العراك الطاغية الذي تلبّسنا ولا مفرّ بعدها من الإعتراف بسلطانه علينا وهو: **المرض**؛ لأن الحرية المأمولة إذا كانت عافية الروح، فإن العافية هي حرية الجسد. ونحن لسنا ملائكة كما ظننّا زمن الطيش، ولكننا مخلوقات أرضيّة تسكن أجساداً لا بديل لنا عنها كي نستمر في رحلتنا. وأعترف اليوم كم استشعرت دهشةً يوم هدّ بدني هذا الطاغية لأكتشف **قيمة الجسد** أيضاً لسبب بسيط وهو أنّني إذا كنت أنوي أن أحقّق في دنياي شيئاً ذا قيمة فلا غنى لي عن هذه المطيّة التي لم أعترف بيني وبين نفسي قبل ذلك كم هي نفيسة. ولم أهملها، بل لم أكن لأستنزل في حقّها التنكيل، إلاّ لفرط إستهانتي بها، وتجاهلي لكلّ ما متّ لجلالة العافية بصلة.

أدهشني أيضاً كم هو هشٌّ هذا الجسد الذي نستخفّ به، وكم هو سريع العَطَب، وهو لذلك يخذلنا، لأنه إنما يكشف لنا بهذا الوَهَن، كم هو سلطة حاسمة في دنيانا، بدليل أنه عندما نخذله لا يخذلنا وحسب، ولكنه يثأر منّا. يثأر منّا لا بآلام الجسد وحسب، ولكن بقدرته على تعطيلنا في تحقيق ما عقدنا عليه العزم في مسيرتنا، وما عوّلنا عليه من أحلام. هذه الأحلام التي لا نستطيع أن نمضي في تسميتها بأنها مجرّد أحلام، ولكنها تتحوّل في مرحلة مّا

Twitter: @alqareah

فحوى وجودنا، والحمّى التي تنفخ فينا من أنفاسها لتجعلنا نسعى، ونهوى، ونحترق بالهَوَس كي نبلغ الجبال طولاً، ليقيننا بأن في وسعنا أن نقطف النجوم من بستان السماء! ولهذا لا يكفّ الحلم أن يبقى غنيمةً، ولكنه ينقلب في سيرورة كينونتنا **معنىً!**

لحظة المرض فقط ننتبه من سير المسافات نياماً، لنرتدّ إلى الحرم الذي حسبناه في حياتنا مسلّمةً، لا لشيء إلاّ لأننا نلناه مجّاناً. نرتدّ إلى خليفة الله في الأرض. نرتدّ لنستجير بأمّنا التي أنكرناها طوال الوقت، لنعترف كم نحن سلالة ضلال. بل لم يوجد في خارطة الوجود تعريف يطيب لنا أن نتغنّى به في حياتنا الدنيوية دوماً مثل «الإبن الضّال» إلاّ تلبيةً لنداء طبيعةٍ فينا وهي إنكار الطبيعة الأمّ. وهو ما يعني أننا كلّنا، في الواقع، أبناء ضلال!

نتشبّث ما أن يعلن المرض في أجسادنا عن نفسه، بتلابيب الطبيعة لنستعطفها بوجدانٍ ينزف ندماً طلباً لغفران، لأننا لا نعترف لها بالأمومة حقّاً إلاّ بعد أن نجد أنفسنا في قبضة الطاغية الأشرّ من كل الطغاة: **المرض!**

ولن يدهشنا، فيما لو تأمّلنا حقيقة المرض مليّاً، إذا اكتشفنا أن كلمة طاغية في اللغات الهندأوروبية التي تستقيم في: Tyrany مستعارة من مفردة في لغة اللاهوت الأولى التي ماتزال تجري على ألسنة طوارق الصحراء الكبرى هي: «تورنا» (Turna) الدالّة في هذه اللغة على المرض، كأن لغة البدايات تريد أن تنقل للأجيال خطاباً تحذيرياً يقول ضمناً أن الطغيان مرض الروح، كما أن المرض طغيان

Twitter: @alqareah

الجسد، لأن المفردة في الأصل تحمل دلالة أخرى هي: **الغلبة.** أي أن المريض مغلوبٌ على أمره بحال الجسد الذي لا يملك للخلاص ترياقاً، كما لا حيلة مع الطغيان لأنه غلبة لا نملك لمغالبتها حيلةً. ولهذا السبب نستجير بالطبيعة التي أنكرناها واغتربنا عنها طلباً للترياق، لأنّها كأمّ هي الوحيدة التي تستطيع أن تروّض في محنتنا الطاغية، وتجود علينا بترياق، فإذا بها تتسامح في حقّنا، وتقبل توبتنا مثلها مثل كلّ أمّ، ولكن ليس بلا ثمن بالطبع، لأنها لا تستطيع أن تتنكّر لناموسها إكراماً لنا مهما اعترفت بنا كأبناء، ومهما شاءت لنا الشفاء. والمكوس المدفوعة في استعادة الفردوس الضائع باهظة، بقدر ما يبدو الخلاص من الطاغية نفيساً بما لا يقاس. إنه ثمن باهظ ومزدوج: الألم له تميمة، والزمن فيه سلطان. فالطهارة تستدعي القصاص أوّلاً. والخلاص يستوجب التحمّم بحمم الجحيم.

لقد كان طريق إنسان يحمل هوية العَدوس شاقّاً في اغترابه عن الطبيعة، بل أعسر شأناً من اغترابه عن الحقيقة الغيبيّة لظاهرة الوجود. ليس شاقّاً فقط، ولكنه طويل. ليس طويلاً وحسب، ولكنه معقّد بما لا يُطاق. وقد تحالفت عوامل كثيرة في نسج عقدة هذا التعقيد ليست المسافات الجغرافية علّتها الوحيدة. ولكن يتبدّى المناخ شبحاً رهيباً على مسرح الدرب الموجع. ذلك أن لا شيء يمكن أن يروي المريد الظاميء إلى الطبيعة المفقودة. إلى البيئة المفقودة. إلى واقع المناخ الضائع. إلى رحاب أرحب صحاري الكون وأكثرها جمالاً واكتمالاً. غياب هذه الأحضان في صحاري عالمٍ ليست

بصحارٍ، كان غياباً حرفياً لفردوسٍ حرفيّ صار في رحلة الأبود مفقوداً. عشرات الأعوام مستقطعة من عمرٍ يبدو دائماً أقصر من أن يحقّق حلماً، استنزفها العَدو المستميت نحو الآفاق المتوالدة بعنادٍ كأنها تهرب عنوةً حاملةً في أعطافها الحقيقة المطلوبة، في موقفٍ لا معين فيه سوى الإرادة المستجيرة بجرمٍ هشّ، القلب يعاند الغصص، والروح المهووسة بما حجبته الآفاق الماكرة، هناك خلف ستور الطبيعة، فلا تبخل في سبيل الفوز بالمُحال سوى أن تنزف وتنزف وتنزف، في حين لا يغيب عن مرأى الأم الأولى حال السليل الشقيّ، فلا تجد سوى أن تجاهر بالنداء. نداءٌ قد تخذله المسافة، ولكنه لا يخطيء الطريق إلى الوجدان أبداً.

ولكن هيهات أن يتنازل العدوس عن الكبرياء فيلتفت إلى الوراء، لأنه سوف يخالف وصايا الأوائل ليقترف الخطيئة لو فعل ذلك. فكل دروب عدوس السُرَى تقود إلى الأمام حسب. أما العودة إلى حرم الأمّ الأولى فيسلك سبيلاً واحداً محفوراً بحبر الآلهة، لأن منطق العَود الأبدي رهين الدائرة وحدها. والعزاء في هذه المباراة القدسية تكمن في أنّي لم التفت إلى الوراء تلبيةً لنداء الطبيعة الأمّ، لأن تلك عودةٌ ستكون من منتصف الطريق، ولكني ابتلعت سكّين الحنين طوال عشرات السنين، كي أعود إلى أحضان المعبودة الخالدة من أطول طريق، لا أقصر طريق. قطعت الدنيا عدوَاً من مشارق الأرض إلى أقصى مغاربها لا لأحقق أحلاماً، ولا لأجني حطاماً، ولكن يكفي أنّي جرّبت في العَدْوِ آلاماً، وحللتُ في المبارزة الدموية

أوطاناً، ومزّقت ستور الغيوب عندما استطلعت آفاقاً. وإذا يمّمت اليوم شطر تاج كل الأوطان إستجابة لنداء الطبيعة التي تسكن كلاً منّا والتي آلت على نفسها أن تستيقظ فينا يوماً، فلا أفعل لأن السبيل أعياني، أو لأن أشواك ليل السُّرَى هزمتني، ولكني أعود حاملاً على الرأس تاج ميلادي الثاني، الذي حقّقته بنزيفي الرّوحي السخيّ، وليس الميلاد الذي نلته من الطبيعة الأمّ بالمجّان. وهذا وحده يكفي، ليقيني بأنّي في خروجي الدّامي استطعتُ ان أحفر أثراً في دائرة العَوْد الأبديّ، لأنّي قبل كل شيء دفعت دَيناً مستحقّاً هو **أداء الواجب!**

(نهاية الجزء الرابع)

سواحل كاتالونيا (شمال شرق شبه الجزيرة الأيبيرية)

4 يناير 2016

مؤلفات إبراهيم الكوني

1 ـ الصلاة خارج نطاق الأوقات الخمسة (قصص) 1974م.

2 ـ جرعة من دم (قصص) 1983م.

3 ـ شجرة الرتم (قصص)1986م.

ـ رباعية الخسوف 1989م.

4 ـ البئر (رواية)..

5 ـ الواحة (رواية).

6 ـ أخبار الطوفان الثاني (رواية).

7 ـ نداء الوقواق (رواية).

8 ـ التبر (رواية) 1990م.

9 ـ نزيف الحجر (رواية) 1990م.

10 ـ القفص (قصص) 1990م.

11 ـ المجوس (رواية) الجزء الأول 1990م.

12 ـ المجوس (رواية) الجزء الثاني 1991م.

13 ـ ديوان النثر البري (قصص) 1991م.

14 ـ وطن الرؤى السماوية (قصص) 1991م.

15 ـ الوقائع المفقودة من سيرة المجوس (قصص) 1992م.

16 ـ خريف الدرويش (رواية ـ قصص ـ أساطير) 1994م.

17 ـ الفم (رواية) 1994م.

18 ـ السحرة (رواية) الجزء الأول 1994م.

19 ـ السحرة (رواية) الجزء الثاني 1995م.

20 ـ فتنة الزؤان (رواية) 1995م.

21 ـ برّ الخيتعور (رواية) 1997م.

22 ـ واو الصغرى (رواية) 1997م.

23 ـ عشب الليل (رواية) 1997م.

24 ـ الدمية (رواية) 1998م.

25 ـ صحرائي الكبرى (نصوص) 1998م.

26 ـ الفزاعة (رواية) 1998م.

27 ـ الناموس (الجزء الأول) 1998م.

28 ـ في طلب الناموس المفقود (الجزء الثاني من الناموس) 1999م.

29 ـ سأسِرُّ بأمري لخلاّني الفصول (ملحمة روائية)، الجزء الأول، الشرخ، 1999م.

30 ـ أمثال الزمان (الجزء الثالث من الناموس) 1999م.

31 ـ سأسرُّ بأمري لخلاني الفصول (ملحمة روائية)، الجزء الثاني، البلبال، 1999م.

32 ـ سأسرُّ بأمري لخلاني الفصول (ملحمة روائية)، الجزء الثالث، برق الخُلَّب، 1999م.

33 ـ وصايا الزمان 1999م.

34 ـ نصوص الخلق 1999م.

35 ـ ديوان البر والبحر (نصوص) 1999م.

36 ـ الدنيا أيام ثلاثة(رواية) 2000م.

37 ـ نزيف الروح (نصوص) 2000م.

38 ـ أبيات (نصوص) 2000م.

Twitter: @alqareah

39 ـ بيت في الدنيا وبيت في الحنين (رواية) 2000م.

40 ـ رسالة الروح.

41 ـ بيان في لغة اللاهوت (موسوعة البيان) جزء 1 أوطان الأرباب 2001م.

42 ـ بيان في لغة اللاهوت (موسوعة البيان) جزء 2 أوطان الأرباب 2001م.

43 ـ بيان في لغة اللاهوت (موسوعة البيان) جزء 3 أوطان الأرباب 2001م.

44 ـ بيان في لغة اللاهوت (موسوعة البيان) جزء 4 (المقدمة في ناموس العقل البدئي).

45 ـ بيان في لغة اللاهوت (ملحمة المفاهيم) جزء 5.

46 ـ منازل الحقيقة 2003م.

47 ـ أسطورة حب إلى سويسرا 2003م.

48 ـ لحون في مديح مولانا الماء 2002م.

49 ـ البحث عن المكان الضائع (رواية) 2003م.

50 ـ أنوبيس (رواية) 2002م.

51 ـ الصحف الأولى (أساطير ومتون) 2004م.

52 ـ مراثي أوليس (رواية) 2004م.

53 ـ صحف إبراهيم (متون) 2005م.

54 ـ المحدود واللامحدود (متون) 2002م.

55 ـ ملحمة المفاهيم (موسوعة البيان) ج6، 2005م.

56 ـ ملكوت طفلة الربّ (رواية) 2005م.

57 ـ لون اللعنة (رواية) 2005م.

58 ـ هكذا تأملت الكاهنة ميم (متون) 2006م.

59 ـ ملحمة المفاهيم ج3، (موسوعة البيان) ج7، 2006م.

60 ـ نداء ما كان بعيداً (رواية) 2006م.

61 ـ في مكان نسكنه.. في زمانٍ يسكننا (رواية) 2006م.

Twitter: @alqareah

62 ـ يعقوب وأبناؤه (رواية) 2007م.

63 ـ قابيل.. أين أخوك هابيل؟! (رواية) 2007م.

64 ـ الوَرَم (رواية) 2008م.

65 ـ يوسف بلا إخوته (رواية) 2008م.

66 ـ من أنت أيها الملاك؟ (رواية) 2009م.

67 ـ رسول السماوات السبع (رواية) 2009م.

68 ـ جنوب غرب طروادة جنوب شرق قرطاجة (رواية) 2011م.

69 ـ فرسان الأحلام القتيلة (رواية) 2012م.

70 ـ ناقةُ اللّه (رواية) 2015م.

71 ـ معزوفة الأوتار المزمومة 2015م.

72 ـ أهل السرى 2016م.

مؤلفات إبراهيم الكوني النظرية

73 ـ نقد ندوة الفكر الثوري 1970م.

74 ـ ثورات الصحراء الكبرى 1970م.

75 ـ ملاحظات على جبين الغربة 1974م.

76 ـ وطني صحراءٌ كُبرى (متون) 2010م.

77 ـ ثوبٌ لم يُدنَّس بسَمِّ الخِياط (متون) 2012م.

78 ـ عَدُوسُ السُّرى (المذكّرات) جزء أوّل 2012م.

79 ـ عَدُوسُ السُّرى (المذكّرات) جزء ثانٍ 2013م.

80 ـ عَدُوسُ السُّرى (المذكّرات) جزء ثالث 2014م.

81 ـ عَدُوسُ السُّرى (المذكّرات) جزء رابع 2016م.

Twitter: @alqareah

الفهرس

القسم الأوّل: المكتبة 7

القسم الثاني: حَمْلة المُحارِب الأعزَل 95

القسم الثالث: وطن الله 221

القسم الرابع: شطآن إيثاكا 285

Twitter: @alqareah

T H E N I G H T ' S W A N D E R E R

سيرة سيرة
AUTOBIOGRAPHY

عَدوسُ السُرَى

رُوحُ أممٍ في نَزيفِ ذاكِرَة

لقد كان طريق إنسان يحمل هوية العَدوس شاقاً في اغترابه عن الطبيعة، بل أعسر شأناً من اغترابه عن الحقيقة الغيبيّة لظاهرة الوجود. ليس شاقاً فقط، ولكنه طويل. ليس طويلاً وحسب، ولكنه معقّد بما لا يُطاق. وقد تحالفت عوامل كثيرة في نسج عقدة هذا التعقيد ليست المسافات الجغرافية علّتها الوحيدة. ولكن يتبدّى المناخ شبحاً رهيباً على مسرح الدرب الموجع. ذلك أن لا شيء يمكن أن يروي المريد الظامىء إلى الطبيعة المفقودة. إلى البيئة المفقودة. إلى واقع المناخ الضائع. إلى رحاب أرحب صحاري الكون وأكثرها جمالاً واكتمالاً. غياب هذه الأحضان في صحاري عالمٍ ليست بصحارٍ، كان غياباً حرفياً لفردوسٍ حرفيّ صار في رحلة الأبود مفقوداً. عشرات الأعوام مستقطعة من عمرٍ يبدو دائماً أقصر من أن يحقّق حلماً، استنزفها العَدو المستميت نحو الآفاق المتوالدة بعناد كأنها تهرب عنوةً حاملةً في أعطافها الحقيقة المطلوبة، في موقف لا معين فيه سوى الإرادة المستجيرة بجرمٍ هشّ، القلب يعاند الغصص، والروح المهووسة بما حجبته الآفاق الماكرة، هناك خلف ستور الطبيعة، فلا تبخل في سبيل الفوز بالمُحال سوى أن تنزف وتنزف وتنزف، في حين لا يغيب عن مرأى الأم الأولى حال السليل الشقيّ، فلا تجد سوى أن تجاهر بالنداء. نداءٌ قد تخذله المسافة، ولكنه لا يخطىء الطريق إلى الوجدان أبداً.

ولكن هيهات أن يتنازل العدوس عن الكبرياء فيلتفت إلى الوراء، لأنه سوف يخالف وصايا الأوائل ليقترف الخطيئة لو فعل ذلك. فكل دروب عدوسِ السُرى تقود إلى الأمام حسب. أما العودة إلى حرم الأمّ الأولى فيسلك سبيلاً واحداً محفوراً بحبر الآلهة، لأن منطق العَود الأبدي رهين الدائرة وحدها. والعزاء في هذه المباراة القدسية تكمن في أنّي لم ألتفت إلى الوراء تلبيةً لنداء الطبيعة الأمّ، لأن تلك عودةٌ ستكون من منتصف الطريق، ولكني ابتلعت سكّين الحنين طوال عشرات السنين، كي أعود إلى أحضان المعبودة الخالدة من أطول طريق، لا أقصر طريق. قطعت الدنيا عدواً من مشارق الأرض إلى أقصى مغاربها لا لأحقق أحلاماً، ولا لأجني حطاماً، ولكن يكفي أنّي جرّبت في العَدْو آلاماً، وحللتُ في المبارزة الدموية أوطاناً، ومزقت ستور الغيوب عندما استطلعت آفاقاً. وإذا يمّمت اليوم شطر تاج كل الأوطان إستجابة لنداء الطبيعة التي تسكن كلاً منّا والتي آلت على نفسها أن تستيقظ فينا يوماً، فلا أفعل لأن السبيل أعياني، أو لأن أشواك ليل السُرى هزمتني، ولكني أعود حاملاً على الرأس تاج ميلادي الثاني، الذي حققته بنزيفي الروحي السخي، وليس الميلاد الذي نلته من الطبيعة الأمّ بالمجّان. وهذا وحده يكفي، ليقيني بأنّي في خروجي الدامي استطعتُ ان أحفر أثراً في دائرة العَوْد الأبديّ، لأنّي قبل كل شيء دفعت دَيناً مستحقاً هو أداء الواجب!

ISBN 978-614-419-654-0
9 786144 196540